

ابن خلدون الأندلسي

وجهوده في البحث التاريخي والحضاري



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الزهاء للإعلام العربى
قسم النشر

ص. ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تليفونياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تليكس ٩٤٠٢١ رالف يوان
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U . N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أى جزء من هذا الكتاب
أو تخزينه بواسطة أى نظام لحزن المعلومات
أو استرجاعها أو نقله على أية هيئة
أو بأية وسيلة سواء أكانت إلكترونية
أم شرائط ممغنطة أم غير ذلك
إلا بإذن كتابى صريح من الناشر .

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهران للإعلام العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى : أحمد خليل

وكتبه عبد الرحيم عيسى

ابن خزيمة الأندلسي

وجهوده في البحث التاريخي والمحضاري



الزهراء للإعلام والعصر

مُقَدِّمَةٌ

عرف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) بأنه فقيه ظاهري ، وشاعر ، ودارس للملل والنحل . ولم يشتهر ابن حزم بين الناس بأنه « مؤرخ » ومفكر ذو باع طويل في الدراسات الحضارية ، حتى كاد هذان الجانبان يختفيان عند تقويمه ، وكاد هذا المفكر العبقري العظيم يفقد جزءاً من رصيده الكبير الذي أسهم به في إثراء الحضارة الإسلامية !!

والغريب أن أكثر الذين تناولوا ابن حزم - ترجمة وتقويماً - في القديم والحديث ، لم يغفلوا الإشادة بابن حزم - مؤرخاً ومفكراً ذا دور كبير في الحضارة الإسلامية - ومع ذلك فإن هذين الجانبين كادا ينسيان ، وتطغى عليهما الجوانب الأخرى في فكر ابن حزم ، وكاد الفكر الإسلامي - بالتالي - يحرم من الاستفادة بآراء ابن حزم ونظراته التاريخية والحضارية !!

يقول تلميذ ابن حزم (الأول) المؤرخ أبو عبد الله الحميدى (ت ٤٨٨ هـ) بعد أن أورد مقدمة لكتابه المعروف : « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ضمنها نبذة عن ولاية الأندلس حتى عصره ... يقول : « هذا آخر ما استفدنا أكثره من شيخنا أبي محمد علي بن أحمد رحمه الله ^(١) » ، ويقول بعد أن أورد ترجمة (بقى بن مخلد) : « هكذا أخبرنا أبو محمد فيما جمعه من ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس ^(٢) » ويعلق الحميدى على خلاف في تحديد وفاة عبادة بن

(١) الجلوة ص ٣٦ طبعة الدار المصرية العامة للتأليف ١٩٦٦ م .

(٢) المصدر السابق ١٧٨ .

عبد الله بن ماء السماء الشاعر ، فيرجح رأى ابن حزم ويقول :
« وأبو محمد أعلم بالتواريخ »^(١) .

وأما صاعد - التلميذ الثانى لابن حزم - فيذكر فى نصه الذى نقله
عن أبى رافع الابن الأكبر لابن حزم - وحصر فيه مؤلفات أستاذه أن من
بينها مؤلفات فى « التاريخ والنسب » ويذكر أن ابن حزم : « أجمع أهل
الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ... مع وفور حفظه فى المعرفة بالسير
والأخبار »^(٢) .

وبعد هذا الجيل اعترف كثيرون لابن حزم بالسبق فى هذا
الجانب^(٣) ، بيد أننا نعتقد أن لرأى المؤرخ الكبير عبد الرحمن ابن
خلدون قيمة تكفيها عن الاستطراد فى ذكر آراء مؤرخى العصر الإسلامى
الوسيط .

فابن خلدون يعتمد على ابن حزم فى كثير مما أورده فى
« الأنساب » بل إن نسبه نفسه قد اعتمد فيه على ابن حزم^(٤) .

وعندما تحدث ابن خلدون عن الخلاف بين النسابة فى الأصل
الذى انحدر منه جذما البربر المعروفان : برنس وماذغيس (الأبتى) أورد
رأى ابن حزم ، ثم رجحه قائلا : إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه
أوثق^(٥) .

وفى موضع آخر عقب على نسبة زواوة فى كرامة - وهو رأى ابن
حزم - فقال : « والصحيح عندى ما ذكره ابن حزم »^(٦) .

(١) الجذوة طبعة الدار المصرية العامة للتأليف ١٩٦٦ م ص ٢٩٣ .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ١٠٢ وابن بشكوال : الصلة ٢ - ٤١٦ .

(٣) انظر ابن حيان : المقنيس ص ٩٠ ، وابن بسام : الذخيرة ١ - ١ - ١٤٠ وياقوت : معجم الأدياء ١٢ - ٢٤٧
وابن الأثير : الحلة ١ - ١٨ ، ٣٥ وغيرهم :

(٤) انظر الجمهرة ٤٦٠ .

(٥) العبر ٦ - ٨٩ طبعة بولاق .

(٦) المصدر السابق ٦ - ١٢٨ .

وحول هذه القضية نفسها يعقب ابن خلدون في موضع آخر ،
فيقول : « والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم من
بطون كتامة وهو الأصوب ^(١) » .

وفي حديث ابن خلدون عن أصل البربر ، وذكره لما ذهب إليه
بعض النسابة من أنهم من « حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد
قيس بن عيلان » يعلق ابن خلدون على هذا الرأي قائلا : « إنه منكر من
القول » ثم يستشهد بابن حزم ، فيقول : « وقد أبطله إمام النساين والعلماء
أبو محمد ابن حزم ^(٢) » .

وكما اعترف المؤرخون الأوائل لابن حزم بالبروز في بعض
الجوانب التاريخية ، كذلك اعترف المفكرون المتأخرون ببروزه فيها .

فالدكتور « شوقي ضيف » في صدر تحقيقه لرسالة ابن حزم في
الخلفاء : « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » يذكر أن ابن حزم « أظهر
عبقريّة فذة في التاريخ ^(٣) » . ومحققا رسائل ابن حزم المعروفة باسم
« جوامع السيرة ورسائل أخرى » عقدا فصلا كاملا عن ابن حزم المؤرخ
انتهيا فيه إلى إثبات أن ابن حزم صاحب مذهب متميز في التاريخ ، وأنه
يتمتع بصفات المؤرخ النزيه المنصف ^(٤) .

وقد انتهى إلى هذه النتيجة محقق جمهرة أنساب العرب ^(٥) ،
ومحقق رسالته في المفاضلة بين الصحابة ، الذي رأى في ابن حزم أحد
مؤرخي العلوم والآداب على الطريقة الفنية الحديثة ^(٦) ، والدكتور

(١) العبر ٦ - ١٥١ طبعة بولاق .

(٢) العبر ٦ - ٩٧ .

(٣) ص ٤٤ .

(٤) د . احسان عباس ، ود . ناصر الدين الأسد ١٠ ، ١٢ .

(٥) الأستاذ عبد السلام هارون ص ١٣ .

(٦) د . ممدوح حفي ص ٤٧ ، ٩ ، ٦٠ ، ٨٩ .

عبد الكريم خليفة^(١) والشيخ محمد أبو زهرة^(٢) ، والدكتور زكريا ابراهيم^(٣) .

أما المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان فيذكر : « أن صفة المؤرخ لدى ابن حزم لم تكن صفة عارضة اجتمعت إلى جانب صفاته الأساسية ... ولكننا نستطيع أن نقول : إن صفة المؤرخ هي أيضا صفة من صفات ابن حزم الأساسية » بل إن ابن حزم - إلى جانب تراثه التاريخي الذي يضعه في عداد كبار المؤرخين - كما يرى الأستاذ عنان - يضيف على كل مصنفاته الفلسفية والكلامية نزعة تاريخية ، ولم تخل معظم رسائله من إشارات تاريخية ذات مغزى ، ومع ذلك فلم يكن ابن حزم مؤرخاً عادياً يكفي في فهم مقدمته التاريخية باستعراض مؤلفاته ، بل الأمر في ذلك بالعكس ، ذلك أن ابن حزم كان مؤرخاً من طراز خاص بل من طراز نادر^(٤) .

ولم يغفل المستشرقون الإشارة بهذا الجانب عند ابن حزم ، بل جاءت أبحاث كثير منهم تعالج هذا الجانب عنده ، وتتناول مؤلفاته التاريخية بالدراسة والتحليل ، ومن بينها - إلى جانب كتبه التاريخية التي تحمل عنواناً تاريخياً : - « كتاب الفصل » الذي يعتبره (بلانثيا) « أشهر ما ألف ابن حزم في مادة التاريخ ، وأعظمها قيمة » و« طوق الحمامة » الذي يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة عن حياة الأندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادى عشر الميلادى^(٥) . ومن هؤلاء - عدا « بلانثيا » : - « آسين بلاثيوس » « ليفى بروفنسال » - أحد محققى جمهرة أنساب العرب - و« غوسيه غومس » وغيرهم ، ممن ترد أسمائهم فى قائمة المراجع .

(١) انظر ابن حزم حياته وأدبه ص ١١٠ .

(٢) انظر ابن حزم حياته وآراؤه وفقهه ٦٢ .

(٣) انظر ابن حزم الأندلسى ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ .

(٤) ابن حزم الفيلسوف الذى أرخ لجمع الطوائف ، مقال بمجلة العربى عدد ٦٨ .

(٥) تاريخ الفكر الأندلسى ٢٢١ ترجمة الدكتور حسين مؤنس .

ومع هذا كله ، فقد ظل الجانب التاريخي في فكر ابن حزم ، مع نظرائه في الجوانب المختلفة للحضارة الإسلامية مجهولاً ، لم يدرس دراسة علمية تضعه في مكانه الصحيح وتكشف عن إيجابياته وسلبياته ، وتبين ما يتصل به من قضايا البحث التاريخي ، وما يمكن أن يسهم به هذا التراث في المكتبة التاريخية الإسلامية ، ومكتبة الحضارة الإسلامية أيضاً .

وقد وجدت أثناء معاشتي لتراث ابن حزم أنه كان من الظلم له ، أن يهمل الجانب التاريخي في فكره ، وأنه من الخطأ في الدراسات التاريخية أن نتجه إلى المؤرخين المشهورين ونترك تلك الجهود المبعثرة ، أو التي كاد يودى بها النسيان ، دون أن نحاول جمع شتاتها ، واستخلاص القيم التاريخية منها سواء في جانب المنهج أو جانب المادة .

بل لقد أسعدني كثيراً أنى وفقت إلى معايشة هذا العالم العبقري الذي جمع في ثقافته بين أكثر الدراسات الإنسانية ، وأعطى نموذجاً للعبقرية الموسوعية الإسلامية في أرقى صورها ، ومثل - بحق - شوطاً من أشواط حضارتنا ... بدأ به ، وانتهى بعلامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون .

وقد اعتمدت - بالدرجة الأولى - في دراستي هذه على تراث ابن حزم نفسه المطبوع والمخطوط . وعلى رأس هذا التراث : جوامع السيرة ، وحجة الوداع ، وجمهرة أنساب العرب ، ونقط العروس في تواريخ الخلفاء ، ورسائله في المفاضلة بين الصحابة ، ورسائله في فضائل الأندلس وأهلها ، ورسائله في الرد على ابن النغيلة ، ورسائله في أمهات الخلفاء ، ورسائله في مراتب العلوم ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ، وطوق الحمامة ، والمحلى ، ورسائله في الأخلاق والسير ، والإحكام في أصول الأحكام ، وشذرات من كتاب السياسة ، (وهو شذرات جمعت من كتاب ابن حزم المفقود : الإمامة والسياسة) ورسالة التلخيص لوجوه التلخيص (عن الفتنة الأندلسية) ورسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق (عن نظريته التربوية) ورسالة أسماء الصحابة الرواة وما

لكل واحد من العدد ، ورسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم ،
ورسالة جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ورسالة أسماء الخلفاء
والولاة وذكر مددهم ، ورسائله في الأصول والفروع (المخطوطة)
ورسائله في الإمامة (المخطوطة) وبقية الرسائل الموجودة بمجموعة
شهيد على رقم ٢٧٠٤ باستنبول . وكتابه في إبطال القياس والرأى
والاستحسان وكتابه عن « التقريب لحد المنطق » .

وكان تلميذاه الحميدى وصاعد ، وصديقه ابن حيان صاحب
المقتبس من جملة مصادرى ، بل إننى قد أثبت أن كتاب الحميدى « جذوة
المقتبس » عالة على كتب ابن حزم المفقودة في التاريخ ، كما اعترف
الحميدى نفسه بذلك .

كما كانت كتابات المؤرخين من أمثال يوسف بن عبد البر ، وابن
بشكوال ، وابن الفرضى وابن بسام ، والمقرى ، وابن سعيد ، وابن خير ،
وابن خلكان ، وابن خلدون وغيرهم ، من جملة المصادر المهمة التى اتكأ
عليها هذا البحث .

وقد أفدت إفادة كبيرة من سائر الكتب التى تناولت ابن حزم
بالدراسة وبعضها دراسات أكاديمية ، ولعل أبرزها رسالة الدكتور عبد الله
الزاید : « ابن حزم الأصولى » والدكتور عبد الكريم خليفة « ابن حزم
حياته وأدبه » كما أفدت من جهود الأستاذ محمد ابراهيم الكتانى العلامة
المغربى ، وبخاصة من قائمته لكتب ابن حزم ، ومن مقالاته ودراساته
المتعددة عن ابن حزم .

ومثل الأستاذ الكتانى الصديق السعودى ، الأستاذ « محمد ابن
عمر » وهو شغوف بجمع كل ما يتصل بابن حزم ، وقد فتح لى - جزاه
الله خيراً - صدره ومكتبته .

كما أعاننى الصديق الدكتور عبد الله جمال الدين فى الحصول على
المقالات والدراسات التى تتصل بابن حزم ، والتى كتب أكثرها بمناسبة

تكریم ذكرى ابن حزم ، تكريماً على مستوى الدولة الأسبانية ، فيما عرف باسم « أسبوع ابن حزم » .

وكانت كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وموسوعتا الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان للأستاذ الدكتور أحمد شلبى ، من الكتب التى اتكأ عليها هذا البحث فى كثير من الجوانب .

لقد ضم هذا البحث ثلاثة أبواب وخاتمة .

وقد قسمت الباب الأول إلى ثلاثة فصول : تناولت فى الفصل الأول منها « قرطبة فى عصر ابن حزم » من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

وتناولت فى الفصل الثانى « حياة ابن حزم وثقافته » ، فتحدثت عن أسرته ، ونشأته ، ومولده ، والقصر الذى عاش فيه بالزهراء ، وتربيته الأولى ، والنكبات العائلية والسياسية التى تعرض لها بعد أن تجاوز سن الصبا ، كما تحدثت عن شيوخه ودراساته والوظائف التى شغلها فى الدولة ، ورحلاته ومعاصريه ، وأخلاقه ، ووفاته فى قرية أجداده « منت ليشم » من أعمال لبلة بغرب الأندلس .

وفى الفصل الثالث من هذا الباب تناولت « منهج ابن حزم الفكرى » فتحدثت عن ظاهرة ابن حزم وأسبابها ومجالات تطبيقه لها ، وجهوده فى مجال البحث الدينى ، وفى اللغة والأدب والفلسفة وعلم النفس ، كما تحدثت عن مؤلفاته ، وظاهرة كثرتها ، وما انتهى إلينا منها ، إن مخطوطاً أو مطبوعاً ، أو ما صحت نسبته إليه ولم يصلنا ثم رصدت الدلالات المستخلصة من هذه المؤلفات .

أما الباب الثانى من هذا البحث « ابن حزم المؤرخ » فقد عالجت فيه « الجانب التاريخى فى فكر ابن حزم » وقسمته إلى ثلاثة فصول :

وقد تناولت في الفصل الأول قضايا الفكر التاريخي عند ابن حزم ، ويتدرج تحتها مدلول التاريخ عنده ، وأقسام الدراسة التاريخية ، وفائدة التاريخ ، ومكانة هذا العلم بين العلوم ، والعوامل المؤثرة في التاريخ كما تستخلص من فكره .

وفي الفصل الثاني تناولت « منهج البحث التاريخي عند ابن حزم » ومهدت لذلك بتوطئة عن « ثقافته التاريخية ومصادرها » سواء كانت مصادر عامة كالقرآن والسنة والعلوم الإسلامية المختلفة والتجربة والمشاهدة والتراث التاريخي السابق ، أو كانت مصادر مباشرة لأبحاثه في التاريخ نص عليها ابن حزم - عرضاً - في دراساته التاريخية وقمت بجمعها من هذه المصادر .

ثم تناولت - بعد ذلك - معالم منهجه في البحث التاريخي ، وتلخص في تطبيقه الظاهرية على الدراسة التاريخية ، وإعطائه العقل دوراً في هذه الدراسة - بعد النقل - والتزامه بأصول « النقد التاريخي » في الدراسة ، واحتفائه بالاحصاءات والفرائب ، ووصوله بالبحث التاريخي إلى درجة « القطع في الأحكام » ..

وأخيراً في الحديث عن منهجه - قمت بوضع موضوعيته العلمية في الميزان ، ذاكراً ما له وما عليه .

ثم ختمت هذا الفصل بالحديث عن مدرسة ابن حزم التاريخية : معالمها ، والمنتسبين إليها ، وهي مدرسة أطلقت عليها « مدرسة عصر الفتة بالأندلس » وهي تبدأ بجيل ابن حزم وابن حيان وابن عبد البر ، ثم تتدرج عبر الحميدى وابن بسام ، والمقرى صاحب نفح الطيب .

كما أن من تلامذة مدرسة ابن حزم - في جانب من جوانبها وهو استحداث منهج النقد التاريخي للنصوص - علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون .

أما الفصل الثالث من هذا الباب ، فقد تحدثت فيه عن « اتجاهات البحث التاريخي عند ابن حزم » فتناولت جهوده التاريخية في فروع الدراسة التاريخية المختلفة كالتراجم والطبقات ، والأنساب والسيرة الذاتية ، والتاريخ الموضوعي الذي تناول به السيرة النبوية ، وعصر الراشدين ، والشرق الإسلامي أموي ، وعباسيه إلى عصره ، وتاريخ الأندلس ولاسيما تأريخه للفترة التي عاصرها . وقد ختم هذا الباب بكلمة عن أثر فكر ابن حزم في المغرب العربي ، وهو أثر تجلى في دولة الموحدين .

وفي الباب الثالث من هذا البحث تناولت « الحضارة عند ابن حزم » وقسمته إلى أربعة فصول : تناولت في الفصل الأول « الفكر السياسي عند ابن حزم » ، ممهداً بالحديث عن « المؤثرات في فكره السياسي » ثم تحدثت عن بعض آرائه السياسية ، كرأيه في مذهب الخوارج ، والمفاضلة بين الصحابة ، ورأيه في نظام الحكم ، وشروط الحاكم وواجباته وإمكان عزله .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن « الفكر الاقتصادي عند ابن حزم » بادئاً بالحديث عن البواعث التاريخية لفكره الاقتصادي ، وناقياً ما قيل من نسبته إلى « الاشتراكية » ومتحدثاً عن إضافاته لهذا الفكر .

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه « الفكر الاجتماعي عند ابن حزم » فتحدثت عن بعض معالم نظراته الاجتماعية ، وعن نظريته في التكافل الاجتماعي وهي النظرية التي اعتبرت تجديداً في الفكر الإسلامي ، ومكانة المرأة عنده ، ونظريته التربوية .

وكان الفصل الرابع خاتمة هذا الباب ، وفيه تناولت « العقائد والمذاهب عند ابن حزم » فبينت دوره في إبراز علم مقارنة الأديان ، بعد أن كاد يختفي ، ومنهجه في تناول العقائد والمذاهب ، ودراساته للعقائد

الوثنية ، ولليهودية ، وللنصرانية ، وللفرق الإسلامية المختلفة ، ما يدخل منها فى إطار الإسلام وما يخرج منه .

وقد ختمت البحث بحديث عن أثر ابن حزم فى الحضارة الإسلامية من ناحية تأثيره فى حركة العقل الإسلامى وفى زعماء التجديد الذين تعاقبوا بعده كالغزالي وابن تيمية ، ثم إثراته العقل الإسلامى عن طريق محاولة حصر من تناولوه مدحاً أو قدحاً عبر العصور وإلى يومنا هذا ، كما وضحت فى هذه الخاتمة – أيضاً – أثره فى الحضارة الإنسانية ، وهو أثر تمثل فى بعض نظرياته : كتنظيرته فى المعرفة ، وفى النقد العقلى والتاريخى للكتب المقدسة ونظرية الحب العذرى ، والقول بكروية الأرض ، وبالجزء الذى لا يتجزأ أبداً .

والى لأرجو – من وراء هذه المسيرة – أن أكون قد وفقت إلى قريب من الصواب ، وألا يحرمنا الله – سبحانه – كفاء هذا العمل فى الدنيا والآخرة ، وأن يجازى من ساعدونا فيه خير الجزاء ، إنه نعم المولى ونعم النصير .





الباب الأول

ابن حزم وعنه

ره

الفصل الأول

قرطبة في عصر ابن حزم

أولاً : الحالة السياسية :

في بداية الحديث عن الحالة السياسية في قرطبة ، ينبغي أن نشير إلى أننا سنقتصر في دراستنا على عصر ابن حزم . وبما أن ابن حزم قد عاش بين سنتي (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) - وهي الفترة التي سيطر فيها على قرطبة بنو عامر ثم تلاهم عصر الفتنة وبنو جهور وبنو عباد - فإننا سنكتفي بإلقاء بعض الضوء على هذه القوى التي تعاورت الحكم على قرطبة خلال الفترة المذكورة .

لقد نجح أبو عامر محمد بن أبي عامر (المنصور) القحطاني المعافى في الوثوب إلى الحكم في الأندلس عندما تولى الأمر هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) الذي مات أبوه وخلفه صبيّاً في العاشرة من عمره ، فقامت على رعايته أمه « صبح » التي نجح محمد بن أبي عامر في استمالتها إليه ، بمهارته وذكائه . وقد استطاع ابن أبي عامر أن يخوض بحور الفتن والدسائس التي كانت سائدة ، وأن يخرج إلى الشاطئ ظافراً ، وأن يتسهم ذروة الحكم الحقيقي للأندلس

هو وأسرته من بعده فترة تزيد على ثلاثة عقود ، بحيث طغى نفوذ العامرية خلال هذه الحقبة على الخلافة الأموية وإن كان الحكم باسمها .

وقد نجح المنصور فى توفير الأمن للرعية ، كما أعاد إلى الأندلس الإسلامية هيبتها ، إذ قام بخمسين غزوة طوال حكمه البالغ خمساً وعشرين سنة لم يهزم فيها قط (١) .

وبوفاة ابن أبى عامر سنة (٣٩٢ هـ) وابنه عبد الملك ، الذى لم يدم حكمه أكثر من سبع سنوات ، وكان كأبيه كفاية ومقدرة - بوفاتهما تعتبر الدولة العامرية قد انتهت سنة (٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م) .

والحقيقة أن أكبر خطأ ارتكبه ابن أبى عامر - بالرغم من كل حسناته - أنه أزال هيئة الخلافة الأموية من نفوس الناس حين تسلط عليها ، وفصل بينها وبين الشعب ، ولعل هذا كان من أكبر الأسباب فيما أصاب الأندلس بعد ذلك من نكبات الفتنة التى استمرت من (٣٩٩ هـ وحتى ٤٢٢ هـ) ، حيث انتهى الأمر بسقوط دولة بنى أمية ، وتبعه دخول الأندلس عصر اضمحلال سياسى ، وهو عصر الطوائف !

لقد كان اعتزاز الناس فى الأندلس بالبيت الأموى أقوى بكثير من اعتزاز الناس به فى المشرق (٢) ولعل للاختلافات الجنسية أثراً فى ذلك ، كما أن للبيت الأموى على الأندلس أيدى كثيرة سياسية وحضارية طيلة ثلاثة قرون وبخاصة على عهدى الناصر والحكم ، ولذلك كله كان البيت الأموى أملاً للمخلصين للإسلام فى الأندلس ، باعتباره البيت الذى التفت حوله القلوب وضعفت على عتبته العنصريات .

(١) انظر الحميدى : الجلوة ٧٨ ، ٧٩ - وانظر ابن سعيد : المغرب ١ - ١٩٩ ، ٢٠٠ وما بعدها - وانظر القلقشندى : صبح الأعشى ٥ - ٢٤٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ - وهذه الغزوات وردت فى ابن الدلائى : نصوص عن الأندلس ص ٧٥ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٤ - ٢٢٥ (هامش) وانظر على أدهم : المعتمد بن عباد ٣٨ .

وبعد سقوط دولة بني عامر عاشت الأندلس وقرطبة - فترة الفتنة التي امتدت من سنة (٣٩٩ هـ حتى سنة ٤٢٢ هـ) . ويكفي للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمر فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين . وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين ^(١) وبعضهم من بني حمود ^(٢) الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة (٤٠٦ هـ) وأخذوا يعبثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاؤون ، ويطلقون من الألقاب ما يحلو لهم ، وبديهي أن تولى بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية .

وقد انفكت عروة الدين من النفوس ، بعد أن تفككت مشروعية الحكم ، فأصبح الأمر صراعاً جنسياً بين عرب وبربر وصقالبة ^(٣) ، واستعان بعضهم بالنصارى على بعض .

لقد أحس الخليفة الشرعي هشام بن الحكم في أخريات أيام الدولة العامية بعمق الكارثة التي توشك أن تحيط بالأندلس وبالخلافة الأموية ، كما أحس بأنه أمام بني عامر لا يعدو أن يكون أسيراً في قصره ، محجوباً عن الناس مقصياً عن دفة الحكم ^(٤) .

ولئن كان ابن عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثاني (المهدي) قد استطاع - بمعونة المؤمنين بضرورة الخلافة الأموية - أن يصل إلى الحكم في محاولة أخيرة لإعادة خلافة بني أمية المتداعية ^(٥) (١٧ جمادى الآخرة سنة

(١) وهم : محمد الثاني بن هشام ، وسليمان بن الحكم ، وهشام الثالث ، وعبد الرحمن الرابع وعبد الرحمن الخامس ابن هشام ، ومحمد الثالث بن عبد الرحمن ، وهشام الثالث بن عبد الرحمن (راجع : القلقشندي : صبح الأعشى ٥ - ٢٤٥ ، ٢٤٦) .

(٢) وهم : علي الناصر بن حمود ، القاسم للأمون بن حمود ويحيى بن علي بن حمود (راجع للكان السابق) .

(١) انظر د . علي حبيبة : مع المسلمين في الأندلس ص ٢٢١ ، ٣٤٠ . وانظر محمد عبد الله عنان دول العوائف ٢٠ ، ٢١ .

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٠٤ .

(٥) انظر المراكشي : المعجب ٨٦ ، ٨٧ ، وانظر محمد عبد الله عنان : الدولة العامية ص ١٤٦ ط ١ مطبعة مصر ١٩٥٨ م .

٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) - فإن بنى أمية فى الأندلس ، لم يكونوا بقادرين على الصمود فى ميدان النضال طويلا ، ذلك لأنهم لم تكن لديهم بعد العوامل الأدبية والدينية والتاريخية قوة مادية يعتد بها ^(١) . كما أنه خلال الفترة التى أمضاها المنصور بن أبى عامر فى الحكم كان قد اعتمد على البربر والصقالبة فى تكوين جيوشه وفى بقية أعماله . وما إن توفى « المنصور » حتى أصبح هؤلاء قوة ليس من السهل القضاء عليها ، فضلا عن أنها أضعفت من كيان بنى أمية كثيراً . ولم يعد ممكناً - فى ظل هذا الوضع - لأية سلطة - أموية أو غير أموية - أن تثبت وتستقر ^(٢) ، ولذا ... فلم يمض غير قليل حتى وقعت بين الخليفة المهدى والبربر فتنة أودت بحياته ، وأعادت الخليفة « هشاماً المؤيد » إلى الخلافة بعد غيبة أربع وثلاثين سنة عنها . وكان ذلك على رأس القرن الرابع الهجرى .

ويصف لنا « ابن بسام » - نقلاً عن « ابن حيان » - الأعوام السبعة الأولى للفتنة (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) - (١٠٠٩ - ١٠١٦ م) - بأنها « كانت شداداً نكدات صعباً مشؤمات ، كربات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فارق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة ^(٣) » - كما يصف لنا - نقلاً عن ابن حيان كذلك - المستكفى الذى بويع على قرطبة سنة (٤١٤ هـ) بعد أن قتل ابن عمه عبد الرحمن « الخامس » ابن هشام المعروف بالمستظهر ^(٤) بمساعدة بعض الأردال ... يصف ابن بسام ذلك بقوله : « ولم يكن هذا المستكفى من هذا الأمر فى ورد ولا صدر ، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلاً عطلاً منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً عن كل خلة تدل

(١) انظر محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ١٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٠ م .

(٢) انظر المراكشى : للمعجب ٨٦ .

(٣) اللخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة وانظر المراكشى المعجب ص ٩٠ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن الأبار : الحلة السراء ٢ - ١٢ وما بعدها . وانظر ابن سعيد : المغرب ١ - ٥٤ .

على فضيلة ، عضته الفتنة ، فأملق حتى استجاز طلب الصدقة . رأيته - أى ابن حيان مؤرخ الأندلس - أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره ، يقصد أهل الفلاحة أو ان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة (١) .

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن مسؤولية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها ، بل تقع على الجميع ، ويتحمل فيها العرب والبربر وبنو أمية أقداراً تكاد تكون متساوية ، وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من المؤرخين - ومنهم ابن حزم - من تحميل البربر المسؤولية وحدهم (٢) .

فالحق أن ما أصاب الأندلس فى هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسئولياتها ، وقد أدت فى نهايتها إلى سقوط الأندلس - التى كانت تحكمها خلافة واحدة - فهوت إلى معترك مروع من التمزق والفوضى ، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً ، ومن شاطئ البحر الأبيض من طرفه شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً ، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها أية رابطة مشتركة (٣) .

وكان انقراض ملك بنى مروان بالأندلس على رأس مائتين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً (٤) .

ومن الضرورى هنا أن نذكر أن سنة (٥٤٢٢ هـ - ١٠٣٠ م) - التى سقطت فيها الخلافة الأموية بالأندلس - كانت بداية انهيار الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة الأندلسية .

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨٠ وانظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣ - ١٤٠ وابن سعيد : المغرب ٥٥ - ٥٤ .

(٢) انظر المقرئ : نفع الطيب ١ - ٤٠٦ فى حديثه عن دولة العلويين « بنى حمود » .

(٣) عنان : الدولة العامرية ١٧٨ - دول الطوائف ١١ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السراء ٢ - ٨ .

وعلى الرغم من الخلاف فى رأى حول مسئولية أبى الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، وحول التقدير التاريخى لدوره - فإن هذا الرجل هو الذى أعلن رسمياً - نتيجة عدم وجود من يستحق لقب الخلافة من بنى أمية - سقوط الدولة الأموية ، وبداية عهد الطوائف ، واستثنائه نفسه بحكم قرطبة ، التى زعم أنه سيحكمها حكماً شورياً جماعياً ، لكن ذلك بالطبع لم يكن أكثر من شعار شأنه شأن سائر الشعارات !!

وبأسلوب بديع يصور لنا « المقرئ » هذه الومضة الفاصلة فى التاريخ ، والتى مهدت لها ظروف كثيرة ، وجنى ثمارها بنو جهور ... فىقول :

« وبنو جهور كانوا وزراء الأمويين ، ثم إنه لما انتشر عقد الخلافة استبد بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة^(١) . وهذه كانت المرحلة الأولى فى تخطيطه .. » .

« وقد كان - أبو الحزم - وزر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ، وعاقب الفتنة واعترضت ، تحيز عن التدبير مدتها ، وخلق أعباء الخلافة وشدها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر ، ويدبر الأمر معهم ويدبر^(٢) » .

وهذه هى الخطوة الثانية فى تخطيط أبى الحزم الداهية - أما الخطوة الثالثة والحاسمة ، فكانت عندما « انقرضت الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العامرية - فاستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبر أمرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطاً أمن خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلاله الجو فطار ، وقضى اللبانات والأوطار^(٣) » ..

(١) نفع الطيب ١ - ٢٨٢ .

(٢) المكان السابق .

(٣) نفع الطيب ١ - ٢٨٢ ، ٢٨٣ وانظر القلقشندي : الصبح ٥ - ٢٤٩ ، وانظر : د : أحمد شلى : الموسوعة ٤ - ١١٦ وعلى أدهم : المعتمد بن عباد ٤٠ - ٤١ . وانظر محمد عبد الله عنان دول الطوائف ٢٠ .

وانشر عقب هذا عقد الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة إلى أكثر من عشرين دولة^(١) : البربر في الجزء الجنوبي ، والصقالبة في القسم الشرقي ، أما باقي البلاد فكانت بين أسرات العرب^(٢) .

ومن هذه الممالك :



- ١ - موالى العامرية (فى الشرق الأندلسى) . ويندرج تحتها حكم (خيران العامرى) للمرية ومرسية ، وحكم (مجاهد العامرى) وابنه لدانية والجزائر (٤٠٠ - ٤٦٨ هـ) إلى أن ضمهما بنو هود إلى ملكهم .
- ٢ - بنو زيرى (فى الجنوب) فى غرناطة ومالقة ، ثم توسعت فضمت قبرة وجيان ومالقة ، وبنو الأفضس أصحاب بطليوس ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، وبنو رزين أصحاب السهلة .
- ٣ - بنو عباد أصحاب أشبيلية (٤١٤ - ٤٨٤ هـ) . الذين ظلوا يتوسعون حتى أصبحوا أكبر دولة من دول الطوائف^(٣) .
- و بنو هود أصحاب سرقسطة ، وبنو القاسم الفهريون فى البوننت ، وبنو حمود الحسنيون بالجزيرة .
- ٤ - بنو جهور (موالى الأموية) فى قرطبة ، وتشمل إمارتهم مدناً أخرى مثل جيان وبياسة وأيد^(٤) وقد سقطت قرطبة بعد ٤٠ سنة من حكمهم فى يد بنى عباد ، وزالت - بالتالى - دولة بنى جهور .

(١) انظر عنان : دول الطوائف ١٦ .

(٢) انظر بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٠٦ (طبعة بيروت الكاملة) .

(٣) انظر المرجع السابق ٣٠٧ .

(٤) انظر القلقشندي : صبح الأعشى ص ٢٤٨ وما بعدها ، وانظر الدكتور أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ٤ - ١١٦ وما بعدها ، وانظر : احسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسى) عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢ وما بعدها . وعلى أدهم المحدث بن عباد ٧ ، ٨ وانظر د . على حبيبة : مع المسلمين فى الأندلس ٢٤٣ ، وجورجى زيدان ، تاريخ المحدث الاسلامى ٤ - ٢٢٦ - ٢٢٧ .

لقد وجد بين هذه الإمارات نوع من التنافس على السلطة ، والتوسع على حساب بعضهم البعض ، واتخاذ الألقاب والنعوت ، بما استجلب نوعاً من السخرية منهم . وقد شوهد من بين حكام هذه الإمارات ست دول يحمل رئيس كل منها لقب ملك ، وهذه الدول هي : قرطبة ، وأشبيلية ، وقرمونة ، واستجة ، ومالقة ، والجزيرة الخضراء ، وغرناطة^(١) .

وكان استقلال هذه الإمارات استقلالاً شكلياً ، فقد كان كثير منها يدفع الجزية للأذفونش ملك قشتالة .

أما من ناحية ما تنتهجه هذه الإمارات من سياسة وإدارة فليس بينها تفاوت يذكر ، فكلها نظم مستبدة ، مستهينة بالدماء ، مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران^(٢) ، واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء . « وقد نشأ بينها من المفساد ما أعوز دفعه ، وتعدد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه^(٣) » .

وعوضاً عن أن تتحد قواهم في مواجهة عدو صليبي مشترك ، تشتتوا ، وتقاتلوا حتى ضعفت قواهم ، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات النصارى ، كذلك كانت حروبهم الداخلية سبباً في أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين ، مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدعوا في استقطاع أجزاء من أرض الأندلس الإسلامية ، وأن يبدعوا - من هذا العصر الشاذ - رحلة الاسترداد الطويلة الكفيلة .

وفي وسط هذا المحيط الصاخب احتلت قرطبة - مدينة ابن حزم - مكانة مهمة ، نظراً لدورها البارز في التاريخ الأندلسي ، وبخاصة في الفترة التي نؤرخ

(١) سيديو : تاريخ العرب العام ٢٧٨ .

(٢) د - احسان عباس (عصر الطوائف والمرابطين) ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) المقرئ : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ١ - ٦٠ بتحقيق مصطفى السقا وزملائه . وانظر محمد عبد الله عنان دول الطوائف ٤١٩ .

لها ، والتي قلنا إنها تمتد من قيام دولة بنى عامر وحتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجرى .

وفى هذه الفترة كانت قرطبة مازالت بحق - كما يصفها كثير من المؤرخين - « جوهرة العالم »^(١) على الرغم من كل ما أصابها من محن . ولما كانت لقرطبة مكانة خاصة فى بحثنا هذا فإنها تستحق منا أن نخصصها بمزيد من الدراسة التاريخية حتى نصل إلى العصر الذى تؤرخ له .

كان فتح قرطبة على يد « مغيث الرومى » الذى أرسله إليها « طارق » فحاصرها ثلاثة أشهر ، وفتحها فى المحرم سنة (٩٣ هـ - أكتوبر ٧١٦ م) بقوة قوامها سبعمائة فارس^(٢) .

ومع أن قرطبة^(٣) الإسلامية قد مرت بأربعة أدوار : ثلاثة منها أدوار إنشاء ونمو وازدهار^(٤) ، والدور الرابع عصر تدهور واضمحلال^(٥) - إلا أنه خلال عصر الخلفاء حافظت قرطبة على مكانتها كأعظم مدينة فى أوربا ، وثانى مدينة فى الدنيا بعد بغداد^(٦) .

(١) د . فيليب حتى : العرب تاريخ موجز ١٦٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٢ - ٩ آ

(٣) ترتفع قرطبة ٣٧٠ قدما فوق سطح البحر على الجانب الأيمن من المجرى الرئيسى لنهر (جوندل كوفير) أى النهر الكبير . ويفسر اسم قرطبة كثيرا على أنه من الاسم القرطاجى الفينيقي الذى يعنى (المدينة الطيبة) وهو اسم أبييرى . قديم (انظر مادة قرطبة فى دائرة المعارف الإسلامية) .

(٤) هذه الأدوار الثلاثة تبدأ بالسمح بن مالك الحولاقى (١٠٠ - ١٠٢ هـ) وتنظم عصر للدولة الأموية فى مرحلة الامارة أى إلى عهد عبد الرحمن الناصر ، ومرحلة الخلافة التى انتهت سنة ٤٢٢ هـ سنة ١٠٣١ م ، انظر المكان السابق .

(٥) انظر د - حسين مؤنس : « قرطبة » مقال بمجلة العربى عدد ٩٥ أكتوبر ١٩٦٦ .

(٦) المكان السابق .

أما دور الانحطاط فيمكن القول بأن بدايته لم ترتبط ارتباطاً حاسماً بسقوط الدولة الأموية^(١) ، وإن كان هذا التحول التاريخي في مسيرة قرطبة هو أقرب تاريخ مقبول للدلالة على تحولها الحضاري إلى طريق الانحدار^(٢) .

ثانياً : الحالة الاقتصادية :



تتأثر الحالة الاقتصادية بالظروف السياسية تأثيراً كبيراً . فمع الاستقرار واستتباب حالة الأمن ، يتمكن الناس من الإنتاج في الحقول والمصانع والمتاجر وغيرها من المجالات الاقتصادية ... أما في حالات الفزع والتقلبات السياسية والحروب المتواصلة التي تشبه معارك قطاع الطرق - فإن الحالة الاقتصادية تصل إلى درجة من السوء تتناسب مع المستوى السيء للحالة السياسية .

وقد اختلفت الحالة الاقتصادية في قرطبة ، وأحوازها ، وبقية مدن الأندلس تبعاً لاختلاف الحالة السياسية .

ونستطيع أن نقول إن الثراء كان هو السمة الغالبة على الحياة القرطبية ، في طبقات المجتمع المختلفة ، وذلك على امتداد عصر بني عامر .

أما خلال عصر الفتنة والطوائف ، ونتيجة للتدهور السياسي ، فإن الحالة الاقتصادية - بالنسبة لمجموع الشعب - كانت بالغة السوء .

ويصور لنا ابن حزم نفسه هذا الوضع ، حين يصف حالة الأمن في قرطبة وأحوازها ... فقد كان جنود الفتنة الطائفية لا يتورعون عن شن الغارات على الناس

(١) يذهب ياقوت الحموي إلى أن انحدارها يبدأ سنة ٤٤٠ هـ (معجم البلدان مادة قرطبة) .

(٢) عن تاريخ قرطبة في مراحلها المختلفة حتى قبل الاسلام انظر مادة قرطبة في دائرة المعارف الاسلامية .

الآمنين ، والاستيلاء على أموالهم بالقوة ، وقطع الطريق على مصالحهم ، وضرب المكوس والعزبة على رقابهم ، وتسليط اليهود لأخذ الجزية منهم^(١) .

وفى حالة مثل هذه لا نستطيع أن نتوقع اقتصاداً مزدهراً ، لاسيما والحروب كانت مستعرة بين الطوائف ... ملوكاً وأجناساً . وكثيراً ما يضرب بعضهم الحصار على مدن البعض الآخر .

وكانت الزراعة مزدهرة بالأندلس فى عصر بنى عامر : وقد نجح الأندلسيون فى تحويل وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة ، وفى إقامة الزراعة على أسس علمية . وكان لشغفهم بإنشاء الحدائق والبساتين وتربية الزهور أثر فى ذلك^(٢) .

وطبيعى أن قرطبة كانت تحظى بالنصيب الأوفر من هذه المزارع ، ويؤكد لنا هذا أن قرطبة قامت وسط سهل فسيح يمتد على ضفتى الوادى الكبير أميالا بعد أميال ، ويحدثنا ابن سعيد المغربى ، أن أهل قرطبة كانوا إذا رأوا رجلا يتسول عنفوه وشتموه ، فلم يكن أمامه إلا أن يخرج إلى الأرياف الواسعة المحيطة بقرطبة ويلتمس قطعة من الأرض يزرعها ويعيش منها ، وكان هناك نظام فى المزارعة يعرف بالمناصفة ، أى تناصف الغلة بين صاحب الأرض وزارعها ، وكانت الأرض كثيرة حول قرطبة لدرجة أن أصحاب الأرض كانوا يجتهدون فى البحث عمن يزرعها ، وكانوا يقبلون مضطرين - ربع الغلة ممن يزرع لهم أرضهم^(٣) وأما الصناعات المعاصرة ، فقد كانت رائجة فى عهدى الأمويين وبنى عامر ، وكانت تضم كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعة الحديد ، والنحاس ، والزجاج ، والنسيج فضلا عن استخراج معدن البلور من ناحية قصر منتور من أعمالها^(٤) .

(١) انظر رسالة التلخيص لوجوه التلخيص ١٧٣ ، ١٧٤ (من ملحقات رسالة الرد على ابن النخيلة) .

(٢) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ٤٤١ .

(٣) د . حسين مؤنس : قرطبة مقال بمجلة العربى عدد ٩٥ .

(٤) مؤلف مجهول : مخطوط فى ذكر بلاد الأندلس رقم ٥٥٨ ورقة ٨ الخزانة الملكية بالرباط .

ونتيجة لازدهار الصناعة كان سعر العامل مرتفعاً ، شأنه شأن العمال في العواصم الكبرى ، وكان متوسط أجر العامل الدقيق نصف مثقال (محمدى) أى ما يقابل جنيهاً ذهبياً ، أما العامل العادى فكان متوسط أجره نصف جنيه ذهبى ، هذا فى حين كان إيجار البيت الشهرى عشرين درهما ، أى نصف جنيه وكانت الأسرة الكبيرة لا تنفق أكثر من خمسة دراهم فى اليوم ، لتعيش عيشة طيبة^(١) .

ولقد لحقت التجارة بالزراعة والصناعة فى الرواج والإزدهار ، وكانت التجارة تتم فى شوارع محددة ، لكل سلعة شارع خاص بها يسمى السوق ، وكانت هذه الأسواق متداخلة فى الشوارع على النحو الذى تراه فى القاهرة القديمة ، وفى دمشق ، فالشارع الكبير يسمى بالسوق ، والشارع الأصغر يسمى بالدرب ، أما الميدان فكان يعرف بالسويقة ، وكان لكل حرفة شارع كما كان الحال فى كل مدن العصور الوسطى : سوق الغزل ، وسوق الجباسين ، وسوق الوراقين ، وسوق الحصارين ، وما إلى ذلك ، وبالتالي فلم تكن هناك أسواق بالمعنى المعروف فى عصرنا ، وإنما هناك أحياء تجارية مقسمة بحسب الحرف والأصناف التجارية كما ذكرنا .

وبعض الشوارع (الأسواق) كان فريداً فى بابه ، فلم يوجد إلا فى قرطبة ، مثال ذلك كان هناك شارع يسمى بالمرقطال ، وكان خاصاً ببيع الملابس الجاهزة ، ومرقطال لفظ أسباني قديم ، ولا تزال فى برشلونة سوق تعرف بالمرقطال ، وكانت هناك سوق للملابس القديمة المستعملة تعرف بسوق السقاطين ، وهناك شارع لتجارة الأحذية يعرف بالقراقين (والقرق هو الفلين)^(٢) . وكانت البضائع تحمل إلى هذه الأسواق من مدن إفريقية والمغرب ، وقد عبادت لها الطرق ، ونظمت القوافل التجارية بالبر والبحر ، كما أن المسافات قد عرفت وحددت على نحو ما ورد فى كتب الجغرافيين والمؤرخين^(٣) .

(١) انظر : د . حسين مؤنس : قرطبة مقال بمجلة المرقى عدد ٩٥ .

(٢) د . حسين مؤنس : مقال قرطبة مجلة المرقى ٩٥ .

(٣) انظر الحمورى : صفة جزيرة الأندلس ٨٢ ، ١٥٣ .

وقد ساعد على ازدهار التجارة - التنافس الذى قام بين أصحاب رعووس الأموال ، فى الاستقرار بقرطبة على مقربة من حكام الأندلس^(١) ، كما كان من الأسباب - أن حكام الأندلس خلال عصر الخلفاء العظام وبنى عامر - قد نجحوا فى فرض الأمن ، وفى القضاء على العابثين بأقوات الناس ومواردهم فأصبح تجار قرطبة وأحوازها مياسير ، طيبى المكسب ، ذوى أموال واسعة كما يصفهم - خلال هذه الحقبة - بعض المؤرخين^(٢) .

لكن الذى لاشك فيه أن التجارة - أكثر من الزراعة والصناعة - قد تعرضت للكساد والتدهور ، بتأثير فقدان الأمن - وتسلب رجال الدولة على أموال الناس ، وضرب المكوس والضرائب الفادحة عليهم وذلك فى عهدى الفتنة والطوائف . وفى هذا العصر العامرى كانت ميزانية الدولة شيئاً عظيماً ... ويحكى لنا محمد بن أفلح أن المنصور بن أبى عامر - أيام الحكم - كان يجلس فى دار الضرب وقد قصده ابن أفلح عندما اضطر إلى عمل عرس لابنته - رأى أنه سيكلفه مالا يطيق فملأ ابن أبى عامر حجره بالمال ، لدرجة أن ابن أبى أفلح لم يكن يصدق ما يراه لعظمته وعمل العرس ، وفضلت له فضلة عظيمة^(٣) .

ولما وقعت وحشة بين ابن أبى عامر والسيدة صبح - بعد استبداده بالأموال - أطلقت السيدة (صبح) أمر الحريم فى الأموال المختزنة بالقصر ، وقد دأبت السيدة « صبح » فى هذه الظروف - على إخراج الأموال من القصر فى كيزان مختومة - فيها الذهب والفضة - مموهة بالعسل والمربى والأصباغ ، وقد أخرجت فى يوم من هذه الأيام مائة كوز ، بلغت ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار .

ولما علم ابن أبى عامر بنقل الأموال من القصر إلى مكان أمين فحمل منها خمسة آلاف دينار عن قيمة ورق وسبعمئة ألف دينار^(٤) .

(١) انظر الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ١٥٣ .

(٢) انظر ابن الدلائى : نصوص عن الأندلس ص ٢ .

(٣) المقرئ : النفع ٣ - ٨٨ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ٣ - ٩٢ ؛ ٩٣ .

ويروى بعضهم أن جباية قرطبة انتهت في أيام المنصور بن أبي عامر والخلفاء الأمويين إلى ثلاثة آلاف ألف دينار^(١) (ثلاثة ملايين) .

ويؤكد لنا ثراء الجهاز الحاكم تلك النعوت الكبيرة التفصيلية التي وصف بها المؤرخون والجغرافيون جامع قرطبة العظيم^(٢) ، بما يحتويه من مصابيح وثرديات ، وخشب صنوبري ، وصنائع ونقوش وزخارف لا يشبه بعضها بعضاً ، وبلاط نادر ، وقبة يعجز الواصفون عن وصفها ، فيها من الفسيفساء المذهب الكثير ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقوش ، وفي جهتي المحراب أربعة عمدان لا تقوم بهال ، أما الصومعة « المثذنة » فارتفاعها في الهواء مائة ذراع ، ويصعد إليها بملرجين ، وعلى أعلى القبة ثلاث تفاحات ذهباً ، واثنان من فضة^(٣) .

وعلى رأس هذه النهضة العمرانية كان حي الرصافة والقصور الرائعة به كقصرى الزهراء الزاهرة ، والقصر الفارسي - أكبر دليل على قمة ما وصلت إليه الحالة الاقتصادية من رخاء .

وقد بنى المنصور بن أبي عامر لسيدته صبح أم هشام - استجلاباً لرضاها - قصراً من فضة ... وحمله على رعوس الرجال ، فجلب حبها بذلك^(٤) .

وفي هذا العصر قسم الحكام قرطبة إلى مدن خمس تشبه الأحياء ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز . وكان في كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات^(٥) .

(١) مخطوط في ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول ورقة ٣٤ .

(٢) يقع مباشرة في مقدمة رأس الجسر العربي الشايع (وقد أصبح كاتدرائية مسيحية في حركة الاسترداد سنة ١٢٣٦ م) .

(٣) انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس من ١٥٣ - إلى ١٥٦ مخطوط في ذكر بلاد الأندلس ورقة ٢١٣ ، وانظر ياقوت معجم البلدان (مادة قرطبة) وانظر غوستاف لوبون حصار العرب ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ وما بعدها ، د - حسين مؤنس مقال بمجلة العربي عدد ٩٥ .

(٤) المقرئ : النسخ ٣ - ٨٨ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ١٥٣ .

وقد تبعت قرطبة إدارياً أحياء وكور مشهورة ، منها مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر فى غربيها فى سفح جبل ، و« القصير » وهو حصن فى شرقيها على النهر ، وحصن المدور ، وهو معقل عظيم مشهور ، وكورة غافق ، وكورة استجة ، وبلكونة ، وقبرة وزندة ، وبياتة ، وأسطبة والبسانة ... وغيرها من الكور (١) .

وخلال عهد عبد الرحمن الناصر ، اتسعت المدينة ، فنشأ خارج السور الشرقى ربض جديد يشبه المدينة الملحقة ، وسمى بالمدينة الشرقية ، أو الشرقية فقط . وكان يتكون من ستة أحياء هى : شبلاز ، وقرن بريل ، ومنية عبد الله ، ومنية المغيرة ، والبرج ، والزاهرة .

ثم اتسعت المدينة من الغرب خارج السور أيضاً ، فنشأت سبعة أرباض جديدة هى : الرقاقون (تجار الورق) ومسجد الرقاقين ، ومسجد الشفاء ومسجد مسرور ، وبلاط مغيث ، وحمام الأبيرى ، والسجن القديم (٢) .

وفى ذلك الجانب الغربى وجد حى كامل - قريب من باب العطارين - متخصص فى بيع الزهور يسمى (ربض حوانيت الرياحان) .

وفى الشمال امتدت قرطبة حتى وصلت إلى تل الرصافة . وهذا التل يقع شمال قرطبة بأربعة كيلو مترات ... وفى نهايته بنى عبد الرحمن الداخل لنفسه قصراً ريفياً سماه الرصافة منافساً بذلك رصافة بغداد ، وقد استمر أثراً تاريخياً فترة طويلة .

وقد اعتبره أبو محمد بن عطية أحد مفاخر قرطبة الأربع التى حصرها فى قوله :

(١) انظر المرقى : النفع ١ - ١٥٥ ، وانظر القلقشندى : الصبح ٥ - ٢٢٧ .

(٢) انظر د - حسين مؤنس مقال قرطبة بحلة المرقى عدد ٩٥ وكلمة ربض (تعنى الحى) كما ذكرنا إلا أنه يبدو أنها أطلقت فى بعض الأحيان على أحياء بعينها ، وإن كان هذا لم يمنع من أن تكون اسماً لكل حى (انظر ابن بشكوال : الصلة ٢ - ٣٨٢ ، ٣٨٣) .

بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثلاثة والعلم أكبر شىء وهو رابعها^(١)

هكذا كانت قرطبة إلى حدود سنة ٤٤٠ هـ ، وفق تحديد ياقوت الحموى^(٢) وبعد هذا التاريخ ، ومع ما بذلته دولة بنى جهور من جهد ، فلا شك فى أن قرطبة كانت قد فقدت كثيراً من أمنها واستقرارها ، وبالتالي من رخائها وبخاصة أن أشيلية كانت قد بدأت تأخذ مكانتها .

وقد كان للبربر دور فى تخريب حضارة قرطبة ، كما أن أهلها – وبخاصة العامة الذين كانوا مادة الفتن – كان لهم نصيب كذلك . « فلم تزل تحط وتخرّب »^(٣) وكما عمرت بالعدل ، فإنها « خربت بالجور »^(٤) ... جور الحكام العرب ، وجور الغوغاء ، وجور البربر ، وجور الصقالبة ، وجور الفقهاء .

وصارت قرطبة كإحدى المدن المتوسطة^(٥) ، إلى أن ملكها النصارى فى الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة للهجرة^(٦) .

ثالثاً : الحالة الثقافية :



ورثت فترات العامرين والطوائف وبنى جهور تراثاً إسلامياً ضخماً اجتمع

(١) المقرئ : فتح الطيب ١ - ١٤٦ .

(٢) معجم البلدان ٤ - ٣٢٤ .

(٣ م - ابن حزم) .

(٣) مخطوط فى ذكر بلاد الأندلس الخزنة الملكية بالرباط ٥٥٨ ورقة ٣٠ ، وانظر : د - عبد العزيز سالم دائرة معارف الشعب مادة قرطبة .

(٤) ياقوت : المعجم ٤ - ٣٢٤ وانظر الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٥٨ .

(٥) المكان السابق .

(٦) مخطوط فى ذكر بلاد الأندلس الخزنة الملكية بالرباط ٥٥٨ ورقة ٣٠ .

لها فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية على يد الأمويين بالأندلس ، ومما انتقل إليها على يد المشاركة النازحين إلى الجزيرة ، إذ كان الالتحام الفكرى قائماً بين أجزاء الحضارة الإسلامية ، غير خاضع للتفكك والتنافر السياسى الذى هو سمة الحياة السياسية فى هذه الفترة . بل إن الأمر يبدو مغايراً تماماً للحالة السياسية التى تجتاح العالم الإسلامى ، فقد انتشرت ظاهرة التنافس الثقافى . وكان السباق قائماً بين ملوك الطوائف ، وبين دول المشرق والمغرب ، وبين العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى : قرطبة وبغداد والقاهرة وفاس ومراكش وبلرم وسبتة ودمشق^(١) وقد كان للاضطراب السياسى دوره فى هجرة العلماء من بلد إلى بلد ، ولعل تمنى ابن حزم ترك الأندلس والرحلة إلى المشرق أكبر دليل على أثر الاضطراب السياسى فى ظاهرة التبادل الثقافى .

وقد ساعد على نجاح هذه الظاهرة أن حركة الانتقال كانت متاحة بين العواصم الإسلامية ، على هيئة بعوث علمية ، وتسابق فى الحصول على إجازات العلماء والشعراء ، وفى اقتناء الكتب النادرة والكبيرة .

لقد كانت حدود الأقاليم غير ذات موضوع ، وهى لم تمثل حاجزاً أو فاصلاً بين الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء^(٢) بل كانت الأفكار فى العالم الإسلامى متصلة^(٣) تعكس تقارباً ثقافياً يعتبر خاصة من خصائص الحضارة الإسلامية فى هذه العصور .

وفى الموسوعات العلمية لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة ودورها الإيجابى فى إيجاد وحدة فكرية فى العالم الإسلامى كله .

فابن بسام يفرد القسم الرابع من مجلد الذخيرة الأول لمن هاجر إلى الجزيرة (الأندلس) من الآفاق ، وطراً عليها من شعراء الشام والعراق ، ويشتمل هذا القسم

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ١٦ .

(٢) يوهان فك : المرية ١٦٨ .

(٣) الكعاك : بلاغة العرب فى الجزائر ٣١

على تراجم للرحالة الشعراء في القرن الخامس الهجري ، وحتى وفاة ابن بسام سنة (٥٤٢ هـ) .

والمقرى صاحب نفع الطيب يورد لنا نحواً من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق ، وقريباً من خمس وسبعين ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس .

وتراجم ابن بشكوال صاحب الصلة المتوفى سنة (٥٧٨ هـ) أكثريتها لمن رحلوا إلى المشرق ، كما أن هناك مشاركة كثيرين رحلوا إلى الأندلس كان يلحقهم ابن بشكوال بأعلامه تحت اسم « الغرباء » .

وما يقال عن هؤلاء يقال عن التراجم التي أوردها أساتذتهم من أمثال : الحميدى في جلوة المقتبس ، والضبي في بغية الملتبس .

وتمثل حياة علم « كأبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدى » - تلميذ ابن حزم - أوضح مثل لهذا الالتحام الكبير بين أجزاء العالم الإسلامى ، فقد عاش الحميدى وطلب العلم فى كل من الأندلس ومصر ودمشق ومكة وواسط وبغداد وغيرها (١) .

وقد ساعد على ازدهار الثقافة - فى قرطبة - إلى جانب هذه الخصائص العامة - أن الشعور بالشخصية الأندلسية كان حاداً جداً فى مواجهة أوروبا النصرانية من جهة - وفى مواجهة المشرق الذى يضع نفسه ، وتضعه مكانته الدينية والحضارية فى مركز الصدارة من جهة أخرى . ولاسيما وحساسية بنى أمية تجاه المشرق العباسى لها ما يبررها .

وقد ورثت قرطبة ابن حزم التراث الذى خلفه فى الأندلس - عبد الرحمن الناصر - الذى جعل من قرطبة كعبة العلوم والفنون (٢) ، والتراث الذى خلفه

(١) انظر جلوة المقتبس صفحات : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ (المقدمة) .

(٢) انظر الحشنى : قضاة قرطبة ص (١) .

ابنه الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) الذى يعتبر امتداداً طبيعياً له ، بل إن الحكم يعتبر قمة هذه المرحلة ، من الناحية الثقافية خاصة . فقد كان جامعاً محباً لها مكرماً لأهلها . وقد جمع من الكتب فى أنواعها ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك (١) فقد كانت عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب فى خزائنه العلمية - كما روى ابن حزم - أربعة وأربعين فهرسة ، فى كل فهرسة عشرون ورقة (ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط) وقد أكد ذلك ابن الأبار وابن خلدون والمقرئ (٢) والمراكشى (٣) وقد أطلق على قرطبة فى عهد الحكم « دار العلوم » لما فيها من المدارس ، إذ بنى الحكم فيها سبعا وعشرين مدرسة جعل تعليمها بالمجان . كما أتم بناء الجامع الكبير وشجع على دراسة العلوم والآداب فيه ، وأرسل البعثات التعليمية إلى المشرق ، تنسخ الكتب حتى جمع فى خزائنه أربعمئة ألف كتاب (٤) .

وبتأثير هذا الميراث الثقافى - والعوامل الأخرى السابقة - ذاعت فى عصر الطوائف المكتبات الخاصة والعامة ، على الرغم مما كانت قد أصيبت به مكتبة الحكم فى عصر الفتنة . فقد كان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى (٥) .

ولم تكن النهضة الفكرية مقصورة على الناحية الأدبية بل شملت الناحية العلمية حيث نبغت طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين الذين كانت بحوثهم مستقى نخباً لاقتباس الغرب ، ومنهم أبو إسحاق الزرقانى - وأبو القاسم أصبغ ابن السمع ، وأبو الوليد هاشم الوقشى (٦) .

(١) الحميدى : الخلدوة ١٣ ، والضبي البقية ١٨ .

(٢) انظر : فتح الطيب ١ - ٣٧١ .

(٣) المعجب ٥٩ .

(٤) ابن سيدة وآثاره العلمية رسالة ماجستير وآداب الاسكندرية ١٩٥٤ د - عبد العاطى عيد العال .

(٥) محمد عبد الله عنان دول الطوائف ٢ - ٤٣٦ .

(٦) عنان دول الطوائف ٢ - ٤٣٥ .

ويقدم لنا لسان الدين بن الخطيب دليلاً على المكانة العلمية لقرطبة في هذا العصر ، حين يورد لنا أسماء بعض الأعلام الذين صحبوا المنصور بن أبي عامر في غزوه لبلدة ألبيرة « إذ كان يصحب المنصور في هذا الغزو من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر ، فضلاً عن سائر الأصناف على ندابة هذا الصنف من الخدام بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم ، والذي صح أنه حضر ذلك ، أبو عبد الله بن حسين الطنبى . أبو القاسم حسين بن الوليد المعروف بابن العريف ، أو الوضاح بن شهيد ، عبد الرحمن بن أحمد ، أبو العلاء صاعد اللغوى ، أبو بكر زيادة الله بن على اليمنى ، المنجم البغدادي ، أبو الحسن القرشى العباسى ، عبد العزيز الخطيب المحرور ، أبو عمر يوسف الزيادى ، موسى بن أبى طالب ، مروان بن الحكم ، يحيى بن هذيل ، سعد بن محمد القاضى ، على النقاش البغدادي ، أبو بكر بن أمية ، محمد بن إسماعيل الزبيدى ، أحمد بن دراج القسطلى ، أبو الفرج الأشجعى ، محمد بن عبد البصير ، الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد . محمد ابن عبد الملك بن جهور ، محمد بن الحسن القرشى من المشرق (١) .

وبعد أن عدد ابن الخطيب أسماء كثيرة أخرى - قال :
« هؤلاء من حفظته منهم . وهم أكثر من أن يحصوا ، فعلى هذا ينبنى القياس فى ضخامة هذا الملك ، وانفساح هذا العز (٢) » .

وفى هذه الحركة الفكرية النشطة (٣) كان التنافس قوياً بين الأدباء والمفكرين أنفسهم ، ولذا فإن المساجلات كانت تقوم بينهم ، إظهاراً للبراعة ووصولاً إلى الغلبة على المنافسين ، وفوزاً بالجاه والمال ..

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عتات ٢ - ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) للكان السابق .

(٣) انظر عتات : دول الطوائف ٢٠٤ .

وقد شهدت قصور الأمويين والعامريين والطوائف ألواناً من هذه المساجلات قامت بين شعراء وأدباء كابن العريف وابن شهيد والزيدي والقسطلبي والطيني وأبي العلاء صاعد^(١) ، وقد صارت قصصها ووقائعها مادة طيبة لحركة الفكر الأندلسي .

وكانت هناك مساجلات أخرى هدفها الانتصار للرأى ، ومقارعة الخصوم ، سواء من خارج الدين الإسلامى أو من داخله ، من أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية الأخرى . ومساجلات أبي محمد بن حزم ، وأبي الوليد الباجي من أشهر المساجلات التى تعكس هذا النوع من المبارزة الفكرية التى تعقد لها المجالس ، ويحضرها المثقفون من مؤيدين ومعارضين^(٢) .

ولم يكن مجال هذه المناظرات التنافس والكسب فقط ، كما أنها لم تكن لمجرد التسلية ، وإنما كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية . والطريف من هذه الامتحانات هى تلك التى يقوم بها العلماء بعضهم لبعض فى المجالس العلنية ، ويترك الأمر لنتائج هذه الامتحانات لمنح الألقاب العلمية ، وقد كان لبعض المناظرات أثر عظيم فى تقرير مصير العلماء^(٣) .

وشأن هذه المناظرات فى الحياة العلمية القرطبية والأندلسية عامة شأنها شأن الرسائل العلمية فى عصرنا ، بل لقد كان أثرها أبعد أثراً لأنها شملت ذوى المكنة والتمرس فى العلم ، ولم يسلم منها كبار الشيوخ^(٤) .

وكانت هذه المناظرات تقوم على أسس علمية رصينة ، فى أغلب الأحيان ، يؤكد هذا ما قيل من أن متكلمي اجتماعاً فقال أحدهما : هل لك فى المناظرة ؟ قال : على شرائط : ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ولا تحكم ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلاً ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية

(١) د - طه الحاجرى ابن حزم صورة أندلسية ٥٣ .

(٢) انظر عبد المجيد تركى : مناظرات ابن حزم والباجي صفحة ١٨ .

(٣) د - وديعة طه النجم : مقال العلاقات بين العلماء عالم ، الفكر عدد ١ مجلد ابريل سنة ١٩٧٠ ص ٢٥٢ ، ٢٥٧ .

(٤) المكان السابق .

إلا جوزت لى تأويل مثلها ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته (١) .

وكان من العوامل المثريّة للثقافة القرطبية تلك العلاقات الثقافية التي قامت بين قرطبة ، وبعض حواضر العلم الكبرى في العالم الإسلامي .

وتعتبر رسالة ابن الرقيب القيرواني التي وجهها إلى أبي المغيرة عبد الوهاب ابن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم - دليلا على العلاقات الثقافية بين قرطبة والقيروان (٢) .

وقد ألف القرطبيون في العلوم والفنون ، والنثر والشعر ، وقلدوا المشاركة في منهج تأليفهم ، ولم ينصرفوا إلا عن باين من أبواب العلوم ، وهما الفلسفة والتنجيم « اللذان لهما حظ عظيم عند خواصهم ، ولا يتظاهرون بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل إن إنساناً يقرأ الفلسفة أو التنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه (٣) » .

وكان الشعر والفقه عمودى الثقافة لدرجة أنهما توافرا لأكثر المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم في البحث .

وكان مذهب مالك هو المذهب المسيطر (٤) ، وهو أساس الفكر التشريعي في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... وكان الخروج عليه يبدو كأنه خروج على الإسلام نفسه . ومع أن سيطرة مذهب مالك بهذه الصورة الحادة ، قد أضفى لونا من الثبات الفكرى والعاطفى فى الأندلس (٥) ، فإنه قد

(١) مقال العلاقات بين العلماء (عالم الفكر) أبريل ١٩٧٠ م ٢٥٨ وانظر د . أحمد شلبى تاريخ التربية الإسلامية ٨٥ .

(٢) ابن حزم : فضائل الأندلس وأهلها ص ٣٥٢ بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وانظر ماجد : العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان مقال بمجلة حوليات الجامعة التونسية عدد ١٣ سنة ١٩٧٦ م .

(٣) المقرئ : النفح ١ - ٢٠٥ .

(٤) المقرئ : النفح ١ - ٢٠٥ وانظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٢٤ .

(٥) انظر برونسال : الاسلام في المغرب والأندلس ٢٤٩ .

كبل حركة العقل الأندلسي ، وأعطى فقهاء المالكية لوناً من الامتياز الطبقي ، والقدرة على التنكيل بكل مخالف في مجال يسمح الإسلام فيه بالاختلاف .

وبالطبع فإن الدراسة الدينية في الفروع قد اتجهت - وفقاً لمدرسة الحديث - إلى كتب المالكية الشهيرة ، وعلى رأسها (الموطأ) ، ثم (التلخين) لعبد الوهاب البغدادي ، (والوضاحة) لابن حبيب ، و (العتبية) للعتبي^(١) والأسدية (التي جمعها أسد بن الفرات أثناء تلمذته على ابن القاسم إمام المالكية بمصر) ، والمدونة أو المختلطة التي جمعها في فقه المالكية أبو سعيد سحنون بن سعيد .

وكان لعبد الملك بن حبيب ، وأصقع بن خليل ، والقاسم بن محمد^(٢) ، وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن قطيس ، وابن الفرضي ، وابن غليون الخولاني ، وغيرهم من فقهاء مدرسة الإمام مالك الأندلسية التي تربع على أستاذيتها في الأندلس « يحيى بن يحيى الليثي » - كان لهذه المدرسة اليد الطولى في التمكين لمذهب مالك في الأندلس والمغرب على حد سواء .

وابن حزم يقدم لنا تفسيراً لهيمنة مذهب مالك على الأندلس ، فيعزو انتشاره في بدء أمره إلى طلب الرياسة والسلطان « فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ممن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به »^(٣) .

وثمة تفسير تاريخي لانتشار مذهب مالك بالأندلس يقدمه أستاذنا الدكتور أحمد شلبي فيرى أنه في جو المنافسة بين بغداد وقرطبة - وهما أكبر حاضرتين

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ١٢ - ٣٨ .

(٢) د - حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ٣٤ وأحمد مظهر العظيمة : الإسلام ونهضة الأندلس ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) المقرئ : النسخ ٢ - ٢١٨ تحقيق يحيى الدين عبد الحميد .

إسلاميتين في ذلك الحين - اتجهت قرطبة إلى مذهب مالك ، حتى لا تحتضن مذهب أبي حنيفة الذي كان مذهب العباسيين ^(١) .

والتفسيران متكاملان ، وإن كان ثانيهما أدخل في باب التفسير التاريخي المعقول في انتشار الأفكار والعقائد ، وإلا فإن الفاطميين قد أغروا المصريين كثيراً بالمناصب والمال ، لكنهم لم ينجحوا - مع هذه الوسائل - في تحويل الناس عن مذاهبهم السنية .

ولم يكن بالأندلس من المذاهب الإسلامية - غير مالك - إلا قليل من الشافعية ، والظاهرية ^(٢) ، بالإضافة إلى منتحلي الفرق الكلامية وعلى رأسهم جماعة ابن مسرة والمعتزلة ، وأصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى والمتزندقين على اختلاف مشاربهم ، وكل هؤلاء شكلوا الحياة الاعتقادية للأندلس خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم تخل منهم عاصمتها قرطبة .

ومع أن الزمن قد تطور بقرطبة إلى نوع من السكون في أيام بنى جهور ، حيث لا تفيض المصادر في الحديث عن موقف إيجابي رفيع لهذه الدولة التي ورثت مشكلات الفتنة وسقوط الخلافة ، إلا أن ما نسمعه عن ابن زيدون ^(٣) وابن حيان المؤرخ وولادة الشاعرة ، وأبي الحسن بن سراج ، وعبد الرحمن بن فتوح « مؤلف كتاب بستان الملوك » - يؤكد لنا أن هذه الفترة لم تخل من الثقافة وإن كانت الدولة قد اتجهت إلى علاج المشكلات الداخلية الكثيرة ^(٤) ولم يعد بلاطها - كما أصبح بلاط أشبيلية - منتجاً للشعراء والأدباء والعلماء ١١

ويصور لنا ابن خلدون الدورة الحضارية التي مرت بقرطبة في أحوالها

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٤ - ٢٧ ط ٣ .

(٢) انظر بلاسيوت : ابن حزم في قرطبة ص ١١٦ وغيرها .

(٣) انظر محمد سيد كيلاني : ديوان ابن زيدون (مباحثه لابن جهور ٢٩١) .

(٤) انظر : إحسان عباس : عصر الطوائف والرايعطين ٧٤ ، وانظر : محمد خلاص : غرناطة في عهد بني زيري - رسالة ماجستير - ص ١٩٣ .

المختلفة إلى أن وصل إلى نهاية رحلة الازدهار - وذلك وفقاً لنظريته الدورية
« البيولوجية » في الحضارة - فيقول :

« واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما
كثر عمرانها منذ الإسلام ، واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار
العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون
حتى أربوا على المتقدمين وفاقوا المناخرين . »

« ولما تناقص عمرانها ، وابتدع سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه
جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام ^(١) . »
وهكذا أصبح أمر قرطبة قريباً من منتصف القرن الخامس الهجري .

رابعاً : الحالة الاجتماعية :

وكان من الطبيعي - نتيجة التطور الحضارى الذى أصاب قرطبة على يد
خلفائها العظام - أن تزدحم بالسكان من أجناس مختلفة ، سواء من طلاب العلم ،
أو طلاب الكسب المادى عن طريق التجارة ، أو العمل فى قصور الحكام أو
الأمراء ، أو فى أمور الجيش والحراسة .

وكثرة أهالى قرطبة بالنسبة لمدن العالم فى ذلك العصر حقيقة وردت فى
كتب أكثر من أرخوا لها ^(٢) ، وقد قدر بعضهم سكانها بمليون نسمة ، وإن
كان آخرون قد قدروهم بنصف ذلك ^(٣) .

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢) انظر : ياقوت : المعجم : مادة قرطبة ، وانظر د - عبد العزيز سالم مادة قرطبة دائرة معارف الشعب ، وفيليب
حتى ١٧٦ .

(٣) انظر : الحجى : اتللسيات ٢ - ١٥٦ .

ويقال إن دور العامة بقرطبة بلغت مائة ألف وثلاثة عشر ألفاً وسبعاً وسبعين داراً ، أما دور الأكابر فكانت ستين ألفاً وثلاثمائة ، كما يقال إن قرطبة كان بها من الحوانيت ثمانون ألفاً ، وأربعمائة واثنان وخمسون حانوتاً ومن الفنادق والحانات (١٦٠٠) فندق و (٤٥٢) حانة (١) .

وهي أرقام - مهما قلنا في مبالغتها - تدلنا على الكثافة السكانية التي كانت تعج بها قرطبة ، جوهره العالم .

لقد تكون المجتمع الأندلسي من طوائف متعددة جنسياً ، ما بين عرب وبربر وصقلية وأسبان .

وعندما كانت الدولة في قوتها ، تملك زمام الأمور ، وتمشى بالعدل الذي أقره الإسلام ، كانت الطائفة الجنسية خامدة ، لكن عندما انفرط عقد الأندلس ، وظهرت المظالم والاستغلال السياسي من جانب بعض المغامرين لهذه الطائفيات (٢) أصبح هذا التعدد الجنسي بلاء دمر الأندلس ، وأحالها إلى أرض صراع أو فوضى .

وفي ظل الإسلام تمتعت الطوائف غير الإسلامية بتسامح اعتبر نشازاً في نغمة الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى .

وكما حركت الظروف النكداء العنصريات الجنسية ، كذلك أعطت الأقليات التي لم يخفت حقدّها على حضارة الإسلام - فرصة إشعال نار العنصريات الدينية ، فبعد أن ظهر ملوك الطوائف ، وانهارت خلافة بنى أمية ظهر اليهود - كما دتهم على مسرح العمل السياسي والاجتماعي والفكري ، وقاموا بنصيب وافر في بث بذور الشقاق ، والانضمام إلى هؤلاء آنا ، وإلى أولئك آنا آخر . وقد رأى البربر الاستعانة باليهود ففتحوا لهم صدورهم ، ورحبوا بهم ، فانهالت موجاتهم إلى الجنوب وإن كان كثير منهم قد بقوا في المدن الأخرى (٣) ، وعلى رأسها

(١) انظر الحجي : أندلسيات ورقنا ٣٢ - ٣٣ .

(٢) انظر محمد عبد الوهاب خلاف : غرناطة في عهد ملوك بنى زيري رسالة ماجستير ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٠٥ .

قرطبة ، يعملون بروح جديدة ، على امتداد الأندلس ، ويتحكمون في المسلمين ويستعلون عليهم ، ولا يتورعون في كثير من الأحيان عن الهجوم على دينهم . وقد كان الطريق مفتوحاً أمام اليهود والنصارى للوصول إلى منصب الوزارة ، فضلاً عن غيره من المناصب ، وقد احتل بعضهم مراكز مرموقة حسدهم عليها المسلمون .

وفيما بين هذه الطوائف الجنسية والدينية ، وجدت ظاهرة الاختلاط والاتصال عن طريق التصاهر^(١) وتبادل المنافع التجارية وغيرها في عهود السلم ، كما أن التفاوت الاجتماعي كان يتظمها كلها ، ففي كلها وجد من ينتمى إلى الطبقة العليا ومن ينتمى إلى الطبقة الوسطى ، ومن ينتمى إلى الطبقة الدنيا .

وكانت هناك أحياء ثلاثة مخصصة للطبقة العليا ، هي الرصافة والزاهرة والزهراء . أما بقية الأرباض فكانت للطبقتين الوسطى والدنيا . وتقوم عظمة قرطبة الحقيقية على أهل الطبقة الوسطى الذين يقطنون بقية الأرباض ، وإن كانت الأحياء القائمة على الضفة الغربية لنهر الوادي الكبير قد عرفت بأنها أحياء الصنائع والعمال والطلاب وصغار الفقهاء والموظفين والكتاب^(٢) ، أى أن الغالب على سكانها الانتماء إلى الطبقة الكادحة وإن كان هذا لا يعنى خلوها ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى .

وفي هذا المجتمع كان للمرأة مكانها ، وشأنها شأن الرجل بلا أى تفاوت من الناحية الإنسانية وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام ، على أساس طبيعة المرأة وفطرتها .

لقد كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية ، وكان بعضهن يتمتعن بنفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية . ولا ننسى ما كان لصباح أيام الحكم وابن أبى عامر^(٣) .

(١) د - المحجى : أندلسيات ١ - ٨١ ، ٨٢ .

(٢) المكان السابق .

(٣) د - إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ٢٥ ، ٢٦ .

وقد شارك بعضهن فى رواية الحديث فكانت « غالبية » بنت محمد المعلمة تروى الحديث ، وكذلك كانت فاطمة بنت يحيى بن يوسف ، وشارك أخريات فى الشعر ، ومنهن عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم بما يعرض لها من حاجاتها . وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة . وصفية بنت عبد الله الرئيس الشاعرة التى توفيت دون الثلاثين ، ومريم بنت أبى يعقوب الفيصولى الغانية الشاعرة التى كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج فى إحدى قصائده حين مدحت خيران العامرى . وراضية مولاة الإمام عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، كانت قارئة كاتبة راوية وتوفيت سنة (٤٢٣ هـ) . وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف بالشيلاوى مولى بنى أمية ، ومريم بنت أبى يعقوب الفيصولى الشعبى الحاجة أدبية شاعرة وكانت تعلم النساء وتحثهن لدينها وفضلها (١) .

ولعل هذه المكانة التى بلغتها المرأة هى التى نهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة ، وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين فى هذه المسألة (٢) .

وبالتأكيد فإن ما أصاب الحياة الاجتماعية الأندلسية بعامة من علل قد أصاب المرأة أيضاً ، ولن نسمع بعد ذلك عن « المرأة الفقيهة » ، بل سنسمع عن نوع جديد من النساء ، من أمثال ولادة بنت المستكفى ، مواز للنوع الجديد الذى ظهر من الرجال ، ذلك الذى يترك الأندلس تهوى إلى قاع محتتها بينما ينصرف إلى اللذات والمنافسات الرخيصة .

لقد حفل عصر الطوائف بهذا النوع من الابتذال للمرأة باسم الفن . وكانت قصور الأثرياء مثنوى لفنون الغناء والرقص والموسيقى وما يدخل فى بابهما من صور الترف ، وكان معظم الأثرياء من عشاق الموسيقى وما يتبعها من الغناء يتنافسون

(١) انظر الحميدى : الجذوة ٤١٢ وما بعدها ، وابن بشكوال : الصلة ٢ - ٦٩١ ، ٦٩٢ ، وما بعدها ، وانظر

المقرئ : النفع ٣ - ١٣٩ وما بعدها .

(٢) د - إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ٢٦ .

في اقتناء الفتيات الحسان البارعات في العزف والغناء ، ويبدلون في سبيل ذلك الأموال الطائلة (.....) وكان في قصورهم منهن أسراب وأسراب^(١) .

ونحن نعتقد أن قرطبة في عصر بني جهور كانت أخف مدن الطوائف وطأة من هذا البلاء ، وإن كنا نعتقد أن قصور الأثرياء لم تخل من هذه الظاهرة .

وإلى جانب هذا اللون من التسلية ، كانت هناك مناظرات ومجادلات يغلب عليها الدعابة والظرف والأجوبة البديهة المسكتة ، والشعر الخفيف الجميل^(٢) . « نشوة الشارب وغناء الراقص ومؤدب النفوس وسلوة الفقير والغنى والشريف والسوقى^(٣) » وقد اتصلت العمارة في مباني قرطبة بأحيائها في أيام بني أمية - ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً^(٤) . وكان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال^(٥) .

وهذه الإضاءة الليلية المتصلة قد سبقتها نظافة للشوارع ، بحيث صح أن تكون قرطبة « جوهرة » - هذا ... بينما كانت في ذلك العصر بعض المراكز غير الإسلامية ترى أن النظافة معصية - فكانت بالتالي شوارع قرطبة آية في الجمال والاتساق وحسن الرونق^(٦) .

ويحكى أن الواحد من أهل قرطبة كان إذا لم يملك إلا درهماً واحداً اشترى به صابوناً ليغتسل ، وكان الماء جارياً إلى بيوتهم بواسطة أنابيب الرصاص ، ولاتزال آثارها باقية ، أما عدد الحمامات بها فكان (ثمانمائة) على أقل تقدير ، ويرى بعضهم أنها كانت (٣٠١١ حماماً)^(٧) ، ويذهب ابن حيان إلى إنها بلغت في

(١) انظر محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ٤٤١ .

(٢) المقرئ : النفع ٣ - ٣٨١ ، ٩٥ ما بعدها .

(٣) بلاغة العرب في الأندلس ص ٢٢ .

(٤) مخطوط في ذكر بلاد الأندلس : الخزائن الملكية بالرباط ٥٥٨ ورقة ٢٩ .

(٥) الشقندي : رسالة فضل الأندلس ٥٥ ، وانظر ياقوت (مادة قرطبة) معجم البلدان ٤ - ٣٢٤ .

(٦) انظر د - حسين مؤنس مقال قرطبة بمجلة العربي عدد ٩٥ .

(٧) مخطوط في ذكر بلاد الأندلس ورقة ٣٢ بالخزانة الملكية بالرباط .

عهد ابن أبي عامر تسعمائة حمام ، وقيل ٩١١ حماماً ، يقع معظمها قرب المساجد^(١) ، وكان لأهل قرطبة عناية بالملبس الأنيق الجيد ، فكان القرطبي الأصل لا يخرج من بيته إلا إذا أسبغ على نفسه رداء من القطن أو الكتان أو الصوف ، ولبس فوق ذلك عباءة أو (عبا) كما كانوا يقولون ولم يكونوا يضعون على رءوسهم عمام أو قلانس ، إنما كانوا يسيرون برءوسهم مكشوفة وشعورهم تسترسل على آذانهم^(٢) .

إننا ننظر إلى قرطبة في ظل ذلك كله ، فنراها مدينة تبلغ حداً من الجمال والانسجام يجعلها تبدو أرقى بلد أوروبى فى العصر الوسيط .

كان المسجد هو مركز الحياة الاجتماعية فى قرطبة ، فكانت تقام حوله الأسواق والحوانيت ، بالإضافة إلى الدور الاجتماعية والدينى والسياسى والعلمى الذى يقوم به المسجد ، ففيه كانت تعقد الاجتماعات ، وتقرأ به المنشورات والأوامر النظامية ، وتحل كثير من المشكلات السهلة ، أما المشكلات المعقدة فتحال إلى المحاكم^(٣) .

وكانت تحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها . وكان قصر إمارة قرطبة يقع غربى المسجد الجامع ، ويصله بالمسجد قصر ساباط على أزج معقود يمر تحته الناس^(٤) وقد كثرت المساجد فى قرطبة كثرة عظيمة ، ويرى القلقشندى أن عدد مساجدها بلغ ألفاً وستمائة مسجد^(٥) ، ويرى الآخرون أنها كانت نحواً من ٣٨٧٧ مسجداً^(٦) ويرى صاحب مخطوط « ذكر بلاد الأندلس » أنها كانت ١٣٨٧٩^(٧) ، ويرى الحميرى أنها كانت أربعمائة

(١) انظر د - عبد العزيز سالم دائرة معارف الشعب ، مادة قرطبة .

(٢) انظر : د - حسين مؤنس مقال بمجلة العربى عدد ٩٥ .

(٣) المكان السابق .

(٤) انظر : د - عبد العزيز سالم : دائرة معارف الشعب ، مادة قرطبة .

(٥) صبح الأعشى ٥ - ٢٢٦ .

(٦) د - عبد العزيز سالم : دائرة معارف الشعب ، مادة قرطبة .

(٧) ورقة رقم ٣٢ .

وتسعين مسجداً^(١) وهذا التقدير الأخير لا يتنافى مع التقدير السابق ، فالذى يبدو لى أنه نظر إلى المساجد الكبيرة المستقلة التى يطلق عليها « الجوامع » أو « المسجد الجامع » الذى تقام فيه صلاة الجمعة ... أما التقدير السابق ، فقد نظر إلى المساجد التى تستعمل فى أداء الصلوات الخمس بصفة عامة ، فهذه كانت كثيرة فى معظم العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى خلال هذه العصور^(٢) .

ويوثق الدكتور أحمد شلبى ظاهرة كثرة المساجد ، وينفى المبالغة فى الأرقام التى وردت عن عددها ... ويفسر هذه الظاهرة بأن المسجد كان - فى غالب الأحيان - مجرد حجرة تعد بالبيت للصلاة ويطلق عليها كلمة مسجد^(٣) .

وكانت أحياء قرطبة على ما يذكر المؤرخون واحداً وعشرين حياً ، لم تكن محاطة بالأسوار ، إلى أن كانت أيام الفتنة بقرطبة ، فحفر حولها خندق يدور بها جميعاً ، كما أقيم حولها سور مانع^(٤) .

أما الدور فكانت تقوم حول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حوله الغرف وكان مظهرها الخارجى يتنافى مع مظهرها الداخلى ، حيث كانت تتركز فى داخلها حياة الأسرة ... فبينما كانت واجهتها الخارجية بسيطة عاطلة من الزخرفة ، كانت غرفها الداخلية تزخر بالزخارف الرائعة^(٥) .

كانت هذه هى حالة قرطبة فى عصور الخلافة والعامرين وبنى جهور ... فالنظام الاجتماعى لا يتحرك بالسرعة نفسها التى يتحرك بها التغيير السياسى . وبالطبع فإن هناك فترات استثنائية ، كانت قرطبة تتعرض فيها لفوضى اجتماعية ، بتأثير فوضى الحكم أو هجمات البربر أو الصقالبة .

(١) صفة جزيرة الأندلس ١٥٧ .

(٢) انظر د - أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ١٠٥ .

(٣) انظر المرجع السابق ١٠٤ (وهامش ٥) فى الصفحة نفسها .

(٤) د - حسين مؤنس مجلة العربى عدد ٩٥ ، وانظر : د - عبد العزيز سالم : الدائرة مادة قرطبة .

(٥) د - حسين مؤنس : مقال قرطبة بمجلة العربى ٩٥ .

لكن ذلك ظل استثناء في القاعدة الاجتماعية للحياة القرطبية طيلة هذه الحقبة التي تنتهى بنهاية دولة بنى جهور ، وهى الفترة التي يهمننا رصد مستويات الحياة فيها ... سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية . وذلك لصلتها المباشرة بابن حزم الذى لا نشك فى أنه قد تأثر بهذه المستويات أبلغ التأثير ، لأنه لم يكن رجلاً عادياً فى إطار ذاته ، وإنما كان سياسياً ومفكراً ، وصاحب رأى ومجاهداً ... وبالتالي فتأثره بالتيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أمر لا شك فيه . وهذا ما يسجله عرضنا لحياته فى الفصل التالى .





الفصل الثانى

حياة ابن حزم وثقافته

أسرته :



إن ما نعرفه عن بيت ابن حزم القريب ، يدلنا على أنه بيت عز وشرف ومجد . وقد اختلف المؤرخون فى النسب البعيد لهذا البيت ، وهل ينحدر جاهه القريب من أصل بعيد عريق ، أم أنه حديث عهد بالعز والشرف والانتهاى إلى الأرومة العربية والإسلامية ؟

فثمة جمهرة من المؤرخين والمفكرين يرون أن ابن حزم تكاد ترتبط عراقته العربية والإسلامية بعهد عمر بن الخطاب (١) .

فجده الأقصى فى الإسلام - وهو « يزيد » - كان مولى ليزيد بن أبى سفيان بن حرب الأموى المعروف « بيزيد الخير » الذى أسلم عام الفتح وأرسله أبو بكر قائداً لأحد الجيوش الأربعة التى اتجهت لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق (٢) .

(١) انظر محمد أبو زهرة - ابن حزم ٢٦

(٢) انظر الدكتور أحمد شلى - موسوعة التاريخ الاسلامى ١ - ٤٠٢ ، ٤٠٦ ط ٧ .

وزيد - جد ابن حزم - كان فارسياً ، أصبح مولى لبني أمية ... فهو فارسي النسب قرشي الولاء . مع ما نعرفه من قلة ولاء الفرس للمؤمنين في العصور الأولى . أما أول من دخل الأندلس من أسرة ابن حزم فهو جده « خلف ابن معدان » ، فقد جاء إليها في جيش الفتح مع موسى بن نصير سنة (٩٣ هـ) . وقيل قدم إليها في معية عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) سنة (١٢٨ هـ)^(١) .

ووفقاً لهذا الرأي تتحدد شجرة نسب ابن حزم في أنه : أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي^(٢) ، وابن حزم نفسه يؤكد هذه النسبة الفارسية ، ويقول :

أبي ساسان ودارا وبعدهم قريش العلى أعياصها والعنابس
فما أخرت حرب مراتب سؤددى ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس

هناك آخرون يرون أن ابن حزم خرج من أسرة من أسبانيا الغربية كانت تدين النصرانية ، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي أمداً غير قصير حتى اعتنق « حزم » الإسلام في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً .

وجميع من ذهبوا إلى هذا الرأي قد اعتمدوا على نص واحد ذكره مؤرخ معاصر لابن حزم ، هو « أبو مروان بن حيان » - يسخر فيه من نسبة ابن حزم - الفارسية ، ويستكثرها عليه ، ويقول : « كان من غرائبه - أي ابن حزم - انتماءه لفارس واتباع أهل بيته له في ذلك حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير المعقل في زمانه الراجح في ميزانه : أحمد بن سعيد بن حزم - لبني أمية أولياء نعمته ، لا عن صحة

(١) نقلاً عن عبد الكريم حليفة - ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه ١٧ .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ١٠١ - الحميدي : حذوة المقيس ٣٠٨ ترجمة رقم ٧٠٨ ، وابن بشكوال : الصلة ٢ - ٤١٥ ترجمة رقم ٨٩٤ ، والضبي : بغية الملتبس ص ٤١٥ ترجمة رقم ١٢٠٥ وابن كثير : البداية والنهاية ١٢ - ٩١ وفيات سنة ٤٥٦ هـ وابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ - ٣٢٥ وياقوت : معجم الأدباء ١٢ - ٢٣٥ وابن حجر : لسان الميزان ترجمة ٥٣١ ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم وابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣ - ٢٩٩ ، ومحمد كرد علي : كنوز الأجناد ٢٤٥ .

ولاية لهم عليه فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولّد الأرومة من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام ولم يتقدم لسلفه نباهة . فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى ، فاغتدى جرثومة سلف لمن نماهم ، أغتتهم عن الرسوخ فى أولى السابقة» (١) .

وعلى هذا النص الذى لم يرد مؤيد له فى المصادر اعتمد جميع الذين رأوا هذا النسب لابن حزم من المتأخرين ، من أمثال دوزى ، ونيكلسون ، وجولد تسيهر ، ود . أحمد هيكل ، د . طه الحاجرى ، ويعقوب زكى (٢) .

ويحتج أصحاب هذا الرأى لرأيهم بأن نسبة ابن حزم فى موالى بنى أمية كانت خجلا من أصله المسيحى القريب ، وأنها كانت انتحالا يراد به التقرب إلى العرب الفاتحين .

ونحن نرجح الرأى الأول - معتمدين على عدد من الأدلة التاريخية والعقلية . وأهم هذه الأدلة ... أن ابن حزم نفسه ذكر هذا النسب ، وابن حزم هو أوثق المصادر فى الحديث عن نفسه ، كما أن له من دينه ما يمنعه من الانتحال ، وهو قد ذكر آثار هذه الجريمة فى غير موضع ، ونفر منها ، كما أنه ليس من السهل أن يرث ابن حزم نسباً مزوراً له - كما يزعم البعض - ثم يشيعه عن نفسه - وهو من أكبر علماء النسب - دون تمحيص ورد .

وليس هناك ما يدعو ابن حزم - وهو الفقيه المؤرخ - للتمسك بهذا الكذب ، فنسبته فى فارس لا تزيده شرفاً على نسبته فى الأسبان ، وحداثة إسلام أسرته أو قدمها ليست شيئاً يرجح مكانته فى شيء .

(١) ابن بسام : الذخيرة ١ - ١ - ١٤٢ ، ومحمد عبد الله عنان : دول الطوائف ٢٠٧ .
(٢) انظر - د - إحصان عباس : عصر سيادة قرطبة ٣٠٣ ومحمد عبد الله عنان : دول الطوائف وعبد الكريم خليفة : ابن حزم الأندلسى حياته وأدبه ١١ ، د . أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ود - الحاجرى : ابن حزم صورة أندلسية ص ١٤ وما بعدها ، ويعقوب زكى فى ديوان ابن شهيد ص ١٢ .

وقد كان والد ابن حزم (أحمد بن سعيد) وزيراً للمنصور بن أبي عامر وابنه المظفر ، ولم يكن يزيد حظوة لدى العامرين أن يكون من موالى بنى أمية ، بل إن العكس قد يكون أقرب إلى التصور . وعلى امتداد النصف الأول من القرن الخامس الهجرى لم يكن الولاء لبنى أمية مجلبة للنفع ، بل كان مجلبة للضرر .

وابن حيان لم يكن يخلو من عدااء لابن حزم ، وإن حاول التظاهر بالإنصاف . وهو معروف بالميل إلى الثلب والقدح . والغريب أنه لم يخف دهشته من نسبة ابن حزم نفسه لفارس ، إذ لم يعرف عن ابن حزم - وهو المحدث الظاهري المؤرخ الثقة - مین أو خطل - وقد كان أولى به - فى ظل هذا - أن يصدق ابن حزم فى أمر هو وثيق به .

وأصحاب هذه المصادر التى لا تقل معاصرة عن ابن حيان كالحميدى وصاعد وأولهما اشتهر بالتقوى والورع ، وثانيهما كان تلميذاً لابن حزم إلا أن ذلك لم يمنعه من نقده نقداً مرأً فى دراسته للمنطق - كيف يمكن القول إنهما جاريا ابن حزم فى دعوى يعرفان كذبتها ... أو يقال بجهلها وعلم ابن حيان وحده . ويضاف إلى ذلك موافقة المؤرخين الذين تتابعوا على صحة نسب ابن حزم فى فارس كالمقرئ وابن بشكوال وابن الأبار وابن خلكان وياقوت وابن سعيد والذهبي وابن حجر - وبعضهم أخذ على ابن حزم بعض المآخذ^(١) .

وقد كان أولى بخصوم ابن حزم - وهم كثير - أن يستغلوا هذه الدعوى الكاذبة لهدم كل آراء ابن حزم التى حاربوها بكل الطرق ، ولا سيما وهو من مدرسة الحديث التى تعتمد منهج الجرح والتعديل ، وتغلب الجرح .

وفى رأى أن محاولة نسبته إلى أسبانيا المسيحية التى روج لها المستشرقون بخاصة اعتماداً على نص ابن حيان ، ليست إلا محاولة مسيحية عنصرية للفوز بعالم كبير كانت له الريادة فى فتح أكثر من مجال من مجالات الإبداع الفكرى .

(١) انظر عبد الكريم خليفة : ابن حزم الاندلسى حياته وأدبه ١٢ وما بعدها ود . إحسان عباس . عصر سيادة قرطبة ٣٠٤ وما بعدها ، ود . عيد الله الزايد : ابن حزم الأصولى رسالة دكتوراه ١٧ - ٢٠ .

كان والد ابن حزم « أبو عمر أحمد بن سعيد » أول من ظهر على مسرح التاريخ من هذه الأسرة في الأندلس .

ومن ثانيا حديث ابن حزم عن والده ، ومما أورده المؤرخون ، عن طريقة إدارته للأمور وأسلوبه السياسى أيام وزارته لابن أبى عامر ، واعتزازه بنفسه ، وعلمه وأدبه وبلاغته ، نستطيع أن نضع والد ابن حزم فى مكانة رفيعة ، تؤهله لكى يبنى لهذه الأسرة مجدداً يعجب له ابن حيان .

ويروى أنه كان يعجب لمن يلحن فى الكلام ، ويقول : لانى لأعجب ممن يلحن فى مخاطبته ، أو يجيء بلفظة قلقة فى مكاتبة ، لأنه ينبغى له إذا شك فى شيء أن يتركه ، ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا ^(١) . ومما كان ينشده عنه ابنه أبو محمد من قوله فى معرض التوصية له :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

كما أورد الحميدى ، والضبى ، وابن بشكوال بعض أخباره مع المنصور ابن أبى عامر ^(٢) وكلها تدل على عظيم فضله وخلقه ، واحترامه لنفسه بدرجة أزعجت المنصور وشكا منها .

وقد عاش إلى نهاية الدولة العامرية ، وبداية الفتنة ، ومات يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربعمائة ^(٣) .

أما والده ابن حزم فهى المشكلة الغامضة فى أسرة ابن حزم ^(٤) وعلى

(١) الحميدى : الجنوة ١٢٦ ترجمة ٢١٥ والضبى : البغية ١٨٢ وابن بشكوال : الصلة ١ - ٢٥ ، ٢٦ ترجمة ٤٢ ، وصاعد : الطبقات ١٠١ ، وابن خلكان : وفیات الأعيان ترجمة أحمد بن سعيد ، ويلقوت : المعجم ١٢ - ٢٣١٧ والصندى : الرافى بالوفيات ٦ - ٣٩١ ترجمة رقم ٢٩٠٤ انظر د - هيكل : الأدب الأندلسى ٣٩٢ ، ٣٩٣ . و د . طه الحاجرى : ابن حزم صورة أندلسية ٣٤ .

(٢) الأماكن السابقة .

(٣) ابن حزم : طوق الحمامة بتحقيق الدكتور الطاهر مكى ١٤٧ وانظر : ابن خلكان : الوفاة (ترجمه ابن حزم) والصلة ١ - ٢٦ ، وقد أخطأ الحميدى فذكر أن وفاته كانت قريبا من الأربعمائة (انظر ترجمة أحمد بن سعيد بالجنوة) .

(٤) لفت نظرنا بلا ثيوس الى نقطة غامضة اخرى فى حياة ابن حزم ، وهى بصورة ما تؤكد اتجاه ابن حزم فى عدم الحديث عن أمه ، وهى الصمت الذى يلجئ حول زوجة ابن حزم أيضا : انظر : ابن حزم فى قرطبة ص ٢٤١ .

وضوح حياة ابن حزم ، وكثرة ما روى عن تجاربه الشخصية التي كان من المفروض أن تأتي أمه مرتبطة ببعض أحداثها ، ولا سيما أن كثيراً منها كان في داخل قصر أبيه - مع كل هذا فإن ابن حزم لم يتعرض لشيء عن أمه قط ، وما ورد عابراً في بعض قصصه التي وردت في الطوق ، معبراً عنه بكلمة « سيدة القصر » أو (سيدتها) - سيدة جارية ما - لا يكفي دليلاً على أنه يتحدث عن أمه ... فهذه الكلمة يمكن أن تطلق على أية زوجة من زوجات أبيه ..

ويزيد الأمر غموضاً أن ابن حزم لم يكن يتحرج من الحديث عن النساء ، وقد كان بوسعهم أن يتكلم عنها في مواطن الجد أو مواطن الشرف والفخر ، كما أن وضع المرأة في هذا المجتمع كان يسمح بمثل هذا الحديث . ونحن نستبعد أن يكون في أم ابن حزم مغمز ، لأنه لو كان الأمر كذلك لاستغله خصومه ، ولشاع وعرف .

بل نحن نميل إلى أن أم ابن حزم من كرائم العائلات وأن الأمر لا يزيد على أن إهمال الحديث عن الأم عادة عربية ، ويؤكد هذا أن معلوماتنا عن أمهات كثير من عظماء الحضارة الإسلامية معلومات محدودة جداً . وحتى الخلفاء الراشدون وبقية الخلفاء ينسحب عليهم جميعاً هذا الحكم . فابن حزم ليس نشاراً في نعمة ندره الحديث عن الأم ... ومثلها الزوجة أيضاً .

ومع ترجيحنا لهذا الرأي ، فنحن نرى - أيضاً - أن هذه الأم كانت قد ماتت قبل أن يشب ابن حزم عن الطوق ، لأن التعبير عن زوجة أبيه « بسيدتها » ينم عن روح غير تلك التي تربط الأم بولدها ، بل هي أقرب إلى الروح التي تربط عادة زوجة الأب بابن زوجها .

وكان لابن حزم أخ يدعى أبو بكر مات شاباً وكان متزوجاً - على عشق - بعاتكة بنت قند صاحب الشجر الأعلى أيام المنصور بن أبي عامر^(١) . ونحن لم نعرف لابن حزم أخاً آخر غير أبي بكر . ويبدو أنه لم يكن له غيره لأنه ألف كتاباً

(١) الطوق ١٥٣ ، ١٥٤ .

مفقودا عنوانه : « تواريخ أعمامه وأبيه وأخيه » فقد نص على أخيه بالافراد وليس بالجمع . وأصل أسرة ابن حزم منذ عرفت على مسرح التاريخ السياسى من قرية من كورة (لبلة) من إقليم الزاوية من عمل (أولية) من غرب الأندلس (١) . وإلى هذه القرية عاد ابن حزم بعد أن تكالب عليه الفقهاء ، وبغضوه إلى الحكام ، وخربت قرطبة .

وتعرف لبلة - أحيانا - بلبله الحمراء ، وهى على نهر يعرف بنهر « لهشر » . ويتبعها ثمانية أقاليم ، هى المدينة ، ووشر ، وبشبنانة ، وبرشليانة ووانية ، والجبل ، وتركونه ، وفاشر (٢) . وهى مقاطعة كثيرة الزيتون والثمار والأشجار والأطيار ، وتجمع صنوف الخيرات والبركات (٣) ونحن لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد (٤) العام الذى انتقلت فيه أسرة (حزم) من لبلة إلى قرطبة . لكننا نستطيع ترجيح انتقالها إليها فى الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة ، وذلك لأمر أهمها :

إن صلة الأسرة ظلت متصلة بموطنه الأصلي ... فانتقالها منه إذن لم يتناول فى الزمان ، بحيث ينقطع الاتصال . بل ظلت بها أملاك ومزارع تملكها الأسرة . ومع أننا لا نؤيد دعاوى ابن حيان ، فإننا نعتقد أن فيما قاله من أن بيت ابن حزم كان حاملا وحديث عهد بالمجد - قدراً من الصحة ، توحى به كل المصادر التى تحدثت عن ابن حزم ، فكلها لم تعرض لأمجاد فى أسرته قبل أبيه وعمه والد أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم (٥) .

(١) صاعد : طقات الامم ١١١ ، وانظر ابن خلكان:وفيات الأعيان ٣ - ٣٢٩ ، ٢٣٠ وانظر د - هيكال : الأدب الأندلسى ٣٩٢ يقال إن الاسم للقديم هو أونوية والأحدث هو أولوية ويلاحظ ان ابن سعيد جعل ولبه احدى مدائن كورة أوبنه كما جعل لبلة رأس كورة - نصوص عن الأندلس لابن الدلائى ١٧٨ .

(٢) العذرى : نصوص عن الأندلس ١١٠ ، ١١١ .

(٣) مخطوط فى ذكر بلاد الأندلس ورقة ٦٧ (الخزائن الملكية بالرباط ٥٥٨) .

(٤) يلعب الدكتور طه الحاجرى - بعد اجتهد كبير - إلى أن أسرة ابن حزم هاجرت الى قرطبة فى حدود سنتى (٢٤٤ - ٢٤٧ هـ) ونحن لا نرى أدلته تقوى الى درجة ترجيحنا فضلا عن أنه اعتمد على مسلمة لديه (كمسيحية الاسرة قريبا من نهاية القرن الثالث) ونحن لا نقول بهذا : انظر ابن حزم : صورة أندلسية ص ٢٥ وما بعدها .

(٥) انظر الذخيرة ١ - ١ - ١٤٢ وأبو زهرة : ابن حزم ٢٣ ، ونحن لا نأخذ بكلام ابن خاقان فى أن بنى حزم فنية مجد ونسب لأن ابن خلقان مؤرخ إنشائى وليس مؤرخ حقائق .

ومن غير المنطقي أن يكون الانتقال قد تم بعد هذا الوقت بكثير ، إذ أن
المجد الذي وصل إليه والد ابن حزم يحتاج إلى قدر من الامتداد العائلي ...
والتعارف ... وتوطيد الدعائم ... والوصول إلى الشهرة ... والنباهة في القدر مما
لا ييسر تحقيقه إلا في ظل نمو عائلي بقرطبة يستغرق جزءاً من عمر حزم وابنه
سعيد وحفيده أحمد^(١) .

ومع بداية عهد الحكم الثاني بدأت أسرة ابن حزم تحتل مكانها الرفيع
كواحدة من كرائم العائلات في الأندلس .

نشأته وتكوينه :



مولده :

كتب أبو محمد علي بن حزم - بخط يده - لتلميذه أبي القاسم صاعد -
أنه ولد بعد سلام الإمام من صلاة الصبح - وقبل طلوع الشمس - آخر يوم من
شهر رمضان (ليلة الأربعاء) من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة^(٢) وهو اليوم
السابع من نوفمبر (سنة ٩٩٤ م) بطابع المقر^(٣) .

وهذا ما ذهب إليه الحميدى ، وعنه نقل الضبي - فقد ذكر أنه ولد ليلة
عيد الفطر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرطبة^(٤) .

وكان مولده بقرطبة في الجانب الشرقي بربض منية المغيرة^(٥) ، بقصر

(١) يذهب الدكتور أحمد هيكال إلى أن الأسرة كانت متواضعة المعنى ، وكان نزوحها إلى العاصمة بحثاً عن حياة أفضل ،
وهذا يؤيد رأينا (الأدب الأندلسي ٣٩٢) .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ١٠٢ وانظر المقرئ : النفع ٢ - ٢٨٣ طبعة محيى الدين وقد أخطأ ناسخ معجم الأدباء
فنقل عن صاعد نصه المذكور إلا أنه ذكر أنها سنة (٣٨٣) وهو خطأ بين (ياقوت : معجم الأدباء) ١٢ - ٢٤٠
وانظر أبو زهرة ابن حزم ص ٢٢٠ وقد اعتمد هذا المخطأ الأستاذ عثمان (دول الطوائف ٤٣١) .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ٢ - ٤١٧ ودائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم ود - طه الحاجري : ابن حزم صورة
أندلسية ٣٦ وهو يرى أنه اليوم « التاسع » من نوفمبر .

(٤) انظر الحميدى : الجلفة ٣٠٩ والضبي : البنية ٤١٦ .

(٥) انظر : دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم .

أبيه القريب من مدينة المنصور بن أبي عامر (الزاهرة) ، التى خص بها نفسه ، ومساعديه فى الحكم ، وجعلها إمارة ، تجمع بين مظهر قوة السلاح ومظاهر العظمة والجاه .

وفى صحبة أخيه أبى بكر - الذى يسبقه بخمس سنوات - عاش ابن حزم سنوات طفولته ، ولاشك فى أنها كانت طفولة سعيدة طيبة ، إذ كان أبوه وزير دولة بنى عامر منذ ثلاث سنوات ، وقد حفل قصره المقام فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر الزاهرة^(١) (مكان كنيسة سان لورنزو الآن بحى سان لورنزو) - بما يليق فى المكانة الرسمية والاجتماعية .

وإلى جوار هذا القصر كانت تقع قصور البيوتات الأندلسية الكبرى كبنى شهيد ، وبنى الطينى ، وبنى الزجالى ، وغيرهم^(٢) .

ونستطيع القول : إن الفترة التى أمضاها ابن حزم فى هذا القصر وهى التى وقعت بين مولده فى رمضان (٣٨٤ هـ) - وانتقاله منه إلى دورهم القديمة - صحبة أبيه - فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث ، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة^(٣) - هذه الفترة التى تبلغ نحو خمسة عشر عاماً ... هى التى تشكلت فيها نفسية ابن حزم - فيها استقى كتاب طوق الحمامة ... ووصل إلى تصوير المجتمع الأندلسى من داخله وكان لها تأثيرها البعيد والعميق فى فكره وتربيته .

(١) ابن حزم: الطوق ١٠٥ وانظر محمد أبو زهرة ، ابن حزم الفقيه الذى عالج الحب مقال بمجلة العربى عدد ٥٧ أغسطس ١٩٦٣ ود - طه الحاجرى: صورة أندلسية ٣٦ وما بعدها .
(٢) د - حسين مؤنس : العربى ٥٧ (مقال) ابن حزم بمناسبة تكريمه .
(٣) الطوق ١٤٦ ، ١٤٧ وانظر محمد كرد على : كموز الاحداد ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

قصر بنى حزم بالزهران :



ونحن نعتمد على ابن حزم نفسه فى تصوير حياته فى هذا القصر^(١) فهو أوثق المصادر فى ذلك .

هذا القصر الذى عرفنا موقعه الخارجى من الزاهرة - عن طريق ابن حزم - يصفه لنا ابن حزم من الداخل وصفاً يغنينا عن اللجوء إلى النعوت العامة التى تطلق على مدينة الزاهرة ، ويكتفى بها بعض المؤرخين ، دلالة على عظمة القصر^(٢) فثمة قسم خاص بالنساء والجوارى يجلسن فيه ويمرحن ، بحيث لا يصل ذلك إلى مجلس الرجال فى القصر ... وبالتأكيد فإن هناك فاصلاً بين جناحى القصر ... أو هو قصر خاص بالنساء يفصله عن قصر الرجال هذا النسيج المنسق من الزهور والأشجار ، ويضم مجموعة البيوت - للرجال والحريم والخدم - سور واحد ... هو الذى يفصل القصر عن غيره من قصور الأمراء فى الزاهرة^(٣) .

وفى الدار قصبة^(٤) تشرف على البستان الذى ينتظم القصر ... ويمكن منها رؤية قرطبة ووديانها وسهولها وجبالها المخضرة التى تحيط بها . وهذه القصبة ذات شراجيب « مشربيات » ينظر منها الناظر فى قرطبة وبستان الدار .

وهذه الشراجيب تفتح منها طاقات واسعة ، يسميها ابن حزم « أبواباً » ويبدو أنها كانت تتسع لأكثر من شخص ، وهى شراجيب دائرية لأن النساء ينتقلن فيها من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ..

(١) اعتماداً على ما سمعنا حتى يغنينا عن الإكثار من الاستشهاد بالنصوص من ابن حزم عند حديثنا عن « السورة الذاتية فى تاريخ ابن حزم » فى الفصل الثالث من الباب الثانى . فهذا العرض يصلح أرضاً تقف عليها استنتاجاتنا فى الفصل المذكور . ولا سيما أن معظم من أرخوا لابن حزم قد تحطوا ترجمته لنفسه .

(٢) انظر عبد المكرم خليفة : ابن حزم الأندلسى حياته وأدبه ٣٠ ، ٣١ .

(٣) إننا نستطيع أن نتخيل هذا بوضوح لو رأينا قصور الأمراء والوزراء فى البلدان الإسلامية المحافظة الثرية .

(٤) القصبة : كما فى المعجم الوسيط ج ٢ ص ٧٤٤ من مادة (قصب) : وهى كل عظيم مستدير أجوف ذى غ ، كمظلة الأكف ، وعظمة الأصبع . وهى من البلاد مدينتها .

والقصر فسيح ، بحيث ينزل النساء فى بستانه ، ويكنّ بمأمن من الضيوف الرجال ، فهو يشبه الحديقة ذات الخمائل المنفصلة التى تفصل بينها جداول وأشجار كثيرة متراكمة ... لأنهن قد طلبن الغناء فى البستان ممن أحبها ابن حزم وغنت لهن ^(١) .

تربيته الأولى :

فى هذا القصر ... بل ربما فى هذا الجزء الخاص بالنساء ، وخلال هذه الفترة يحدثنا ابن حزم عن دور المرأة الأساسى فى حياته وتربيته وتعليمه فيقول :

« لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب ، وحين تغيل وجهى .

وهن علمننى القرآن ، ورويتننى كثيراً من الأشعار ، ودربتننى فى الخط ، ولم يكن كدى ، وإعمال ذهنى منذ أول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة طبعت عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فطرت به ، فأشرفت من سيرتهن على غير قليل ^(٢) » .

ونحن يجب أن نتخيل ابن حزم طفلاً من أطفال الطبقة العليا ... متملىء الجسم ناضج العقل موفور الحيوية ... يقوم على نظافته وطعامه عدد كبير من الجوارى فضلاً عن المؤدبات . وإلا فما معنى أن يحاول منذ سن الطفولة تعرف أخبار المرأة . ودراسة مجتمعتها المغلق . ويجب أن نتخيل أن ابن حزم كذلك قد رأى فى هذا التعرف – وفى مستهل حياته ما يخوفه من المرأة ، وإلا فما معنى أن يبدأ طفل حياته بسوء الظن فى المرأة – ويزعم أنه « فطر عليه » !!

(١) الطوق ١٤٦ .

(٢) الطوق ٧٩ .

أو لم تكن هناك « أم » كريمة يرى من خلالها الوجه الآخر الجميل للمرأة ؟
ألا يؤكد هذا ما ذهبنا إليه سابقاً من أن أمه كانت قد ماتت وهو بعد في المهد ؟
ونحن نستطيع أن نتأكد من أن ابن حزم قد تلقى في هذه الفترة بعض القرآن حفظاً
وتفسيراً وبعض الحديث ، وبعض الشعر ، وبعض قواعد اللغة ، ودرب على الخط
والإملاء ، وتعلم شيئاً من فن الحياة اللائق بأبناء الطبقة العليا .

وعندما بلغ ابن حزم الثانية عشرة من عمره ، ويسمىها هو سن الشباب ،
وكان ذلك يوم عيد الفطر سنة (٣٩٦ هـ) صحبه أبوه إلى مجلس المظفر بن
أبي عامر^(١) قال ابن حزم: « وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر^(٢) » .
وفي هذه الجلسة سمع ابن حزم قصيدة أبي العلاء صاعد اللغوى التى يمدح فيها
المظفر ويستهلها بقوله :

إليك حلوت ناجية الركاب محملة أمانى كالهضاب

وقد أبدى استحسانه لها ، فكتبها له أبو العلاء بخطه وأنفذها إليه^(٣) .
وهذا دليل آخر على مدى نضج ابن حزم العقلى فى هذه السن الصغيرة » .

وقد مر ابن حزم فى هذا القصر بأول تجاربه العاطفية ، وهى تلك القصة
التي رواها لنا بأعذب أسلوب ، وكان أول ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من
الطوق ، فأحدثت صدى واسعاً ، نظراً لطابعها « الرومانسى » الحزين .

لقد ألف ابن حزم فى أيام صباه ألفة المحبة جارية نشأت معه ، وكانت
بنت ستة عشر عاماً ... وكان هو ابن اثني عشر عاماً على ما نرجح - وكانت
غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائتها^(٤) . وقد
سعى عامين - أى إلى أن وصل إلى الرابعة عشرة - أن تجيبه بكلمة ، أو يسمع

(١) انظر غومس : للدخل لابن حزم ص ١ .

(٢) الحميدى : المجلد ٢٤١ .

(٣) المكان السابق .

(٤) انظر بقية أوصافها فى الطوق ١٤٥ .

من فيها لفظة غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع فما وصل إلى شيء من ذلك .

ثم جاء يوم احتفل فيه والده الوزير فى قصره بمناسبة استوجبت حضور عليّة وضيوف كثيرين ... فسعى - فى زحمة النساء - مستغلا حداثة سنه - أن يلاحقها حيث تقف أو تجلس ، فكانت تهرب منه ... وما مكنته من مجرد الحديث الودى معها ... ثم عزم عليها نساء القصر فى الغناء فغنت أبيات العباس ابن الأحنف :

إنى طربت إلى شمس إذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير
فكأن المضراب كان يقع على قلبه ، وكان هذا كل ما ناله منها (١) .

النكبات العائلية والسياسية :



وبعد هذا الحادث العاطفى بشهور بدأت الرياح تهب عاتية على حياته فقد تولى محمد المهدي الخلافة ، مبتدئاً عصر الطوائف النكد ، ثم تولى هشام المؤيد ، فانهال على بيت ابن حزم بالنكبات والاعتداء والاعتقال والتغريب والإغرام القادح - وقد أضيف إلى هذه النوازل المجتمعة أولى كوارث ابن حزم العائلية وهى وفاة أخيه أبى بكر الذى لم نعرف له أنخاً غيره فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمئة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (٢) .

ثم كانت النازلة العائلية الثانية - قاصمة الظهر - هى وفاة والده الوزير أحمد بن سعيد بتأثير النكبات التى حلت به وبيته ، وذلك فى ذى القعدة سنة (٤٠٢ هـ) - فاتصلت حال ابن حزم بعده بالنكبات .

وخلال العام التالى (٣٠٣ هـ) حلت بابن حزم النازلة العائلية الثالثة إذ ماتت زوجته الأولى - فيما نرجح - « وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً

(١) الطوق ١٤٤ وما بعدها .

(٢) الطوق ١٥٤ .

بجارية لى ، وكانت فيما خلا اسمها « نعم » . وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن تخلقاً وتخلقاً ، وموافقه لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومر النهار . وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دون السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تفتقر لى دمة على جمود عيني ، وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وبيع بعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعاً طائعاً وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عفا حبي لها على كل ما قبله . وحرّم ما كان بعده ^(١) .

وقد توالى ضربات الدهر بعد ذلك على ابن حزم فأجلى - وأسرت - عن منازلهم ، وتغلب على قرطبة جند البربر ، فخرج عنها أول المحرم سنة (٤٠٤ هـ) ^(٢) إلى المرية ، حيث أخذ إلى السكينة والهدوء ، يقرأ ويتعلم وينهذى النظم والنثر مع أصدقائه - وكان ذلك فى عهد حاكم المرية « خيران العامرى » الذى كان يظهر بعض الميول لبنى أمية ، فقصده من أجل هذا ابن حزم ، لكنه لم يلبث أن انقلب على بنى أمية حين انقطعت دولتهم وقتل سليمان الظافر ، وظهرت دولة الطالبية ، وبويع على بن حمود الحسنى المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها ، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس ^(٣) . وكان دخوله قرطبة فى ٢٢ من المحرم سنة (٤٠٧ هـ) (أول يوليو (١٠١٦ م)) ^(٤) .

وفى حوالى هذا التاريخ انقلب « خيران » على ابن حزم ، فاعتقله وصاحبه محمد بن إسحاق بضعة أشهر « إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين -

(١) الطوق ص ١٢٤ .

(٢) الطوق ١٤٧ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم .

(٣) الطوق ١٥٥ .

(٤) الطوق ١٥٦ (هامش) .

وقد انتقم الله منهم - عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبى - أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر . ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبى المعروف بابن المقفل ، فأقمنا عنده شهوراً فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة^(١) .

ثم ركبنا البحر قاصدين بلبسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكناه بها^(٢) .

وقد أمضى ابن حزم عامين بلبسية قبل أن يخرج منها عائداً لمدينته العزيزة « قرطبة » فى شوال سنة (٤٠٩ هـ)^(٣) بعد أن استقرت الأمور لبني حمود وكان دخوله إليها فى عهد القاسم بن حمود المأمون^(٤) .

كانت هذه هى المرحلة الأولى من حياة ابن حزم ، وهى مرحلة تمتد خمسة وعشرين عاماً مختلفة الأطوار ، ذاق فيها ابن حزم حلو الحياة ومرها . وبدأت صور حياته فى قصر أبيه تتلاشى أمام المحن المتتالية ، وما كان منها بسبب السياسة وما كان منها من صنع القدر .

وقد بدأ ابن حزم بعد هذه الفترة - يدخل من موقع الشعور بالمسئولية معركة الصراع السياسى والفكرى الذى يجتاح الأندلس فى عصر من أسوأ عصور محتتها .

ومهما يكن رأى فى تفاصيل المرحلة المنصرمة من عمر ابن حزم التى بلغت ربع قرن ، فإنها تتلخص فى أنها كانت مرحلة تكوين فكرى ونفسى انقسمت

(١) الطوق ١٥٦ ومظن دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن حزم .

(٢) المكان السابق وانظر عبد الكريم خليفة : ابن حزم حياته وأدبه ٥٤ .

(٣) الطوق ١٥٨

(٤) الطوق ١٥٨ .

قسمين : النصف الأول منها وفيه تتلمذ ابن حزم على النساء مستقراً في قصر أبيه الوزير . والنصف الثاني ، وفيه تتلمذ ابن حزم على التقلبات السياسية والنكبات والاعترا ب وعلى مجموعة كبيرة من الرجال .

شيوخه ودراساته :



كان أول سماع ابن حزم قبل الأربعمئة بقليل ، في سنة (٣٩٩ هـ) على شيخه الكبير أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور^(١) .

وقد سمع على كثير من غير ابن الجسور منهم القاضي يونس ابن عبد الله^(٢) وأبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري (ت ٤١٠ هـ) وقد قرأ عليه الحديث^(٣) ، وأبو بكر حمام بن أحمد القاضي ، وأبو محمد بن بنوس القاضي ،^(٤) وأبو سعيد الفتى الجعفرى ، وقرأ عليه الأدب والشعر^(٥) ، وأبو عمر أحمد بن الحسين ، ويحيى بن مسعود بن وجه الجنة ، ويوسف ابن عبد الله القاضي ، ومحمد بن سعيد ، وعبد الله بن ربيع التميمى ، وعبد الله ابن محمد بن عثمان ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد ، وعبد الله بن يوسف ابن نامى^(٦) .

وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون^(٧) . كما قرأ على « على بن سعيد العبدري » من أهل جزيرة ميورقة^(٨) !

(١) انظر الطوق ١٨٨ و هامش (١٨) بنفس الصفحة والحميدى : الجلوة ١٠٧ ، ٣٠٨ والضئى : البغية ٤١٥ ، وابن عداد ، الشذرات ٣ - ٢٩٩ وبالتيا ١٧٣ .

(٢) الطوق ١١٥ والصلة ٢ - ٦٨٤ وما بعدها .

(٣) الطوق ١٠٢ .

(٤) ابن بشكوال الصلة ٢ - ٤١٥ .

(٥) الطوق ١٠٠ .

(٦) الحميدى ٢٦٨ وسعيد الأفغاني : ابن حزم ورسائله في المفاضلة ٣٤ ، ٣٥ .

(٧) ياقوت : معجم الأدياء ١٢ - ٢٤٢ . وكلامه يفيد أن ابن دحون أول أساتذة ابن حزم وهو يعنى ذلك على أن ابن حزم بدأ تعلم العلم كبير السن إثر قصة ملفقة لم تصح تاريخيا ولا منطقيا انظر (أبو زهرة ابن حزم ٢٣) .

(٨) سعيد الأفغاني : ابن حزم ورسائله ٣٥ .

وممن سمع منهم الوزير أبو عبده حسان بن مالك اللغوي^(١) ، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكنساني من أهل مالقة^(٢) .

وقد أخذ المنطق على محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني^(٣) ، وأحمد بن محمد بن عبد الوارث^(٤) .

ومن شيوخه البارزين مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار^(٥) ، وعنه أخذ بعض الآراء الفقهية ، وربما أخذ اتجاهه إلى القول بالظاهر^(٦) .

ومن أساتذته في التاريخ « علم الخبر » والده أحمد بن سعيد ، الذي كان يقص عليه أحداث الدولة العامرية^(٧) . والقاضي أبو الوليد عبد الله بن يوسف ابن القرضي^(٨) ، وابن الدلائلي « العذري »^(٩) ، وابن الجسور^(١٠) أيضاً .

وممن قرأ عليهم الحديث أحمد بن القاسم بن أصبغ ، وأحمد بن عمر ابن أنس^(١١) وأحمد بن محمد بن عبد الله المغربي الظلمنكي أبو عمر الفقيه المحدث^(١٢) وابن دراج القسطلي^(١٣) .

ومن شيوخه المعروفين أبو علي الحسين بن علي الفاسي^(١٤) ، وهو من

-
- (١) الحميدى ١٢٩ .
(٢) ابن الأبار : التكملة ١ - ٣٧٩ .
(٣) الحميدى : الجنوة ٤٩ وابن الأبار : التكملة ١ - ٣٧٩ وابن خلكان : الوفیات ٣ - ٣٢٦ ود - إحسان عباس : التقريب لحد المنطق (ز) وبالنسبة ٢١٣ .
(٤) التقريب (ج) .
(٥) الحميدى : الجنوة ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، والضبي : البغية ٤٦٧ .
(٦) سعيد الأفغاني : ابن حزم ورسائله ٣٥ .
(٧) الحميدى : الجنوة ١٢٦ ، ٢٤١ .
(٨) الحميدى : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٩) نصوص عن الأندلس ص (ب) .
(١٠) الضبي : البغية ١٥٥ وبالنسبة ١٧٤ ، ٢١٣ .
(١١) انظر الذهبي في (سير النبلاء) بتحقيق سعيد الأفغاني (ترجمة ابن حزم) مجلة المجمع العلمي العربي ج ١٠ .
(١٢) انظر الحميدى ، والضبي ١٦٢ .
(١٣) الحميدى ١١٣ وأحمد أمين (ظهر الاسلام ٣ - ١٣٠) .
(١٤) انظر الحميدى : الجنوة ١٩٣ .

طبقة ابن عبد البر ، وابن حيان ، وابن شهيد ، من الذين هم من طبقة ابن حزم ،
ويغلب أن يكونوا من أصدقائه ومعاصريه الذين أخذ منهم وأعطاهم .

ومن شيوخه عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني^(١) .

وعبد الرحمن بن سلمة الكناني^(٢) وعبد الله بن محمد بن عبد الملك ابن
جهور^(٣) وغيرهم كثيرون حفلت بهم كتب التراجم .

ولم يكن التخصص الدقيق الفاصل بين أنواع العلوم موجوداً ، بل غالباً
ما كان المحدث فقيهاً وباحثاً في علم الكلام ومؤرخاً ومنطقياً ولغوياً وشاعراً .
وبالتالي فالحديث عن تلقى ابن حزم فروعاً دقيقة على كل شيخ من شيوخه على
حدة ، لا تزكيه طبيعة الدراسة في هذا العصر ، وإنما الأمر مجرد غلبة علم في
ميول كل أستاذ من أساتذته .

وقد عرف ابن حزم بكثرة سماعه ، فأجمع أكثر المؤرخين له بأنه سمع
سماعاً جمّاً سواء في قرطبة أو المرية ، أو بلنسية ، أو شاطبة .

وظائفه في الدولة :

تدل الوقائع التاريخية على أن ابن حزم ظل يعمل لانبعاث الدولة الأموية
خلال عصر الفتنة .

ولم يكن ذهابه للمرية إلتعبيراً عن هذه النزعة ، إذ كان « خيران العامري »
يظهر ميلاً لبنى أمية في أول أمره^(٤) .

(١) الحميدى : المجلد ٢٧٥ .

(٢) الحميدى : ٢٧٢ .

(٣) الحميدى : ٢٥٧ .

(٤) الحميدى : المجلد ٣٠٨ ، والضبي : البنية ٤١٥ ، وابن بشكوال : الصلة ٢ - ٤١٦ .

كذلك فقد ظهرت جدية ابن حزم في العمل على اتباعات الدولة الأموية حين ترك مكانه الهاديء عند خير أهل وجيران بحصن القصر في مقاطعة أشبيلية ورحل إلى بلنسية عندما علم بظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد بها (١).

فلما تمكن من العودة إلى قرطبة سنة (٤٠٩ هـ) في عهد القاسم بن حمود لم يكن ذلك إلا تحيناً لفرصة يتمكن فيها من العمل لخدمة بني أمية .

ويرى بعض المؤرخين أنه وزر « المرتضى » بلنسية (٢) لكن من الموثوق به أنه اشترك معه في حرب غرناطة ووقع بأيدي أعدائه فقط .

وكانت بلنسية في ذلك الوقت في حكم رجلين من الصقالبة ، تربطهما بابن حزم صلة قوية ، هما مظفر ومبارك العامريان ، فهما يحكمانها معاً ، وقد استطاعا أن يجعلا منها مدينة من المدن العامرة المرموقة ، وهذان الرجلان هما اللذان يعتبرهما ابن حزم الآية المثلى في الوفاء الذي يكاد ينعدم في الأرض (٣) وأرجح أنهما كانا يشعران بأنهما حاكمان مؤقتان ، وأنهما لم يقفا كثيراً في وجه أى خليفة قادم ، وبالتالي وجد الحزب الأموى فرصته في بلنسية ليرشح منها المرتضى للخلافة .

وقد تمكن « خيران العامري » بغدره ولؤمه من القضاء على محاولة قيام الخلافة الأموية في بلنسية بعد أن خذل صاحبها وجيوشه ومساعدته ابن حزم على أبواب غرناطة أمام زاوى بن زيرى زعيم البربر .

(١) الطوق ١٥٦ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن حزم وسعيد الأفغانى : ابن حزم ورسائله ٢٥ ونحن نرجح أنه لم يرق عند المرتضى للدرجة الوزارة وبخاصة أن مظفرا ومباركا كانا يقومان بالأمر ، كما أن المصادر لم تنص على هذه الوزارة ونحن نعتقد أنه كان مستشارا كبيرا فحسب كما هو وارد في المتن بعد قليل .

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي (رسالة في مداواة النفوس) ١٣٢ بتحقيق د - (إحسان عباس) وانظر د - طه الحاجري ١٠٢ وما بعدها .

ونحن نرجح أن ابن حزم كان مستشاراً كبيراً للمرتضى ، ولا نرى أنه وصل إلى منصب الوزارة .

وفي قرطبة تولى ابن حزم وزارته المشهورة لصديقه الخليفة عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (الخامس) أبي المطرف المستظهر بالله بويغ له بالخلافة بقرطبة في رمضان سنة (٤١٤ هـ) بعد ذهاب دولة بني حمود وانقراضها من قرطبة (١) .

ولم تدم وزارته تلك أكثر من سبعة وأربعين يوماً ، إذ ثار على المستظهر ابن عمه المستكفي في طائفة من أراذل العوام ، فقتله لثلاث بقين من ذى القعدة من السنة نفسها (٢) .

وبعد ذلك بعدة سنوات عاد ابن حزم إلى الوزارة أيام هشام بن المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذى تولى بين سنتي (٤١٨ هـ - ٤٢٤ هـ) (٣)

ومع ذلك فلم تستطع هذه الفترات الوجيزة أن تعطينا صورة عن مدى أسلوب ابن حزم فى الوزارة ، كما أن الظروف السياسية العامة واشتراك غيره معه فى الوزارة - لم يمكناه - فيما نعتقد - من أن يبرز شخصيته وكفايته ، أو يحقق طموحه السياسى ، ويوطد لأسرته فى الوزارة أو لبنى أمية فى الحكم .

« ولم يعرف أن ابن حزم تقلد منصباً آخر لا قضائياً ولا علمياً ولا وزارياً بعد ذلك ، فقد طلق المناصب الدنيوية (٤) وانصرف إلى محاولة التربع على عرش العلم ، أو قل إنه عرف أن طبيعته النفسية والخلقية لا تتحمل طرق الوصول إليها وأعبائها ، كما أن هذه المناصب قد فقدت احترامها . وبالتالي فلم يمش

(١) ابن الأثير : الحلة السراء ٢ - ١٢ ، ١٣ وانظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢١٤ .

(٢) المكان السابق .

(٣) انظر باقوت المعجم ١٢ - ٢٣٧ وسعيد الأفغاني : ابن حزم ورسالته ٢٥ ، ٢٧ .

(٤) محمد أبو زهرة : ابن حزم الفقيه الذى عالج الحب مقال العربى ٥٧ .

ابن حزم فى طريقها ... ورأى أنه خلق لطريق آخر ، فنبذ هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن ^(١) .

رحلاته :



كانت رحلات ابن حزم سياسية اضطرارية . ويمكن تسميتها « بالهجرات » الإجبارية المصحوبة بالألم والتوجع والحسرة :

لم تستقر به دار ولا وطن ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من رهو السحاب فما تزال ريح إلى الآفاق تدفعه
كأنما هو توحيد تضيق به نفس الكفور فتأبى حين تودعه ^(٢)

ولم يتمن ابن حزم الخروج من قرطبة إلا ليزور المشرق ، حيث كانت بغداد قبلة العلوم ، وكعبة الفكر الإسلامى ، حتى إن أهل الأندلس لم يكونوا يجلون عالماً مهما سما قدره إلا إذا زار المشرق ولاسيما بغداد ، فكأنما كانت بغداد والعواصم المشرقية هى التى تملك تأهيل العلماء ، والاعتراف بكفائتهم . يقول ابن حزم مصوراً هذا الأمل ، ومنوهاً بمكانته إن وصل إلى بغداد :

ولى نحو أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فحيث يدو التأسف والكرب
هنالك تدرى أن للبعد غصة وأن كساد العلم آفته القرب ^(٣)

ويجمل ابن حزم أسباب تركه قرطبة وتنقلاته بين المدن الأندلسية فى قوله :

« ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب الغربى بقرطبة ونزولهم فيها وتقلبت بى الأمور إلى الخروج من قرطبة وسكنى مدينة المرية » ^(٤) .

(١) ياقوت : المعجم ١٢ - ٢٣٧ وانظر عبد الكريم خليفة: ابن حزم - ٦١ .

(٢) الطوق ١١٣ .

(٣) الذخيرة ١ - ١ - ١٤٥ ، وياقوت: معجم الأدباء ١٢ - ٢٤٥ والمقرئ: النفع ٢ - ٢٨٦ عيسى الدين .

(٤) الطوق ١٥٤ .

وبعد استقرار دام ثلاث سنوات بالمرية نفاه صاحبها خيران إلى حصن القصر بإشبيلية حيث عاش شهوراً سعيدة ، ثم هاجر منها إلى بلنسية لأغراض سياسية وفى نهاية هذا الشوط الأول عاد إلى قرطبة .

وفى كل ذلك كان شعور ابن حزم أنه المطارد المبعد عن الوطن والأهل والولد ، الخائف على نفسه من الظلم والعدوان ، وهو يعلن ذلك ولا يستره (١) .

أما عن هجرته فى النصف الآخر من حياته ، بعد أن نبذ طريق الوزارة وتفرغ للعلوم - فيوضح لنا أسبابها معاصره ابن حيان فى قوله :

« كان ابن حزم يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه على استرسال فى طباعه ، وبذل بأسراره (.....) فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقه بتدريج (.....) فنفر عنه القلوب (.....) حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فمالوا على بغضه ورد أقواله فأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنه (.....) وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسرونه عن بلادهم » (٢) .

وفى هذا الدور من رحلاته لجأ ابن حزم مرة أخرى إلى الأقاليم الشرقية الأندلسية بحكم طابعها العامرى وقربها من الأموية (٣) ، فذهب أول أمره إلى شاطبة (Jativa) إحدى مدن إمارة بلنسية التى ذهب إليها أيام المرتضى ثم تنقل بين مدن الأندلس ، فزار قلعة البونت ، ولجأ إلى ميورقة فى حماية واليها أحمد ابن رشيق أبى العباس الذى كان يميل إلى الحديث والفقهاء (٤) ، وقد وصفه الحميدى بقوله : ما رأينا من أهل الرئاسة من يجرى مجراه مع هبة مفرطة وتواضع عرف به مع القدرة توفى بعد (٤٤٠ هـ) .

(١) التقريب لحد المنطق ٢٠٠ .

(٢) ابن بسام : اللخيرة ١ - ١ - ١٤١ .

(٣) د - طه الحاجرى ١٥٣ .

(٤) انظر ابن الأبار : الحلة السبراء ٢ - ٢٨ .

وفى ميورقة ظهر لابن حزم عدو لدود هو أبو عبد الله محمد بن سعيد الميورقي أحد المالكية المتعصبين الذين تصدروا بميورقة لتدريس الفقه وأصوله والفتيا ، فكان طبيعياً أن يحقق على ابن حزم الظاهري ، وأن يعجز عن مجاراته فما إن سمع بوصول أبو الوليد الباجي من رحلته إلى المشرق حتى كتب إليه يستقدمه إلى ميورقة^(١) ، وتعاون معه - محرضاً للجماهير - على ابن حزم حتى تمكنوا من إجلائه عنها بعد مناظرات كثيرة^(٢) .

وقد اضطر إلى الذهاب إلى أشبيلية لكن لم يلبث أن كاد له فقهاؤها وأخرجوه منها بعد أن أفسدوا بينه وبين المعتضد بن عباد^(٣) ... فأنهى المطاف به أخيراً إلى « لبله » موطن أسرته ومنبت أرومته . وهناك أمضى بقية حياته ، وانتهى تاريخه حيث بدأ تاريخ أسرته .

كيف كان حصاد هذه الرحلات ؟ :



إننا نستطيع أن نقول إن هذا الجو النفسى المضطرب ، الذى عاش فيه ابن حزم كان كفيلاً بتدمير فكره ، وتحويله إلى شخص عادى ، لو لم يكن هذا الرجل من طراز غريب شاذ .

فمع هذه الفتن والدسائس التى عاش فيها ، ومع أن هناك بالتأكيد آثاراً سلبية يمكن أن تكون هذه الاضطرابات قد عكستها على فكر ابن حزم أسلوباً ومضموناً إلا أن إنتاجه العلمى لم يتوقف ، ومعاركه دفاعاً عن آرائه كانت تحتدم كلما نزلت به نازلة .

وهو يلخص لنا نفسيته العجيبة ، وشغفه الفكرى ، بالرغم من كل ما يحيط به ، حين يقص علينا قصة من قصصه فى المعتقلات ، فيقول :

(١) عبد المجيد التركى : مناظرات ابن حزم والباجي ٤٦ .
(٢) انظر المراكشي : الدليل ، التكملة - السفر السادس ص ٢١٦ بتحقيق د - إحسان عباس وانظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢١٥ .
(٣) انظر ابن حزم فى قرطبة بلاسيوث صفحة ٢٣٥ .

« وأحدثك في ذلك بما نرجو أن ينقطع به قارئه إن شاء الله ، وذلك أنى كنت معتقلا في يد الملقب المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر في مطبق . وكنت لا آمن قتله لأنه كان سلطاناً جائراً ظالماً عادياً قليل الدين كثير الجهل غير مأمون ولا مثبت ، وكان ذنبنا عنده ، صحبتنا للمستظهر رضى الله عنه . وكان العيارون قد انتزوا بهذا الخاسر على المستظهر فقتله ، واستولى على الأمر واعتقلنا حيث ذكرنا ، وكنت مفكراً في مسألة عويصة من كليات الجمل التى تقع تحتها معان عظيمة كثر فيها الشغب قديماً وحديثاً فى أحكام الديانة ، وهى متصرفة الفروع فى جميع أبواب الفقه ، فطالت فكرتى فيها أياماً وليالى ، إلى أن لاح لى وجه البيان فيها ، وصح لى وحق لى الحق يقينا فى حكمها وانبلج ، وأنا فى الحال الذى وصفت . فبالله الذى لا إله إلا هو الخالق الأول مدبر الأمور كلها أقسم بالذى لا يجوز القسم بسواه ، لقد كان سرورى يومئذ وأنا فى تلك الحال بظفرى بالحق فيما كنت مشغول البال به ، وإشراف الصواب لى ، أشد من سرورى بإطلاق مما كنت فيه . وما ألفنا كتابنا هذا وكثيراً مما ألفنا إلا ونحن معربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد ، مخافون مع ذلك فى أنفسنا ظلماً وعدواناً^(١) .

لقد تابع فى المرية عند خروجه الأول من قرطبة من تحصيل العلم الذى فاته ما لم يستطع أن يحصله فى حياته المحدودة الأولى^(٢) ..

ويحدثنا ابن حزم أنه كان متصلاً فى المرية بطبيب إسرائيلي هو اسماعيل بن يونس كان يجلس فى دكانه^(٣) ... ويبدو أنه كانت بينهما مناقشات وجهت نظر ابن حزم إلى دراسة الملل والنحل^(٤) . ويرجع الدكتور طه الحاجرى أن ابن حزم التقى واسماعيل بن النغيلة لأول مرة فى المرية أيضاً ، على أساس

(١) الضريب لحد المنطق ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٢) د - طه الحاجرى ٨٧ .

(٣) الطوق ٣٥ .

(٤) د - طه الحاجرى ٨٨ .

أنه ناظره في سنة (٤٠٤ هـ)^(١) ، وابن حزم كان في هذه السنة في المرية .
لكن من المؤكد أن ابن حزم عاش جزءاً من هذه السنة أيضاً في قرطبة . قبل أن
يهاجر هجرته الأولى .

وفي المرية رأى ابن حزم بعض المناظرات ، واطلع على بعض مبادئ ابن
مسرة الباطنية ، وعلى بعض آراء المعتزلة . والمرجح أن المرية كانت في ظل الأمن
النسبي الذي يسودها أيام خيران الأولى - تعج بحركة جدلية فكرية نشطة حتى
في مسائل الحب^(٢) - وفي شاطبة ، بعد أن غادر ابن حزم في الدورة الثانية من
عمره ، وضع كتابه طوق الحمامة ، وهو بين هذا في صدر كتاب الطوق^(٣)
الذي كتبه تنفيساً عن نفسه ، وتأريخاً لرصيد يملكه منذ أيامه الأولى التي مازال
يحن إليها ... فهو في الحقيقة ذكريات سجلها ابن حزم عن مجده وحياته في
قرطبة بعد أن خرج منها دون أمل في العودة إليها .

وفي شاطبة بدأ يضع تخطيطاً لكتابه الموسوعي « الفصل » ، ويكتب بعض
فصوله ، كما أنه كتب بعض كتبه الأخرى .

أما في « قلعة البونت » فقد كتب كتابه « فضائل علماء الأندلس » استجابة ،
كما يقول - لرغبة صاحبها أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن قاسم^(٤) .

وفي ميورقة - قصبة الجزر الشرقية - وتحت رعاية واليها المجاهد ابن
عبد الله العامري ونائبه أحمد بن رشيق - أتيح لابن حزم أن يجاهر بمذهبه الظاهري
ويدعو إليه ، وينافح عنه ، ويكون مدرسة فقهية تاريخية على رأسها تلميذه
أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي .

ولما يمس فقهاء ميورقة ورئيسهم محمد بن سعيد الميورقي من الانتصار
عليه استجلبوا له أبا الوليد الباجي - كما ذكرنا - وكان هذا الأخير مرناً ، قادراً
على كسب قلوب الحكام ، وتأيد الجماهير وتأليبهم فاضطر ابن حزم إلى مغادرة

(١) المكان السابق .

(٢) انظر الطوق ٧٤ .

(٣) انظر الطوق ١٤ ، ١٥ .

(٤) فضائل علماء الأندلس ص ٥ .

ميورقة إلى أشبيلية حيث كان سلوكه هناك على نحو سلوكه في ميورقة ... فكاد له الفقهاء على نحو ما كادوا له قبل ذلك ... فرأى أنه لن تستقر له حياة إلا بعودته إلى منبت رأس أسرته « منت ليشم » من أعمال (لبله) فعاد إليها . بادئاً دوراً جديداً في حياته ... اتصل به جبل لإنتاجه العلمى ، ودفاعه عن مبادئه ، وتكوينه لمدرسة فكرية ، بالقدر الذى تتيحه البيئة الجديدة .

معاصروه :



ويبدو هنا من الضرورى بمكان الحديث عن معاصرى ابن حزم الذين كانت لهم منه - وله منهم - مواقف متباينة - بسبب من اختلاف المشارب الفكرية والسياسية ، والتنافس على الجاه والمال ، والحقد الذى يتولد أحياناً من مجرد الضعف عن مجاراة الآخرين .

وقد انقسم معاصرو ابن حزم ... بالنسبة لموقفهم منه إلى أقسام ثلاثة : قسم أساء إليه بدافع الخلاف المذهبى ، ولجأ إلى ابن حزم على الأئمة ، ولافتقاده سياسة العلم ، فلم يكن يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ، بل كان يصلح برأيه معارضيه صك الجندل ، ويرميه به رمية تشبه انشقاق الخردل ، حتى نفر منه القلوب وتوقع به الندوب ، فمال هؤلاء عليه ، يشنعون ، ويكفرون ويحذرون السلاطين والعوام من آرائه (١) . حتى أقصوه إلى قرطبة ، وأحرقوا كتبه . وكان جمهرة صغار الفقهاء المتعصبون المالكيون ، والعامّة ، هم هذا الصنف .

وقد برز فى عدائه لابن حزم من هذا الصنف : الفقيه المالكى القاضى أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى (٢) . وأصله من باجة الأندلس ، وكان قد رحل إلى الحجاز والعراق ، ولقى العلماء (٣) . وجال بها مدة ثلاثة عشر

(١) باقوت : المعجم ١٢ - ٢٤٨ .

(٢) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ٩٥ .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ٣٦ ، وقد توفى الباجى سنة ٤٧٤ هـ بالمرية وقبره فى الرباط ومن تصانيفه شرحه للموطأ ، والتعديل والتجريح وسبيل المهتدين وسنة المنهاج والإشارة فى الأصول وكتاب الحدود وغيرها (انظر الأماكن السابقة وانظر مكى بن أبى طالب رسالة دكتوراه لأحمد فرحات ص ٤٣) .

عاماً^(١)، فلما عاد، من رحلته، وجد لابن حزم الغلبة على مالكية الأندلس^(٢) حيث عجز الأخيرون عن مقارعة ابن حزم، وكان كما يقول المؤرخون - قد عاد من رحلته بعلم جم وسمع الكثير، وبرع في الحديث والفقه والأصول والنظر^(٣). فاستعداه المالكية على ابن حزم، فقدم إليه في جزيرة ميورقة حيث ناصره العامة وصغار الفقهاء على ابن حزم حتى أخرجوه منها^(٤).

ومع أن كثيراً من المؤرخين قد غمزوا الباجي في أخلاقه، إذ ولي قضاء أماكن تصغر عن قدره، وداخل الرؤساء حتى كثرت فيه القالة، وقصدهم بشعره يرجو جوائزهم^(٥)، بل غمزوه في دينه، حيث قال بأن النبي ليس أمياً، وأنه كتب بيديه يوم صلح الحديبية^(٦) إلا أن ابن حزم لم يبخسه حقه، ولم تجعله الحصومة يسفل، بل قال فيه: «لو لم يكن لهؤلاء - أى المالكية بعد القاضي عبد الوهاب إلا الباجي - لكفاهم»^(٧)..

وقد نال ابن حزم من هذا الفريق كل الأذى، وعاش مطارداً، قلقاً، بسببهم. كما أن النظرات القائمة التي تناثرت في كتابات ابن حزم، وبخاصة في رسالته عن الأخلاق والسير «مداواة النفوس» إنما كان مبعثها هذا الصنف الذي لم يرع للعلم حرمة، ولم يحترم حرية الفكر، وسفل إلى مستوى الكيد والدس وتسليط الكبار والعامة، وضيق دين الله الواسع.

(١) الصبي: البنية ٢٠٣ والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس ٩٥.

(٢) المقرئ: النفع ٢ - ٢٧٣ (عبي الدين).

(٣) الصبي: البنية ٣٠٣ وابن العماد: الشذرات ٣ - ٣٤٥ والفتح بن خاقان: القلائد ٢١٥، ٢١٦، وعن ابن خلدون: الطوائف ٤٣٣.

(٤) انظر عبد المجيد تركي ص ٥٢.

(٥) المقرئ: النفع ٢ - ٢٧٣ (عبي الدين) والنباهي: قضاة الأندلس ٩٥.

(٦) النباهي: قصة الأندلس ٢٠٢ والمقرئ ٢ - ٢٧٣.

(٧) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٤ - ٨٠٣ بتحقيق د - أحمد بكير عمود.

أما القسم الثاني فهو قسم اختلف مع ابن حزم فى الرأى ، ونقد ابن حزم ، لكنه ظل محايداً ، وحافظ على مستوى أخلاقى يليق بالعلماء . ومن هذا الصنف كان العلامة الحافظ (أبو بكر يوسف بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي) أحد الأعلام ، وصاحب التصانيف الكثيرة^(١) .

وكان لابن عبد البر نقد للظاهرية^(٢) وقد رد على ابن حزم رداً شديداً فى رأيه الذى يذهب فيه إلى أن تارك الصلاة عمداً لا يجوز له قضاؤها كصلاة فائتة^(٣) ومع ذلك فقد أثنى عليه ابن حزم فى رسالته فى فضائل الأندلس ، واعتبره من مفاخرها العالية^(٤) .

ومن هذا القسم المحايد كذلك - ابن حيان ، الذى قوم ابن حزم بطريقة أقرب ما تكون إلى العدل^(٥) وقد عزا ابن حيان - على الرغم من بعض تحامله على ابن حزم - ما أصاب ابن حزم من الفقهاء إلى أنه « من الحسد الذى لا دواء له ، لأن أزهد الناس فى العالم أهله »^(٦) .

ويعقب الدكتور - محمود على مكى ، على رأى ابن حيان فى ابن حزم فيقول :

« ولسنا نعلم أحداً عرف كيف يغوص على حقيقة ابن حزم وقيمة جهده وما له وما عليه كما فعل ابن حيان »^(٧) ... والحقيقة أن ابن حيان لم يخل من

(١) انظر الحسبى : الجنبوة ٣٦٧ ، والضئى : البغية ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، وابن العماد: الشئرات ٣ - ٣١٤ ، ٣١٥ .

(وقد ولد فى سنة ٣٦٨ هـ وتوفى سنة ٤٦٠ هـ) .

(٢) انظر ابن عبد البر الاستذكار ١٠٦ .

(٣) ابن عبد البر : الاستذكار ص ١٠٢ .

(٤) انظر ص ١٤ .

(٥) انظر ابن بسام : الذخيرة ١ - ١ - ١٤١ وانظر المقتبس: بتحقيق الدكتور محمود مكى ص ١٣٥ وياقوت: معجم

الأدباء ١٢ - ٢٣٤ وما بعدها .

(٦) المقتبس ١٣٥ والأماكن السابقة .

(٧) المقتبس (١٣٥) مقدمة .

حسد على ابن حزم ، كما أنه ذو طبيعة هجاء لكنه حاول الحفاظ على أخلاق العلماء ، في خلافه مع ابن حزم ، وتلك كانت الميزة التي كان يسعى إليها ابن حزم في علاقته بمعاصريه .

والقسم الثالث من هذه الأقسام هم أصدقاء ابن حزم ، الذين ربطتهم به علاقة صداقة خاصة ، لم يدخل فيها الجدل الفكري ، ولا إبراز الخلاف في الرأي ، ومن هؤلاء صاحبه أبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمي المعروف بابن الطيني ، الذي أورد ابن حزم خلاصة جيدة لعلاقته به في كتابه الطوق^(١) وكيف كانا يتهاديان الود شعراً . وقد رثاه ابن حزم بقصيدته منها :

لئن سترتك بطون اللحد	فوجدى بعدك لا يستتر
قصدت ديارك قصد المشوق	وللدهر فينا كرور ومسر
فألفيتها منك قفراً خلاء	فأسكبت عيني عليك العبر ^(٢)

ومن هؤلاء أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد^(٣) صاحب التوابع والزوابع ، وأحد أعلام الأندلس في الأدب والشعر^(٤) وقد وزرا معاً للمستظهر ، وعملاً معاً في خدمة المعتد بالله^(٥) .

وفي مرض ابن شهيد الذي مات فيه أرسل إلى ابن حزم قصيدة يتوج بها هذه العلاقة منها :

كأنى وقد حان ارتحالي لم أفر	قديماً من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي	يداً في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق	وحسبك زاداً من حبيب مفارق ^(٦)

(١) المقنيس صفحات ١٥٤ - ١٥٩ .

(٢) المكان السابق .

(٣) ولد سنة ٣٨٢ ومات سنة ٤٢٦ هـ ، انظر ترجمته في الحميدي : ١٣٣ والضيبي : ١٩١ وأحمد أمين ظهر الإسلام

٣ - ٢١٠ والحاجري ص ١١٣ وما بعدها وغومس : الشعر الأندلسي ٣٩ .

(٤) د - إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ٢٧٠ وما بعدها .

(٥) المرجع السابق ٢٧٨ .

(٦) ديوان ابن شهيد بتحقيق يعقوب زكي ١٣٤ .

ومن الأصدقاء الذين اعترف ابن حزم بإخلاصهم وذهبهم عنه أشد الذب :
القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر ، وأبو عبد الله محمد ابن
علي بن عبد الرؤوف الحكم ، وأبو العاصي حكم بن سعيد ، ويونس بن عبد الله
ابن مغيث وأبو جعفر أحمد بن عباس ، وأبو العباس أحمد بن رشيق ^(١) صاحب
ميوزة ^(٢) وقد عاصر ابن حزم مفكرون وأدباء كثيرون ، لكن لم تكن له بهم
علاقة ، وربما كانت الأحوال المضطربة ، وتقلب الناس في الفتن ، وابتعاد
ابن حزم عن بحارها وطبيعة ابن حزم الواضحة . بعض أسباب ذلك .

أخلاقه :



أبرز أخلاق ابن حزم صفتان تتفرع عنهما كل سلوكياته ، ما قبله الناس ،
وما لم يقبلوه وهما : وفاؤه وتدينه . وهو يقول لنا عن وفائه :

« ولقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بلقية واحدة ووهبني
من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثة ساعة حظاً ، أنا له شاكر وحامد ، ومنه
مستمد ومستزيد . وما شيء أثقل على من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط
في الفكر في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته وكثرت إلى
ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوء إلا بالحسنى .
والحمد لله على ذلك كثيراً » ^(٣) .

ويقول : « وكذلك أنا في السلو والتوفى فما نسيت ودأ قط ، وإن حنيني
إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه
صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرع إلى الأنس لشيء قط
أول لقائي به . ولا رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت » ^(٤) .

(١) رسائل ابن حزم ٢٣ (رسالة البيان)

(٢) انظر ترجمته في الحميدى : الجلود ١٢٢ - ١٢٣ وابن الأبار : الحلة السواء ٢ - ١١٨ .

(٣) الطوق ١١٣ .

(٤) الطوق ٤٤ .

أما عن تدينه فحسبك منه أنه عاش في ظروف تدعو كلها إلى المعصية ومع ذلك « فيعلم الله أنه برىء الساحة ، سليم الإدام ، صحيح البشرة ، نقي الحجة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أننى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا »^(١) .

وفى غير موضع من الطوق يروى لنا قصصاً تؤيد تدينه^(٢) ، ونحن لا ننتهمه بالكذب ، لأنه قد ذكر لنا جريمة الكذب فى غير موضع على أنها من أكبر الكبائر ، بل يعتبر الكذب : أصل كل فاحشة وجامع كل سوء ، وجالبا لمقت الله عز وجل (...) وهل الكفر إلا كذب على الله . والله الحق وهو يحب الحق . وما رأيت أخزى من كذاب . وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمائ والكذب^(٣) ، وما قال ابن حيان على ابن حزم من جهله « بسياسة العلم » لحدة فيه وشدة عارضته فى الرد على الخصوم وعدم الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة فى التوجيه ، إنما يرجع فى رأينا إلى فيض عاطفى أصيل احتبسه التدين فى نفسه^(٤) هذا إلى ما قاله هو عن علة الطحال التى أصيب بها ، وأنها كانت سبب ضميره وضيق خلقه وقلة صبره ونزقه^(٥) وربما كانت « ألوان الظلم التى لحقت به هى التى أنضبت معين اللين والركة فى نفسه »^(٦) .

ومع ذلك فابن حيان يكاد يفسر لنا سبب حدة ابن حزم حين يقول عنه إنه كان يحمل علمه هذا ويجادل من يخافه فيه على استرسال فى طباعه ، وبذل بأسراره واستناد إلى العهد الذى أخذه الله على العلماء من عباده : « لتبينه للناس ولا تكتُمونه »^(٧) فحدة ابن حزم إنما هى نوع من الصراحة والوضوح

(١) الطوق ١٦٥ .

(٢) الطوق ١٦٦ ، ١٨٨ .

(٣) الطوق ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) د . إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ٣١٦ .

(٥) انظر د - إحسان عباس : رسالة فى مداواة النفوس ص ١٥٥ (من رسائل ابن حزم) .

(٦) انظر بلاشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢١٦ .

(٧) عن ياقوت : المعجم ١٢ - ٢٤٨ .

والشجاعة والجرأة وعدم المداراة والصدق الكامل ... والتدين الذى لا يخشى معه صاحبه إلا رضا الله سبحانه وتعالى ... ويبدو أن هذه الأخلاق كلها قد ضاعت أيام ابن حزم ... فأصبح بها ابن حزم غريباً بين أهله ، جاهلاً بسياسة العلم .
والحق أن ما ورد فى رسالته الرائعة « مداواة النفوس »^(١) يعتبر مرآة تشف عن أخلاق ابن حزم ، وقد لا تكون أخلاقه صورة كاملة لكل ما ورد فيها إلا أنها تجلى لنا أعماق إنسان لم يفهمه عصره ... عصر الفتنة والطوائف !!

وفاته :

وقد أمضى ابن حزم فى قريته « منت ليشم » سنواته الأخيرة التى تقترب من عقدين « يث علمه فىمن يتتابه ببياديته تلك ، من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف والإكثار من التصنيف حتى كمل فى مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير^(٢) » .

وفى ليلة الاثنين ٢٨ من شعبان سنة (٤٥٦ هـ) (١٥ يوليو ١٠٦٤ م)^(٣) وبعد حياة حافلة بالإنتاج العلمى ، والجدال فى الحق ، والصدق فى الإيمان توفى ابن حزم ، بعد عمر يبلغ اثنتين وسبعين سنة ..

(١) بتحقيق الدكتور إحسان عباس ضمن رسائل ابن حزم .
(٢) انظر ابن بسام: الفخيرة ١ - ١ - ١٤٢ وياقوت: معجم الأدياء ١٢ - ٢٤٨ ، ٢٤٩ وانظر د . الحاجرى: صورة أئلسية ٢١٠ وبلانثيا : تاريخ الفكر الأئلسى ٢١٦ .
(٣) انظر : بلاسيوت : ابن حزم لى قرطبة ص ٢٤٠ .

وكأنما كان رحمه الله يرثي نفسه حين قال :
 كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم أودى علي ابن أحمد
 فيارب محزون هناك وضاحك وكم أدمع تدرى ونحد محدد
 عفا الله عني يوم أرحل ظاعناً عن الأهل محمولاً إلى ضيق ملحد
 وأترك ما قد كنت مغتبطاً به وألقى الذي آنست منه بمرصد
 فوا راحتى إن كان زادى مقدما ويا نصيبى إن كنت لم أتزود (١)



(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٢ - ٢٥٣ ، ٢٥٤ .



الفصل الثالث

منهج ابن حزم الفكري

توطئة :



امتاز ابن حزم باتجاهاته وجهوده الكبيرة في نواح متعددة من الفكر . ومع أنه طرق كثيراً من مجالات المعرفة ، كالفقه والأصول ومقارنة الأديان (الملل) والفرق الإسلامية (النحل) ، والأدب شعره ونثره ، واللغة والنحو والمنطق والفلسفة ، والتاريخ ... إلا أن ابن حزم ، في ذلك كله كانت تغلب عليه النزعة الظاهرية ، بحيث يمكننا القول إن ابن حزم لم ينس ظاهريته ، وهو يجوب كل هذه الآفاق ، بل إنه اتخذ من هذه الظاهرية - التي ترفض التأويلات والافتراضات العقلية غير الموضوعية - منهجاً ، حاول تطبيقه على كل هذه المجالات .

وسيدور حديثنا في هذا الفصل عن منهج ابن حزم الفكري ، بادئين « بالظاهرية » التي تمثل أكبر معلم من معالم منهجه الفكري .

أولاً : ظاهرية ابن حزم وأسبابها :



كانت الدراسة الإسلامية - في فكر ابن حزم - من أبرز المجالات التي احتلت جانباً كبيراً في تكوينه الفكري ، وحددت أبعاد شخصيته الثقافية . ويعتبر ابن حزم أصولياً وفقهياً مجتهداً ، سار في دراسته وبحوثه على خطى مدرسة الحديث والأثر ، تلك التي وقفت أمام مدرسة القياس والرأى .

تتلمذ ابن حزم فى تكوينه الإسلامى على المدرسة الأندلسية التى وضعت أسس منهج البحث الفقهى اعتماداً على الأثر^(١) - وكان أساتذة هذه المدرسة هم : بقى بن مخلد ، وقاسم بن أصبغ القرطبى ، وأحمد بن خالد ، ومحمد ابن أيمن^(٢) .

وكان بقى بن مخلد بن يزيد القرطبى (٢٠١ - ٢٧٦ هـ) - تلميذ أحمد بن حنبل - هو إمام هذه المدرسة الأكبر^(٣) .

ويتحدث ابن حزم عن بقى ، فيقول : إن كتابه فى تفسير القرآن ، هو الكتاب الذى أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى^(٤) . وأما مصنفه فى الحديث ، فقد روى فيه ألفاً وثلاثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فى الحديث ، وجودة شيوخته^(٥) .

وكان لقاسم بن أصبغ (٣٤٠ هـ) مصنف فى الحديث^(٦) ، ألفه على أبواب كتاب إسماعيل بن اسحاق القاضى^(٧) ، كما أن له تأليف حساناً جداً منها أحكام القرآن والمجتبى ، وفضائل قريش وكنانة ، والناسخ والمنسوخ ، وغرائب حديث مالك بن أنس مما ليس فى الموطأ^(٨) .

(١) وهناك اتجاه يحمى بن كثير (ت ٢٣٤) التأثير بمالك وهو يعتمد على الأثر أيضاً لكن فى حدود إجهادات مالك ، وليجى هذا فضل انتشار مذهب مالك وسيطرته . وقد تعاون معه معاصره عبد الملك بن حبيب على سيادة المالكية فى الأندلس ، ونحما نجاحاً كبيراً ، وكونا مدرسة مالكية امتدت عبر القرون التالية . وهى المدرسة التى نالأت بشدة مدرسة الاعتماد على الأثر بغير تقييد ملهى ، وهى المدرسة التى انتمى إليها جل الظاهريين (انظر فى هذا موسى لقيال : الحسبة المذهبية فى المغرب العربى نشأتها وتطورها ص ٦٦ وما بعدها) .

(٢) الكتال : معجم فقه ابن حزم ص ٥٢ أبو زهرة ابن حزم : ٢٦٩ . وما بعدها

(٣) انظر القرى : النفع ٣ - ٢ - ٢٧ .

(٤) رسالة فى فضائل الأندلس ١٢ ، وأبو زهرة : ابن حزم : ص ٢٦٩ .

(٥) المصدر السابق ١٢ ، ١٣ .

(٦) المكان السابق وانظر الكتال معجم فقه ابن حزم ٤٥٠

(٧) بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٤٢٠ .

(٨) رسالة الفضائل ١٣ وانظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٣٩٤ وما بعدها .

وقد انضم لهذه المدرسة الأندلسية كثيرون كابن الحمام يعيش بن سعيد المتوفى سنة (٣٩٣ هـ) ، وأبى المطرف بن فطيس المتوفى سنة (٤٠١ هـ) وابن الغرضى ومسعود بن سليمان (شيخ ابن حزم)^(١) .

وكان لأبى سليمان داود بن على بن خلف الأصفهاني المتوفى (٢٧٠ هـ)^(٢) - وهو أول من قال بالظاهرية فى الأندلس - ولتلميذه عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال المتوفى سنة (٢٧٢ هـ) - تأثيرهما الكبير على فكر ابن حزم .

وقد تبعهما القاضى منذر بن سعيد البلوطى المتوفى سنة (٣٥٥ هـ)^(٣) فى اتجاهه الظاهرى ، وقد أتاح له مكانته فى بلاط عبد الرحمن الناصر ، وفى تولي قضاء الجماعة دعم مكانة هذا المذهب الجديد^(٤) ، وإن كان لابن حزم وحده - أكبر الفضل فى بقاء هذا المذهب ، ولولاه لاندثرت فروع هذا المذهب وأصوله فلا تعرف منها إلا ما هو مبثّر فى بطون كتب التفسير ، أو ما يأتى استطراداً فى كتب المذاهب الأخرى^(٥) .

لقد اختار ابن حزم الظاهرية بتأثير ظروف فكرية وتاريخية أوجبت لديه ذلك . ففى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية أصبح الفقهاء أكبر عضد لأمرأ الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم وانحرافهم ، ابتزازاً لأموالهم ، وسعياً وراء المناصب عندهم . وقد ذكر الأستاذ (عنان) أنهم كانوا يأكلون على كل مائدة ، ويتقبلون فى خدمة كل قصر^(٦) ، وقد أفسحت

(١) بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى : ٣٩٥ د : - سلام مذكور : مناهج الاجتهاد ص ٧٠٤ .
(٢) انظر د - سلام مذكور مناهج الاجتهاد فى الاسلام ٦٩٧ وما بعدها ، وانظر آدم حن : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ - ٣٨٩ ، وانظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٤٣٩ .
(٣) انظر : ابن حزم فى قرطبة لبلاسيوت ص ١٣٣ .
(٤) الحشنى : قضاة قرطبة ١٢٠ . وأبو زهرة : ابن حزم ٢٧١ .
(٥) د - سلام مذكور : مناهج الاجتهاد فى الاسلام ٧٠٢ ، ٧٠٣ .
(٦) عنان : دول الطوائف ٤٢١ .

طبيعة عصر الطوائف لهم مجال الاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء (١) .

وقد أتيج لابن حزم أن يقرأ الفقه المالكي ، وغيره من المذاهب ، وأن يمعن في الأحكام التشريعية التي جاءت بها أو دوتها (٢) ... وقد رأى أن من أسباب الخلاف الشديد بينها ، أن القياس وما إليه من الاستحسان قد أصبح مركباً ذلولاً استطاع به جماعة من الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاواهم وبين مقتضيات الحياة الفاسدة التي أطرحت فيها مبادئ الخلق والضمير إطرachاً ، ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخاً ، وأصبح الرجل العاقل فيها هو : « من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد » كما يقول أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم (٣) .

فكانت ظاهرة ابن حزم هي رد الفعل لهذه الوضعية التي سادت عصر الطوائف ، وكان ابن حزم أصح من تظهر على يديه حركة رد الفعل في شكل ثابت قوى ، إذ كان رجلاً عالماً بعلمه ، واسع الاطلاع ، يطلب العلم لله ، ويضع دينه فوق كل مصلحة (٤) .

ونحن نعتقد أنه مما يضاف إلى هذا العامل أن « الفقه » من مصادره الأساسية وفي إطار دوره الاجتماعي والاقتصادي الإيجابي – كان ميداناً لجهاد إلى ابن حزم ... يصلح من خلاله ما فشل في عمله من خلال السياسة .

ومادام ابن حزم قد فشل في تحقيق العلاج عن طريق الساسة والحاكمين ، فقد حاول العلاج عن طريق إصلاح المحكومين ، ذلك بإصلاح فساد الفقه الذي هو سبيل إصلاح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والخلقية . بل إن مجال الفقه يمكن أن يتيج لابن حزم من طريق آخر إصلاح السياسة نفسها عن طريق إشاعة نظام

(١) عنان : دول الطوائف ٤٢١

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم .

(٣) مبروك العوادي : ابن حزم الطاهري مقال بمجلة الأصالة الجزائرية مايو ١٩٧٥ م ، ود - الحاجري : ١٢٧ .

(٤) للكان السابق وانظر د - طه الحاجري ص ١٢٠ - ١٢٣ .

سياسى إسلامى يعيه طالبو العلم والمتعلمون ، وبعضهم يصل إلى مناصب القيادة الدينية والدنيوية ، ويملك التأثير على الحاكم ، وعلى المحكومين .

لقد سبر ابن حزم غور المجتمع الأندلسى بكل طبقاته ، وشهد من المهازل التى تجرى على مسرح السياسة باسم الشريعة ، ما جعله يقتنع بأن هذه الموبقات والمفاسد والانحرافات إنما وقعت فى غيبة الشريعة الإسلامية ، وفى تجاوز دلالاتها الصريحة ، وتأويلها باسم القياس والاستحسان والتعليل^(١) ... ومن هنا دخل إلى باب الفقه ليصلح به الراعى والرعية ، واختار المذهب الظاهرى لأنه المذهب الذى يوجب الاجتهاد ويمنع التلاعب بالنصوص ، ويحقق له غرضه من أقرب طريق .

وقد تدرج ابن حزم المجتهد من المذهب المالكى السائد ، إلى المذهب الشافعى ، ثم انتهى به الأمر إلى المذهب الظاهرى ، لكنه لم يكن فيه كشأن تابعى المذاهب ، وإنما خالف فيه داود فى كثير من المسائل الأساسية ، بحيث يمكن القول بأن ظاهرته منهجية لا مذهبية^(٢) وبأن لابن حزم نظراته الخاصة ، التى جعلت كثيرين يسمون اجتهاده الفقهى ، بالمذهب « الحزمى » أو « الحزمية » .

وقد ذهب بعض من أرخوا لابن حزم إلى أنه نشأ شافعيًا . والحق الذى نراه أنه نشأ مالكيًا شأنه شأن الأندلسيين الذين خضعوا أول أمرهم للمذهب السائد والرسمى . وما كان اتجاه ابن حزم للمذهب الشافعى إلا بعد نضج ووعى . وقد ذهب إلى هذا رأى الشيخ محمد أبو زهرة^(٣) ، والدكتور محمد سلام مذكور^(٤) والدكتور عبد الله الزايد^(٥) ، وإن كان قد مال إلى الرأى الأول كثيرون^(٦) .

(١) انظر عبد اللطيف شرارة : ابن حزم رائد الفكر العلمى ص ٦٦ .

(٢) د - عبد الله الزايد - ابن حزم الأصولى ٦٣٥ .

(٣) ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه ٣٦ .

(٤) مناهج الاجتهاد فى الاسلام ٧٠٤ .

(٥) ابن حزم الأصولى ص ٧١ رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر .

(٦) انظر : سعيد الأفغانى : ابن حزم ورسائله ٦١ ، د . طه الحاجرى : ابن حزم صورة أندلسية ١١٨ .

على أن ابن حزم وإن بين لنا خصائص الظاهرية ومعالم منهجه فيها ، فإنه لم يضع لنا تعريفاً محدداً لها ، وليس في موسوعته الظاهرية « المحلى » ولا في كتبه الأخرى تعرض مباشرة لمعنى الظاهرية .

وعندما عقد ابن حزم فصلاً خاصاً عن « حمل الأوامر والأخبار على ظواهرها »^(١) اكتفى بتقديم أدلته ، ونقض أدلة المخالفين ، دون أن يمهد لذلك ببيان معنى الظاهر^(٢) ، ولعل مرجع ذلك إلى وضوح معنى الظاهر في ذهنه ، أو لأنه شرح معنى الظاهر في بعض كتبه المفقودة^(٣) مثل كشف الالتباس ، أو الإيصال أو غيرهما .

ولكننا من خلال حديث ابن حزم نستخلص أنه استعمل الظاهر بمعنى الخروج من الخفاء - أى التأويل - إلى المعنى الواضح البارز بذاته الذى يستنبطه العقل على البديهة بحكم منطوق اللغة ودلالة مفهوم خطابه الذى يبدو للسامع^(٤) وفق استعمال العرف والعادة . وذلك فى إطار المصدرين الثابتين : القرآن والسنة . بحيث يمكن القول بأن شرح أفكاره ليس سوى تنسيق مختصر ومنتخب من المصطلحات المتفرقة فى القرآن والأحاديث .

ومن قول ابن حزم المبين لذلك : « واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته . كله برهان لا مسامحة فيه . واتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان ، وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً فهى دعاوى ومخارق ، واعلموا أن رسول الله لم يكتف من الشريعة كلمة فما فوقها (.....) ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن »^(٥) .

(١) انظر الإحكام الجزء الثالث (الباب الثانى عشر) .

(٢) انظر أبو عبد الرحمن بن عقيل : الظاهرية ومثلولاها بين اللغة والاصطلاح الأصول ، مقال بمجلة الدعوة السمودية عدد ٤١٧ (٦ - ٨ - ١٣٩٣ هـ) .

(٣) المكان السابق .

(٤) انظر ابن حزم : الرد على ابن النغيلة ص ٩٤ .

(٥) الفصل ٢ - ١١٦ .

وفى هذا المعنى يقول شعراً منه :

فألوا تحفظ فإن الناس قد كثرت
فقلت هل عيهم لى غير أنى لا
وأنتى مولع بالنص لست إلى
لا أنثنى نحو آراء يقال بها
ويقول :

أنائم أنت عن كتب الحديث وما
لمسلم والبخارى اللذين هما
أولى برأى وتعظيم ومحمدة
أتى عن المصطفى فيها من الدين
شدا عرا الدين فى رأى وتبيين
من كل قول أتى من رأى سحنون^(١)

فليس صحيحاً إذن ما ذهب إليه الأستاذ عباس محمود العقاد^(٢)
والدكتور ممدوح حقى^(٣) وكارل بروكلمان^(٤) من أن الظاهرية ما نشأت ،
وسميت بهذا الاسم إلا على سبيل المقابلة بينها وبين الباطنية الاسماعيلية والصوفية
والخرافات .

وقد رأى الأستاذ عباس محمود العقاد أن البواعث التاريخية لنشأة الظاهرية
تنحصر فى باعثن :

الأول : أن هذا المذهب الظاهرى نشأ ليقاوم الباطنية من الناحية الفكرية
ولينكر الحاجة إلى إمام مستتر .

الثانى : أنه قد ابتعثه دواعى السياسة فى المغرب .

وما يقال عن هذه المقابلة بين الظاهرية (التى هى اجتهاد فى الفروع)
والباطنية (التى هى تحريف فى الأصول) مردود من عدة وجوه :

(١) حجة الوداع ٢٥ (مقدمة الدكتور ممدوح حقى) .

(٢) انظر التفكير فريضة إسلامية ١٢٩ ، ١٣٢ .

(٣) حجة الوداع (٢٠) مقدمة .

(٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ٣١٤ .

١ - أن الظاهرية قد نشأت على يد داود قبل ظهور الباطنية ، وبينهما ما لا يقل عن ثلاثة عقود .

٢ - أنه لم يعرف لداود اتصال بالباطنية أو مناقضات مع أعلامهم^(١) .

٣ - أنه لو كانت الظاهرية رد فعل للباطنية لما وقف منها أصحاب المذاهب هذا الموقف فهم بدورهم يقاومون الباطنية شأنهم كسائر المسلمين .

٤ - أن ابن حزم لم يشغل نفسه بالباطنية^(٢) - في كتبه ومعاركه الفكرية - إلا بقدر لا تزيد فيه على غيرهم من الفرق الضالة .

وهذا على العكس من مناقشاته في المحلى ، والإحكام في أصول الأحكام وإبطال القياس وملخص الإبطال والنبد والرسائل لأصحاب المذاهب ، وعلى رأسهم الحنفية والمالكية .

وهي كلها مناقشات تؤكد أن الظاهرية مذهب فقهي يتحدث في الفروع ويستنبط الأحكام من القرآن والسنة شأنه شأن بقية المذاهب وإن كانت له سماته الخاصة .

ونحن نستطيع أن نوجز المعالم الأساسية لمنهج ابن حزم الظاهري في مجال البحث الديني في النقاط التالية :

١- الالتزام بالنص قرآنا أو سنة ثابتة في حدود المعنى الظاهر بحكم دلالة اللغة الواضحة - كما بينا سلفاً .

٢- الاعتراف بإجماع الصحابة ومن يجيء بعدهم ، كمصدر للتشريع ورفض القياس والاستحسان وسد الذرائع وغيرها . ويضاف إلى الإجماع مصدر يسمى الدليل وهو أمر مولد من النص أو الإجماع وليس حملا عليهما .

٣- إيراد حجج الخصوم ، واعتبار التجنى على الخصوم والتقول عليهم بما لم يقولوا جريمة في البحث الديني .

(١) أبو عبد الرحمن بن عقيل : نظرات لاهقة ص ٢٩ مطابع الشهري ١٣٩٦ هـ الرياض ط ١ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

٤- المساواة بين الصحابة وقد يؤخذ كلام بعضهم ويترك كلام البعض ، واما ما اختلف فيه الصحابة فليس قول بعضهم أولى من قول بعض ^(١) « ومن جاء بعدهم أولى بذلك . والشرعة وحدها هي المتقيد بها » .

٥- النظر إلى أئمة المذاهب نظرة متساوية لأنه لا معنى للتعصب لمالك دون الشافعي ، أو غيره .

٦- رفض التقليد « ويكفي أن القائلين به مقرون على أنفسهم بأنه لا يحل ^(٢) فلا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان » ^(٣) .

٧- الاهتمام بالمصادر الكثيرة ، لكنه يكتفى بذكر أصحابها في مجال الاستشهاد بأرائهم أو مخالفتها ، مثل البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي ومالك وأحمد والبخاري ، والحاكم ، وغيرهم . وكثرة المطالعة لكل الآراء ^(٤) .

٨- لا حجة في الكثرة « فإذا خالف واحد من العلماء جماعة فلا حجة في الكثرة لأن الله تعالى يقول ، وقد ذكر أهل الفضل : ﴿ وقليل ما هم ﴾ ^(٥) .

٩- العبرة في الأمور بالفعل فإذا روى عن صحابي حديث عن النبي ﷺ ، ثم روى عن ذلك الصحابي فعل خلافه ، فيؤخذ فعله ويترك ما روى عنه ^(٦) .

- ١٠- رفض التعليل فالشرعية تعبدية ، والمعقول منها نص الله على معقوليته .
- ١١- وطريقته أن يبدأ المسألة ثم يقول : قال أبو محمد - وهي كنيته - أو قال « على » وهو اسمه - ثم يذكر فقهه ، ثم يستدل عليه بآية أو حديث بسنده إلى النبي ﷺ ، من طرق مختلفة . وقد يستدل بالإجماع الذي هو عنده

(١) الرد على ابن النخيلة ٨٩ .
(٢) انظر ابن حزم : ملخص الإبطال ٥٢ وما بعدها ، وانظر الإحكام في أصول الأحكام ، الباب السادس والفلان (وكله خاص بإبطال التقليد) .
(٣) النيز ص ٥٤ وينظر ورقة ٢٢٨ من مخطوطة (رسالة في الإمامة) شهيد على .
(٤) الكتاني : معجم فقه ابن حزم ٨١ ، وانظر التقريب ١٩٨ ، وانظر الرد على ابن النخيلة ١١٤ .
(٥) المرجع السابق ٣٣ وانظر التقريب لحد المنطق ١٩٤ .
(٦) المرجع السابق ٣٦ .

إجماع كل عصر إذا لم يتقدم قبله فى تلك المسألة خلاف ... وهو يعنى بالعلماء : « المجتهدون الذين حفظت عنهم الفتيا من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم وعلماء الأمصار ، وأئمة الحديث ، ومن تبعهم (..) ثم يذكر فى المسألة مع فقهه : فقه الصحابة ، والتابعين ومن تبعهم إلى فقه الأئمة (١) » .

١٢ - وبعد إيراد كل هذا بسنده إلى قائله يأتى دور التحليل والنقد فيصح ويضيف ، ويعدل ، ويجرح ، ويقبل ، ويرفض ، ويقارن بين فقيه وفقه غيره ويناقش الأدلة والحجج بلغة علمية أدبية عرف بها علماء الأندلس (٢) .

١٣ - احتفاؤه بغرائب الفقه ، وفى المحلى من غرائب فقه الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم عجائب ، يستنبط منها مدى السعة والشمول والتطور والمرونة فى التشريع الإسلامى (٣) .

هذه هى أبرز معالم منهج ابن حزم فى البحث الدينى ، وقد دلت عليها كتبه التى بين أيدينا ، وذكر هو بعضها فى بعض رسائله وكتبه .

* * *

وقد طبق ابن حزم هذه المعالم - حين قدم لنا مذهباً فقهياً « حزمياً » - متكاملاً ، وذلك عبر موسوعته التى وصلتنا وهى المحلى ، إذ أن المحلى قد استغرق سائر أبواب الأصول والفقه ، بدءاً من باب « التوحيد » والإيمان والقواعد الحزمية فى الأصول ، وإلى أن يفرغ ابن حزم من سائر أبواب العادات والمعاملات فى مسائل أهل الذمة وأنواع التعزير .

وقد حمل هذا الكتاب مذهب ابن حزم بين دفتيه ، مقارناً إياه بالمذاهب الأخرى .

(١) الكتال : معجم فقه ابن حزم ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ٥٦ ، ٥٧ .

ولم تكنمنية قد تركت لابن حزم فرصة إتمامه ، فإنه لم يكتب فيه إلا (٢٠٢٨) مسألة من مجموع مسائله البالغة (ألفين وثلاثمائة واثنى عشرة مسألة) والمسائل الباقية وهى تبدأ من مسألة رقم (٢٠٢٩) « وأما الدية فى قتل الخطأ فعلى العصابة وهم العاقلة »^(١) فقد اختصرها ابنه أبو رافع من كتاب الإيصال الذى لم يصل إلينا .

وإنه لما يجعلنا ندرك مدى جهود ابن حزم فى ميدان الفقه أن المحلى الذى تبلغ صفحاته نحو (٧٠٥٠) صفحة من القطع المتوسط ويقع فى ثلاثة عشر جزءاً^(٢) إنما كتبه ابن حزم « شرحاً مختصراً للمسائل التى جمعناها فى كتابنا الموسوم بالمحلى نقتصر فيه على قواعد البراهين بغير إكثار ، ليكون مأخذ سهلاً على الطالب والمبتدئ »^(٣) .

ومع ذلك فهذه الموسوعة (المحلى) اعتبرت من أعظم الملونات لاجتهادات السلف رضوان الله عليهم سواء فى باب العقائد أو التشريعات الفرعية . وإن كان من الضرورى جمع المسائل المتشابهة إلى بعضها البعض .

وقد ضمت من آراء السلف (١٢٩٠٣) آراء نسبت إلى ٥٤٦ عالماً سلفياً ، منهم من ذكر له ابن حزم أكثر من ستمائة رأى ، ومنهم من لم يذكر له إلا رأياً واحداً ، ويضاف إلى هذه الآراء (٢٥٠) مسألة لفريق من الصحابة لم يعرف لهم فيها مخالف^(٤) .

وفى ختام حديثنا عن جهود ابن حزم فى الفقه وأصوله نستطيع أن نلاحظ ما يلى :

١ - أنه طبق ظاهريته تطبيقاً كاملاً ، وكان يأخذ الأدلة التى يسوقها بظواهر ألفاظها .

(١) انظر ج ١٢ ص ١٠٦ .

(٢) حسب طبعة مكتبة الجمهورية بمصر بتصحيح زيدان أبو المكارم حسن وحسن زيدان طبعة سنة ١٩٧٢ م (ومنها أكثر من ستة الاف صفحة كتبها ابن حزم بخط يده ، والباقي اختصره من الإيصال ابنه أبو رافع) .

(٣) المحل ١ - ٣ بتصرف .

(٤) انظر محمد رواس قلجى : ابن حزم فى المحل مقال بمجلة حضارة الإسلام المشقية عدد ٦ شعبان ١٣٨٦ هـ .

- ٢ - أنه إمام من جملة الأئمة الذين لهم باع طويل في علم الأصول والفقه ، وأنه صاحب مدرسة مستقلة .
- ٣ - وهو في تجديده واستقلاله وعمقه يشبه الإمام الشافعي ولاسيما من ناحية التزامه بالآثر ، كما أنه يتفق في هذا الباب مع الإمام أحمد بن حنبل .
- ٤ - ومع ما يبدو في منهج ابن حزم من تضيق ، فإن التزامه بالظاهرية قد هداه إلى آراء فقهية تضمنها المحلى وغيره - اعتبرت سابقة لعصرها ، ومن ذلك رأيه في حق المكاتب للعبد ، ومساواة العبد بالحر في عدد الزوجات ورأيه في الغناء ، وفي منع تأجير الأرض ، وأن الأرض لمن يزرعها ، وفي وجوب إنفاق الزوجة على زوجها إذا كانت موسرة ، وفقاً لما فهمه ابن حزم من ظاهر قول الله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وكذلك كان ابن حزم رائداً في « الوصية الواجبة » للأقارب غير الوارثين ، وإعطاء الحاكم حق تنفيذ الوصية الواجبة في تركة المتوفى حتى ولو قصر فيها . وعلى رأى ابن حزم اعتمد القانون المصري في وجوب الوصية لفرع الولد المتوفى في حياة أبويه وقد تناولت هذه القضية باليسط المواد رقم ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، من القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ م (١) .

ثانياً : منهج ابن حزم في العلوم العربية والفلسفية :



كانت لابن حزم جهود متفرقة في مجالات اللغة والأدب والنقد الأدبي وعلوم الفلسفة والنفس .

وقد طبق في هذه المجالات ظاهريته ... على نحو ما طبقها في الفقه والأصول وفي مناقشاته للكتب المقدسة وغيرها من مجالات الفكر .

(١) انظر الشيخ محمد أبا رهرة : ابن حزم ٤٨٥ .

ففى اللغة والأدب لم يكن ابن حزم ليقصد الوصول إلى مستوى التخصص ومنافسة أرباب التفوق فيهما . وإنما دفعته « موسوعيته » الثقافية إلى الاهتمام بهذين المجالين نظراً لضرورتهما فى منهجه للبحث ، إذ إن اللغة – ويرتبط بها الأدب والنقد – لها مكانتها المهمة فى شروط البحث العلمى عنده . بل إن اللغة العربية « فرض » على الفقيه لأنه بها يفهم معانى الكلام التى يعبر عنها باختلاف الحركات وبقاء الألفاظ – فمن جهل اللغة وهى الألفاظ الواقعة على المسميات ، وجهل النحو الذى هو علم اختلاف الحركات لاختلاف المعانى فلم يعرف اللسان الذى به خاطبنا الله تعالى ونبيننا ﷺ ، ومن لم يعرف ذلك اللسان لم يحل الفتيا له ، لأنه يفتى بما لا يدرى^(١) .

وفى غير موضع من كتابه : « الإحكام فى أصول الأحكام » يلح ابن حزم على هذه المكانة للغة ... ويبدو أن عصره قد حفل بكثير من الفقهاء الذين لم يتقنوا اللغة ، ولهذا نراه يؤكد بأسلوبه الحاد على ضرورة اللغة للمفتى ، فيقول : « ولهذا لزم لمن طلب الفقه أن يتعلم النحو واللغة ، وإلا فهو ناقص منحط لا تجوز له الفتيا فى دين الله عز وجل^(٢) !! »

وإذ يضع ابن حزم اللغة فى المكان الرئيسى من شروط البحث – فإنه أيضاً يقرر لنا أنه تثقف ثقافة لغوية كافية ، وأنه ينصح الذين لا يريدون التخصص الدقيق فى اللغة – أن يقرءوا بعض أمهات الكتب اللغوية التى يبرز لنا دراسته لها فى صورة مقارنة بينها ، وهو ينصحهم ألا يتعمقوا فى اللغة والنحو إلى أكثر من بعض هذه الكتب ، لأن المزيد من التعمق النحوى الذى يجنح إلى الافتراضات والتقدير والتأويلات « أو ما يسمى بالعوامل والعلل ، فهى كلها فاسدة^(٣) » . لا تتفق مع منهجه الظاهرى ، وبالتالي فلا جدوى منها ، ويقول ابن حزم فى ذلك : لا منفعة للتزيد على المقدار الذى ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله – أى النحو – معاشاً فهذا

(١) الإحكام ج ٥ - ٦٩٣ .

(٢) الإحكام ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) انظر التقريب ١٦٨ .

وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال^(١) » وأما الغرض من هذا العلم فالمخاطبة ، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط^(٢) .

أى أن النحو لا يجوز أن يكون ترفاً فكرياً وإنما هو وظيفة اجتماعية وتربوية « فيقتضى من علم النحو كل ما يتصرف فى مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة ، ويقتضى من اللغة المستعمل الكثير التصرف^(٣) » .

وقد توافرت لابن حزم آراء فى بعض القضايا الأساسية فى اللغة ، ومن هذه الآراء : ما يراه ابن حزم فى نشوء اللغات . فقد تبنى رأى القائل بأن اللغات « توقيفية » وليست « اصطلاحية » أى أن الله وقف آدم عليها كلها ، وقد أخذ ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ومع أنه ظاهرى إلا أنه افترض للغات نشأة واحدة حين قال : « ولعلها كانت حينئذ لغة واحدة مترادفة الأسماء على المسميات ، ثم صارت لغات كثيرة ، إذ توزعها بنوه بعد ذلك ، وهذا هو الأظهر عندنا والأقرب^(٤) » ومما هو جدير بالذكر أن ابن حزم يسجل لنا ملاحظاته الخاصة فى هذا المضمار وما يطرأ على الكلمة من تغير نتيجة الاستعمال وتغير الظروف الجغرافية ولو كها بألسنة العامة^(٥) :

ومن الآراء الجديدة لابن حزم عدم تفضيله لغة على لغة لأن اللغة تابع لأهلها فى تقدمهم وتخلفهم .. وهو يسخر من « جالينوس » الذى يفضل اللغة اليونانية على سائر اللغات ، ويجعل ماعدا اليونانية - أصواتا تشبه نباح الكلب أو نقيق الضفادع .. فقد قال ابن حزم حول هذه الدعوى : « هذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ولا فرق^(٦) » .

(١) رسائل ابن حزم : رسالة مراتب العلوم ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٤ .

(٤) الإحكام ١ - ٣١ .

(٥) د - عبد الكريم خليفة : ابن حزم حياته وأدبه ١٠٨ وانظر الإحكام ١ - ٣٠ .

(٦) الإحكام ١ - ١٢ .

ومن آرائه اللغوية ما يرجحه من أن اللغات السامية المعروفة كالعربية والعبرانية والسريانية والآرامية ذات صفات مشتركة وصلات قوية وأنها تنتمي إلى أرومة واحدة .

وقد كانت هذه النظرة إلى اللغات من حيث كونها مجموعات نظرة رائدة سبق ابن حزم علماء أوروبا بحوالى قرنين من الزمان^(١)؛ كما أن موضوعيته في النظر إلى اللغات - وهو المتعصب لعروته وإسلامه - وعدم تفضيله اللغة العربية على غيرها من اللغات - تعتبر نظرة سباقة أيضاً ، ولاسيما أنها كانت في عصر تربعت فيه العربية على عرش الثقافة والفكر في العالم كله .

* * *

ومن خلال المنهج الظاهري التربوي الملتزم كان لابن حزم في الشعر موقف محدد ، فهو يجذ الشعر الذي فيه الحكمة والخير مما ينبه النفس وينشطها ويدعو المرء إلى صالح القول والعمل^(٢) وذلك كشعر حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وصالح بن عبد القدوس ، ونحو ذلك^(٣) . وهو يحذر من أربعة أضرب من الشعر هي : الغزل والتصعلك والغربة والمهجاء^(٤) .

ثم صنفان من الشعر لا ينهى عنهما نهياً تاماً ، ولا يحض عليهما ، بل هما عنده من المباح المكروه ، وهما المدح والثناء^(٥) . وما يراه ابن حزم من الإكثار في اللغة يراه أيضاً في الشعر : فإن الإكثار من رواية الشعر هو كسب غير محمود ، لأنه من طريق الباطل والفضول لا من طريق الحق والفضائل^(٦) .

(١) انظر د - عبد الكريم خليفة : ابن حزم حياته وأدبه ١٠٧ .

(٢) انظر د - محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي الأندلسي ص ٣١١ .

(٣) انظر الرسائل ٦٥ .

(٤) انظر الرسائل ٦٥ ، ٦٦ .

(٥) انظر الرسائل ٦٧ .

(٦) الرسائل ٦٧ .

والذى يخيّل إلى أن ابن حزم قد فرض على الشعر قيوداً قاسية^(١) ، وأسرف كثيراً فى ظاهريته الفقهية عندما أخضع الشعر لها هذا الخضوع القاسى . ولكن كان « الالتزام الدينى » للشعر مذهباً قال به كثيرون ، وسبق به ابن حزم ، فإن أحداً قبل ابن حزم لم يخضع فن الشعر لمقاييس الفقه بهذه الدرجة فبعضه عنده حرام وبعضه مكروه ، وبعضه مندوب ، وبعضه مباح^(٢) .

لكن ابن حزم مع هذا كله - فى رأى بلانثيا - « أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا فى فترة انهيار الخلافة^(٣) وإن كنا نعتقد من وجهة نظرنا - أن بعض الشعراء فى هذا العصر قد حاذوه بل سبقوه ، فقد عاقه عن بلوغ الغاية فى شعره كثرة علمه وفقهه وأسلوبه المتلون بأساليب الفقهاء^(٤) وثقافته العقلية والدينية^(٥) . ومن الأمثلة التى تبرز فيها المؤثرات المذكورة فى شعره قوله :
دع عنك نقض مودتى متعمداً واعقد حبال وصالنا يا ظالم
ولترجعن أردته أو لم تسرد كرهاً كما قال الفقيه العالم^(٦)
وقوله :

كذب المدعى هوى اثنين حتماً مثلما فى الأصول أكذب ماني^(٧)
وقوله :

فأثرت أن يبقى وداد وينمحي مداد فإن الفرع للأصل تابع
وقوله :

فهم أبدأ فى اختلاج الشكوك بظن كقطع وقطع كظن

(١) دكتور محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ٣١٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ٣١٣ .

(٣) انظر تاريخ الفكر الأندلسى ٧٤ .

(٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام ٣ - ١٥٠ .

(٥) د - أحمد هيكىل : الأدب الأندلسى ٤٤٦ .

(٦) الطوق ١٠٣ .

(٧) الطوق ٤٦ .

ومن ذلك قصيدته النقفورية التي أجاب بها ملك الروم « نقفور » المتوفى سنة (٣٥٢ هـ) حينما تهجم على المسلمين بقصيدة أرسلها إلى الخليفة المطيع ، فعندما قرأها ابن حزم رد عليها بقصيدة كانت نظماً لبعض وقائع التاريخ الإسلامي ودفاعاً عن الإسلام وعقيدته ، وقد بلغت مائة وأربعين بيتاً^(١) والحقيقة أن الحميدى تلميذ ابن حزم مصيب في قوله عن شاعرية أستاذه :

« كان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم »^(٢) .

وهذا الديوان الذي أشار الحميدى إلى أنه جمعه على حروف المعجم لم يعثر عليه أحد إلى اليوم^(٣) .

أما نثر ابن حزم ، فالتقاد يكادون يجمعون على أن نثر ابن حزم هو آيته الأدبية في الروعة وأنه كان ذا نظر ثاقب في نقد الأساليب وتمييز المذاهب النثرية^(٤) . وهو في ذلك طليعة المدرسة الأندلسية^(٥) ودليل من أدلة العالمية في الأدب العربي^(٦) .

(١) انظر القصيدة في طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٢١٤ - ٢٢٢ وابن كثير في البداية والنهاية ١١ - ٢٤٦ .
(٢) المجلد ٣٠٩ : الضمى : البغية ٤١٦ وانظر الفتح بن خاقان مطمح الأنفس ص ٥٦ وقد أخطأ الأستاذ سعيد الأفغانى فنسب إلى ابن بشكوال أنه جمع ديوان ابن حزم على حروف المعجم والصحيح أن الحميدى هو الذى قال ذلك ونقل عباراته ابن بشكوال فظنها الأفغانى مسوبة إلى ابن بشكوال (انظر الصلة ٢ - ١٥ ، وابن حزم ورسائله ٧٥ ، ٧٦) .

(٣) ذكر الأستاذ (حمد الجاسر) في مجلة (العرب) التى يصدرها فى المملكة السعودية أن ديوان الإمام ابن حزم موجود بين مخطوطات الجامعة الليبية ، غير أنه عاد وذكر أن الأستاذ سعيد الأفغانى - أحد المشتغلين بابن حزم - أخبره بعد ذلك بأن الديوان الموجود يحوى أشعاراً قليلة لابن حزم لا تخرج عما هو معروف ، وفيه شعر آخر ليس لابن حزم بل لرجل متأخر (انظر مجلة العرب الجزء الثانى السنة الثامنة شعبان ١٣٩٨ هـ - سبتمبر ١٩٧٣ م ص ١٥٤) .
وقد ذكر الدكتور ممدوح حقى أنه حصل على ديوان شعر لابن حزم بالملكية الأفريقية باسطنبول خلط أكثره بشعر المعرى ، ويبدو لى أنه صورة من الديوان الذى ليس فيه غناء والموجود فى الجامعة الليبية لألى قابلت الدكتور ممدوح حقى وطلبت منه صورة من ديوان ابن حزم لكنه أفادنى بأنه ليس ذا غناء .. وقد وعد بإرسال صورة الديوان ولم يف ساعه الله - (انظر حجة الوداع مقدمة الدكتور ممدوح حقى ص ١٦) .

(٤) د - إحسان عباس عصر سيادة قرطبة ٣٣٠ .

(٥) د - إحسان عباس : عصر الطوائف والمرابطون ٢٨١ .

(٦) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم .

كان يعتمد على البساطة في التعبير ، والبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالاً^(١) .

ويرى بعض مؤرخي ابن حزم أن نثر ابن حزم لا يكاد يفترق عن شعره من ناحية الجرس والموسيقى الداخلية ، والسلاسة ، والتلقائية ، والسهولة الممتعة^(٢) ولنثره خصائص تقترب من خصائص نثر الجاحظ إلا أنها خالية من استطرادات الجاحظ وعدم الترتيب المنطقي للأفكار - وهما من خصائص نثر الجاحظ - كما أن نثره لا يرتفع إلى مستوى نثر الجاحظ في خفة الروح وطول النفس وجمال النكتة^(٣) ..

والحق أن طوق الحمامة ، ورسالة مداواة النفوس ، يصلحان نموذجاً واضح الدلالة على علو رتبة ابن حزم النثرية .

وقد اختار الطوق للتدليل على سمو نثر ابن حزم كبار مؤرخي الأدب في الأندلس في العصر الحديث^(٤) . ولا ريب أن طوق الحمامة جدير بذلك فهو قطعة فنية اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها في عصرى الفتنة والطوائف .

كما أنه نظرية أدبية فلسفية في الحب العذرى مقسمة على ثلاثين باباً ، منها عشرة في أصول الحب واثنان عشر في أعراض الحب وصفاته . وستة من أبوابه في الآفات الداخلة على الحب . وخاتمة في باين تحدث فيهما عن قبح المعصية وفضل التعفف ... فهي رسالة محكمة البناء من حيث التبويب ، كتبت في أسلوب حي مجرد من التزويق اللفظي أو التصنع^(٥) .

أما رسالته في مداواة النفوس فهي متناثرة تشبه أن تكون خلاصات مركزة لتجارب ابن حزم في الحياة ، ووصاياه الباقية إلى الناس . وهي آية في سهولتها

(١) د - إحسان عباس عصر سيادة قرطبة ٣٣٣ .

(٢) انظر سعيد الأفغاني : ابن حزم ورسالته ٧٨ ، ٨١ وانظر عبد اللطيف شرارة : ابن حزم رائد البحث العلمي ٦٠ .

(٣) انظر سعيد الأفغاني : ابن حزم ورسالته ٨١ .

(٤) انظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٩ وما بعدها .

(٥) انظر د - إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ٣٤٢ .

وتركيزها الشديد ، بحيث يمكن القول بأنها حَكَمٌ يسهل حفظها والاستشهاد بها في مواقف الحياة المختلفة .

وإن بقية تراث ابن حزم النثرى ليدلنا بدرجات مختلفة على أصالة الخصائص السالفة الذكر فيه .

وقد كان لابن حزم نظرات نقدية ^(١) وردت في رسالة مراتب العلوم حين وضع مقاييس للعلم النافع ، والحد المطلوب في كل فن ، كما يتحدث في كتابه « التقريب لحد المنطق » عن صناعة الشعر وأقسامه ^(٢) .

وفي كتابه « الفصل » بسط الآراء في الإعجاز القرآنى ، ورأى أن إعجاز القرآن « بالصرفة » أولاً ، وهو رأى يخالفه فيه .

وفي رسالته عن فضائل الأندلس وأهلها أصدر أحكاماً على شعراء وكتاب عصره في الأندلس ، في مجال المباهاة بهم والمقارنة بنظرائهم في المشرق . ولئن كانت أحكامه لا تخلو من تحيز ، فإنها كانت في أغلبها صائبة ، وبخاصة أنها تمتاز بالعمومية والجزئية اللتين وسمتا النقد القديم في أغلبه .

وقد عرفنا من تراث ابن حزم- الذى لم يصلنا- كتباً مفقودة يغلب عليها النقد والبلاغة وهى :

- ١ - كتاب في الشعر ينقل عنه الحميدى كثيراً .
- ٢ - الفصاحة والبلاغة .
- ٣ - تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبى عامر .
- ٤ - كتاب في العروض .
- ٥ - مؤلف في الظاء والضاد .

(١) انظر د - رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبى ٣٠٩ وما بعدها وانظر الدكتور إحسان عباس : عصر سيادة قرطبة ١٤٥ وما بعدها . د - سعد شلبى دراسات أدبية في الشعر الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) بسط الدكتور محمد رضوان الداية نظرات ابن حزم النقدية والبلاغية في كتابه «تاريخ النقد الأدبى في الأندلس» (الصفحات من ٣١٠ - ٣٢٨) .

٦ - التعقيب على ابن الإفيلى فى شرحه لديوان المتنبى (١) .

وهذه الكتب المفقودة - ولو ظهرت - لأقدرتنا بالتأكيد على إلقاء مزيد من الضوء ، ولعلنا كنا نجد من خلالها - مذهباً أدبياً متفرداً ، ونظرية نقدية متكاملة .

أما موقفه من الفلسفة فإن البيئة الأندلسية كانت إلى القرن الخامس الهجرى تحارب الفلسفة بعامة . وكان لفقهاء المالكية القدح المعلى فى إشعال هذه الحرب . وكانت حججهم فى ذلك أن الفلسفة شر ، ومدخل الشر شر ، فالمنطق إذن شر (٢) .

وقد صور لنا ابن حزم هذا الموقف فى قوله :
« ولقد رأيت طوائف من الخاسرين ، شاهدتهم أيام عنفوان طلبنا وقبل تمكن قوانا فى المعارف ، وأول مداخلتنا صنوفاً من ذوى الآراء المختلفة ، كانوا يقطعون بظنونهم الفاسدة من غير يقين أنتجه بحث موثوق به على أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة . فعمدة غرضنا وعلمنا إنارة هذه الظلمة بقوة الواحد عز وجل (٣) .

وفى صدر كتابه التقريب لحد المنطق ، يورد شبه المعارضين للاهتمام بالفلسفة والمنطق ، ومن أهمها اعتراضهم بأن أحداً من السلف الصالح لم يتكلم فى هذا (٤) وبأن كتب المناطق هذيان أرسطاطوليسى (٥) « وهزر من القول (٦) وداعية للكفر وناصره للإلحاد (٧) » .

(١) انظر : د - محمد رضوان الداية ص ١٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٥٢ ، ٤٤١ وانظر قائمة كتب ابن حزم .

(٢) د - زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسى ١٠٤ وانظر د - إحسان عباس : التقريب لحد المنطق ص د (مقدمة) .

(٣) التقريب لحد المنطق ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) التقريب ص ٣ .

(٥) التقريب ص ٦ .

(٦) التقريب ص ٧ .

(٧) التقريب ص ٦ .

وهو يرد على هذه الشبه بأن أكثر الذين حكموا على هذه العلوم لم يقفوا على معانيها أو يطالعونها بالقراءة^(١) ، والناس سراع لمعاداة ما جهلوا^(٢) أو أنهم قرءوها بعقول مدخولة وأهواء مؤرقة وبصائر غير سليمة^(٣) .

ويتخطى ابن حزم هذا الموقف لأبناء عصره فيدعو إلى دراسة المنطق لأن كتبه سالمة مفيدة ، بها يتعرف كيف يتوصل إلى الاستنباط الصحيح وكيف تؤخذ الألفاظ على مقتضاها ، وكيف يعرف الخاص من العام ، والمجمل من المفصل وبناء الألفاظ بعضها على بعض (.....) وغير ذلك مما لا غناء للفقهاء المجتهدين لنفسه ، ولأهل ملته عنه^(٤) .

ويبين لنا ابن حزم أن منهجه في الفلسفة والمنطق هو تبسيطهما لأنه وجد أن تعقيد الترجمة لهذه العلوم - علوم الأوائل - هو الذي جعل الناس يتخذون منها موقف العداء « فتقربنا إلى الله عز وجل بأن نورد المعاني بألفاظ سهلة بسيطة يستوى إن شاء الله في فهمها العامي والخاص والعالم والجاهل »^(٥) .

وهذا المنهج الذي ذهب إليه ابن حزم هو الذي عابه عليه تلميذه صاعد في عبارته المشهورة التي نقلها عنه أكثر المترجمين لابن حزم دون مناقشة وهي العبارة التي يقول صاعد فيها :

« ثم نبذ - أي ابن حزم - هذه الطريقة - أي العمل في السياسة - وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن ففتن بعلم المنطق ، وألف فيه كتاباً أسماه « التقريب لحد المنطق » بسط فيه القول على تبين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية ، وخالف أرسطاطاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله

(١) التقريب ص ٦ .

(٢) التقريب ص ٧ .

(٣) التقريب ص ٧ وانظر د - إحسان عباس: عصر الطوائف والمرايدين ٦٣ .

(٤) الفصل ٢ - ٩٥ وانظر عبد الحميد سامي بيومي : مقال بمجلة الأزهر عن ابن حزم الأندلسي مجلد ١٢ ص ٣٤١ وانظر : د - عبد الرحمن بدوي التراث اليوناني وأثره في الحضارة الإسلامية ص ١٥١ .

(٥) التقريب ص ٨ .

مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط^(١) .

ويرى الدكتور إحسان عباس - أن هناك اعتبارات تجعل من الممكن وقوع ابن حزم في أخطاء ، منها :

١ - حرصه على انتزاع الأمثال من المؤلف من الحياة والشرعية بدل التمثيل بالرموز .

٢ - صدوره عن مقدمات دينية لم تكن لدى أرسطو ومحاولته التوفيق بين المنطق والشرعية .

٣ - نظراته الظاهرية في كثير من الأمور وإنكاره القياس .

٤ - تصريحه بأنه لا يتقيد من الآراء بقول الأوائل .

٥ - استئناسه بأحكام مستمدة من طبيعة اللغة العربية^(٢) .

لكن أحداً من ناقدى محاولة ابن حزم لم يقدم لنا نقاطاً محدودة أخطأ فيها ابن حزم .

وإذا كان ثمة من انتقصوا محاولة ابن حزم في المنطق ، فإن هناك من امتدحوها... فهذه تلميذه الحميدى يصفها بقوله :

وكذلك كتاب « التقريب لحد المنطق والمدخل إليه » بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية ، فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه ... طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمناه^(٣) .

أما ما اعترض صاعد به على ابن حزم ، وواقفه فيه بعضهم ، فلا يكفي وحده للتدليل على تخطئة ابن حزم .

(١) طبقات الأمم ١٠١ وابن بسام: الدخيرة ١ - ١ - ١٤٠ وياقوت: معجم الأدباء ١٢ - ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٤٧ .

(٢) التقريب (مقدمة) ك - ل .

(٣) المجلد ٣٠٩ .

فإن الإكثار من إيراد الأمثال الشرعية لا يكفي للطعن في قيمة الجهد العلمي الذي قام به ابن حزم ، كما أن تجنب التمثيل بالرموز لا ينطوي في حد ذاته على مخالفة لروح المنطق الأرسطاطاليسي^(١) .

وقد حاول الدكتور زكريا إبراهيم - أن يقوم بما أهمله السابقون من ناقدى ابن حزم نقداً عاماً ... فقرأ التقريب قراءة ناقدة ، وأحصى على ابن حزم ثلاثة أخطاء أحدها في استعمال المصطلحات ، والآخران في القضايا المنطقية^(٢) . ثم عقب بقوله : « ومهما يكن من شيء ، فقد قدم لنا ابن حزم في كتاب « التقريب » . عرضاً طريفاً مشوقاً لمنطق أرسطو فكان بذلك خير من شرح مستغلقه وأوضح غامضه وقرب بعيدة »^(٣) .

وقد قدم لنا ابن حزم جهوداً أخرى في حقل الفلسفة ؛ فقد قدم لنا نظرية متكاملة للمعرفة سنبسطها عند حديثنا عن أثره في الحضارة الإنسانية^(٤) .

كما قدم لنا في رسالة « مداواة النفوس » وجهة نظر فلسفية للحياة والبشر^(٥) وذلك مع إتقان الصورة في التعبير وإجادة الصياغة والابتعاد عن المشكلات الفلسفية المنطقية عن الحياة^(٦) .

« وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام وكأنه يطالع كتب الأخلاق التي كتبها « ثيوفراست » أو « لابروير » أو « مقالات في الأخلاق والسياسة » « ليكون »^(٧) .

(١) د - زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسي ١٢٧ .

(٢) انظر كتابه ابن حزم الأندلسي ١٢٨ .

(٣) ابن حزم الأندلسي ١٢٩ .

(٤) انظر الخاتمة : أثره في الحضارة الإنسانية وانظر د - عمر فروخ مجلة المجتمع العربي بدمشق مجلد ٢٣ مقال نظرية المعرفة عن ابن حزم .

(٥) انظر د - إحسان عباس - عصر الطوائف والمرايدين ٦٤ .

(٦) انظر ريف فوزي (حول كتاب الأخلاق والسير لابن حزم) مقال بمجلة الأدب ج ١١ ص ٢ سنة ١٩٤٣ م .

(٧) بلانثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢١ .

ويعتبر كتابه « الفصل » معرضاً للمذاهب الفلسفية والآراء الكلامية وقيمته لا تقف عند حد أنه تأريخ لها ، بل إنه ليناقدشها ويعرضها على الفكر الإسلامى ، ويرد عليها بأدلة عقلية وعقلية - كما أن رسائله المختلفة تضم كثيراً من نظراته الفلسفية والنفسية .

وأبرز ما يميز هذه النظرات وهذه الكتب أن تأثير الإسلام واضح فيها كل الوضوح ، فهى لا ينطبق عليها ما حاول تعميمه المؤرخ غوستاف لوبون عندما زعم أن القرآن لم يكن له تأثير فى جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التى نشروها فى العالم خلال خمسة قرون ، وبأن العلماء لم يكونوا يبالون بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات القرآن من الاختلاف^(١) فهذه الدعوى لا تنطبق على فكر ابن حزم فى أى مجال من مجالاته ، بحيث إننا يمكننا أن نقول مطمئنين إن فكر ابن حزم العلمى والفلسفى كان فكراً إسلامياً خالصاً .

ثالثاً : مؤلفات ابن حزم :



كثرة مؤلفات ابن حزم :

ثمة إجماع بين المؤرخين على أن ابن حزم من أكثر أهل الإسلام تصنيفاً . ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية تلميذ ابن حزم صاعد - وابنه الفضل أبو رافع فيما يرويه الأول عن الثانى من أنه أخبره أن أباه ابن حزم - قد بلغت مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة^(٢) .

(١) انظر حضارة العرب ٥٠٩ - ٥٧١ .

(٢) طبقات الأئمة ١٠٢ وانظر بن بشكوال: الصلاة ٢ - ٤١٥ وما بعدها . وياقوت : المعجم ١٢ - ٢٣٨ وما بعدها

والمقرئ: الفتح ٢ - ٢٨٣ بتحقيق محيى الدين .

ويعلق صاعد على هذا الخبر الذى استقاه من أبى رافع بقوله : « وهذا شىء ما علمناه من أحد ممن كان فى دولة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر بن جرير الطبرى فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً »^(١) .

ويذكر الحميدى أن ابن حزم كان « متفنناً فى علوم جملة ... وتواليف كثيرة فى كل ما تحقق به من العلوم »^(٢) .

أما ابن حيان معاصر ابن حزم فيذكر أنه كمل من مؤلفات ابن حزم فى فنون العلم « وقر بعير لم يتجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بإشيلية ومزقت علانية »^(٣) .

ويتحدث ابن حزم عن مصنفاته - كعاداته فى اهتمامه بسيرته الذاتية - فيقول : « ولنا فيما تحققنا به تأليف جملة ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله على باقيه »^(٤) .

وقد ورد عن أبى خالد يزيد بن العاص بن سعيد بن سعود قوله : وجدت بخط للفقير الحاج أبى أسامة رحمه الله (وهو أحد أبناء ابن حزم) أخبرنى الفقير الإمام الحاج أبو بكر الطرطوشى رحمه الله تعالى قال : جلست أنا والفقير أبو سليمان (وهو أحد أبناء ابن حزم أيضاً) - أخوك - على تواليف الشيخ أبيك رضى الله عنه كلها مع المختصين من أصحابه ، وأحصينا المدة التى يمكن نسخ جميعها لناسخ تكون صناعته لا يفتر عن النسخ إلا فى وقت وضوء وصلاة وأخذ غذاء وما أشبه ذلك فوجدنا مدة ذلك ثمانين سنة ، بعد التقصى لذلك والاجتهاد أيضاً للناسخ على ما تقدم فى اجتهاده وكده بعد أن يكون من أهل الصناعة مشهوراً^(٥) .

(١) طبقات الأمم ١٠٢ وانظر ابن حجر : لسان الميزان ٤ ترجمة رقم ٥٣١ .

(٢) جذوة المقتبس ٣٠٨ .

(٣) الذخيرة ١ - ٢١ - ١٤٢ وياقوت : المعجم ١٢ - ٢٤٩ .

(٤) رسالة فى فضل الأندلس ١٩ .

(٥) انظر محمد ابراهيم الكتانى : مقال مؤلفات ابن حزم مجلة الثقافة المغربية الرباط يناير ١٩٦٠ العدد الأول .

وهكذا اتفق مترجمو ابن حزم المعاصرون وعلى رأسهم صاحب الترجمة نفسه على أنه من أكثر مؤلفي الإسلام إنتاجاً ، وقد نقل ذلك عنهم من جاء بعدهم من مترجميه سواء أشاروا إلى اقتباساتهم أم لا ... بحيث يصح القول بأن كثرة مؤلفات ابن حزم حقيقة تاريخية مؤكدة .

ولهذا فإن الدكتور « فيليب حتى » لن يتردد في أن يعتبره أحد الاثنين أو الثلاثة الذين يمثلون أنصب مؤلفي الإسلام وأغزرهم مادة^(١) .

رسائل ابن حزم المفقودة^(٢) :

- ١- رسالة في آية (فإن كنت في شك مما أوحينا إليك) .
- ٢- رسالة في أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس .
- ٣- كتاب في تفسير (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) .
- ٤- كتاب الجامع في حد صحيح الأحاديث باختصار الأسانيد .
- ٥- كتاب القراءات .
- ٦- ترتيب مسند بقي بن مخلد .
- ٧- الوجدان في مسند ابن مخلد .
- ٨- كتاب مختصر في علل الحديث .
- ٩- جزء في أوهام الصحيحين .
- ١٠- أجوبة من صحيح البخاري .

(١) العرب : تاريخ موجز ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) اعتمدنا في إعداد قائمة مؤلفات ابن حزم على ما ورد في ثلثيا مؤلفاته « الفصل ، والطوق ، والإحكام ، في أصول الأحكام والمحلى وجوامع السيرة ورسالة فضائل علماء الأندلس » وغيرها . كما أننا أفدنا إفادة كبيرة من قائمة الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني - أحد المشتغلين بابن حزم - (انظر مقال مؤلفات ابن حزم بمجلة الثقافة المغربية العدد الأول الرباط يناير ١٩٦٠) .

- ١١- بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل .
- ١٢- ترتيب سؤالات عثمان الداربي لابن معين .
- ١٣- كتاب مهم السنن .
- ١٤- كتاب مراتب الديانة .
- ١٥- كتاب الآثار التي ظاهرها التعارض ، ونفى التعارض عنها .
- ١٦- تسمية لشيوخ مالك .
- ١٧- شرح حديث الموطأ والكلام على مسأله .
- ١٨- كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام من الواجب والحلال والحرام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع .
- ١٩- كتاب الايصال إلى فهم كتاب الخصال (٤٠ مجلداً قيل إن جزءاً منه بمكتبة حميد الدين باليمن ولم يثبت ذلك ، كما أن أبا تراب الظاهري زعم أن لديه بعضه) .
- ٢٠- مراقبة أحوال الإمام .
- ٢١- كتاب فيمن ترك الصلاة عمداً حتى خرج وقتها : (ناقش ابن حزم هذه القضية بتفصيل في المحلى) .
- ٢٢- كتاب الفرائض .
- ٢٣- مختصر (الموضح) لأبي الحسن المغلس الظاهري .
- ٢٤- كتاب التخليص ، في المسائل النظرية وفروعها .
- ٢٥- كتاب التصفح في الفقه .
- ٢٦- كتاب الإملاء في قواعد الفقه .
- ٢٧- رسالة في معنى الفقه والزهد .
- ٢٨- رد على القاضي إسماعيل بن إسحاق في مسألة الخمس .
- ٢٩- كتاب اختلاف الفقهاء الخمسة ، مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود .
- ٣٠- ما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد ولم يسبق إلى ما قاله .
- ٣١- ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس .

- ٣٢- النكت الموجزة فى نفى الأمور المحدثّة فى الدين : من الرأى والقياس والاستحسان والتقليد .
- ٣٣- الإظهار لما شنع به على الظاهرية .
- ٣٤- كتاب الصادع ، فى الرد على من قال بالتقليد .
- ٣٥- قصيدة فى الاجتهاد .
- ٣٦- تأليف فى الرد على أناجيل النصارى .
- ٣٧- مختصر الملل والنحل .
- ٣٨- كتاب فى الرد على من اعترض على كتاب الفصل .
- ٣٩- كتاب التحقيق فى نقض كتاب العلم الإلهى لمحمد بن زكريا الرازى الطبيب (وهو غير الذى حققه الدكتور إحسان عباس ضمن التقريب لحد المنطق) .
- ٤٠- كتاب الترشيده ، فى الرد على كتاب الفرند لابن الراوندى فى اعتراضه على النبوءات .
- ٤١- مسألة الإيمان .
- ٤٢- كتاب اليقين فى الرد على الملحدين والمجتمعين على إبليس اللعين وسائر المشركين .
- ٤٣- نكت الإسلام .
- ٤٤- كتاب الصادع والرادع فى الرد على من كفر المتولين من فرق المسلمين ، والرد على من قال بالتقليد (ولعله السابق رقم ٣٤) .
- ٤٥- كتاب التبيين ، فى هل علم المصطفى أعيان المناققين (ثلاث كراريس) .
- ٤٦- الرسالة الصمادنية فى الوعد والوعيد .
- ٤٧- كتاب فى أسماء الله تعالى (وهو الذى أثنى عليه الغزالى) .
- ٤٨- الحد والرسم .
- ٤٩- مسألة فى الروح .
- ٥٠- جزء من فضل العلم وأهله .
- ٥١- مسألة هل السواد لون أو لا .
- ٥٢- كتاب السياسة .
- ٥٣- كتاب الإمامة والسياسة فى قسم سير الخلفاء (ونرجح أنه الكتاب السابق) .

- ٥٤- الرسالة اللازمة لأولى الأمر .
- ٥٥- كتاب أخلاق النفس .
- ٥٦- كتاب نسب البربر .
- ٥٧- كتاب الفضائل .
- ٥٨- ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس .
- ٥٩- غزوات المنصور بن أبي عامر (وهذا الكتاب والكتاب السابق له وكتاب السياسة في سير الخلفاء هي التي أخذ منها الحميدى جذوة المقتبس) .
- ٦٠- مراتب العلماء وتواليهم .
- ٦١- تسمية الشعراء الواقدين على ابن أبي عامر .
- ٦٢- فهرست شيونخه (انظر فهرست ابن خير ٤٢٩) .
- ٦٣- برنامج .
- ٦٤- إجازته لشريح بن شريح المقرئ .
- ٦٥- مؤلف في الطاء والظاء .
- ٦٦- شيء من العروض .
- ٦٧- بيان الفصاحة والبلاغة .
- ٦٨- الرد على ابن الإفليلي في شرحه لشعر المتنبي .
- ٦٩- ديوان شعره (قال الحميدى إنه جمعه على حروف المعجم) - راجع ترجمة ابن حزم في الجذوة .
- ٧٠- رسالة في الطب النبوي .
- ٧١- كتاب حد الطب .
- ٧٢- شرح فصول بقراط .
- ٧٣- كتاب بلغة الحكيم .
- ٧٤- كتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة .
- ٧٥- كتاب في الأدوية المفردة .
- ٧٦- مقالة في شقاء الضد بال ضد .
- ٧٧- مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب .
- ٧٨- مقالة النحل .

- ٧٩- مقالة السعادة .
- ٨٠- كتاب الاستجلاب .
- ٨١- زجر الفاوى .
- ٨٢- كتاب الرسالة البلقاء ، فى الرد على محمد عبد الحق بن محمد الصقلى .
- ٨٣- العتاب على أبى مروان الخولانى .
- ٨٤- رسالة التأكيد .
- ٨٥- رسالة المعارضة .
- ٨٦- كتاب المرطار ، فى اللهو والدعابة ، ويشك فى صحة نسبته وفى تسميته .
- ٨٧- تواريخ أعمامه وأخيه وبنى عمه وأخواته وبنيه وبناته : مواليدهم وتاريخ موت من مات منهم فى حياته .
- ٨٨- مناظرات ابن حزم والباغى وقد زعم أبو تراب الظاهرى أنها عنده . ويبدو أن ذلك غير صحيح .
- ٨٩- رسالة الناسخ والمنسوخ (وهى غير المطبوعة على هامش تفسير الجلالين) .

مؤلفات ابن حزم الموجودة كلا أو بعضاً (١) :

- ١- رسالة أصحابه الذين أخرج لهم بقى بن مخلد (ط) .
- ٢- رسالة القراءات المشهورة فى الأمصار ، الآتية مجيء التواتر . (ط) .
- ٣- كتاب المحلى .
- ٤- المعلى (فى شرح المحلى)
- ٥- مسألة الأصول (ط) .
- ٦- رسالة فى الإمامة (فى الصلاة) مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ .

(١) هناك كتب منسوبة خطأ لابن حزم ، وهى : الناسخ والمنسوخ الموجود على هامش الجلالين . والملة والهيئة نسبة إليه محمد كامل الهامى فى كتابه (مطور مع العظماء) . واللطائف نسبة مؤلف فلسفة الفكر الدينى . والمغرب فى أحوال المغرب نسبة رضا كحالة والمخرج والتعديل نسبة محمد المتصر الكنائى . والوجدان ذكره محمد إبراهيم الكنائى . والواقع أنه ليس له .

- ٧- كتاب حجة الوداع (ط) . (طبع طبعة ناقصة ثم طبعة كاملة بتحقيق د . ممدوح حقي) .
- ٨- كتاب مناسك الحج أو كتاب المناسك .
- ٩- مراتب الإجماع (ط) .
- ١٠- رسالة في طهارة الكلب والرد على من قال بنجاسته (ط) .
- ١١- رسالة الغناء الملهي أمباح هو أم محظور ؟ (ط) .
- ١٢- كتاب الإعراب عن الحيرة والالتباس ، الموجودين في مذاهب أهل الرأي . والقياس ، بعضه بمكتبة الشيخ طاهر بن عاشور ، والجزء الثاني منه نسخة طرف أبي عبد الرحمن بن عقيل ، ونسخة طرف الدكتور عبد الله الزايد .
- ١٣- كتاب الأحكام - في أصول الأحكام (ط) .
- ١٤- إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل (ط) .
- ١٥- النبد الكافية ، في أصول أحكام الدين (ط) .
- ١٦- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل (ط) .
- ١٧- رسالة في الرد على الهاتف من بعد (ط) .
- ١٨- رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف (ط) .
- ١٩- كتاب التقريب لحد المنطق ، والمدخل إليه بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية (ط) .
- ٢٠- كتاب الفصل ، في الملل والأهواء والنحل (ط) (وكانت أولى طبعاته سنة ١٩٠٣) .
- ٢١- كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم منهما مما لا يتحمل التأويل ، (لعله الذي في الفصل) .
- ٢٢- النصائح المنجية والفضائح المخزية لجميع الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة . (وهو من أجزاء الفصل) .
- ٢٣- المفاضلة بين الصحابة (ط) .
- ٢٤- كتاب الأصول والفروع . (مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ وأكثر موضوعاتها مضمنة في الفصل) .
- ٢٥- الرد على ابن النغيلة اليهودي (ط) .

- ٢٦- قصيدة فى الرد على نقفور ملك الروم (ط) . (فهرست ابن خير ٤٠٩)
وقد وردت فى طبقات الشافعية للسبكي والبداية والنهاية لابن كثير .
- ٢٧- رسالة البيان ، عن حقيقة الإيمان (ط) (١) .
- ٢٨- كتاب الدرة فى تحقيق الكلام بما يلزم الإنسان اعتقاده فى الملة والنحلة باختصار وبيان (مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤) خ .
- ٢٩- رسالة فى النفس خ .
- ٣٠- فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بنفسها . (ط) ولعلها الرسالة السابقة .
- ٣١- كتاب ابن حزم فى الجدل .
- ٣٢- رسالة فى ألم الموت وإبطاله (ط) .
- ٣٣- رسالة فى حكم من قال : إن أهل الشقاء معذبون إلى يوم الدين « هكذا سميت فى المخطوطة ، وهى فى الواقع جواب عن خمسة وثلاثين سؤالاً وجهت إليه هذا أولها » .
- ٣٤- مراتب العلوم ، وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (ط) .
- ٣٥- رسالة التوقيف على شارع النجاة ، باختصار الطريق (ط) .
- ٣٦- رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل (ط) (وكانت أولى طبعاتها سنة ١٩١٨) .
- ٣٧- رسالة فى التلخيص لوجه التخليص (ط) .
- ٣٨- السيرة النبوية (ط) . (وهو المعروف بجوامع السيرة) .
- ٣٩- رسالة فى تسمية من نقل عنه الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم فى كثرة الفتيا (ط) .
- ٤٠- جمل من فتوح الإسلام (ط) .
- ٤١- أسماء الخلفاء والولاة ، وذكر مددهم (ط) .
- ٤٢- رسالة فى أمهات الخلفاء (ط) .

(١) كثير من الرسائل التالية وجدت فى مخطوطة شهيد عل بالقسطنطينية (٢٧٠٤) وقد اعتمد عليها الدكتور إحسان عباس فى تحقيقه لرسائل ابن حزم بشقيها كما أنه حلل هذا المخطوط أسين بلايوس .

- ٤٣- جمهرة أنساب العرب (ط) .
- ٤٤- رسالة الميزان في التسوية بين علماء الأندلس وأهل بغداد والقيروان وهي المعروفة برسالة في فضائل علماء الأندلس (ط) . (وقع عليها لأول مرة في العصر الحديث المستشرق هـ . بيريه) .
- ٤٥- نقط العروس في تواريخ الخلفاء . (ط) .
- ٤٦- طوق الحمامة (ط) . (المتداول بعضه فقط) وكانت أولى طبعاته سنة ١٩١٤ .
- ٤٧- ديوان ابن حزم (ذكر الدكتور ممدوح حقي في تحقيقه لحجة الوداع أنه سيحققه ولما واجهته بقوله قال : إنه فقد منه) .
- ٤٨- كتاب في الرد على الكندي الفيلسوف ويشك في صحة نسبته لابن حزم (ط) .
- ٤٩- ظل القمامة وطوق الحمامة وفضل القرابة والصحابة (ويشك في صحة نسبته لابن حزم) خ .
- ٥٠- الرسالة الباهرة في الرد على أهل الأهواء الفاسدة خ .
- ٥١- المسألة اليقينية المستخرجة من الآيات القرآنية خ .
- ٥٢- منظومة في قواعد أصول فقه الظاهرية (ط) (مقال بمجلة الدعوة السعودية حققه أبو عبد الرحمن الظاهري) .
- ٥٣- نبذة في البيوع (بمخطوطة جستر جيتي) خ .

دلالات مؤلفات ابن حزم :



تدلنا مؤلفات ابن حزم التي تبلغ في هذه القائمة (الموجود منها والمفقود) ثلاثة وأربعين ومائة كتاب ورسالة - بعضها يصل إلى أربعين مجلداً . وبعضها رسائل صغيرة ضمنت في الفصل. أو ربما كانت قد ضمنت في « الايصال » المفقود ... تدلنا على موسوعية ابن حزم وعبقريته التي جعلته عبقرى الأندلس العظيم .

ونستطيع أن نوجز الدلالات التي تعطيها لنا مؤلفات ابن حزم السالفة الذكر في النقاط التالية :

١- تعدد مجالات المعرفة التي طرقها ابن حزم . حتى إن كتبه لتتنظم أكثر المعارف المتصلة بالعلوم الإنسانية ومع هذا التعدد في المجالات التي طرقها فإن من يقرأ له في أى مجال يظن أنه لا يحسن غير هذا العلم لمهارته فيه فإذا هو - كذلك - يحسن كل علم تقريباً ، فهو نابغة في الحديث ، وفي علم الكلام وفي التاريخ وفي أصول الفقه وفي الأدب وفي المنطق والفلسفة (١) .

٢- ابتكار ابن حزم لموضوعات جديدة في المعرفة لم يسبقه إليها أحد .

٣- كثرة مصنفات ابن حزم .

٤- تناول ابن حزم للموضوع الواحد في أكثر من مكان . وربما كان مرد ذلك لاكتشافه رأياً جديداً ، أو أسلوباً جديداً في علاج الموضوع ، أو ربما لأن أحداً قد طلب منه الكتابة فيه أو أثار شبهة حوله .

٥- تأليفه لمؤلفات مطولة ثم اختصارها .

٦- جمعه عدة رسائل في مصنف واحد .

٧- كثير من رسائله كتبت نتيجة الجدل الدائر حول الأصول والفروع في الأندلس .

٨- كتب ابن حزم تتضمن كثيراً من سيرته الذاتية .

٩- وتعكس لنا هذه الكتب ألواناً من الحياة الأندلسية ، الاجتماعية والاقتصادية .

١٠- كما أن هذه المؤلفات تعتبر أكبر وثيقة مفصلة للحياة الثقافية والفكرية

والعقائدية التي انتظمت العالم الإسلامي . والأندلس بخاصة - خلال القرون

الثلاثة : الرابع والخامس والسادس للهجرة . فقد حرص ابن حزم على ذكر

آراء مخالفيه وحججهم بإنصاف ثم يرد عليها .

١١- يعتبر الصديق هو أبرز سمة لهذه المؤلفات ، فابن حزم كتبها دفاعاً عن مبادئ

يؤمن بها . وهو صادق مع نفسه في كل ما كتب ، لأنه لم يكتب ملقاً لأحد

أو بغية كسب دنيوى ، بل إن كتبه لم يرض عنها أكثر الخاصة والعامة في

(١) أحمد أمين ظهر الاسلام ٢ - ٥٢ .

- الأندلس ، وقد تكالبوا عليها وأحرقوها لمخالفتها لمعارفهم ومناهجهم .
- ١٢- يتجلى لقارئ كتبه إيمانه القوى المتين الصادق بالله وبرسالة محمد ﷺ . وموافقتها لمقتضيات العقول السليمة ، وبطلان جميع ما عداها من الملل والأهواء والنحل ، إيماناً قائماً على الدرس العميق المقارن والاطلاع الواسع .
- ١٣- تمتاز مؤلفاته باستقلال فكرى فى نطاق النص القرآنى والحديث النبوى الثابت وإجماع الصحابة ، وعدم مبالاته بعد ذلك بمخالفة من خالف وموافقة من وافق كائناً من كان . وبالتالي فقد ضمت هذه المؤلفات آراء طريفة شاذة فى بعض الأحيان (١) .
- ١٤- وقد أثارت هذه المؤلفات اهتمام الدارسين قديماً وحديثاً عربياً ومسلمين ، ونصارى ويهوداً ، بين مدح وقبح ومتطرف ومعتدل .
- ١٥- وتدلنا هذه المؤلفات على إيغال ابن حزم فى الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها - كما يقول ابن حيان - ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله ، وقد صنف فيها مصنفات كثيرة العدد شرعية المقصد معظمها فى أصول الفقه وفروعه على مذهبه الذى يتحله وطريقه الذى يسلكه (٢) .
- ١٦- كما تدلنا هذه المؤلفات على مقدرة عقلية عجيبة فى الفهم الدقيق الشامل ، وفى الاستنباط والاستنتاج ، وفى نقد آراء الآخرين ومجادلتهم ومناظرتهم ، وهى خاصة عقلية لا تفارقه ، فلا نكاد نجده مرة نائم العقل أو مسترخى الذهن أو مستسلماً للنقل ، فهو ليس جماعة من هنا ومن هنا ، يحشد ما يحفظ ويقرأ ، وإنما هو حاضر العقل يقظ الذهن ناقد بصير . فهو - بهذا - مرجع من المراجع العظيمة فى تعلم الأسلوب العلمى فى التفكير والتقدير ووزن الأمور وتربية الملكة النقدية (٣) .
- ١٧- ولا غرو أمام كل هذا - أن يعتبر الدكتور عمر فروخ (ابن حزم الأندلسى) بداية المرحلة الأخيرة فى تاريخ الفكر العربى وهى التى تمثل : « ذروة

(١) محمد إبراهيم الكتانى مقال : مؤلفات ابن حزم مجلة (الثقافة المغربية) العدد الأول الرباط .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٢ - ٢٣٨ .

(٣) د . طه الحاخري : ابن حزم صورة أندلسية ١٠ ، ١١ .

التفكير العقلي والاجتماعي « الذي يبدأ « بابن حزم » وينتهي « بابن
خلدون » المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١) .



(١) تاريخ الفكر العربى ص ٢٥ .



الباب الثانى

ابن حزم المؤرخ

الفصل الأول



قضايا الفكر التاريخي عند ابن حزم

أولاً : مدلول التاريخ عند ابن حزم :



يتناول ابن حزم التاريخ على أنه « علم » وأنه قسم من الأقسام السبعة التي تنقسم إليها العلوم عند كل أمة وفي كل زمان وفي كل مكان^(١).

ويطلق ابن حزم على التاريخ : « علم الأخبار »^(٢) وجد هذا العلم أنه مقدمات قد اضطر تواتر « النقل » في الإقرار بصحتها من كون البلاد ، المشهورة – والملوك المعلومين ووقائعهم وسائر أخبارهم مما لاشك فيه^(٣).

والحق أن « علمية » التاريخ ، بمعنى توثيقه وتجريده ، من التفسير الذاتي واضحة في منهج ابن حزم . وما « فلسفة التاريخ » – بالمعنى المعروف الآن – إلا مرحلة تالية للمادة المجردة « النقلية » التي هي أساس هيكل التاريخ وبنائه العام ، ونحن نجد هذا واضحاً في دراساته التاريخية التي يلتزم فيها الضبط الشديد ، والإيجاز الذي يشبه الكليات ، اعتماد منهج النقل والأثر . وما يتبعهما من جرح

(١) رسالة ابن حزم : (رسالة مراتب العلوم) تحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٧٨ .

(٢) المكان السابق .

(٣) التقريب لحيد المنطق ٢٠٢ تحقيق الدكتور إحسان عباس .

وتعديل . مما يجعل ابن حزم ينتمى للجيل الأول الذى كان التاريخ عنده امتداداً لعلم الحديث .

وقد أدت هذه النظرة إلى التاريخ فى فكر ابن حزم ، وهو أنه علم له منهجه الموضوعى ، إلى اطمئنانه الشديد إلى نتائج الدراسات التاريخية تماماً مثل اطمئنان العلماء التجريبيين إلى نتائج أبحاثهم ..

وهو يعبر عن هذه الثقة المطلقة ، فى قوله :

« ونحن نعلم أن من الملوك من يشتد عليهم وصف الناس لأجدادهم بالجور والظلم والقبائح ، ويحمون هذا الباب بالسيف فما دونه ، فما انتفعوا بذلك فى كتمان الحق . فقد نقل ذلك كله وعرف ، كما نقلت فضائل من يغضب ملوك الزمان مدحه كفضائل على رضى الله عنه . ما قدر قط ملوك بنى مروان على سترها وطبها . وقد رام المأمون والمعتصم والواثق على ثقة ملكهم لأقطار الأرض - قطع القول بأن القرآن غير مخلوق فما قدروا قط على ذلك كله .

وكل نبي له عدو من الملوك والأمم يكذبونهم فما قدروا قط على طي أعلامهم .. فصح أن الحق حق^(١) . وإذا كانت هذه هى الثقة الى يعطيها ابن حزم لحقائق التاريخ العام فإن قضايا التاريخ الإسلامى جديرة من باب أولى بهذا التوثيق والبعد عن التأثير والهوى ... لأن لكل شخصياته وحقائقه أعداء محاربين قادرين على كشف ما يمكن أن يظن أنه ستر من أمرها . وحتى لو رام أحد من الملوك ذلك - أى ستر شيء معيب فى الإسلام - لما قدر عليه ، لأنه لا يملك أيدى الناس ولا ألسنتهم . يصنعون فى منازلهم ما أحبوا ، وينشرونه عند من يثقون به حتى ينشر . وهذا أمر لا يقدر على ضبطه والمنع منه أحد لاسيما مع انحراف الدنيا وسعة أقطارها من أقصى السند إلى أقصى الأندلس^(٢) .

ويرى ابن حزم أن علم التاريخ ينقسم إلى مراتب من ناحية منهج تناوله :

١ - فإما تاريخ خاص بالممالك « تاريخ الإمبراطوريات » .

(١) ابن حزم : الفصل ١ - ٧٥ جصرف .

(٢) المصدر السابق ١ - ١٠٨ .

- ٢ - وإما تاريخ خاص بالسنين « التاريخ الحولى » .
 - ٣ - وإما تاريخ للبلاد « التاريخ المحلى » .
 - ٤ - وإما تاريخ طبقات الناس من فقهاء وعلماء وغيرهم .
 - ٥ - وإما تاريخ منشور^(١) وهو التاريخ الذى يضم أشتاتاً .
 - ٦ - وعلم النسب^(٢) .
- وقد ضمت دراسات ابن حزم أنواعاً أخرى - تختلف فى منهج تناول -
تضم إلى هذه الأنواع وهى :
- ٧ - تاريخ الأديان والأفكار والمذاهب .
 - ٨ - تاريخ المعارف والعلوم .
 - ٩ - التاريخ الاجتماعى .
 - ١٠ - التاريخ الاقتصادى (وهذه الأبواب الأخيرة جزء من التاريخ الحضارى) .

- أما من ناحية الفترات التاريخية الموثقة والصالحة لأن تكون تاريخاً سليماً والمجالات الأخرى الحافلة بالأساطير فينقسم التاريخ - فى رأى ابن حزم - إلى :
- ١- تاريخ الملة الإسلامية : وهو أصح التواريخ ويضم مبدأ الملة الإسلامية وفتوحها وأخبار خلفائها وملوكها وعلمائها وسائر ما انتظم ذلك^(٣) .
 - ٢- تاريخ بنى إسرائيل : وأكثره صحيح وفى بعضه دخل ، وإنما يصح من أخبارهم منذ صاروا بالشام إلى أن خرجوا عنها المخرجة الأخيرة لا من قبل ذلك^(٤) .
 - ٣- أخبار الروم وتصح من عهد الإسكندر لا من قبل ذلك^(٥) .

(١) رسائل ابن حزم (مراتب العلوم) ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ٧٩ .

(٣) رسائل ابن حزم ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ٧٨ ، ٧٩ .

(٥) المصدر السابق ٧٩ .

- ٤- أخبار الترك والخزر وسائر أمم الشمال وأمم السودان وهي أمم لا علوم لها ولا تواليف ولا تواريخ^(١) .
- ٥- أخبار الهند والصين وهما وإن كانتا أمتى علم وضبط وتواليف وجمع إلا أن تاريخهما لم يصل إلى المسلمين إلى عصر ابن حزم ، وهما بالتالي مجالان من الصعب دراستهما تاريخياً ، حيث إن مادة تاريخهما غير موجودة^(٢) .
- ٦- أخبار أمم القبط واليمنيين والسريانيين والأشمانيين وعموم وموآب وبقية سائر الأمم غير من مر ذكره ، وتاريخهم قد باد جملة ، ولم يبق منه إلا تكاذيب وخرافات^(٣) .
- ٧- أخبار الفرس ، ولا يصح شيء منها إلا ما كان من عهد دارا بن دارا فقط وأصح أخبارهم الصالحة للدراسة ما كان في عهد أزد شيرين بابك فقط^(٤) .

لقد قدم لنا المؤرخ شمس الدين السخاوى تصنيفاً لأبواب التاريخ في أربعين باباً^(٥) داخل كل باب منها أنواع متعددة وكثيرة ، لكنه في الحقيقة قد فرع أكثر من القدر اللازم بحيث يصح القول بأن تقسيم ابن حزم الوجيز ينتظمها كما أن دراسات ابن حزم التاريخية قد تناولت أكثر فروعها .

وما قدمه شمس الدين السخاوى من تفرعات لأبواب التاريخ تتجه إلى تأكيد المعنى الحديث للتاريخ^(٦) وهو أنه تاريخ للحضارة ، ورصد لكل عناصر

(١) رسائل ابن حزم (مراتب العلوم) ص ٧٩ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) انظر المكان السابق .

(٤) انظر المكان السابق .

(٥) انظر الإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ ص ١٥٠ وما بعدها .

(٦) انظر روزنتال علم التاريخ عند المسلمين ١٧ .

الحركة فيها فى مستويات الحياة المختلفة^(١) سواء كانت الحركة إيجابية أم سلبية . وهذا المفهوم المتكامل للتاريخ هو نفسه الذى اتجه إليه ابن حزم قبل السخاوى نظرية وتطبيقاً .

فائدة التاريخ عند ابن حزم :



يذهب ابن حزم - شأنه شأن سائر المؤرخين المسلمين المتقدمين^(٢) - إلى أن للتاريخ فائدة أو « غاية » يمكن أن نستخلص جوانبها من وراء الدراسة المتأنية للأحداث والوقائع .

ويرى أحد المؤرخين المعاصرين أن هؤلاء المؤرخين الإسلاميين إلى عصر السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧) إنما قصدوا من الوعى بالتاريخ الاستعانة به على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ، فيعين هذا إلى التثبيت من صحة رواية الحديث أو عدم صحته ، وتفسير القرآن الكريم ، والعبرة والموعظة ، أى أن للتاريخ فائدتين عندهما : دينية وتعليمية^(٣) .

لكننا نعتقد أن ابن حزم لم يقف بفائدة الوعى بالتاريخ عند هاتين الغايتين اللتين عرفنا لدى المؤرخين المسلمين فى هذه العصور .

فمن بين ما رآه ابن حزم من فوائد الوعى بالتاريخ : « الاطلاع على فناء الممالك وخراب البلاد المعمورة ، ودثور المدائن المشهورة التى طالما حصنت وأحكمت وذهاب من كان فيها وانقطاعهم ، وتقلب الدنيا بأهلها وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس ، وظلموا الناس ، واستكثروا من الأموال والجيش والعدد

(١) بالنظر إلى تفريع السخاوى نستطيع أن نتأكد أنه قلم كل عناصر الحياة كمادة صالحة للدخول فى مجال الدراسات التاريخية . ومن هؤلاء الذين قدمهم السخاوى تاريخ قطاع الطرق والقتاوية ولما بال الشرع والرد والقمار والملاح والمشايق وللمتدين والفرقاصيين وشرية الخمر وأهل الخلاعة والقيادة والكذب والنداء والخزم والتدبير . والرأى والخذاع والحيل ، والمخايلين والصانعين والقرشيين والمختئين وعقلاء الجاهل والنسايين والمجمين والفرق والقراء والحفاظ وغيرهم ، انظر ص ١٥٠ وما بعدها من الاعلان بالتوبيخ) .

(٢) انظر د - أحمد شلى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ١ - ٣٤ . وما بعدها .

(٣) د - حسين مؤنس : مقال التاريخ والمؤرخون مجلة علم الفكر الكويتية عدد أبريل عام ١٩٧٤ م .

ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم ، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم ، ورحل بنوهم وضاعوا ، وبقي ما تحملوا من الآثام والذم والذكر والقبیح لازماً لأرواحهم في الميعاد ولذكرهم في الدنيا فيحدث له فيها بذلك زهد وقلة رغبة ... وليشرف على اغترار الملوك بها ... وليقف على حد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها ، ويسمع ذمهم للردائل فيكرهها ، ويوفى على تيقن النصح منها لما يرى من تناصر التواريخ على تباعد أقطار حاملها وتفاوت أزمانهم وتباين همهم ، واختلاف أديانهم ، وتفرق مذاهبهم على نقل قصة ما ، فيوقن أنها حق لاشك فيه ويسمع بخلاف نقلهم في قصة ما فيدرى أنها مضطربة . ويرى أخبار العلماء والصالحين فيرى الحرص على مثل حالهم ويرغب في إلحاق اسمه بأسمائهم إذا سلك طريقهم وحذا حذوهم ... ويطلع على آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عليهم ، وما أبقوا من الأسماء الذميمة ، فيمقت طريقهم ويتجنب أن يكون مذكوراً فيهم ، ويجعل هذا العلم خاصة وقت راحته وسأتمته ، فإن هذا العلم سهل جداً ومنشط وممتزج ولذة (١) » .

فنحن نرى وضوح الغاية التعليمية من دراسة التاريخ عند ابن حزم كما نرى امتزاجها بالغاية الدينية ... فكلتاها تأتيان من معرفة سير الأخيار وفناء الممالك وخراب البلاد المعمورة وتقلب الدنيا بأهلها من ملوك وعامة ..

لكن ابن حزم أضاف إلى جانب هاتين الفائدتين فائدة ثالثة واضحة للتاريخ وهي أنه علم منشط للنفس تستروح به عند سأمها من العلوم الأخرى ، وهو لذلك يحث على أن يكون وقت دراسة التاريخ خاصة وقت الراحة .

وبدهى أن التاريخ يعطينا هذه الفائدة ، بما يحفل به من قصص تعتبر جوهر مادته ، وما يحفل له من عبر ومواعظ أطرب ابن حزم في الحديث عنها خلال نصه السابق .

(١) ابن حزم الرسائل ٧١ ، ٧٢ .

ومع ذلك فابن حزم - من وجهة النظر الحديثة - لم يستطع أن يستوعب الفوائد المتعددة التي تعطيها الدراسة التاريخية .

ومن أبرز هذه الفوائد أن التاريخ لا يدرس لذاته ، وإنما ليكون مفتاحاً لفهم الحاضر ولخدمة المستقبل ، ومنها أن التاريخ هو سجل محفوظات الماضي مثلما لكل مؤسسة محفوظات ورفوف^(١) وهذا السجل يجعل الإنسان يختلف عن الحيوان الذي لا ماضى له ... بل إن بعض المفكرين يرى أن من الفروق الأساسية بين الإنسان والحيوان أن الإنسان حيوان له تاريخ .

وثمة فوائد أخرى متعددة لدراسة التاريخ ليس همنا حصرها هنا ، وإنما ذكرنا ما ذكرنا لنبين موقع فكر ابن حزم الذي عبر عن عصره وثقافته خير تعبير من الفكر التاريخي العام .

رتبة التاريخ عند ابن حزم :



يجعل ابن حزم علم التاريخ ، من جملة العلوم الثلاثة التي تتميز بها كل أمة عن الأمم الأخرى ، وهو يضع التاريخ « علم أخبار الأمم » بعد « علم الشريعة » وقبل علم اللغة .

وتأتى بعد هذه العلوم الثلاثة التي تتميز بها الأمم العلوم الأربعة الباقية التي تشترك فيها كل الأمم ، ولا علاقة لها بالشخصية الحضارية للأمة وهي علم النجوم ، وعلم العدد ، وعلم الطب ، وعلم الفلسفة^(٢) وهي معرفة الأشياء على ما هي عليه^(٣) .

(١) انظر الدكتور - أحمد شلى : موسوعة التاريخ الإسلامى ١ - ٣٧ .

(٢) رسائل ابن حزم (مراتب العلوم) ٧٨ وانظر روزغال : علم التاريخ عند المسلمين ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) انظر المكان السابق .

أما من ناحية « البرنامج التربوي » للتعليم ، ومكانة علم التاريخ في هذا البرنامج فيضع ابن حزم التاريخ بعد القراءة والكتابة واللغة والمنطق والطبيعات وكتب التشريع ... « فإذا أحكم ذلك من خلال ابتدائه بالنظر في العلوم فلا يكن منه إغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة وقراءة التواريخ القديمة والحديثة » (١) .

وفهم من كلام ابن حزم أن أكثر العلوم التي تسبق التاريخ هي : « مقدمات » يعرف المرء منها أوليات الأشياء والبراهين ، ما هو برهاني وما هو شغب ، وكيف التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان (٢) أما علما الطبيعات والتشريع فيبدو أنه يقصد بهما فهم الإنسان للبيئة الخارجية ولكيانه الداخلي - وهما أمران ضروريان يجب تقديمهما ..

ومن جانب آخر يعتبر التاريخ عنده باباً من أهم الأبواب للوقوف على الحقائق التي لا تأتي إلا بشدة البحث وكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال والنظر في طبائع الأشياء وسماع حجة كل محتج ، والنظر فيها والتفتيش والإشراف على الديانات والنحل والمذاهب والاختبارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم .

وفي هذا المجال يرى ابن حزم أن السيرة تحتل المكانة التالية للقرآن ... إنها مكانة الحديث الذي منه سيرة النبي ﷺ الجامعة لكل الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى الآخرة ، ولا بد مع هذه السيرة من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة (٣) .

ونحن نستطيع من خلال هذه النصوص التي أوردها ابن حزم في « مكانة التاريخ » ومن خلال نظريته « التربوية » التي سنفرد لها بحثاً عند حديثنا عن فكره الاجتماعي أن ننتهي إلى القول بأن للتاريخ مكانة هامة عند ابن حزم سواء في مجال البحث عن الحقيقة ، أو في مجال الفكر الإسلامي ، أو في مجال التربية .

(١) ابن حزم الرسائل (مراتب العلوم) ٧١ .

(٢) المكان السابق .

(٣) انظر التقرير لحد المطلق ١٩٨

- فالتاريخ ركيزة من الركائز الثلاث التي تحدد معالم الشخصية الحضارية للأمم .
- وهو علم من العلوم الأساسية التي يجب أن تدخل في برنامج التعليم وأكثر العلوم التي تسبقه إنما هي مقدمات أساسية للفكر والتعبير « كالمنطق واللغة » .

- وهو من الناحية « الإسلامية » علم مرتبط بالحديث فالسيرة النبوية الجامعة جزء من التاريخ وهي جماع لكل الفضائل ... ولا بد لكي تكتمل فائدة الوعي بها - عند ابن حزم من مطالعة الأخبار قديمها وحديثها ؟
فكان التاريخ يأتي عند ابن حزم من زاوية ثالثة - بعد القرآن والسنة 11

العوامل المؤثرة في التاريخ عند ابن حزم :



هناك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين على نسبة القول بأن هناك تفسيراً للتاريخ غير الحقائق الظاهرة إلى الفيلسوف المسلم عبد الرحمن بن خلدون ، الذي قال عن التاريخ :

« إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق « والحكمة هي الفلسفة » وجدير بأن يعد في علومها وخلق^(١) .

وإذا جاز لنا أن نتخطى ابن خلدون بعدة قرون فإننا نجد الفيلسوف الفرنسي « فولتير » يعلن أنه بعد قراءته لوصف ثلاثة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات لم يتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة^(٢) .

(١) المقدمة ص ٢ طبعة بولاق .

(٢) نقلا عن الدكتور أحمد محمود صبحي « في فلسفة التاريخ » ص ٩ .

فهل أدرك ابن حزم أن للتاريخ تفسيراً^(١) - أى عوامل تحرك الأمواج التاريخية الكبرى^(٢) ؟

وذلك بالمعنى الذى ذهب إليه ابن خلدون ، وبحث عنه - من خلف آلاف المعارك - فولتير ؟

- الحقيقة أننا عندما ندرس فكر ابن حزم نجد فيه بذوراً للوعى بأن وراء جزئيات أحداث التاريخ عوامل كبرى تؤثر فى حركته .

ولئن كان ابن حزم لم يوضح لنا - كما فعل ابن خلدون - أن هذا « تفسير للتاريخ » - إلا أننا نستطيع القول : إن ما قدمه ابن حزم فى هذا السبيل ، كان من جملة البذور أو الخمائر التى ظلت تنضج حتى استطاع ابن خلدون أن يقدمها فى إطارها المتكامل وصورتها المشرقة .

لقد أدرك ابن حزم أن هناك فرقاً بين فعل الله فى الكون ، الذى هو قوانين وسنن حتمية ، وبين فعل الإنسان ... الذى هو العنصر المؤثر فى رقى الحضارة ... أو فى اندحارها .

ومن خلال هذا الإدراك درس ابن حزم العوامل التى تجعل حركة الإنسان فى التاريخ حركة إيجابية ، ورفض الخلط بين ما يمكن لنا تسميته « الحتمية الكونية » وبين « الحركة الإنسانية » ، فبينما تكون الأولى إجبارية اضطرارية تكون الثانية « طبيعة ممكنة فى التصرف »^(٣) .

ويوضح ابن حزم رأيه حين يرد على الذين يلوكون كلمتى القضاء والقدر على أنهما بمعنى الإكراه والإجبار ، وليس كما ظنوا وإنما معناهما الحكم فقط ،

(١) تشعبت الآراء فى العصر الحديث حول فلسفة التاريخ فظهرت الفلسفة المادية التى ترجع حركة التاريخ واطراد التقدم الى الاقتصاد وصراع الطبقات ووسائل الانتاج . كما أن هناك التفسير « النفسى » للتاريخ وهناك التفسير « اللاهوتى » وهناك من يرجعون تقدم التاريخ إلى « الأبطال » ومن يرجعونه الى « الاستجابة والتحدى » والعوامل الفكرية والروحية .

(٢) انظر الدكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ١ - ٢٢ .

(٣) انظر الفصل ٣ - ٥١ .

فالقاضي بمعنى الحاكم ، ويكون معناهما أيضاً أمره ، وبمعنى أخبر ، وبمعنى رتب ونظم ، أى أنه ليس من معانيهما الإكراه والإجبار^(١) .

وهذا الإطلاق لحرية الحركة الإنسانية يقيده ابن حزم « بالتركيب الأخلاقي » الذى يحد منها ، ويكاد يجعلها حرية شكلية ، فهو يقول : « ومن عرف تراكيب الأخلاق المحمودة والمذمومة على أنه لا يستطيع أحد غير ما يفعل مما خلقه الله عز وجل فيه ، فنجد الحافظ لا يقدر على تأخر الحفظ ، والبليد لا يقدر على الحفظ ، والفهم لا يقدر على الغباوة ، والغبي لا يستطيع ذكاء الفهم ، والحسود لا يقدر على ترك الحسد ، والنزيه النفس لا يقدر على الحسد ... كذلك يوجدون من طفولتهم ، والسيء الخلق لا يقدر على الحلم ... وهكذا فى كل شيء فصح أنه لا يقدر أحد إلا على ما يفعل بما يتم الله تعالى فيهم القوة على فعله ، وإن كان خلاف ذلك منوهاً منهم بصحة البنية وعدم المانع^(٢) » .

والحق أن ابن حزم تناقض - عند هذه النقطة - مع نفسه ، فهو فى رسالته فى مداواة النفوس قد سرد علينا عديداً من الوسائل النفسية والتربوية « فى مداواة ذوى الأخلاق الفاسدة »^(٣) - كما أن هذه الرسالة كلها محاولة لتتبع الأمراض الأخلاقية وعلاجها . وقد حدثنا فى سيرته الذاتية المنبثة فى تراثه أنه تتبع أمراضه الخلقية ، ونجح فى علاج أكثرها^(٤) . فكيف يتفق هذا مع فرض هذه الحتمية « الكونية » أو « الفطرية » على الإنسان؟

ويمكن أن ينضم إلى ما يعترض به على رأى ابن حزم فى الحرية الإنسانية أن نظرتة تلك تتعارض مع الحجم الذى يمنحه الفكر الإسلامى نفسه للحرية الإنسانية ، فالإنسان فى الإسلام يحظى باهتمام كبير سواء فى التكاليف العقائدية

(١) انظر الفصل ٣ - ٥١ ، ٥٢ .

(٢) الفصل ٣ - ٤٢ .

(٣) رسائل ابن حزم (رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق) ص ١٥٠ بتحقيق د - إحسان عباس .

(٤) انظر : الأخلاق والسور ١٧ ، ١٨ بتحقيق فؤاد البستاني بيروت ١٩٦٦ .

الأخلاقية والتشريعية التي أنيطت به ... أو في العروض التاريخية التي يبدو فيها دور الفرد مسئولاً حراً^(١) ... وحيثما أمعنا في استخدامات القرآن اللغوية المتعلقة بالفرد والجماعة على مستوى التكليف أو الإخبار أو التحذير ، فإننا سنلتقى بتعابير عديدة تدلنا على الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن للفرد والجماعة على السواء^(٢) . وهي أهمية تتعارض بوضوح مع التفسيرات التي تجعل دور الفرد « ثانوياً » في حركة التاريخ ، أو محكوماً بقوانين تسلبه الحرية والمسؤولية وهو ما كاد ابن حزم يقع فيه .

ومع ذلك فبإمكاننا أن نقول مطمئنين : إن ابن حزم يندرج تحت قائمة المفكرين الإسلاميين الذين يرون أن أحداث التاريخ تصنعها - في البداية وفي إطار الحركة الكونية - إرادة الله ومشيئته .

ودور الإنسان في هذه الحركة عند ابن حزم دور محكوم بهذه الحركة الكونية ، وبمجموعة الطبائع الفطرية التي خلقه الله عليها ..

ويدلنا فكر ابن حزم على أن هناك عناصر ثلاثة ركز عليها ابن حزم ، وقدمها كعوامل تسهم بدرجة كبيرة في إبداع الحضارة ، وهي كلها عوامل تؤكد أن الجانب الروحي والفكري - وهو ما ركز عليه أكثر المفكرين الإسلاميين - « هو أهم تفسير للتاريخ »^(٣) ، وأن العوامل المادية والبيئية - مع ضرورتها - تحتل مرتبة تالية في صنع الحضارة وفي استمرار تماسكها .

وهذه العناصر التي ركز ابن حزم عليها هي :

(١) يستشهد بعض المؤرخين على أهمية دور الفرد الحر في الإسلام بأن القرآن يتحدث عن الإنسان « الفرد » في حوالى خمسة وستين موضعاً ، « والنفس المفردة » في حوالى مائة وأربعين موضعاً « والأنفس » جميعاً في حوالى مائة وستين موضعاً والمؤمنون بتصريفاتها في حوالى أربع مائة وستين موضعاً والفردية كوحدة اجتماعية في حوالى خمسة وخمسين موضعاً (انظر د - عماد الدين خليل التفسير الإسلامى للتاريخ ١٦٦) .

(٢) المرجع السابق ١٦٧ .

(٣) انظر الدكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٢ الطبعة السادسة .

١ - العقيدة والشرعية :



« فلا بد لكل أمه من معتقد ما ، إما إثبات وإما إبطال » كما يقول ابن حزم (١) .

وأهمية العقيدة تأتي عنده من أنها تشبه الروح التي توجه الإنسان إلى البناء ، وتنقى باطنه من الأمراض الاجتماعية والخلقية ، بل إن العقيدة - نتيجة لإصلاحها للنفس وتقويمها لها وتوجيهها في طريق مرسوم - هي التي تدفع إلى الاهتمام بالتحصين الظاهري الذي يحمي الأمة كبناء الأسوار والحصون واتخاذ السلاح وما إلى ذلك من ضرورات إقامة الأمم وتحقيق أمنها ورخائها .

ويعتمد ابن حزم في تأكيد رأيه على بدهية عقلية حين يصور لنا الحياة بدون عقيدة وشرعية ، وقد شملها القتل والزنا والظلم وأمراض البغى والحسد والجبن والفسق والخيانة ... وهو يتساءل بعد سرده لهذه الآفات المدمرة للحضارة : هل صلاح العالم إذن إلا بالشرائع الزاجرة ؟ ولولا الشرائع أما كان العالم سيفسد كله وستفسد فيه العلوم كلها ؟

بل إن ابن حزم يرى أن فضيلة الفهم والنطق والعقل ستبطل في الإنسان ويصير - بدون العقيدة والشرائع الزاجرة باطناً وظاهراً - كالبهائم سواء بسواء .

يقول ابن حزم : أليس الفلاسفة كلهم قد قالوا : صلاح العالم بشيئين : أحدهما باطن والآخر ظاهر . فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة عن ظلم الناس وعن القبائح . والظاهر هو التحصين بالأسوار واتخاذ السلاح لدفع العدو الذي يريد ظلم الناس والإفساد ، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا إصلاح الأجساد بالطب ؟ فلا بد من نعم ضرورة - فيقال لهم : فهل صلاح العالم وانكفاف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب الموارد ، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض وعن

(١) رسائل ابن حزم (مراتب العلوم) ٧٨ .

الردائل من البغى والحسد والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الردائل -
ألا بشرائع زاجرة للناس عن كل ذلك ... ولولا ذلك لفسد العالم كله ، ولفسدت
العلوم كلها ، ولكان الإنسان قد بطلت فضيلة الفهم والنطق والعقل فيه ، وصار
كالبهائم ^(١) .

والحق أن رؤية ابن حزم لدور العقيدة ، سواء كانت العقيدة صحيحة أو
باطلة فى بعض أركانها - رؤية جديدة انتهى إليها كثير من المفكرين الذين أصبحوا
يسمون عصرنا هذا بعصر «الأيدولوجيات» ، بل إن ثمة إجماعاً من المفكرين على
أهمية دور الفكر والتشريع فى الصراع الحضارى بين الأمم . وإن أمة تملك عقيدة
وفكراً - مهما كان خطأ بعض تصوراتها - لهى أقوى على الصمود والإبداع من
الأمة التى تعيش بلا عقيدة أو شريعة ، مهما كانت الأسباب المادية متوافرة لدى
هذه الأمة .

(٢) التعليم والتربية :

يرى ابن حزم أن للتربية والتعليم دوراً مهماً فى بناء المجتمع ورفق الأمة .
ونحن نلمح التفرقة فى فكر ابن حزم بين مصطلحي التربية والتعليم ، وهو أمر انتهى
إليه المربون ، وأصبحوا يفرقون به بين ما ينمى ملكات العقل ويكون المشاعر
والاتجاهات الصحيحة ، وبين ما يمكن أن يحتشد به العقل - مجرد حشد من
المعلومات .

وقد وسع ابن حزم مفهوم التعليم فجعله يضم كل العلوم تطبيقية ونظرية
وهو - أيضاً - مفهوم جيد بالنسبة للمفاهيم التى سيطرت على التربية فى كثير
من عصور التاريخ الإسلامى ، وهى تلك المفاهيم التى حقرت من « علوم المعاش »
وكادت تقصر العلم على « علوم الدين » والعلوم النظرية كالأدب واللغة .

(١) الفصل ١ - ٩٤ ، ٩٥ .

ومن المعروف أن إنشاء المدارس في العالم الإسلامي لم يظهر إلا على يد الوزير السلجوقي «نظام الملك» الذي وزر لألب أرسلان ولُمُلك شاه^(١) ، من مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وقبل ذلك كان التعليم في الكتاتيب والمساجد ، أى أن طبيعة التعليم كانت ملتصقة بالعلوم الدينية ، بصفة عامة ، وإن شذ عن هذه القاعدة أفراد نابغون كالبيروني وابن سينا وجابر بن حيان وغيرهم .

ولما أنشئت المدارس ظلت ملتصقة بالعلوم الدينية ، فلم تستفد بها العلوم الدنيوية^(٢) بل إن هذه المدارس إنما أنشئت لخدمة مذاهب دينية في أكثر الأحيان .

وهذا يبين كيف كان ابن حزم واعياً بأسس بناء الأمة ورفقها ، وذلك حين سبق عصره فمزج في التعليم بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، بل أدخل كثيراً من الحرف المهنية وأساليب الزراعة في برنامج التربية والتعليم^(٣) الذي يرى ضرورة أن ينتظم الأمة ... لكي تعيش في مستوى إنساني معقول من التفاهم والعقل والتميز .

ويؤكد النص التالي الاتجاه الذي ذكرناه :

يقول ابن حزم : « العيش لا يكون إلا بتفاهم ضرورة ، والتفاهم لا يكون إلا من عاقل مميز ، ولا سبيل إلى أن يبلغ أحد تلك السن إلا بتربية ، كما أن التفاهم لا يكون إلا بتعليم ، ولا بد كذلك جميع الصناعات من آلات الحرب والعمل بها وآلات النسيج والعمل بها ، والطب وسائر العلوم والصناعات ... فكل ذلك لا يكون إلا بتعليم ابتداء^(٤) ، وكل ما علم فهو علم فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة وتدبير الفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها ، وغرسها ، والبناء ، وغير ذلك^(٥) » .

(١) انظر الدكتور أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ١١٦

(٢) انظر المرجع السابق ١١٥ .

(٣) ستحدث بتفصيل عن « نظرية ابن حزم التربوية في الباب الثالث » فصل « الفكر الاجتماعي عند ابن حزم » .

(٤) ابن حزم رسالة الدرة مخطوطة شهيد على ورقة رقم ١٠٥ وانظر رسائل ابن حزم (رسالة التوقيف ٤٩ ، ٥٠) .

(٥) رسائل ابن حزم ٨٠ .

(٣) الأخلاق :

ومن خلال فكر ابن حزم يتجلى تركيزه على الأخلاق ودورها فى بناء الأمة ورقبها . ويذهب ابن حزم إلى أن جوهر الأخلاق هو « الصدق » . فهو عنده أصل تدور حوله كثير من الأخلاق الأخرى ، وابن حزم يستلهم فى ذلك النظرة الإسلامية التى تهتم بالصدق مع النفس ومع الله ومع الآخرين أيما اهتمام وذلك لأن الصدق أساس لإقامة الحياة الاجتماعية . وأن الأمم التى تفقد هذه الصفة تقضى على بنائها الاجتماعى ومعاملاتها الاقتصادية بالسقوط - كما أن الهيكل الاجتماعى الذى مادة بنائه الصدق يستطيع أن يقف فى وجه أعنف ضربات الزمان (١) :

ويتركب الصدق عند ابن حزم من فضيلتى العدل والنجدة ، وأما الكذب فيضم كثيراً من الأمراض المهلكة . وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه ؟ فكل كفر كذب ، فالكذب « جنس » الكفر ، والكفر « نوع » تحته . والكذب متولد من الجور والجبن والجهل ، لأن الجبن يولد مهانة النفس ، والكذب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة (٢) .

ويورد ابن حزم حديث الرسول ﷺ الذى يقول فيه : إن المؤمن يكون بخيلاً وجباناً لكنه لا يكون كذاباً . والحديث الذى يقول فيه إن العبد يظل يكذب حتى يسود قلبه ، والأحاديث الأخرى المتضافرة على بيان أن الكذب أساس لكثير من الأمراض الخلقية (٣) التى تفسد المجتمع .

ومن الناحية الحضارية ، يقول ابن حزم عن أثر الكذب : « وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائ والكذب (٤) » ثم يورد ابن حزم نماذج متعددة ، ونصوصاً ، تتضافر كلها على تأكيد دور الكذب فى إفساد الحياة (٥) .

(١) انظر صيد الحميد صديق : تفسير التاريخ ١٥١ .

(٢) رسائل ابن حزم (رسالة مداواة النفوس) ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) انظر الطوق ٨٦ .

(٤) المكان السابق .

(٥) انظر الطوق ٨٧ ، ٨٨ وغورهما .

والحق أننا نستطيع أن نجد في الفكر التاريخي لابن حزم إشارات دالة على
عديد من مقومات الحضارة ، كما أننا نستطيع أن نستنتج أن افتقاد هذه المقومات
من شأنه أن يجعل البناء الحضارى للأمة - آيلاً للتداعى . وليس تماسكه إلا عملية
وقتية .

وقد تحدث ابن حزم بإسهاب عن الأندلس في عصرى الفتنة والطوائف ،
وقدم لنا من خلال هذا العرض نموذجاً لمجتمع افتقد مقومات البقاء ، وتفشت
فيه أمراض الحضارة ، وهو أمر سنفصله عند الحديث عن تأريخه للأندلس .

لكننا نعتقد أن كثيراً من هذه الإشارات الحضارية لا تعدو أن تكون لفتات
جزئية مجملة ، وأنها لم تكن في بروز ووضوح العوامل الثلاثة التى ذكرناها
(العقيدة - الأخلاق - التربية) بحيث تستحق الذكر فضلاً عن أنها إشارات
وجدت عند أكثر المفكرين والمؤرخين الإسلاميين .

وبإيجاز لقد كان ابن حزم من المفكرين المسلمين الأول الذين اتجهوا إلى
الحديث عن بعض قضايا الفكر التاريخي من ناحية « البناء النظرى » وكانت جهود
هؤلاء المؤرخين هى التمهيد القوى الذى نجح من خلاله الفيلسوف العلامة
(عبد الرحمن بن خلدون) فى تقديم بناء نظرى فلسفى متكامل للفكر التاريخي ،
وإن كان المؤرخون قد أخذوا على ابن خلدون كثيراً من المآخذ عند محاولة تطبيق
نظرياته التاريخية .

أسلوب ابن حزم فى معالجة التاريخ :

غلب النشر الأدبى على التعبير التاريخي عند ابن حزم .
وقد أخذ هذا النشر سمة المباشرة المعتادة فى الكتابة التقريرية والعلمية ولم
يعرف أن ابن حزم لجأ إلى تجميل أسلوبه متعمداً ، بل كان أسلوبه كما ذكرنا
من قبل آية فى البساطة والجمال والسهولة .

وتنتهى دراساته التاريخية فى مجملها إلى هذا النشر البسيط الجميل الذى
كان أداة ابن حزم التعبيرية الغالبة عليه .

لكن ابن حزم لجأ - فى بعض المواطن - إلى « الشعر » كأسلوب من أساليب التعبير عن الحقائق التاريخية .

ومن المعروف أن التعبير عن الحقائق التاريخية بالشعر أسلوب معروف لدى مؤرخى العرب والإسلام ، على الرغم مما فى ذلك من قيود .

ولعل أقدم تاريخ منظوم هو ما صنعه عبد الله بن المعتز سنة ٢٩٦ هـ فى قصيدته التاريخية فى الملوك والخلفاء ، وفى أرجوزته فى تاريخ الخليفة المعتضد العباسى التى صنعها بإشارة من المعتضد نفسه (١) .

وفى الأندلس ظهر التأريخ بالشعر قبل ابن حزم على يد المؤرخ الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، فقد ألف أرجوزة من أقدم الشعر التاريخى بعد أرجوزة ابن المعتز الذى توفى قبله بثلاثة عقود ، عدد فيها مآثر الخليفة عبد الرحمن محمد أمير المؤمنين بالأندلس وغزواته من سنة ٣٠١ هـ إلى سنة ٣٢٢ هـ .

كما أن الأديب المؤرخ أبا طالب بن عبد الجبار الذى كان يعرف بمتنبى الأندلس قد نظم قصيدة طويلة فى تاريخ الخلفاء (٢) .

وقد لجأ ابن حزم إلى طريقة التعبير بالشعر عن الحقائق التاريخية وغيرها من فروع المعرفة التى كان له باع طويل فيها (٣) .

وفى تراث ابن حزم قصائد تمثل أطوار حياته ، وتمثل مواقفه من بعض القضايا الاجتماعية والسياسية ... وهو فى صدر كتابه الطوق يبين التزامه بنهج الاستشهاد بشعره فيقول : « وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته » (٤) .

(١) انظر محمد عبد البنى حسن : التراجم والسير ص ٣٧ .

(٢) انظر محمد عبد البنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) انظر منظومته فى أصول الفقه الطاهرى الملحقة بمخطوطة كتاب « الأحكام فى أصول الأحكام » الموجودة ضمن مخطوطات مكتبة ابن يوسف بمدينة مراكش تحت رقم ٥٢٤ من ص ٤٥٨ - ٤٦٢ - وانظر أبو عبد الرحمن بن عقيل : مجلة الدعوة السعودية عدد ٥١٧ - ٢٥ - ٨ - ١٣٩٥ هـ - وهى قصيدة فى ٤٤ بيتاً . وأولها :

تصدى سبيل الرشيد من جدار واعتدى .

(٤) ص ١٦ .

ثم يورد ابن حزم - بعد ذلك - كثيراً من المقطوعات ذات الصلة بالتاريخ ،
كمقطوعته في أبي عامر بن أبي عامر - وهو ابن لعبد الملك المظفر^(١) -
وموسى بن عاصم بن عمرو^(٢) وأبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى
الشاعر^(٣) وعبيد الله بن يحيى الجزيرى^(٤) ، وأبى عبد الله محمد بن يحيى
المعروف بابن الطينى^(٥) ، وغيرهم .

لكن أبرز قصائد ابن حزم التاريخية هي قصيدته الميمية^(٦) التى أنشأها
عندما اطلع على القصيدة التى أرسلها نقفور الملقب بالدمستق ملك الأرض المتوفى
سنة (٣٥٢ هـ) - إلى الخليفة المطيع بالله ، ليسب فيها الإسلام والمسلمين ويتوعد
فيها بأنه سيملك بلاد المسلمين إلى الحرمين الشريفين .

ومع أن قصيدة نقفور كان قد مر عليها نحو قرن من الزمان على وفاة
ابن حزم ، فإنه - رحمه الله - لم يملك حين قرأها من إنشاء رد عليها^(٧) .
ويقول ابن كثير : إننى لم يبلغنى عن أحد من أهل ذلك العصر أنه رد على نقفور
جوابه ، إما لأنها لم تشتهر ، وإما لأنه أقل من أن يردوا خطابها^(٨) .

والحقيقة أن أبا بكر محمد بن على القفال الشاشى ، رد عليها قبل
ابن حزم ، إذ كان من جملة من غزا الروم من أهل خراسان وما وراء النهر ، فلما
وردت قصيدة نقفور تصدى أبو بكر الشاشى للرد عليها فى حينها^(٩) .

ويقول ابن كثير : لقد انتحى للجواب عنها بعد ذلك أبو محمد ابن حزم
الظاهرى فأفاد وأجاد ، وأجاب عن كل فصل باطل بالصواب والسداد^(١٠) .

(١) انظر الطوق ص ٣٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٦٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٨٧ .

(٤) انظر المصدر السابق ص ٨٨ .

(٥) انظر المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٦) انظر فهرست ابن خبير ص ٤١٧ ، ٥١٧ .

(٧) المكان السابق

(٨) انظر البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٤ حوادث عام ٣٥٢ هـ .

(٩) انظر فهرست ابن خبير ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(١٠) البداية والنهاية ١١ - ٢٤٤ .

ثم أورد ابن كثير القصيدة النقفورية ، وأولها :
من الملك الطهر المسيحي مالك إلى خلف الأملاك من آل هاشم
إلى الملك الفضل المطيع أخى العلا ومن يرثى للمعضلات العظام

وهى تقع فى تسعة وستين بيتاً . وتنتهى بقول من استأجره نقفور :
فعيسى علا فوق السموات عرشه يفوز الذى ولاه يوم التخاصم
وصاحبكم بالترب أودى به الثرى فصار رفاتا بين تلك الرائم
تناولتم أصحابه بعد موته ... بسب وقذف وانتهاك المحارم

أما قصيدة ابن حزم ، فقد كانت على نفس الوزن والقافية ، وقد وقعت فى
١٠٧ أبيات – واستهلها بقوله :

من المحتمى بالله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادى إلى الله بالتقى وبالرشد والإسلام أفضل قائم

وفى القصيدة يستعرض ابن حزم البلاد التى أخذها الإسلام من النصرانية –
كمصر والمغرب والأندلس وفلسطين وغيرها – وبعضاً من سير الخلفاء الذين
استولوا عليها ... وسير بنى حمدان وكافور ... ثم يستعرض قوة المسلمين فى
بغداد ودمشق وخراسان وسجستان وكرمان وفارس والسوس وأصبهان والبصرة
والكوفة ومكة واليمن ... وهى قوة كفيلة بإذلال الكفر وأهله ..

ثم يرد ابن حزم على افتراءات النصارى على المسيح ، وزعمهم أنه ابن الله
ويبين حقيقة الدعوة المحمدية ، والمعجزات التى ظهرت على يد النبى ﷺ ...
ويختم القصيدة – التى تشبه أن تكون ملحمة تاريخية – بقوله :

لنا كل علم من قديم ومحدث وأنتم حمير داميات المحازم
أثبتتم بشعر بارد متخاذل ضعيف معانى النظم جم البلاغم

فدونكم كالعقد فيه زمرد ودر وياقوت بإحكام حاكم^(١)
وهكذا نجد تنوع أشكال التعبير عند ابن حزم عن الحقائق التاريخية نشراً
وشعراً .



(١) ورد نص قصيدة ابن حزم في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣ - ٢١٤ ؛ وما بعدها ، وأوردما ابن كثير في البداية والنهاية ح ١١ الصفحات من ٢٤٧ إلى ٢٥٢ ، حوادث سنة ٣٥٢ هـ .

الفصل الثانى



منهج البحث التاريخى عند ابن حزم

روافد ثقافة ابن حزم التاريخية :



تعددت الروافد التى استمد منها ابن حزم ثقافته التاريخية . وستثبت لنا الصفحات التالية أن آفاق ثقافة ابن حزم التاريخية قد امتدت إلى فروع كثيرة من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وأنه كان ضارب الجذور فى مصادر هذه الحضارة الأصلية ، كما أنه قدم جهدا كبيرا وآراء مستقلة فى كثير مما يندرج تحت أبواب الحضارة الإسلامية ، وما يتصل بتاريخ المسلمين .

على أننا نستطيع أن نقول : إن ابن حزم قد استمد ثقافته التى كونت شخصيته كمؤرخ وفيلسوف حضارة إسلامية من رافدين أساسيين :

— مصادر عامة غير مباشرة ونعنى بها الروافد العامة التى غدت ثقافته التاريخية بصفة عامة ، وظهرت بصماتها جلية فى فكره ، وإن كان لم يشر إليها نصا فى تراثه التاريخى .

— ومصادر تاريخية مباشرة وهى المصادر التى لجأ إليها ابن حزم ونقل عنها عند كتابته فى التاريخ والحضارة .

وبدهى أن القرآن والسنة يعتبران من المصادر التى انتظمت الجانين فظهر تأثيرهما العام ، كما أن ابن حزم قد رجع إليهما فى تاريخه وفى حديثه عن الفكر السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى لكننا أثرنا إيرادهما مع المصادر غير المباشرة نظرا لأن تأثيرهما

كان أكبر من أن يحصر في نقطة واحدة .. بل امتد إلى أكثر المجالات بحيث أصبح تأثيرا عاما .

وستكلم عن كل من هذين المصدرين في الصفحات التالية :
المصادر العامة :

وأبرز المصادر العامة التي كونت فكر ابن حزم هي :
١ ، ٢ - القرآن الكريم والسنة النبوية ، فمما لاشك فيه أن ابن حزم كان من أكثر المفكرين استيعابا لأصلي الفكر الإسلامي وهما القرآن والسنة الشريفة .

ولما كان للتاريخ مكانة بارزة في هذين الأصلين فإن اهتمام ابن حزم بالتاريخ ، إنما نشأ أساسا في مهادهما ، واستمد منهما كثيرا من معالم منهجه في البحث التاريخي .

فالقرآن قد اعتنى بالتاريخ باعتباره مصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية التي تدلنا عن طريق المقارنة إلى الأسلوب الأمثل لصياغة حياة كريمة وإلى تجنب المنحدرات التي أدت إلى سقوط الحضارات والأمم السابقة ، بحيث أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية على مر التاريخ الإسلامي أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن^(١)

والسنة النبوية وهي في حقيقتها « تاريخ » إذ أنها تشكل « سجل الوقائع اليومية »^(٢) سملدة ثلاث وعشرين سنة ، قضاها النبي ﷺ - بعد نبوته - على ظهر الأرض^(٣) .

هذان المصدران الكريمان قد أفادا المؤرخ المسلم من زوايتين مهمتين :
- رواية المادة التاريخية التي قدماها ، وسواء ما يتعلق بتاريخ الأمم السابقة أو بفترة الوحي .

- وزاوية منهج البحث ، فأسلوب التواتر في إسناد المادة والنظر في أخلاق الراوي

(١) انظر روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٤١ .

(٢) طبق ابن حزم منهج الوقائع اليومية - وهي وظيفة الحديث - في التاريخ في كتابه : حجة الوداع .

(٣) انظر أبو الحسن الندوي : النبي الخاتم ص ١٠

قبل الحكم على روايته قد مهدا لثبو الحاسة التاريخية في الفكر الإسلامى ، وتطورت عنهما بالتدرج قواعد النقد التاريخى^(١).

وقد كان للقرآن تأثير خاص في الفكر التاريخى لابن حزم حين اعتمد عليه في سرده لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي سرده للغزوات ولحجة الوداع ، وفيما يستنبط منهما من أحكام . كما أن تأثير القرآن واضح في فكر ابن حزم الحضارى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وفي نقده التاريخى لما ورد في التوراة والأنجيل . مما يدخل في باب مقارنة الأيادن .

٣ - وتأتى بعد هذين المصدرين - كتب السيرة^(٢) ، التى ضمت تفصيلا أكثر لفترة الوحى ، سواء من ناحية المادة ، أو ارتباط المادة بمكان نزولها وزمانه ، ومأخاظ بها من أحداث^(٣) ، كما أنها ضمت في كثير من الأحيان حياة الخلفاء الراشدين أيضا وفتوحاتهم ونظمهم .

وقد صحبه تقديره للسيرة في تراثه التاريخى كله ، وكانت مصدر الاحتكام فيما يتعلق بالفترات والأشخاص الذين أرخ القرآن الكريم أو أشار الرسول الله ﷺ إليهم .

هذه الروافد الثلاثة- كما أنها تكون الركائز الكبرى للفكر الإسلامى كله- قد كونت الركائز الأساسية للفكر التاريخى عند ابن حزم مادة ومنهجاً .

وقد انضم إلى جانب هذه الروافد الثلاثة عند ابن حزم :

٤ - الكتب المقدسة وهى التوراة والأنجيل ، وكتب الملل الأخرى ، وكتب الفرق الإسلامىة والكلاميين . وكتابه « الفصل » - حافل بالنقول من هذه المصادر ، وينقدها التاريخى ، وتحليل نصوصها .

(١) انظر محمد إقبال: تجديد الفكر الدينى ١٦١ .

(٢) انظر : جورجى زيدان : تاريخ المهدن الإسلامى ٣ - ٩٩ .

(٣) يفسر لنا اهتمام ابن حزم بالسيرة ما ورد في جوامع السيرة ، وفي الفصل ، وفي الإحكام في أصول الأحكام ، والمجل ، وغيرها .

هـ - كتب الفقه . والملاحظ أن أكثر مؤرخي المدرسة التاريخية التي انتمى إليها ابن حزم كانوا فقهاء ، ومحدثين ، كعبد الملك بن حبيب ، والطبري^(١) وبقى ابن مخلد وغيرهم .

وفي هذا الصدد يجب أن نذكر أن ثمة ارتباطاً قوياً بين علم الفقه وبين جوانب كثيرة من التاريخ بمعناه الكلي^(٢) إذ أن الفقه الإسلامي - بالدرجة الأولى يشترك مع التاريخ الإسلامي من ناحية مصادر التصور وأصول الحضارة فالقرآن والسنة والسيرة النبوية والراشدية هي القواعد التي ينطلقان منها .

ومن ناحية أخرى فإن ما قدمه لنا ابن حزم في فقهه من جوانب حضارية متعددة ، مما يشكل نظرياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، هو أيضاً جانب من التاريخ الحضارى .

فالعلاقة بين الفقه - الذى يمثل الحياة الاقتصادية والاجتماعية من وجهة نظر إسلامية - وبين التاريخ الذى ينتظم - بمعناه الكلي - هذه الجوانب إنما هي صلة قوية واضحة^(٣) وعماها جيل المؤرخين المسلمين الرواد الذين امتزجت في دراساتهم الجوانب الاجتماعية والاقتصادية بالجوانب التاريخية ، وقد أكدت الاتجاهات التاريخية الحديثة هذا المفهوم .

(٥) كتب الآداب :

وينظر إليها كثير من المؤرخين على أنها كالوثائق سواء بسواء^(٤) .

(١) كان الطبري صاحب مذهب فقهي اندثر (انظر د - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ص (د) وابن حبيب هو أقدم مؤرخي الأندلس (انظر بلاتيا ١٩٣) .

(٢) التاريخ الكلي مفهوم للتاريخ يقصد به أن تدرس العصر الذى تريد من كل نواحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتعطى عنه صورة كاملة . وهو يختلف عن التاريخ بمعناه التقليدى الذى يعنى بالناحية السياسية فقط (د - حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون مقال بمجلة عالم الفكر الكويتية عدد أبريل سنة ١٩٧٤ م) .

(٣) ثقافة ابن حزم الفقهية لا تحتاج إلى دليل فهو صاحب مذهب أصول وفقهي برز في موسوعته المحلى والإحكام . أما ما تجدر الإشارة إليه لتدعيم صلة الفقه بالتاريخ . أن ابن خلدون كان فقيهاً أيضاً وقد كتب في مقدمته فصلين في الفقه والفرائض وعين استاذاً للفقه المالكي بمدرستي الفقهية البرقوقية . وقاضياً لقضاة المالكية ست مرات . انظر د - على عبد الواحد واى : عبقريات ابن خلدون ص ١٣٥ وص ١٣٦ وانظر عبد الحليم عويس مقال دور الفقه في الحضارة مجلة المسلم المعاصر عدد ٣ .

(٤) انظر لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ ١٣٣ هـ وانظر د - مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٦٩٩ .

وقد تناولنا من قبل الجانب الأدبي - شعره ونثره - في ثقافة ابن حزم . وفي كتاب طوق الحمامة ، الذي هو من أمهات كتب الأدب ، تنكئ حقائق التاريخ على الشعر والنثر ، وتمتزج بهما في أسلوب فني رائع .
والحقيقة أن ابن حزم قد استمد من الأدب كثيراً من تأريخه للحياة الاجتماعية الأندلسية في عصره .

ويرفض الأستاذ « آسين بلاثيوس » أن يكون طوق الحمامة دراسة نفسية ، ويرى أن قيمته ، هي في الجانب التاريخي . بينما يرى غرسيه غومس وليفي بروفنسال أنه دراسة نفسية تعتمد على بعض الوقائع التاريخية الوجيزة^(١) .
فالطوق - أياً كان الرأي - دراسة نفسية وواقعية معاً .

« فعلى صفحات طوق الحمامة يتقدم القرطبيون من جيل ابن حزم بخطى ثابتة على الطريق في جو صحو شفاف .. ومشاعر تنضح دفقاً .. وذلك هو الجو الذي عبر القرطبيون خلاله في الطوق عن حياتهم »^(٢) .

(٦) التراث التاريخي الإسلامي :

ومما لاشك فيه أن ابن حزم - ذلك المثقف الموسوعي - قد أفاد من ذلك التراث التاريخي الضخم الذي قدمته الحضارة الإسلامية ، فالمسلمون ألغوا في التاريخ كتباً لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ إليه المسلمون . « فإن كتب التاريخ الواردة أسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ماضع من تلك الكتب وأهمل ذكره وهو كثير جداً »^(٣) .

(١) انظر : د - الطاهر مكي دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ١٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ بتصرف .

(٣) جورجى زيدان تاريخ تمدن الاسلامى ٣ - ١٠٩ .

وإذا كان لابن حزم رسالة مستقلة في « جمل فتوح الإسلام » فنحن نرجح أنه لا يمكن أن يكون قد فاته الاطلاع على كتب الفتوح كفتوح الشام للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ^(١) وغيرها .

ومن المستبعد كذلك أن يكون رجل كابن حزم قد فاته الاطلاع على التراث التاريخي الأندلسي الذي ظهر منذ شيخ مؤرخي الأندلس عبد الملك بن خبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ صاحب كتاب « التاريخ » الذي مازالت إحدى مخطوطاته محفوظة في المكتبة البودلية في اكسفورد ^(٢) .

وعلى يد آل الرازي الذين قدموا للأندلس ثلاثة مؤرخين محمد بن موسى وابنه أحمد وحفيده عيسى ^(٣) ، وابن الفرضي شيخ ابن حزم (ت ٤٠٤ هـ) والخشني صاحب تاريخ قضاة الأندلس ، والزبيدي صاحب طبقات اللغويين والنحويين ، وابن القوطية صاحب تاريخ افتتاح الأندلس ^(٤) .

على يد هؤلاء تكونت مكتبة تاريخية أندلسية من المستبعد أن يكون ابن حزم - وهو الذي وصف لنا كنوز مكتبة الحكم الثاني - قد غفل عنها .

وثمة عامل أخير لا نشك في أنه أثر في تكوين ثقافة ابن حزم التاريخية بطريقة غير مباشرة وهو شخصية ابن حزم نفسها ، بما تحفل به هذه الشخصية من أخلاق نادرة وملكات فذة ، أعانته على أن يكون المؤرخ العبقري الموسوعي العظيم .

(١) المرجع السابق ٣ - ٩٩ .

(٢) انظر بلاثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ١٩٣ ، ١٩٤ وانظر في تطور التراث التاريخي في الأندلس صفحة ١٩٥ وما بعدها وانظر د - علي حبيبة : مع المسلمين في الأندلس ٣٦٢ وما بعدها وانظر أحمد مظهر العظيمة : الإسلام ونهضة الأندلس ٣٣ - ٣٤ .

(٣) انظر بلاثيا ١٩٦ وما بعدها وانظر د - محمود مكي المقتبس لابن حبان ص ١٠٥ مقدمة .

(٤) انظر ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة بتحقيق محمد عبد الله عنان م ١ ٨٣٤٨١ وانظر د - محمود على مكي : مقدمة للمقتبس ص - ١٠٥ وما بعدها وانظر بلاثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ١٩٦ وما بعدها .

ويبالغ أحد الكتاب المعاصرين فيجعل ابن حزم ثانياً اثنين في التاريخ هما قمة الاستقلال الفكري والروحي .. أما أولهما فهو سقراط^(١) .

وعلى الرغم من هذه المبالغة الجريئة ، فالحق أن شخصية ابن حزم بجانبها الخلقى والعلمي تبهر كل من يتصدى للتعرف عليها . « فقد اجتمعت له من صفات الصدق والضبط والدقة وقوة الملاحظة وحسن الاستدلال ما كان كافياً لأن يجعل منه رواية أميناً ، ومحققاً نزيهاً ، ومؤرخاً واسع الأفق^(٢) » .

وعلى ما كان في ابن حزم من حدة وعنف اعترف بهما هو نفسه ، وحاول إرجاعها إلى مرض في الطحال ، فإن أحداً من مؤرخيه وناقديه لم يتمكن من أن يسلبه صفات النزاهة والموضوعية وإنصاف الخصوم بإيراد حججهم بل إن « النزاهة ميزة عامة عنده لا تخص الكتابة في السيرة ، لأن كتابة السيرة نوع من النقل ، ولكنها تظهر في سائر ما كتبه من مادة تاريخية^(٣) » .

وما وقع فيه ابن حزم من أخطاء إنما وقع فيه من شدة ثقته بنفسه واعتداده بعلمه ، وعنفه على مخالفيه ، وحرية فكره ، وحبه للاجتهاد ولو مع الخطأ .

وإنها لصفات أصيلة في شخصيته ، تركت أثرها على منهجه ، فجعلته في رأى بعضهم « رائد الفكر العلمي^(٤) » وفي رأى آخرين : « مؤرخاً عظيماً وفيلسوفاً عظيماً وإماماً من أعظم أئمة التفكير الاسلامي^(٥) » .

ولكنها ثقة أوقعته من جانب آخر في بعض المآخذ ، مما سنعرض له عند حديثنا عن منهجه في البحث التاريخي .

(١) انظر عبد اللطيف شرارة : ابن حزم رائد الفكر العلمي ٦ .

(٢) د .. زكريا ابراهيم : ابن حزم الاندلسي ٢٠٦ .

(٣) د - إحسان عباس ود - ناصر الدين الأسد : مقدمة جوامع السيرة ١٢ .

(٤) عنوان كتاب : ابن حزم رائد الفكر العلمي « لعبد اللطيف شرارة » .

(٥) عنان : ابن حزم الفيلسوف الذي أرخ لجمع الطوائف مقال بمجلة العربي ص ٦٨ .

ب - المصادر التاريخية المباشرة :

تعددت مصادر ابن حزم التاريخية ، وتنوعت بحسب موضوع البحث . وقد سار ابن حزم على ماسار عليه أكثر المؤرخين الأوائل الذين اكتفوا بالإشارة العابرة العامة إلى المصادر المكتوبة التي اعتمدوا عليها . أما المصادر الحية (المشافهة) فقد حرصوا على ذكرها ، وعلى ذكر سلسلة روايتها إن لزم الأمر .

ومن خلال تتبعنا للمصادر التاريخية المختلفة التي اعتمد عليها ابن حزم نستطيع القول : إن ما ذكره من مصادر يعتبر قليلاً جداً وعلى سبيل المثال فإن كتاب « جمهرة أنساب العرب » وهو من أكبر كتبه التاريخية ويحتاج إلى مصادر كثيرة نظراً لأن الأنساب باب صعب - لم يذكر ابن حزم من مصادره غير عدد لا يزيد على خمسة عشر مصدراً .

وقد يمكن القول بأن ابن حزم ربما يكون قد اعتمد اعتماداً كلياً على عدد محدود من هذه المصادر ونقل عنها ، لكننا نستبعد أن يكون ابن حزم قد فعل ذلك دون أن يشير إليه ، على نحو ما أشار ابن بسام في الذخيرة حين اتكأ على ابن حبان واعترف بالفضل له . وكما فعل الحميدى حين اعتمد على ابن حزم ونسب الفضل إليه - فأخلاق ابن حزم الدينية ومنهجه العلمى توجبان عليه سلوك هذا المسلك .

وأغلب الظن إذن أنه اعتمد على مصادر كثيرة « مخطوطة » لم يشر إليها جرياً على العادة السائدة لدى بعض الكتاب ، وأنه بذل جهداً كبيراً - يجعله مبتكراً أكثر منه ناقلاً .

وتنتظم مصادر ابن حزم التاريخية أكثر مصادر البحث التاريخي ، من مخطوطات وكتب ، ورواية مشافهة عن المشايخ أو المحاورين ، وتواتر شائع يشبه الإجماع ، ومعاصرة شخصية للأحداث .

(أ) فمن الكتب التي أفاد ابن حزم منها في دراساته في السيرة النبوية :

١ - تاريخ أبي حسان الحسن بن عثمان الزياتي (١) .

(١) انظر جوامع السيرة ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ .

- ٢ - تاريخ خليفة بن خياط برواية بقي بن مخلد ^(١) .
- ٣ - تاريخ أبي بكر أحمد بن زهير بن شداد المعروف بابن خثيمة ^(٢) .
- ٤ - سيرة ابن إسحاق ^(٣) .
- ٥ - مغازي الواقدي ^(٤) .
- ٦ - مغازي موسى بن عقبة .
- ٧ - كتاب السير لسعيد بن يحيى الأموي .
- ٨ - أعلام النبوة لأبي داود السجستاني .
- ٩ - أعلام النبوة لأبي جعفر أحمد بن قتيبة .
- ١٠ - الدرر في اختصار المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر ^(٥) .
- ١١ - الأضنام لابن الكلبي ^(٦) .

ومن الكتب التي أفاد ابن حزم منها في دراساته للخلافتين الأموية والعباسية في المشرق حتى عصره :

- ١ - تاريخ الطبري ^(٧) .
- ٢ - كتب أحمد بن طاهر في أخبار بغداد .
- ٣ - كتاب عمر بن شيبه في أخبار البصرة .
- ٤ - كتاب ابن الربيع في خطط البصرة وقطائعها .

(١) انظر جوامع السيرة ٣٦ ، ٣٩ ، وانظر صفحات ٣١٥ ، ٣٣٥ وانظر تاريخ خليفة بتحقيق سهيل وكار ص - ب ، ط .

(٢) المصدر السابق ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) انظر الجمهرة ٧٣ ، ٣٥٥ .

(٤) انظر جوامع السيرة ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) انظر جوامع السيرة ص ٨ - (مقدمة) وهذه المصادر الخمسة السابقة قد ذكرها محققا جوامع السيرة على أنها مصادر ظنية يدل البناء العام للسيرة عند أبي حزم على تأثره بها . كما أن هناك تشابها في بعض المادة العلمية بينه وبينها . وانظر في تأثره بصديقه ابن عبد البر الفصل ٤ - ٧٤ .

(٦) انظر الجمهرة ٣٧٣ .

(٧) انظر الجمهرة ٦٢ .

- ٥ - كتابان في وصف البصرة أحدهما لعبد القادر الكريز وآخر لمجهول^(١) .
- ٦ - أخبار الكوفة لعمر بن شبة .
- ٧ - أخبار أصبهان لحمزة بن الحسن الأصبهاني .
- ٨ - أخبار مصر للموصل^(٢) .
- ٩ - تاريخ ابن كامل أحمد بن كامل الشجري تلميذ ابن جرير الطبري^(٣) .
- ١٠ - نسب العباسيين لهارون بن محمد^(٤) .
- ١١ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني^(٥) .

ومن الكتب التي اعتمد عليها في تأريخه للأندلس والمغرب :

- ١ - المغرب من أخبار المغرب .
- ٢ - مسالك إفريقيا وممالكها « وغيره من الكتب المغربية » لمحمد بن يوسف الوراق^(٦) .
- ٣ - المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال لابن الفارضى شيخ ابن حزم^(٧) .
- ٤ - تاريخ أحمد بن سعيد^(٨) .
- ٥ - تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس^(٩) .
- ٦ - صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها للرازي أيضاً .
- ٧ - أخبار عمر بن حفصون القائم بركة ووقائعه وسيره وحروبه للرازي السابق .
- ٨ - أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي للرازي .
- ٩ - أخبار بني قيس والتجيبين وبني الطويل في الثغر للرازي السابق^(١٠) .

(١) انظر فضائل الأندلس وأهلها ص ١٠ بتحقيق د - صلاح الدين المنجد .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) أبو عبد الرحمن بن عقيل : التعريف بنقط العروس مقال نشر بمجلة الدعوة السعودية .

(٤) انظر الجوهرة ٣٣ .

(٥) انظر الجوهرة ١٠٧ .

(٦) انظر فضائل الأندلس ٨ ، ٩ .

(٧) المصدر السابق ١٤ .

(٨) المصدر السابق ١٧ .

(٩) انظر المصدر السابق ١٤ .

(١٠) انظر المكان السابق .

١٠ - أخبار المرية وحصونها وحروبها وفقهاؤها وشعرائها لاسحاق بن سلمة الليثي^(١) .

١١ - أخبار القضاة بقرطبة لمحمد بن الحارث الخشني .

١٢ - أخبار الفقهاء للخشني أيضاً^(٢) .

١٣ - أنساب مشاهير أهل الأندلس لأحمد بن محمد بن موسى .

١٤ - الأنساب لقاسم بن أصيغ .

١٥ - فضائل بني أمية لقاسم بن أصيغ^(٣) .

١٦ - أخبار شعراء البيرة في عشرة أجزاء للمستنصر .

١٧ - الطوابع في أنساب أهل الأندلس .

١٨ - التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس لأبي مروان بن حيان في نحو عشرة

أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى^(٤) .

١٩ - المآثر العامرية لحسين بن عاصم النحوي .

٢٠ - المنتزون والقائمون بالأندلس وأخبارهم لأحمد بن فرج .

٢١ - أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل^(٥) .

ومن الكتب التي اعتمد عليها في تاريخه للملل والنحل إلى جانب الكتب

المقدسة^(٦) :

١ - كتاب لبشير الناسك المجوسي^(٧) .

٢ - كتاب السمناني قاضي الموصل^(٨) (من أصحاب الفرق الضالة) .

٣ - كتاب المجالس للأشعري^(٩) .

(١) فضائل الأندلس وأهلها ص ١٧ .

(٢) المكان السابق .

(٣) انظر المكان السابق .

(٤) انظر للمكان السابق وانظر نقط العروس ص ٦٣ وانظر ابن حيان:المقتبس ص ٦٨ . مقدمة الدكتور عمود مكى .

(٥) انظر رسالة فضائل الأندلس ص ١٧ ، ١٨ .

(٦) انظر في تقويمه للكتب المقدسة الفصل ٢ - ٢ وما بعدها وغيرها كثير .

(٧) انظر الفصل ١ - ١١٣ .

(٨) انظر الفصل ٢ - ١٣٥ .

(٩) المكان السابق .

- ٤ - رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم (في الرد على فرقة ضالة) .
 ٥ - كتاب لعطاف بن دوناس من أهل القيروان ^(١) (وصاحب مقالة فاسدة) .
 ٦ - كتاب الميزان لهشام بن الحكم الرافضي ^(٢) .
 ٧ - تأليف مجموع لرجل أردني يرى أن الخلافة لا تكون إلا في بني أمية .
 ٨ - كتاب لرجل من ولد عمر بن الخطاب يحتج بأن الخلافة لا تكون إلا لولد أبي بكر وعمر ^(٣) .
 ٩ - العلم الإلهي لمحمد بن زكريا الرازي ^(٤) .

(ب) وإلى جانب المخطوطات والكتب كمصدر رئيسي كانت لابن حزم مصادر أخرى يستقى منها مادته التاريخية ، ومن أبرز هذه المصادر ما يمكن أن نسميه « بالمصادر الحية » ، ونعني بها أصحاب النزعات والأفكار ، الذين جادلهم ابن حزم ، وسجل آراءهم في كتبه ، ومن هؤلاء :

- ١ - عبد الله بن خلف بن مروان الأنصاري .
 ٢ - عبد الله بن محمد السلمى الكاتب .
 ٣ - محمد بن علي بن أبي الحسين الطيب ^(٥) (وهم يقولون بخلود النفس والزمان) .
 ٤ - ثابت بن محمد الجرجاني الملحد ^(٦) .
 ٥ - عبد الله بن عبد الله بن شيف القائل بتعدد الأزليين ^(٧) .

(١) انظر الفصل ٣ - ٢٠٦ .

(٢) الفصل ٤ - ٧٥ ، ٧٨ ، ٩٢ .

(٣) انظر الفصل ٤ - ٩٠ .

(٤) الفصل ١ - ٩٠ .

(٥) انظر الفصل ١ - ٣ .

(٦) الفصل ١ - ١٧ .

(٧) الفصل ١ - ١٩ .

- ٦ - خوير بن منداد المالكي الذي جعل للجملادات تمييزاً^(١) .
- ٧ - سليمان بن خلف الباجي القاتل بانقطاع نبوة محمد^(٢) .
- ٨ - اسماعيل بن يوسف اليهودي المعروف بابن النغيلة^(٣) .
- ٩ - أبو الحسن الطرابلسي من المعتزلة^(٤) .
- ١٠ - محمد بن عيسى الصوفي الأيرى من المجسدين^(٥) .

وغير هؤلاء كثيرون^(٦) ، جادلهم ابن حزم ، إذ كان الجدل العلني عنده وسيلة من وسائل الجهاد ونشر الفكر .

(ج) وفي تراث ابن حزم يبرز كمصدر من مصادر التاريخ الخبر الشائع الذي يقترب من حد التواتر ، والرواية التي تأتي من طريق أمين ، والكتاب الذي يصله من ثقة .

وفي عشرات المواضع نجد هذه العبارات تسبق بعض الروايات التاريخية : بلغنا^(٧) - أخبرنا وأخبرني^(٨) - كتب إلينا^(٩) - حدثنا وحدثني^(١٠) حدثتني امرأة أثق بها^(١١) - حدثني ثقة من إخواني^(١٢) - حكاية لم أزل أسمعها^(١٣) .

(١) الفصل ١ - ٨١ .

(٢) الفصل ١ - ٨٨ .

(٣) الفصل ١ - ١٣٥ ، ١٥٢ ، ٢٢٢ ، ٥ ، ١٢٠ - وغيرها .

(٤) الفصل ٣ - ٨٨ .

(٥) الفصل ٢٠٥ .

(٦) انظر الفصل ١ - ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢ - ٤١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ - وغيرها .

(٧) انظر الفصل ١ - ٢١٥ ، ٤ - ١٢٥ .

(٨) انظر الفصل ٤ - ٨٠ ، ٥ - ٣٥ والطوق ٢٦ ، ١٢٦ ، ١٣٩ - وغيرها .

(٩) انظر الفصل ٤ - ٢١٢ والجمهرة ص ٣٣ فقد ذكر في نسب سليمان بن عمر وعن كتابه إلى أخذت كثيرا من أنسابهم .

(١٠) انظر الطوق ٤٠ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، وغيرها .

(١١) الطوق ٩٥ ، ١١١ ، ١٨٦ .

(١٢) الطوق ٩٦ .

(١٣) الطوق ١٥٩ .

(د) ومن المصادر : الرؤية والمشاهدة - ولا شك في أن هذا المصدر من أوثق المصادر إذا كان الراوى عدلاً أميناً . وتراث ابن حزم التاريخي يعتمد كثيراً على هذا المصدر ، سواء منه ما يتعلق بسيرة ابن حزم الذاتية^(١) أو ما يتعلق بأوضاع سياسية واجتماعية عاصرها^(٢) .

وأخيراً ومن خلال هذا العرض ، يمكننا أن نقول : إن ثقافة ابن حزم التاريخية قد تكاملت لها الروافد التي تجعل منها ثقافة موسوعية شاملة ، وبالتالي فإنها تؤهل ابن حزم ليكون هذا المؤرخ المسلم القادر على معالجة كثير من جوانب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وذلك وفق منهج علمي ، يعتمد على مقومات سوف نتناول أبعادها في الصفحات التالية .



(١) انظر الطلوق ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩٢ وغيرها .

(٢) انظر الطلوق ٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٨ ، ١٣٨ وغيرها .

منهج ابن حزم في البحث التاريخي

١ - (مقدمة) :



لنهج البحث التاريخي أهمية بالغة ، لدرجة أن البعض يرون في هذا المنهج الدلالة الكبرى على أهمية التاريخ ، بل إن البعض يرى إن التاريخ ليس علماً فقط ، وإنما هو منهج (Procédé de Connaissance) بمعنى إن المنهج التاريخي هو أسلوب يطبق على مادة أي موضوع للكشف عن الحقيقة (١) .

وحتى في الميادين التي تبدو بعيدة عن اهتمام المؤرخ كالعلوم الطبيعية مثلاً نجد الباحث - الذي يعنى المنهج التاريخي - بسبب من تعوده تقصى حقائق ما فعله الآخرون في الماضي - قادراً - على أن يلقي ضوءاً على تجارب يمكن إما - أن تعاد من جديد ، وإما أن تعدل . كما أن استيعاب هذا المنهج يفيد في ميادين أخرى كالقانون وعلوم الدين ، والاقتصاد . والفلسفة والفن ، والعلوم الاجتماعية ... وغيرها (٢) .

فهل كان هناك منهج للبحث التاريخي عند ابن حزم ؟

إننا قبل أن نبدأ في الحديث عن معالم « منهج ابن حزم في البحث التاريخي »

(١) لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ ص ٤٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ٤٣ بتصرف .

نرى أن من الضروري أن نذكر أنه لا يوجد منهج متكامل للبحث التاريخي قدمه لنا ابن حزم بهذا العنوان ، ذلك لأن مصطلح « المنهج » بمعناه العلمى لم يكن قد استعمل خلال هذه العصور ، وإن وجدت دلالات وإشارات منهجية متعددة لدى كثير من المفكرين .

وليس معنى ذلك أن ابن حزم لم يشر - نصاً - في بعض الأحيان واستنتاجاً ... وتطبيقاً في أكثر الأحيان - إلى معالم منهجه في البحث التاريخي بل إنه قام بذلك فعلاً ..

وعلى هذه النصوص المتناثرة والاستنتاجات والتطبيقات نعتمد في عرض وتحليل معالم منهجه التاريخي .

وجدير بالذكر أن التاريخ عند ابن حزم هو التاريخ « بمعناه الكلى » الذى أشرنا إليه سابقاً ، وهذا يجعل ثقافة ابن حزم وتكوينه الفكرى - الموسوعى ، - كما قدمناها في الباب الأول ، يتصلان اتصالاً كبيراً . بمنهج ابن حزم هذا ، كما أنهما يمثلان القاعدة التى تقف فوقهما معالم هذا المنهج ، ونحن نرى أن استيعابهما ضرورى عند تقويم هذا المنهج تقويماً كاملاً .

٢ - تطبيق منهج الظاهرية على التاريخ :



نشأ تطبيق الظاهرية في منهج ابن حزم التاريخي من انتمائه لمدرسة الحديث في توثيق الخبر ، ولمدرسة الظاهرية في فهم النصوص .

فهذه الظاهرية التى تمثل معلماً من معالم منهج ابن حزم في التاريخ قد أوجبت لديه الاحتفاء بالنقل والاستكثار من السنن وطرح كل ما يشوبه التجريح ، أى أنها قد جعلت من منهج الحديث ضرورة في دراسة التاريخ . إذ النقل أساس للظاهرية قبل العقل .

وعند ابن حزم أن النقل ميزة الملة الاسلامية على سائر الملل ، وعن طريق النقص

في النقل وضعف الثقة في الناقلين ضعفت الملل الأخرى أمام مقاييس النقد الصحيح^(١).

وعند دراستنا لجوامع السيرة ولسائل ابن حزم ودراساته التاريخية الأخرى سوف نجد الالتزام الشديد بهذا المنهج ، بل إنه قد مزج مزجا كاملاً بين منهجى الظاهرية الذى يعتمد الأثر والنقل ، وبين منهج التاريخى فى رسالته عن « حجة الوداع » بحيث إننا - ونحن نقرأ هذه الرسالة - نحس أننا أمام كتاب فى الحديث والتاريخ معاً . وقد أدرك هذا محقق الكتاب ، فذكر عنه أنه وثيقة تاريخية دقيقة لرحلة الرسول المعظم ﷺ وما نتج عن هذه الرحلة من بحث فقهي وتقاليد دينية ، وأوامر ، ونواه ، وحل وحرمة^(٢).

وقد أورد ابن حزم منهجه فى صدر الرسالة ، فبين أنه أراد سرد رحلة حجة الوداع بلفظ كأنها مشاهدة رأى العين - حين خروج النبی من المدينة إلى مكة إلى حين رجوعه إلى المدينة - بذكر الأحاديث الواردة فيها إما بلفظ الرسول أو لفظ من شاهد فعله . « ولم نقتحم الحكم فيما لم نقف على بيانه ولا جسرنا على القطع فيما لم يلح لنا وجهه ، ولا قضينا فيما لم نشرف على حقيقته ، وأما حكمنا بالرأى - أى الهوى - فمعاذ الله من هذه الخطة^(٣) .

لقد تأثر ابن حزم فى هذا الجانب - بمنهج ابن إسحاق والطبرى وابن الفرضى . فكل هؤلاء قد اعتمدوا فى التاريخ أسلوب التحقيق العلمى الدقيق عن طريق « العنينة » المتصلة ، أو حدثنى ، أو حدثنا فلان عن فلان^(٤) . ولم يظهر لدى هؤلاء الأعلام اتجاه واضح نحو التفسير أو التعليل ، وإنما انحصر منهجهم فى أمور

(١) انظر الفصل ٢ - ١١ وما بعدها وانظر د : إحسان عباس مقدمة جوامع السيرة ٥ ، ٦ .

(٢) المقدمة ص ١٣ .

(٣) انظر حجة الوداع ٤٤ ، ٤٥ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وآخرين وانظر تاريخ الطبرى وانظر محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ١٦١ ، ١٦٢ وانظر أحمد أمين ظهير الإسلام ٣ - ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ .

أربعة اعتبرها السبكي « شروط المؤرخ » وهى : الصدق : واعتاد اللفظ دون المعنى فى الرواية ، والثقة فى تسجيل النص ، وتسمية المنقول عنه ^(١) .

وهذه الشروط التى تنطبق على المحدث والمؤرخ معاً تتضح أكثر عند محبى الدين الكافيجى (ت ٨٧٩) الذى يرى أن ما يشترط فى المؤرخ هو نفسه ما يشترط فى المحدث ، من عقل وضبط وإسلام وعدالة ^(٢) .

وإذا كان من المعلوم أن لعلم الحديث صلة وثيقة بعلم التاريخ ، بحيث اعتبر الأخير انبثاقاً من الأول ، وامتداداً له فى الهدف والمنهج - فإن ابن حزم كان ينطلق من هذا الإدراك حين أطلق على علم التاريخ أنه « علم الخير » بينما تحدد كتب مصطلح الحديث تعريفها لماهية علم الحديث بأنه مرادف للأثر والخبر .

وفى شروط ابن حزم التى يقبل على أساسها « الخير » نرى أننا أمام شروط تصلح للمحدث والمؤرخ على حد سواء ، فهو يرى أن العدل الذى يؤخذ منه الخبر المتتابع هو غير الفاسق ، الحافظ ، الذى لم تعرف عنه غفلة ولا غلط ، أو الذى يضبط بكتابة ، والرجل والمرأة والعبد فى ظل ذلك سواء ولا فرق ، لأن الله لم يخص عدلاً عن عدل ولا رجلاً من امرأة ، ولا حراً من عبد ^(٣) .

فالميزة الأولى - كما نرى - فى منهج ابن حزم هى هذه الميزة العامة التى تصل بين علمى الحديث والتاريخ الإسلاميين ، وتمنح علم التاريخ الإسلامى ثقة فى نقله وضبط وقائمه لا تتحقق فى غيره من تواريخ الأمم .

(٣) نصيب العقل فى منهج ابن حزم :



كان ابن حزم - إلى جانب التزامه بمنهج الظاهرية فى الضبط والدقة والتزام ظاهر اللفظ فى المعنى - يمثل مرحلة أكثر تقدماً فى البحث التاريخى من المؤرخين السابقين .

(١) انظر السبكي قاعدة فى الجرح والتعديل ص ٣٢ بتحقيق عبد الفتاح أبو غلة .

(٢) انظر « المختصر فى علم التاريخ » الجزء الذى حققه روزنتال فى كتابه علم التاريخ عند المسلمين ص ٣٣٦ .

(٣) انظر الأحكام فى أصول الأحكام ١ - ١٢٣ .

فلئن كان الطبرى مجرد جامع وارو للحوادث برواياتها المختلفة دون ترجيح أو تحقيق لتناقضاتها ، أو تأثير على القارىء بالحكم على بعضها^(١) ، كما يعترف هو في صدر كتابه الكبير في قوله : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه بما اشترطت أنى راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مستدل إلى روايتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس... فمهما يكن فى كتابى هذا من خير ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستبشعه سامعه .. فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقلين إلينا ، وأنا إنما أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا^(٢) »

لئن كان الطبرى - ومدرسته إلى أيام ابن الفرضى فى الأندلس - قد اكتفت بتوثيق الرواية التاريخية - فإن ابن حزم قد أقدم على أعمال العقل فى المتن المروى ، وعرضه على بديهيات الحس وأوليات العقل .

بل إن ابن حزم قد أعطى « العقل » فى منهجه مكانة تقترب من مكانة « النقل » ، وبتعبير آخر : إنه جمع بين منهجى النقل والعقل فى تأزر وتكامل موقفاً بأن هذا هو المنهج الصحيح للبحث ، فالنقل وحده لا يكفى فى صحة الرواية التاريخية ، فلربما كان مضمونها عند التحليل الداخلى لا يستقيم ولا يصح عقلاً - وابن حزم يناقش الذى لا يرى إلا طريق النقل قائلاً له :

« أخبرنا الخبر كله حق أم باطل ؟ فإن قال هو باطل كله أبطل ما ذكر أنه لا يعلم شيء إلا به .. وإن قال حق كله عورض بأخبار مبطللة لمذهبه فلزم ترك مذهبه لذلك .. فلم يبق إلا ما كان من الخبر حقاً وباطلاً .. »

(١) انظر على أدهم: مقال مجلة الهلال عدد ديسمبر ١٩٧٥ عن تاريخ الأمم والملوك وانظر د - عمر فروخ تاريخ الفكر العربى و - محمد عبد الفتى حسن: علم التاريخ ٨ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ١ - ٥ طبعة دار القاموس الحديث بيروت .

فإذا كان كذلك بطل أن يعلم صحة الخبر بنفسه إذ لا فرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل ، فلا بد من دليل يفرق بينهما ، وليس ذلك إلا لحجة العقل المفرقة بين الحق والباطل ^(١) .

والتأمل في نقد ابن حزم للكثير من القصص الديني الذي ورد في التوراة والأنجيل يلاحظ أنه كان يحكم عقله في كل رواية من الروايات الواردة في هذين الكتابين بل الحكم بقبولها أو رفضها ، ولعل هذا هو السبب في أننا نجده يقرر أحياناً أن بعض روايات التوراة هي أقرب إلى الخرافات منها إلى أى شيء آخر ^(٢) .

وما أورده في نقد قصص التوراة عن لوط ^(٣) وإسحاق ^(٤) من أوضح الأدلة على ذلك .

وفي كل موضع من المواضع كان ابن حزم إذا وجد المرجحات يرجح ، وعلى سبيل المثال يذكر أن القاسم بن العباس بن أبي لهب قيل إنه قتل يوم قديد ، لكنه يرى الصواب أن ابنه العباس هو الذي قتل يوم قديد ^(٥) .

ويروى عند الحديث عن نسب أيمن بن عبيد بن عمرو من بني غنم بن حارثة أن ابن الكلبي ذكر أنه أخو أسامة بن زيد مولى رسول الله - ﷺ - لكنه يؤيد رأى ابن إسحاق في أنه ليس أخاه وإنما هو تشابه في الاسم ^(٦) .

ويحقق في قول النسائيين بموت الحكم بن عبد الملك صغيراً بأنه ليس كذلك لأنه وجد لرؤية بن العجاج الشاعر فيه مدحاً ، ولم يكن يمدح يومئذ إلا من بلغ وفهم ورجى ^(٧) .

(١) الاحكام في أصول الأحكام ١ - ١٨ .

(٢) د - زكريا ابراهيم : ابن حزم ٢١٤ .

(٣) انظر الفصل ١ - ١٣٣ .

(٤) انظر الفصل ١ - ١٣٧ .

(٥) انظر الجهرة ٧٢ .

(٦) انظر الجهرة ص ٣٥٥ .

(٧) انظر الجهرة ٨٦ .

وفي الرواية المنسوبة إلى الحكم بن أبي العاص بن أمية أن عنيصة بن أمية ابن عبد شمس قد اضطر لعرض ابنه على من يكفلهما ويخرج من قريش - من الفاقة والجوع - وأن ذلك قد كان - يرفض ابن حزم قبولها - قائلاً : وكيف يمكن أن يكون ذلك وفي بنى أمية أبو سفيان بن حرب عظيم المال ، قليل النفقة شديد المحبة في قومه ؟ وفيهم يومئذ عفان بن أبي العاص وابنه العاص ... ؟ وفيهم عقبة بن أبي معيط ... ؟ وفيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ... ؟ وإذا كان الحكم يسهل عليه ترك ابنه وهو قليل المال جداً فالكثيرون الكهول الأجواد السادة أولى بذلك في معونة عمهم وهو واحد .. فصح أنه خبر مولد مفتعل يقينا لا شك فيه ^(١) .

أما عندما لا تتوافر لديه أدلة الترجيح أو التوضيح الكافي فكان لا يستحي من أن يعلن ذلك ^(٢) .

(٤) النقد التاريخي في منهج ابن حزم :

يكاد ينعقد الاجماع على أن ابن خلدون متفرد وسباق في تقعيد منهج لدراسة التاريخ وفقاً لأصول عقلية ومنطقية نقدية .

لكن من المعروف بين المؤرخين كذلك أن ثمة بوناً كبيراً بين « النظرية » التي دونها ابن خلدون في منهج البحث في التاريخ وبين « التاريخ » الذي كتبه ابن خلدون ، ولم يرتفع فيه إلى مستوى النظرية التي وضعها ودعا إلى اتباعها عند دراسة التاريخ .

وعند دراستي لابن حزم الأندلسي مؤرخاً لم أجد واحداً من بين مؤرخي الإسلام . اعتمد منهج النقد التاريخي في كتابته أكثر منه ، على امتداد القرون الثانية الأولى من تاريخ العلم الاسلامي .

لقد كانت كتابات ابن حزم في التاريخ من الكتابات التي توافرت لها مقومات الكتابة التاريخية الجيدة .. وأهمها القدرة على نقد الرواية التاريخية سنداً ومتناً .

(١) الجمهرة ٨٠ .

(٢) انظر - مثلاً - الجمهرة ص ٨٨ .

ويمكن القول إن ابن خلدون ... الذى تتلمذ فى علم الأنساب على ابن حزم ، وكان يعتبره - كما ذكرنا من قبل - إمام المؤرخين الموثقين والعلماء قد تتلمذ أيضاً على ابن حزم - فى نقد الرواية التاريخية ، وبيان ما بها من جانب أسطورى « ميثولوجى » ، وبيان تناقضاتها مع قواعد العقل ، ومع الحقائق المشاهدة ، ومع الحقائق الجغرافية ..

بل إن من الغريب أن الأمثلة التاريخية التى قدمها ابن خلدون ، ليعين بها : « ما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسباب ذلك » قد اقتبس بعضها من موسوعة « الفصل » لابن حزم . وليس هذا فحسب ، بل إن ابن خلدون قد اقتبس نقد ابن حزم لهذه الأغلاط والأوهام .

فأول الأمثلة التى قدمها ابن خلدون فى مقدمته بياناً لفساد المنهج التاريخى التقليدى ، ما نقله المسعودى وكثير من المؤرخين فى جيوش بنى اسرائيل من أن موسى أحصاهم فى التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ^(١) . ويكذب ابن خلدون . هذا العدد على أساس تقدير مساحة مصر والشام ، وعلى أساس صعوبة قتال جيش بهذا العدد ، ويقارنها بعدد جيوش الفرس فى حرب القادسية وهو عدد لايزيد على مائة وعشرين ألفاً . ثم يأتى ابن خلدون بحجة أخرى ، وهى أن الذين بين موسى واسرائيل (يعقوب) هم أربعة آباء فقط ، عاشوا مائتين وعشرين سنة ، وكان عددهم أيام يعقوب سبعين .

فمن المستحيل عقلاً أن يتناسل سبعون فى مائتين وعشرين سنة ... أى فى أربعة أجيال .. فيصبحوا ستمائة ألف مقاتل .. فضلاً عما لا يستطيع القتال ^(٢) .

هذا ما ذكره ابن خلدون فى أول أبواب المقدمة ، وهو الباب الذى اعتبره الكثيرون تحولا فى مسيرة المنهج التاريخى.

(١) المقدمة (تاريخ ابن خلدون ج ١) ص ٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ٨ ، ٩ .

أما ابن حزم .. فقد ذكر عشرات الأمثلة « الأسطورية » من هذا القبيل وفندها بقريب من الحجج التي اقتبسها ابن خلدون .. وفي هذا المثل الذي ذكرناه ، وهو الذي اخترناه للمقارنة ، وللدلالة في الوقت نفسه على أصالة النقد التاريخي في منهج ابن حزم .. يقول ابن حزم : « فصل . في السفر الرابع - أى من التوراة - ذكر أن عدد بنى إسرائيل الخارجين من مصر القادرين على القتال خاصة من كان ابن عشرين سنة فصاعداً كانوا ستائة ألف مقاتل وثلاثة آلاف مقاتل وخمسة مائة مقاتل ، وأنه لا يدخل في هذا العدد من كان له أقل من عشرين ولا من لا يطيق القتال ولا النساء جملة ، وأن عددهم إذ دخلوا الأرض المقدسة ستائة ألف رجل ، وألف وسبعمائة رجل وثلاثون رجلاً ^(١) ... » .

وقال ابن حزم معلقاً وناقداً :

« البلد المذكور (الأرض المقدسة) باق لم ينقص ولا صغرت أرضه ، وحده بإقرارهم في الجنوب غزة وعسقلان ، وحده في الغرب البحر الشامى ... وحده في الشمال صور وصيدا وأعماق دمشق ... وحده في الشرق بلاد مواب وعمون وقطعة من صحراء العرب ^(٢) ... » .

ثم ذكر ابن حزم - بعد ذلك - مساحة البلد بالأميال طولاً وعرضاً ^(٣) .

وتساءل : وأين النساء ؟ والكل يزعمهم أخذ سهمه . وكيف إذا أضيف بزعمهم من له أقل من عشرين سنة من الرجال ، والأغلب أنهم قريب من عدد المتجاوزين عشرين سنة أو أقل بيسر ... وجميع النساء والأغلب أنهم في عدد الرجال أو قريباً من ذلك ^(٤) ...

ثم يقول ابن حزم متعجباً :

(١) الفصل ١ - ١٦٥ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) انظر المكان السابق ١ - ١٦٦ .

(٤) انظر الفصل ١ - ١٧٣ .

« فإنا للناس كيف يمكن أن يتناسل من ولادة واحد وخمسين رجلاً فقط (هم عند ابن خلدون سبعون رجلاً) في مدة مائتي عام وسبعة عشر عاماً (وهي عند ابن خلدون ٢٢٠ سنة) - أزيد من ألفي ألف إنسان؟ هذا غاية المحال الممتنع^(١) .

ويضيف ابن حزم أدلة أخرى لتأكيد تفنيده لهذه الأكذوبة .. فيقول : وقد رام بعض من صككت وجهه من علمائهم - أى اليهود - بهذه الفضيحة أن يلوذ بالشغب ، فقلت دع عنك هذا التمويه ، فقد سدت عليك توراتك كل المذاهب ، حيث ذكر خروجهم من مصر ، وحيث ذكر دخولهم إلى الشام ، وفي سفر يوشع ذكر أفخاذ قبائلهم وتسمية أسباطهم اسماً اسماً ، فلم يزد من سميناً واحداً واحداً ، فلو كان ما تقول لكانت قد كذبت أيضاً^(٢) .

ودليل آخر :

فإننا قد شاهدنا الناس ... وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعيدة ، وكثر بحثنا عما غاب عنا ... ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمور فما وجدنا في ذلك المعهود من عدد أولاد الذكور من المكثرين الذين يتحدث بهم عند كثرة الولد إلا من أربعة عشر ذكراً ، فأقل .. وأما ما زاد إلى العشرين فنادر جداً .. في جميع بلاد أهل الإسلام . وفيما بلغنا عن ممالك النصراني إلى أرض الروم وممالك صقلية والترك والهند والسودان قديماً وحديثاً .. وأما الثلاثون فأكثر .. فما بلغنا ذلك إلا عن النزر اليسير عمن سلف ... منهم أنس ابن مالك وخليفة بن أبي السعدى ، وأبى بكرة .. وعمر بن عبد الملك .. وأبى النهار ابن زبى بن منار^(٣) .. وآحاد جداً من اليهود والفرس^(٤) .

ودليل ثالث - أيضاً - يسوقه ابن حزم :

(١) الفصل ١ - ١٧٣ .

(٢) الفصل ١ - ١٧٤ .

(٣) الفصل ١ - ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤) انظر الفصل ١ - ١٧٦ .

فقد ذكر في توراتهم أنهم إذ خرجوا من مصر خرجوا بجميع مواشيهم فاعجبوا أيها السامعون وتفكروا ما الذى يكفى ستائة ألف وثلاثة آلاف ، لم يعد فيهم ابن أقل من عشرين سنة وسوى النساء - من المواشى ، ثم اعلّموا يقيناً أن أرض مصر كلها تضيق عن مسرح هذا المقدار من المواشى^(١) .. فكيف أرض قوس وحدها^(٢) .

ودليل رابع يقدمه ابن حزم :

فقد ذكر في توراتهم أنهم كانوا كلهم يسخرون في عمل الطوب ، وتالله إن ستائة ألف « طواب » لكثير جداً ..!! ولاسيما في « قوس » وحدها .. وليس يمكنهم أن يقولوا إنهم كانوا متفرقين ، فإن توراتهم تقول غير هذا وتخبر بأنهم كانوا مجتمعين^(٣) !!

إن من المستبعد عقلياً أن يكون ابن خلدون قد فاته الاطلاع على كتاب « الفصل » ، وألاً يكون قد قرأ رد ابن حزم على التوراة .. وبالتالي على من أخذوها من التوراة دون تحليل أو نقد كالمسعودى وغيره .

وليس إهمال ابن خلدون لذكر ابن حزم كأستاذ له في منهج النقد التاريخي لا اتباعاً لمنهج سار عليه كثير من المؤرخين ...

وحسبنا أن نذكر أن هذه الأسطورة التى فندها ابن خلدون في أقل من صفحتين - قد نقدها ابن حزم في أكثر من خمس عشرة صفحة من القطع الكبير .. كلها احصاءات ومقارنات وبيان تناقضات وتتبع تاريخي .. ودراسة جغرافية .. واعتماد على أصول عقلية في البحث .

فلم يكن عمل ابن خلدون في الحقيقة أكثر من هضم الفكرة وتلخيصها وإخراجها بطريقة الخاصة .

(١) لابد من أن نأخذ هنا اعتبار الأرض المعمورة من أرض مصر في ذلك الحين من جانب ، ونأخذ أيضاً أهمية الاعتماد على أعداد صغيرة من المواشى في تلك العصور من جانب آخر - وذلك لتعرف قيمة هذا الدليل الذى قدمه ابن حزم .

(٢) الفصل ١ - ١٧٧ .

(٣) المكان السابق .

وثمة فروق بينهما هي لصالح ابن حزم : فإن ابن حزم قد ناقش المصدر الأصلي للرواية واعتمد عليه .. وهو التوراة ، كما أنه بالتأكيد - كان أقدر من ابن خلدون على استيعاب الكتب المقدسة وتحليلها .. إلى جانب أنه أعطى الرواية حقها من النقد ، وربطها بالكاذب أخرى احتشدت بها التوراة .. التي كانت سبباً رئيسياً - فيما نرجح - في إشاعة الأسلوب الأسطوري في التاريخ .. حتى جاء ابن حزم ففند أساطيرها بمنهج النقد التاريخي .

- ومن الأساطير التي فندها ابن حزم في التوراة بالمنهج نفسه مازعمته التوراة من أن هناك نهراً يخرج من الجنة يسقى الجنان وله أربعة رؤوس كل رأس منها معروف في الأرض : النيل ، وجيحان ، ودجلة ، والفرات .. وقد رد ابن حزم على هذه الأسطورة باستغلال حقائق علم الجغرافيا ، وبيان موقع كل نهر ومنبعه ومصبه^(١) كذلك ما ورد في التوراة من أنه كان في فلسطين نحو أربعمئة مدينة غير القرى التي لا يحصيها إلا الله^(٢) « فاعجبوا لهذه الشهرة أن تكون البقعة التي ذكرنا مساحتها .. على قلتها تكون فيها هذه المدن »^(٣) .

- ولم ينس ابن حزم بعد أن فند أساطير أخرى كثيرة ، وكشف تناقضات متعددة^(٤) - أن يقدم لنا لفظة ممتازة من لفتات المنهج العلمي الرصين .. فقد وصف لنا نسخة التوراة - التي اعتمد عليها ، وذكر أنها تتكون من سبعة وخمسين فصلاً ، وأنها تقع في مائة ورقة وعشرورقات ، وفي كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا إلى نحو ذلك ، بخط هو إلى الانفساح أقرب ، ويكون في السطر بضع عشرة كلمة^(٥) ١١

(١) انظر الفصل ١ - ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ١ - ١٦٨ ، ١٦٨ .

(٤) انظر الفصل ١ - ١٢٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٩ ، وغيرها .

(٥) الفصل ١ - ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) الإحصاءات والغرائب في منهج ابن حزم :



من صور الدقة العلمية في منهج البحث التاريخي عند ابن حزم - أنه لجأ إلى الإحصاءات وتتبع غرائب التاريخ ..

ففي رسالته نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، يقدم لنا ابن حزم التاريخ الإسلامي إلى عهده ، في تركيز شديد ، وحشد لكثير من التفاصيل الغريبة والشاذة التي تقدم لنا في مجموعها صورة كلية تضغط حقائق التاريخ وتكشفها ، وتظهرها لنا وكأنها لوحة مشحونة بالوقائع ، أو ملحمة زاخرة بالحركة ، صاخبة بالصراع .

وعلى أن هذه الرسالة قد حققت في ٤٢ صفحة من القطع المتوسط^(١) فإنها قد قدمت لنا أكثر من أربعة قرون في صورة « إحصائية » تصلح لأن توضع في « جداول » ولم تكتف بإبراز كثير من النواحي السياسية ، بل كان تركيزها الأكبر منصباً على الجوانب الحضارية .

وقد ضم كتاب « الفصل » كثيراً من الملل والفرق الشاذة ، فقد كان هم ابن حزم حصر كل ما عرف في العالم من مذاهب وأفكار .

ولم تخل جمهرة الأنساب من عشرات الأمثلة التاريخية الشاذة التي التقطها ابن حزم وأبرزها^(٢) - فالفضل بن عبد الملك أقام الحج بالناس سبعة عشر عاماً متوالية^(٣) ، والإمام الفقيه سليمان بن داود بن العباس كان له أخوات ست متن أبكاراً^(٤) ، ومحمد بن الحسن من سلالة علي بن أبي طالب فسق بقينة في مسجد النبي بالمدينة وقتل أهلها بالسيف والجوع ، ولم يصل مدة حياته جمعة ولا جماعة^(٥) وزينب من ولد الحسين بن علي بن الحسين بن أبي طالب تزوجها

(١) طبعة الدكتور شوقي ضيف .

(٢) انظر الجمهرة صفحات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٣ ،

٨٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ وغيرها كثير .

(٣) انظر الجمهرة ص ٣٣ .

(٤) الجمهرة ص ٣٥ .

(٥) الجمهرة ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

هارون الرشيد ، فدخل بها ، وطلقها في صبيحة تلك الليلة ، فلقبها أهل المدينة « زينب ليلة »^(١) وخارجة التي يقال فيها المثل « أسرع من نكاح أم خارجة » تزوجت ثمانية رجال وأنجبت منهم ثمانية عشر ولدا^(٢) .

وثمة عشرات الشواهد غير هذه تدلنا بوضوح على احتفاء ابن حزم بالإحصاءات والغرائب ، في دراساته التاريخية .

(٦) الأحكام القاطعة في منهج ابن حزم :



ونتيجة لاعتماد ابن حزم على منهج الحديث والظاهرية في توثيق سند الرواية وممتنها ، وعلى المنهج العلمى والإحصائى الذى يأخذ بأسلوب التحليل العقلى والنقد الداخلى ورصد الظواهر وتجميعها - تحقق لابن حزم قدر كبير من الثقة في نتائج دراساته .. وهذا يفسر لنا القطعية و « الحتمية » وعبارات « لاشك ولا بد » التى يصدر بها بعض أحكامه .

ويقول محققا « جوامع السيرة ورسائل أخرى » عند تعليهما لأسباب الأسلوب القاطع عند ابن حزم : « إن الدقة البالغة في تحليل النص المنقول ، واختيار الرواية الصائبة بعد الفحص والمقارنة وتصحيح الأوهام التى تنتج عن سرعة أو قلة تدقيق .. هى مميزات منهج ابن حزم ، وهى مميزات لا يستكثر معها تلك اللهجة التقريرية القاطعة التى تغلبت على كتابته ، ولا يستنكر إزاءها - قوله دائماً : ولاشك ، ولا بد ، فإن الثقة القائمة على التحرى المخلص ، والنقل الثابت ، هى وحدها التى تملى على ابن حزم هذه الألفاظ القوية الحاسمة ... ولذلك جاءت هذه السيرة تحمل رأياً قاطعاً لا تردد فيه في تاريخ الأحداث ، وليس ذلك لأن ابن حزم مؤرخ شديد الدقة والضبط فحسب بل لأنه ذو رأى مستقل في طريقة التاريخ الهجرى ، فهو يعتبر شهر ربيع الأول أول السنة الهجرية (وليس المحرم) محرراً بذلك تاريخ وقائع السيرة بنسبتها إلى الوقت الذى وقعت فيه الهجرة فعلاً ... وصنيعه هذا -

(١) الجمهرة ص ٣٩ .

(٢) الجمهرة ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

من الناحية التاريخية الصرفة - أدق في التوقيت ... وقد رأينا كيف استطاع ابن حزم أن يصحح كثيراً من السهو في التاريخ... (١) .

وهو بتفضيله الحديث الصحيح على كل رواية من روايات أصحاب المغازي قد اتخذ لنفسه منهجاً واضحاً في معالجة المسائل التاريخية من حيث موضوعها وزمنها (٢) .

- ولهذا النهج العلمي في التحقيق - أصبح تاريخ ابن حزم للسيرة مرجعاً معتمداً ينقل منه بعض من كتبوا في السيرة بعده نقلاً مباشراً أو غير مباشر ، فقد أفاد منها ابن كثير والمقرئى والديار بكرى وغيرهم (٣) .

وتمتاز هذه النقول بأنها تحمل رأى الخاص بابن حزم في مسائل كثر حولها الاختلاف (٤) كمسألة معاصرة سعد بن معاذ لحديث الإفك (٥) ومسألة عدد المسلمين في صلح الحديبية (٦) .

وفي كتاب حجة الوداع ظهر هذا المنهج على نحو أوضح ، فقد عمد ابن حزم إلى تقديم سرد وجيز للوقائع التاريخية للرحلة (٧) ثم يتبع ذلك بإيراد الأحاديث المؤيدة لكل جملة أوردها (٨) .

وكثيراً ما كان يؤيد الجملة التاريخية التى وأوردها بأحاديث من ثمانى

(١) انظر الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد . مقدمة جوامع السيرة ص ١٠ ، ١١ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) المرجع السابق ٨ ، ٩ .

(٤) المكان السابق .

(٥) انظر جوامع السيرة ٢٠٦ .

(٦) انظر المصدر السابق ٢٠٧ .

(٧) انظر مثلاً الصفحات من ٤٦ إلى ٥٨ من حجة الوداع . وانظر ص ٤٤ .

(٨) انظر ص ٥٩ وما بعدها وانظر ص ٤٥ .

طرق^(١) ، وبأربعة عشر حديثاً^(٢) ، وبثمانى عشرة رواية^(٣) . بل أكد روايته لخطبة الوداع بعشرين حديثاً^(٤) .

وبعد هاتين الخطبتين السابقتين - يثلث بإيراد « ما ظن قوم أنه يعارض بعض الآثار التى استشهدنا بها^(٥) مبيناً بالبراهين الظاهرة أنه لا تعارض » حاشا الفصل الذى ذكرنا أنه عسر علينا أى النقلين الواردين فيه هو الصحيح وأيهما هو الوهم ، فإننا أوردناها معاً وما عارضهما أيضاً ، فما هو دونهما فى الصحة ، ووقفنا حيث وقف بنا علمنا الذى أثنانا الله عز وجل .. ولم نقتحم الحكم فيما لم نقف على بيانه ، ولا جسرنا على القطع فيما لم يلح لنا وجهه ولا قضينا فيما لم نشرف على حقيقته^(٦) » .

وبدهى أن مثل هذا النهج الشاق - حرى بأن يمنح صاحبه قدراً من الثقة تجعله يصل إلى مرحلة « الجزم والقطع » فيما يصدره من أحكام !!...

وإلى جانب هذه التعبيرات القاطعة الحاسمة التى ذكرناها من نحو « لاشك ولا بد » - عرف قاموس ابن حزم التاريخى أساليب أخرى كلها تنتمى إلى نفس النزعة القاطعة .. وقد أمدنا كتاب الجماهرة - الذى وثقه ابن خلدون أى توثيق - بقدر من هذه الأساليب مثل قوله : « وهو آخر من بقى من ولد^(٧) » « وهو أول من^(٨) » .

إلى غير ذلك من دلالات القطع والحسم التى تعتبر نغمة سائدة فى دراساته ، إلا إذا لم تتوافر لديه الأدلة على النحو الذى بينه لنا فى النص السابق .

(١) جوامع السيرة ص ٦٦ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٨٢ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٨٨ وما بعدها .

(٤) انظر ص ١٢٢ وما بعدها .

(٥) انظر ص ٤٥ .

(٦) ص ٤٥ وانظر جمهرة أنساب العرب ص ٧ .

(٧) انظر صفحات ٥ ، ١٢ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ، وغيرها .

(٨) انظر صفحات ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٤١ ، ٣٦٤ ، وغيرها .

لكن هذه الثقة - في الحقيقة - وإن كانت نتيجة جهد علمي شاق - فإنها في بعض الأحيان تكون طريقاً إلى الوقوع في الخطأ . وقد تدفع صاحبها إلى نوع من التعصب المفرط ، وإلى استعمال كلمات حادة . وهذا ما وقع فيه ابن حزم - إذ عد عليه ابن حجر العسقلاني نبذة من أخطائه في وصف الرواة ..

فقد اعتبر ابن حزم (يسارا) مولى ابن عمر مجهولاً ومدلساً ، وكعباً لا يدري من هو ، بينما اعتبر أبو زرعة « يساراً » مدنياً ثقة .

كما اعتبر ابن حزم (العلاء بن زهير) مجهولاً - وجعله ابن معين : ثقة . واعتبر « عتاب بن بشير » مجهولاً ، بينما هو محمد بن عيسى بن الطباع بن عتاب بن بشير الجزري روى عنه إسحاق بن راهويه ومحمد بن سلام البيهقي وغيرهما (١) ..

واعتبر ابن حزم (المرقع بن صيفي) مجهولاً - بينما ذكره ابن حبان في الثقات وروى عنه ولده عمر ويحيى بن سعيد الأنصاري ويونس بن أبي إسحاق وأبو الزناد وموسى بن عقبة - فليس مجهولاً (٢) .

ويرى السبكي في ترجمته لابن حزم في الطبقات أن ابن حزم متسرع إلى النقل بمجرد ظنه جرىء بلسانه ، ويحدد السبكي مجالا من المجالات التي تسرع فيها ابن حزم ، وهو الأشعرية ، ففي رأيه أن ابن حزم « ما بلغه بالنقل الصحيح معتقد الأشعري ، وإنما بلغه عنه أقوال نقلها الكذابون عليه فصدقها ابن حزم بمجرد سماعه إياها ، ثم لم يكتف بالتصديق بمجرد السماع حتى يشنع (٣) » .

وقد رد السيد رشيد رضا تعميم السبكي في الهجوم على ابن حزم (٤) إنطلاقاً من هذا المثلث وإن كان لم يستطع الدفاع عن أسلوب ابن حزم الحاد ، الذي احتشدت بنماذج كثيرة من حديثه وعنفه موسوعته الكبيرتان : المحلى والفصل ،

(١) جوامع السيرة ص ٥٥ .

(٢) المكان السابق .

(٣) طبقات الحفاظ ١ / ٥٩٠ ، ٩١ .

(٤) انظر المنار ج ٨ م ١٦ - ٦٠٣ .

وبعض الرسائل الأخرى ، ويصور السخاوى حدة ابن حزم التى لازمتها فى أكثر ما كتب بقوله : « ومن حصل من بعض الناس منهم نفرة ولم يحصل الانتفاع بعلمهم مع جلالته علماء وزهداً لإطلاق لسانهم . وعدم مداراتهم ، بحيث يتكلمون ويجرحون بما فيه مبالغة ابن حزم ، وابن تيمية ، وهما ممن امتحن وأوذى . وكل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ (١) » .

(٧) موضوعية ابن حزم فى الميزان

ويدفعنا ما ذكرناه عن « الأحكام القاطعة » التى هى وليدة « الثقة » عند ابن حزم ، وما لهذه الأخيرة من نتائج سلبية .. إلى تقويم موضوعية ابن حزم ، ومدى الحياد والإنصاف فى منهجه .

— وقد ذكرنا من قبل طرفاً عن نزاهته وصدقه وإنصافه لخصومه ، وهى صفات أصيلة فى ابن حزم ، منبثقة من تدينه الشديد ، ولا يتفق مع هذه الصفات : المجاملة ، والتحيز والظلم وهى دعائم المنهج غير الموضوعى .

لكن التكوين الفكرى للمؤرخ ، والعوامل الوراثية ، والظروف العاطفية الشخصية أو القومية أو الدينية ، وعدم تكامل جوانب البحث على الحقيقة — هذه العوامل وغيرها قد تعمل فى الانحراف بالمؤرخ — لا شعورياً — إلى تبني وجهة نظر تسيطر عليه .. وتجعله يميل دون أن يدري — عند التقويم إلى جانب على حساب جانب .

ومن هذا الباب نستطيع أن نقول إن ابن حزم أخطأه التوفيق فى بعض القضايا — وقد ذكرنا من قبل تصنيفه لبعض الرواة بأنهم مجهولون وهذا مطلب حقيقى ، وإن كان محدداً بالنسبة إلى العدد الهائل من الرواة الذين تناولهم ابن حزم فى موسوعته « المحلى » فقد عرض فى المحلى لآراء (٥٤٦) علما من علماء السلف منهم من ذكر له ابن حزم أكثر من ستائة رأى (٢) .

(١) الإعلان بالتويح ١١٠ ، ١١١

(٢) انظر محمد رواس قلجى : ابن حزم فى المحلى مجلة حضارة الإسلام بدمشق عدد رجب سنة ١٣٨٦ هـ .

وطبيعي أن تصل آراء هؤلاء عبر عدة آلاف من الرواة ، جرح منهم ابن حزم ٧٥٦ راوياً ، وهو رقم غير كبير بالنسبة إلى من عدلهم ... كما أن الجرح في الحديث أولى عند الأصوليين - من التعديل ، ومعروف أن البخاري قد اجتمع له نحو مائة ألف حديث لم يقبل منها إلا أربعة آلاف حديث ضمنها كتابه المعروف .

فليس بدعا أن يقع ابن حزم في أخطاء في هذا الباب الصعب من البحث .

ولسنا نغنى ابن حزم من مآخذ عارضة في منهجه كزعمه بأن سد يأجوج ومأجوج موجود ، ومكانه معروف في أقصى الشمال في آخر المعمور منه (١) وتأويله اللغة أحياناً ليستقيم له ما يريد مع أنه ظاهري (٢) ، وزعمه بأن عدد « الزرادشيين » في عهده لا يزيد على أربعين في جميع الأرض (٣) ، وقسوته على الأشعرى مع أنه لم يطلع - فيما نرجح - على كل تراثه ، وإنما اعتمد على ناقلين (٤) ، واتهامه للباقلاني بأنه أجاز للرسول ارتكاب المعاصي ، مع أنه ليس في كتب الباقلاني ما يؤيد ذلك ، وإنما نقل عن السمناني (٥) . وهناك ترجيح تزييفه على الباقلاني ولاسيما أن ما أورده إنما هي شنع لا تصدر عن مثل الباقلاني .

ولسنا نغنى ابن حزم - أيضاً - من أخطاء أسلوبية ما كان أغناه عنها ، وقد شكلت في حقيقتها عبثاً على تراثه ، وكانت سبباً في التنفير منه ، وبخاصة هجومه على الإمامين : أبي حنيفة ثم مالك . وقد فاز أبو حنيفة - رحمه الله - بالنصيب الوافر من هجوم أبي محمد .

ولا يكاد يوجد فصل من فصول المحلى إلا وهو شاهد على عنف الأسلوب الذي يستخدمه ابن حزم مع أهل الرأي والقياس وشيوخهم أبي حنيفة . كما أننا لا نغنى ابن حزم من نوع من التحيز الناشئ عن الطبيعة البشرية التي ذكرناها ، وذلك حين

(١) انظر الفصل ١ - ١٢٠

(٢) انظر الفصل ٢ - ١٢٩

(٣) انظر الفصل ١ - ١١٥

(٤) انظر الفصل ٤ - ٥٨ ، ٢ - ١١١

(٥) الفصل ٤ - ٢٢٤

نرى ابن حزم ينتهز الفرصة - في أحيان قليلة - لتأييد ما يراه حقاً ، ولو أغمض العين عما عرف عنه من التبع ، ويظهر لنا ذلك عندما ذكر لعمر بن عبد العزيز رأيين :

الأول :

يخالف رأى ابن حزم ، وهو من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد وعبد الجابر بن عمر - قال : شهدت عمر بن عبد العزيز يقول لامرأة شكت إليه أن زوجها لا ينفق عليها : إضربوا له أجل شهر أو شهرين فإن لم ينفق عليها إلى ذلك الأجل ففرقوا بينهما . وقد صرح ابن حزم ببطالان هذه الرواية ، فقال « وأما الرواية عن عمر بن عبد العزيز في تأجيل شهر أو شهرين فساقطة جداً لأنها من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد ، وعبد الجابر بن عمر وكلاهما لا شيء » .

الثاني : من آراء عمر بن عبد العزيز وهو يوافق ما ذهب إليه ابن حزم ، فجاء من طريق ابن وهب عن أبي لهيعة عن محمد بن عبد الرحمن أن رجلاً شكاً إلى عمر بن عبد العزيز أنه أنكح ابنته رجلاً لا ينفق عليها ، فأرسل إلى الزوج فأتى ، فقال الزوج : لقد أنكحني وهو يعلم أنه ليس لي شيء فقال له عمر بن عبد العزيز : أنكحته وأنت تعرف فما الذي أصنع ، ثم قال للزوج .. اذهب بأهلك^(١) .

وقد سكت ابن حزم عن هذه الرواية ، مع أن فيها عبد الرحمن بن لهيعة ، وقد ضعفه ابن حزم في خمسة عشر مكاناً من كتابه المحلى ، وقال عنه إنه في غاية السقوط ، وفيه أيضاً محمد بن عبد الرحمن ، وقد جهله ابن حزم في مكانين من المحلى^(٢) .

وقد يذكر الاتفاق على ترك راو ، كما فعل بسليمان بن داود الجزرى ، فقد قال عنه « ساقط متفق على تركه » ، قال الأستاذ أحمد محمد شاكر : ضعفه بعضهم فما أدري من أين جاء لابن حزم الاتفاق على تركه^(٣) ؟

(١) انظر محمد رواس القلمجي: مقال : ابن حزم في المحلى مجلة الحضارة الإسلام عدد رجب وشعبان سنة ١٣٨٦ هـ

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) انظر المكان السابق .

وقد يشتبه عليه الأمر بين راو وآخر فيجرحه ظاناً أنه غيره كما فعل بعكرمة بن خالد ، وهو عكرمة بن خالد بن العاص بن هشام وهو ثبت ثقة ، فجرحه ظاناً أنه عكرمة ابن خالد بن سلمة بن العاص بن هشام ، وهو ضعيف .

وقد يخلط بين راوين كما خلط بين كثير بن عبد الله بن زيد بن عمرو ، وبين كثير بن زيد الأسلمي^(١) .

ولسنا نغنى ابن حزم من مثلب آخر كبير ، وهو تحيزه للأندلس . فهذا التحيز القومي له أضراره الكبيرة على خطوات المنهج العلمي ولسنا ننكر أن هناك عنصراً ذاتياً لدى كل مؤرخ ، وأن الموضوعية المطلقة لم تتحقق حتى في مجال العلوم الطبيعية ، كما أننا لا ننكر أنه من الناحية العلمية ، فإن أكثر مناهج البحث التاريخي قد تأثرت بالبيئة وروح الأمة والموروثات الفكرية والعقدية ، والمناهج الأوروبية المعاصرة - في أغلبها - تدور في فلك تقديس (الحضارة الأوروبية) وإدارة تاريخ العالم كله حولها . ولم تظهر بوادر التخلص من هذه الذاتية المغرقة إلا على يد « أرنولد توينبي » الذي لم يتخلص تخلصاً كاملاً من هذا الوهم .

وبدهى أن كتابات المؤرخين في خلال الحربين العالميتين قد تأثرت بالأجواء المحيطة ، كما أن الكتابات التي ظهرت في عصر النهضة ، أو عصر الاستقلال الأمريكي أو الثورة الفرنسية ، قد تأثرت أيضاً بالروح العامة^(٢) .

لكن ما نأخذه على ابن حزم ليس هو هذا التأثير الطبيعي . وإنما نأخذ عليه هذا الموقف المبدئي الشعوري في تمجيد « فضائل الأندلس وأهلها »^(٣) ووقوعه بالتالي في أحكام عامة ومقارنات ناقصة ذات نتيجة معروفة سلفاً . وهي تفضيل الأندلس

(١) انظر محمد رواس لقمحي : مقال ابن حزم في المحل مجلة حضارة الإسلام عددا رجب وشعبان ١٣٨٦ هـ .

(٢) انظر جري : للذاهب الكبرى في التاريخ ٢٢٢ وانظر د - أحمد صبحي في فلسفة التاريخ ص ١٥٦ ، وانظر

عبد الحليم عويس : الإسلام أولاً ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) عنوان رسالة بهذا الاسم . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وقد وردت بتوصها في نفع الطيب للمقرى .

على المشرق - فكتاب « الهداية » لعيسى بن دينار هو « أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك ^(١) .. » .

- وكتاب أبي عبد الرحمن بقى بن مخلد في تفسير القرآن هو « الكتاب الذى أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد ابن جرير الطبرى و لا غيره » ^(٢) .

- ومصنف بقى بن مخلد في الحديث : لا يعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإيقانه واحتفاله وجودة بشيوخه ^(٣) .

- ومصنف أبى محمد قاسم بن أصبغ ومصنف محمد بن عبد الملك بن أئمن - هما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من المصنفات ^(٤) .

- وكتاب التمهيد لأبى عمر يوسف بن عبد البر : لا يعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه ^(٥) ؟

- والمختلف والمؤتلف في أسماء الرجال لأبى الوليد بن يوسف بن الفرضى « لا أعلم مثله في فنه البتة » ^(٦) .

- وفي الفقه ، وفي اللغة ، وفي الشعر ، وفي الطب ، وفي الفلسفة ، وفي العدد والهندسة ^(٧) ، تتابع المقارنات على هذا النحو !!

- أما في علم الأخبار فتوارى أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، ومحمد بن الحارث

(١) فضائل الأندلس وأهلها ١٢

(٢) المكان السابق .

(٣) المصدر السابق ١٢

(٤) المصدر السابق ص ١٣

(٥) المصدر السابق ١٣ ، ١٤

(٦) المصدر السابق ١٤

(٧) انظر المصدر السابق صفحات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨

الحشنى صاحب قضاة قرطبة وأبى مروان بن حيان ، وحسين بن عاصم النحوى ،
وأحمد بن فرج وغيرهم^(١) .

- وبعد المقارنة على أساس الكتب تأتى المقارنة على أساس الأشخاص . والنتيجة
في الحالتين واحدة^(٢) : « فنحن إذا ذكرنا أبا الأجرى جعونة بن الصحة الطلابى
في الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد
بشعره (وهذه قضية من القضايا الخطيرة التى أثارها ابن حزم) فهو جار على مذهب
الأوائل لا على طريقة المحدثين . وإذا سمينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد ابن
إسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلى لما تأخر
عن شأو بشار وحبيب والمتنبى .. فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب^(٣) !!
فمن البدهى أن هذا الموقف المبدئى موقف غير علنى ، وهو تحيز واضح للأندلس
في ظروف تاريخية صعبة لعلها كانت السبب في إيجاد مثل هذه المواقف العاطفية التى
وجدت عند ابن حزم وعند غيره من الأدباء والمؤرخين .

لكن قضية أخرى نرى أنها لا تعتبر مثلباً في منهج ابن حزم التاريخى .
فلقد اتهمه بعضهم « بالنصب » ، أى التعصب للأمويين ضد العلويين ، وقال ابن
حيان في ذلك : « كان - أى ابن حزم - متشيعاً في بنى أمية منحرفاً عمن سواهم ،
ماضيهم وبقايتهم في المشرق والأندلس حتى نسب إلى النصب لغيرهم^(٤) » .

وهذه تهمة لا يؤيدها فكر ابن حزم ، فقد كانت هناك تفرقة واضحة في فكره
التاريخى بين التمسك بالخلافة الأموية كأمل وحيد يمكن أن يجمع شتات الأندلس -
وبين التعصب للأمويين على امتداد تاريخهم ، حتى ولو تنكبوا الطريق .. ولو جاز

(١) فضائل أهل الأندلس وأملها ص ١٧

(٢) انظر بهليه : ابن حزم ص ٥

(٣) رسالة فضائل الأندلس ص ٢٠

(٤) انظر ابن بسام : الذخيرة ١-١ - ١٤٢ وابن سعيد المغرب ١ - ٣٥٥ وياقوت : معجم البلدان ١٢ - ٢٤٩ - ٢٥٠

لنا أن نرمى ابن حزم بتعصب سياسى لجاز لنا أن نرميه بالتعصب للترعة الزبيرية ،
أى لعبد الله بن الزبير وأتباعه فهو القاتل فى عبد الله بن الزبير : « وقتل ابن الزبير
فى المسجد الحرام بمكة سنة ثلاث وسبعين فى جمادى الآخرة مقبلا غير مدبر ، مدافعا
عن نفسه ، مقاتلا ، فلذلك لم يعرف من قتله ، وله ثلاث وسبعون سنة ، وهو
أول مولود ولد فى الإسلام وقتله إحدى مصائب الإسلام وخرومه ، لأن المسلمين
استضيحوا بقتله ظلماً علانية ، وصلبه واستحلال الحرم^(١) . أما أنه لم يتعصب لبنى
أمية - شرقهم وغربهم - فهذا أمر يدلنا عليه تراثه التاريخى الذى يبرز لنا حيادة
العلمى وتقويمه الموضوعى لخلفاء بنى أمية ...

- فهو يأخذ على معاوية قتله لحجر بن عدى وأصحابه ، ويعتبر ذلك أول الوهن
فى الإسلام^(٢) .

أما (يزيد) فى رأيه فكان قبيح الآثار فى الاسلام ، قتل أهل المدينة ، وأفاضل
الناس .. واستخف بجرمة الكعبة والإسلام^(٣) .

ويرى أن قتل يزيد للحسين بن على « ثلاثة مصائب الإسلام » بعد عثمان أو رابعها
بعد عمر^(٤) كما أن قتل يزيد لبقايا المهاجرين والأنصار يوم الحرة من مصائب
الإسلام الكبرى ، ويسجل على يزيد أن الخيل جالت فى عهده بمسجد رسول الله
ﷺ ، ورائت وبالت فى الروضة بين القبر والمنبر^(٥) .

وبعد سرد كل الجرائم التى تمت فى عهد يزيد ... يتشفى ابن حزم فيه بقوله :
ثم أخذ الله تعالى يزيد أخذ عزيز مقتدر ، فمات بعد الحرة بأقل من ثلاثة
أشهر^(٦) .

(١) جوامع السيرة (ملحقاتها) ص ٣٦٠ ، ٣٥٧

(٢) انظر الجوامع ٣٥٧ .

(٣) الجمهرة ١١٢

(٤) انظر المصدر السابق ٣٥٨

(٥) انظر المصدر السابق ٣٥٨

(٦) المكان السابق .

وفي مروان سجل ابن حزم أنه « أول من شق عصا المسلمين بلا تأويل ولا شبهة ^(١) » .

وفي عبد الملك بن مروان يرى ابن حزم أن الفرق بينه وبين صحابي كأنس ابن مالك كالفرق بين الظلمة والنور ^(٢) - إلى جانب ثنائه على عبد الله بن الزبير المنافس والمنأوى لعبد الملك بن مروان .

- أما « أموية » الأندلس ، فقد تكلم عنهم أيضاً بحياء ، ففي حديثه مثلاً - عن الحكم بن هشام الربضي ، ذكر أنه هو الذي قتل الفقهاء والخيار ، وخصى عدداً من ذوى الجمال من أهل قرطبة ... وهدم الديار والمساجد ... وولى ذلك رجلاً نصرانياً كان أسيراً عنده ^(٣) ١١

- فهل يمكن - في ظل هذه الأحكام العادلة المحايدة - أن يكون ابن حزم متعصباً للأُمويين - شرقهم وأندلسهم - معادياً لمن سواهم ؟

- والحق أن هذه تهمة باطلة ^(٤) ، وأن اتجاه ابن حزم لإحياء الخلافة الأموية الأندلسية لم يكن سوى رؤية سياسية جعلته يؤمن بأن إنقاذ الأندلس لن يتم على يد البربر أو الطوائف المتصارعة على الحكم ، وإنما على يد عصبية دينية عربية ولها رصيدها الديني والتاريخي في نفوس الأندلسيين ، بحيث يمكن أن يجتمعوا عليها ... وفرق كبير بين هذه الرؤية السياسية التي أملت ظروف عاصرها ابن حزم وبين ما يتهم به من معنى التعصب المطلق للأُمويين والعداء لمن سواهم .

وعلى الرغم من أن ابن حزم مؤرخ مسلم ملتزم - فإنه فيما يتعلق بمنهج البحث التاريخي كان يؤمن بأن الحقيقة التاريخية لا يجوز أن ينظر فيها إلى مصدرها من زاوية التعصب الديني ، فمادامت قد استوفت شروط البحث فإنها يمكن أن تؤخذ

(١) انظر الجوامع ٣٥٩

(٢) انظر الفصل ٤ - ١٣١

(٣) انظر الجُمهرة ص ٩٥ ، ٩٦

(٤) انظر الدكتور إحسان عباس ود - ناصر الدين الأسد مقدمة جوامع السيرة ص ١٢ ، ١٣

من كل ذى دين ، وهو يقول فى ذلك : « وكل ما نقلته كافة على شرط عدم التواطؤ فواجب قبوله ، ولا فرق بين ما نقلته كواف الكافرين أو كواف المسلمين فيما شاهدته حواسهم ، ومن قال لا أصدق إلا ما نقلته كواف المسلمين فإننا نسأله : بأى شىء صح عنده موت ملوك الروم ولم يحضرهم مسلم أصلاً ، وإنما نقلته إلينا يهود عن نصارى ، ومثل هذا كثير .. فإن كذب هذا غلط نفسه وعقله .. وكابر حسه (١) .

لقد كان منهج ابن حزم فى البحث التاريخى - على الرغم من بعض المآخذ التى ألمعنا إليها فى التطبيق - منهجاً علمياً سليماً ، عاش صاحبه من طلاب الحق وعشاقه فى القول والعمل (٢) .

وإنه منهج تغوص جذوره فى أرض الفكر الإسلامى ، وترتفع أغصانه فى السماء حاملة معها معالم مفكر عبقرى موسوعى نادر ، هو أبو محمد على ابن حزم الأندلسى رحمه الله .

مدرسة ابن حزم التاريخية :



فى التاريخ الذى قدمه أحد المعاصرين لأدوار الفكر العربى ، حصر هذه الأدوار فى أربع مراحل .. جعل المرحلة الأخيرة منها « ذروة التفكير العقلى والاجتماعى » وقد مثلها فلاسفة المغرب من ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (٣) .

ويضيف الباحث أن هذه الأدوار لم تتعاقب تعاقباً فاصلاً ، فإن علم الكلام امتد حتى شغل ابن حزم فى الأندلس ، كما أن نضج الفلسفة الصحيح بدأ أيضاً مع ابن حزم الذى توفى قبل الغزالى بنحو خمسين سنة (٤) .

(١) الفصل ٤ - ١١

(٢) مقدمة جوامع السيرة ص ١٢

(٣) الدكتور عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ص ٢٥

(٤) انظر للكان السابق .

فهل كان ابن حزم بداية مرحلة تاريخية حقاً ؟ .

- إننا - لكي نجيب عن هذا السؤال - يجب أن نربط هذا الرأي الذي أورده الباحث المعاصر برأى آخر ألمع إليه بعض المؤرخين ، هو أن تلك الفترة المضطربة التي عاشتها الأندلس في مرحلة الفتنة التي استمرت من مطلع القرن الخامس وحتى سنة ٤٢٢ هـ - قد أدت إلى بروز مدرسة تاريخية ذات سمات مشتركة ، اتخذت من التاريخ درعاً للمقاومة ، ورصدت بعين ناقدة تطور الأحداث واستلهمت روح الماضي والتراث .

... هذه المدرسة التاريخية يمكن أن نسميها (مدرسة عصر الفتنة الأندلسية).. وفي قمة هذه المدرسة يقف صاحبنا أبو محمد علي بن حزم ، وأبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ) كرائدين بارزين لهذه المدرسة ويأتى بعدهما يوسف بن عبد الله ابن عبد البر وأبو عامر بن شهيد وربما ألحق بهم غيرهم ممن هم أقل شهرة ورتبة ، أو تلاهم بزمن قليل .

لقد امتازت هذه المدرسة التي أبرزتها ظروف الفتنة بخصائص كبرى مشتركة استمدت منها أسلحتها للحيلولة دون المصير التمس الذي بدأت بوادره تظهر في أفق الأندلس .

وكان أبرز خصائص هذه المدرسة .. أنها مدرسة أندلسية .. تتعصب للأندلس قومية ووطنياً إلى حد كبير ، وواضح أن لهذه السمة سببها التاريخي .. فهي رد فعل لنذر السقوط التي ظهرت .

وإذا كنا قد عرضنا لتعصب ابن حزم للأندلس في رسالة « فضائل أهل الأندلس » بما يكفي دلالة على هذه السمة ^(١) - فإن تراث المؤرخ الكبير ابن حيان - قد نضح أيضاً بهذه السمة على نحو لا يقل عن صاحبنا ابن حزم ، وإن هذه الروح

(١) اختصر ابن حزم هذه العصبية في بيت من الشعر يقول فيه :
ويا جواهر الصين سحقاً فقد غنيت بيقوتة الأندلس

لتشيع في كل كتاباته ، بحيث يستشف القارئ من وراء كل سطر يكتبه في تاريخه ذلك الحب الذي أشربه لوطنه^(١) .

وكما يقول المستشرق الأسباني غرسيه غومس ، فإن « الأيرية » أو « الأسبانية » - كاملة وقوية وثابتة عند ابن حزم^(٢) - بل وعند هذا الجيل من المفكرين الأندلسيين الذين ظهروا في أندلس القرن الخامس ، ممن حاولوا أن يضعوا أصابعهم على موطن الداء ، والتعرف على الأسباب الباطنة التي أدت إلى الانهيار المفاجيء المذهل^(٣) .

والمفارقة العجيبة أن هذا الجيل الذي أشرنا إلى مدى اعتداده بقوميته ووطنه ... كان أكثر كتاب الأندلس ومفكرها إلحاحاً على نقد شعبهم ، وحدة في إظهار عيوبه ، وصراحة في الحديث عن وجوه النقص في طبائعه ومقومات شخصيته^(٤) .

وإن هذه الروح القومية عند ابن حزم وابن حيان وأتباع هذه المدرسة ، هي التي جعلتهم يكونون للبربر كراهية شديدة تشيع في كل كتاباتهم^(٥) .

والسمة الأخرى البارزة في كتابات هذه المدرسة ، هي « الأموية »^(٦) - أي الإيمان بأن الوحدة الأندلسية التي انفرط عقدها لن تلتئم إلا على يد بني أمية ، برصيدهم الديني والتاريخي والشعبي في الأندلس .

« فكل كبار كتاب الأندلس خلال هذا القرن وما جاء بعده أمويون في نزعاتهم ... بل إن عبد الله بن العري وهو من فقهاء القرن السابع الهجري أموى النزعة

(١) دكتور محمود علي مكى : (المقتبس) مقدمة ص ١١٢

(٢) انظر الدكتور : الطاهر المكى : دراسات عن ابن حزم ص ١٥٨ ، ١٦٠

(٣) انظر الدكتور محمود علي مكى : (المقتبس) المقدمة (١١٣)

(٤) انظر المكان السابق

(٥) انظر ابن حزم الطوق ص ١٤٧ والرد على ابن التفريلة (رسالة التلخيص) ١٧٦ ، وانظر د . محمود مكى : (مقدمة

المقتبس) ص ١١٤

(٦) انظر جورجى زيدان : تاريخ تمدن الإسلامى ٤ - ٢٢٧ (هامش)

والميل ... وفي القرن العاشر الهجري نجد المقرئ يتحسر على أيام بنى أمية ، ويجعل من « المروانية » أسطورة عاطفية يفرد لها صفحات بعد صفحات^(١) .

وقد جاهد ابن حزم في هذا الطريق طويلا - كما ذكرنا في سيرته - فلما عجز عن طريق السياسة .. عكف على الجهاد بالفكر .

ولم تكن الأموية عند هذه المدرسة تعصبا لبنى أمية بأخطائهم وسخائم صبيانهم ، وإنما كانت اتجاهاً سياسياً يعنى « الاعتداد بالجماعة » ودم الطائفية والفرقة . وذلك على النحو الذى نجده فى كتابات ابن حزم^(٢) والذى لخصه فى إحدى رسائله بقوله :

أما ما سألتكم عن أمر هذه الفئة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم بعضا ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء أهلك الأديان إلا من وقى الله تعالى ... وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شيء من أندلسنا هذه - أولها عن آخرها - محارب لله تعالى - ورسوله وساع فى الأرض بالفساد ... فالخلص لنا هو الامساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ودم جميعهم^(٣) .

وكذلك فإن قارئ تاريخ ابن حيان سواء منه المقتبس والمتين يحس دائما بإيمان ابن حيان بقضية الوحدة الأندلسية .. ومن طريق بنى أمية^(٤) .

هذه المدرسة التاريخية التى اتخذت الأندلسية « قومية » والأموية « اتجاهاً سياسياً »^(٥) تدافع عنه ، وترشح بها كل كتاباتها ... لم تكن نشازا فى هذا

(١) انظر جورجى زيدان : تاريخ المدن الإسلامى ٤ - ٢٢٧ (هامش)

(٢) انظر - مثلاً - مأورده - ساخرا - تحت عنوان « فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها » : أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بأمر امرأة المؤمنين (نقط العروس) فصلة من مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر ١٩٥١ بتحقيق د - شوق ضيف ص ٨٣

(٣) رسالة الطغيان (ضمن مجموعة الرد على ابن التبريلة) بتحقيق الدكتور إحسان عباس ص ١٧٣ ، ١٧٤ (٤) انظر د . محمود مكى (مقدمة المقتبس) ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ وانظر د . الحجى : أندلسيات ١ - ١١٠ وانظر روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص ١٢٥

(٥) كان للأموية فى الأندلس دور تميز عن دورها فى المشرق ، نظرا لما أتيح لها هناك من بقاء ، ونظرا للدور الذى لعبته فى التاريخ الأندلسى . أما فى المشرق فقد تسلم العباسيون الراية وأكملوا السقوط وغطى دورهم على دور الأمويين الذين لم يقدر لهم أن يحكموا فى المشرق إلا تسعين سنة ، « أما فى الأندلس فقد حكموا نحو قرنين ونصف القرن »

الانتفاء ، فقد ألفنا أن يكون للمؤرخ - في ظروف أمته - موقف متناغم مع هذه الظروف ، يشبه أن يكون « الاستجابة » الملائمة للتحدي الحضارى الذى يواجه الأمة ، ولعل « الحس التاريخى » الذى يستثير المؤرخ أكثر من غيره - هو الدافع لهذه الاستجابة .

وبتأثير هذه الظروف التى كانت تمر بها الأندلس تميزت هذه المدرسة بخاصة ثالثة أبرزتها كتاباتها ..

لقد كان التاريخ بالنسبة لعلماء هذه المدرسة عالماً ينزحون إليه ، يجدون عنده التسلية ... والعلاج ، ويتخلون منه مجالا لدراسة مجد الإسلام الأندلسى المهدد .. الذى يتمنون استقراره ، وعودته .

ومن هنا نجد هذه المدرسة قد تناولت التاريخ بمنهج غير حولى - لكى يتاح لها أن تجد فى التاريخ العالم الذى تنشده .

ونتيجة لهذا أيضاً ... اختلط التاريخ فى منهج هذه المدرسة بعلوم مختلفة ... بالأدب: شعره ونثره .. وبالفقه ... وبغيرهما ، واقترب المنهج التاريخى على يد هذه المدرسة - من « معناه الكلى » الذى يرصد سائر العوامل المؤثرة فى صنع الحضارة ، ولا يقف محصوراً على أبواب الملوك والخلفاء .

لقد كان ابن حزم كما عرفنا - أديبا وشاعرا مزج فى كتاباته بين التاريخ بمعناه التقليدى - وبين العلوم الأخرى ، واهتم أيضاً بعرض الجوانب الحضارية المختلفة^(١)

وكان ابن حيان أديباً ، وكل صفحات تاريخه الكبير ولاسيما كتابه « المتين » تعتبر من أروع نماذج النثر الأندلسى^(٢) . ومزج ابن بسام . الذى يعتبر امتداداً لهذه المدرسة - فى كتابه الذخيرة بين الأدب والتاريخ كذلك بصورة واضحة^(٣) ..

(١) انظر - مثلاً - طوق الحمامة فى أكثر صفحاته ، وانظر نقط العروس وغيرها ، وانظر كذلك : د - مصطفى الشكعة - مناهج التأليف عند العلماء العرب من ١٠٧

(٢) انظر د - محمود مكى: مقدمة المقتبس من ١٢٩

(٣) انظر د - مصطفى الشكعة مناهج التأليف عند العلماء العرب من ٦٣٨

كما أن يوسف بن عبد البر - صاحب الدرر في اختصار المغازي والسير - كان فقيهاً ظاهرياً مالكياً... ونبيغ في القراءات والحديث ، والفقه ، والأخبار والأنساب^(١) .

وهناك سمة رابعة أملتها الظروف أيضا .

فإن تمزق الأوضاع الاجتماعية والخلقية ، وتردى الأوضاع السياسية ، وتخاذل الفقهاء عن أداء رسالتهم .. قد جعل هذه المدرسة التاريخية تتصدى لطبقة الفقهاء ولبقية الأوضاع السائدة ، وتحاربها بأسلوب حاد لأذع ساخر .

- ولكن كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين - كما يقول ابن العريف . فإن التاريخ كان من أبرز المجالات التي استغلتها هذه المدرسة لتقوم الأوضاع ونقدها .

وابن حزم يقول في ملوك عصره : « والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها . فنحن نراهم يستملون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم .. وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الاسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه^(٢) » .

ومثل ابن حزم في ذلك صديقه ومعاصره ابن حيان^(٣) ، الذى كان شديد اللهجة ولا يتحرج عن ذكر المثالب ، ولا يومئء إليها ، بل يذكرها صراحة في جرأة شديدة ، حتى إن بعض المؤرخين تبرأ إلى الله من قوله^(٤) .

وينظر ابن سعيد إلى « ابن حيان » على أنه رائد في الذم والتلب فيقول عند ترجمته

(١) انظر مقدمة الاستذكار ص ٩

(٢) ملحقات الرد على ابن التفريلة (رسالة التلخيص ١٧٧) .

(٣) انظر د - محمود مكى : (مقدمة المقتبس ١٢٤ ، ١٢٦) وانظر ابن سعيد : المغرب ص ١٣١ (ترجمة أبو محمد

القرطبي المعروف بالمصري) وانظر محمد عبد الله عان : تراجم إسلامية ص ٢٧٦

(٤) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ٣ - ٢٧٦

للأديب أبى عبد الله محمد بن الصفار المتوفى سنة ٦٣٩ : « كان هذا الشيخ .. باقعة
قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض مأخذ ابن حيان ^(١) » .

- وثمة لون من السخرية المريرة اللاذعة نجده عند ابن حيان ^(٢) ، كما نجده عند
ابن حزم ^(٣) . وهى سخرية ترتبط بموقف المقاومة الحادة التى هى سمة من سمات
هذه المدرسة التاريخية الأندلسية .. مدرسة عصر الفتنة .

لقد تركت هذه المدرسة - بصفة عامة - تلاميذ .. آمنوا بخطها الفكرى ورؤيتها
التاريخية ، بدءاً من جيل الحميدى ثم ابن بسام ، وحتى جيل المقرئ صاحب نفح
الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ...

وقد ساعد على ازدهار هذه المدرسة أن ظروف الأندلس لم تتغير إلى الأفضل
إلا فى فترات قليلة ، فبقى لوجود المدرسة مبررها التاريخى ، وبقيت خصائصها النابعة
من ظروف التحدى الحضارى التي . تواجه الأندلس - تركى فيها روح الولاء
للأندلس وطناً وحضارة ، وتشعل فيها وهم العودة الجنون إلى ذلك المجد الأموى
الذى ازدهر فى الأندلس قرابة ثلاثة قرون ، ووجدت فيه الأندلس أرغد أيامها ،
وأرقى مراحل تحضرها .

وفى إطار المدرسة الأندلسية الأموية ترك ابن حزم مدرسة تاريخية تلتزم بالمنهج
العام للمدرسة ، وتستمد من اتصالها به وإيمانها برسائله وفكره خصائص ذاتية .

وقد برز على رأس هذه المدرسة التاريخية تلميذاه أبو عبد الله محمد بن أبى نصر
فتوح الأزدي الحميدى الأندلسى الميورقي (ت ٤٨٨ هـ) صاحب جذوة المقتبس
فى ذكر ولاية الأندلس ، وتلميذه الآخر : أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى (ت
٤٦٣ هـ) صاحب طبقات الأمم .

(١) المغرب ١ - ١١٨ .

(٢) انظر د - محمود مكى (مقدمة المقتبس) ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) انظر نقط العروس ص ٨٣ (أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها) وانظر ص ٨٤ (الأسماء التى تصلح للخلفاء ولم
تستعمل بعد) ١١

أما الحميدى ، فإن كتابه سابق الذكر يعتبر امتداداً مباشراً لفكر ابن حزم التاريخى ، ومجموعة النقول التى أخذها عن ابن حزم تجعل هيمنة ابن حزم على روح الكتاب لا تقل عن هيمنه الحميدى ، تماماً مثلما يهيمن فكر ابن حيان على روح كتاب الذخيرة لابن بسام .

يقول ابن خلكان عن الحميدى : « روى عن أبى محمد على بن حزم الظاهرى ، واختص به ، وأكثر من الأخذ عنه ، وشهر بصحبته ^(١) » .

ويعترف الحميدى لأستاذه بالفضل فى نهاية تعريفه بتاريخ الأندلس الذى بلغ ستا وثلاثين صفحة من كتاب جذوة المقتبس .

فيقول : « هذا آخر ما استفدنا أكثره من شيخنا أبى محمد على بن أحمد رحمه الله ^(٢) » .

ويقول فى موضع آخر بعد أن أورد ترجمة أحمد بن محمد بن دراج القسطللى وحكاياته مع المنصور بن أبى عامر : « وأكثر ما حكينا عن هذا فعن أبى محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم ^(٣) » .

كما أن النقول عن ابن حزم تكاد تصل إلى (٢٢٠ نقلاً) بعضها فى عشر صفحات أو يزيد ، وبعضها تراجم كاملة ، مع ملاحظة أن الجذوة فى طبعته المصرية التى اعتمدنا عليها يقع فى أربع عشرة وأربعمئة صفحة من القطع المتوسط .

لقد اختص الحميدى بصحبة ابن حزم ، واشتهر بها ^(٤) ، وعندما ضيق عليه نتيجة ميوله نحو أستاذه ابن حزم ، وما أشيع عنه من القول بالظاهر ^(٥) خرج إلى

(١) وفيات الأعيان : ترجمة الحميدى .

(٢) الجذوة ٣٦ ، وانظر المقدمة ص (س) .

ويذكر غومس أن اسم ابن حزم مصاحب لكل خطوة مذكورة فى الجذوة كمصدر للمؤلف .

(انظر المكان السابق) .

(٣) الجذوة ١١٢ وانظر الضبى : البنية ٢٤٦ وانظر الحميدى : تفسير غريب ما فى الصحيحين (مخطوط) ورقة رقم ٩٥ .

(٤) انظر ابن بشكوال : الصلة : ٢ - ٥٦٠ ، والضبى : البنية ص ١٢٣

(٥) انظر ابن بشكوال : الصلة : ٢ - ٥٦٠

المشرق - حيث بدأ من هناك ينشر فكر أستاذه ، وكان جذوة المقتبس ، وكتاب آخر في تاريخ الاسلام ، ونوادر الأطباء ، والذهب المسبوك في وعظ الملوك من أهم ما ألفه في الفكر التاريخي (١) .

وفي جذوة المقتبس اختصر لنا الحميدى بعض التراث التاريخي المفقود لأستاذه ابن حزم ، مثل رسالته في أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس ورسالته في فضائح البربر ، وفهرست شيوخ ابن حزم ، وغيرها من كتب ابن حزم التي لم تصل إلينا . وقد تعددت آفاق الحميدى ، كما تعددت آفاق أستاذه ابن حزم فكتب في الأمور الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، وفي التراجم والسير ، وفنون الأدب وخاصة في الشعر ، وقد قيل إن له ديواناً (٢) .

وعلى أساس كتاب (جذوة المقتبس) الذى اعتمد فيه الحميدى على أستاذه ابن حزم اعتماداً كبيراً - ظهرت مؤلفات تاريخية تنهج نفس النهج ، وتظهر « النزعة الأندلسية » فيها أوضح ما تكون ، كما يتردد عبر صفحاتها اسم ابن حزم وراويته الحميدى عشرات المرات ...

فابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٧٨ هـ يعتمد في كتابه المعروف « الصلة » على كتاب الحميدى مادة ومنهجاً (٣) .

ويقول لنا ابن بشكوال : إن ما أورده في كتابه عن الحميدى ، أخذه من كتاب (جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس) وقد أخبره به القاضى الإمام أبو بكر محمد المعافى جملة عن أبى بكر محمد بن طرخان ، عن الحميدى وأخبره به - أيضاً - أبو الحسن عباد بن سرحان ، عن الحميدى (٤) .

وفي ترجمته للحميدى يصف كتابه « الجذوة » فيقول : « ولأبى عبد الله هذا كتاب في علماء الأندلس نقلنا منه في كتابنا ما نسبناه إليه » (٥) .

(١) انظر الجذوة (مقدمة) ر

(٢) انظر الجذوة (المقدمة) .

(٣) انظر مقدمة الصلة (س) .

(٤) انظر الصلة ١ - ٢

(٥) انظر الصلة ١ - ٥٦٠ ، ٥٦١

أما الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، وصاحب بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس - فكان أكثر اعتماداً على الحميدى ^(١) من ابن شكوال ، وقد اعترف بذلك في أكثر من مكان ، بل إنه جعل البغية ذيلًا لجدوة المقتبس .

والضبي يقول في ذلك :



ولم أجد في كتب من تقدم كتاباً أقبل من كتاب أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدى إلا أنه انتهى فيه إلى حدود سنة الخمسين وأربعمائة ، فاعتمدت على أكثر ما ذكره وزدت ما أغفله وغادره ^(٢) .

وبعد ذلك مباشرة سقط الضبي على مقدمة ابن حزم التي صدر بها رسالته في « فضائل أهل الأندلس » فنقلها ^(٣) ، ثم أكمل حديثه عن تاريخ الأندلس من رواية الحميدى في الجدوة ^(٤) ، وهي الرواية التي اعترف الحميدى بأنه اعتمد فيها على شيخه ابن حزم ^(٥) .

ولم يزد على تلك المقدمة الطويلة إلا أربع صفحات تتعلق بفترة لم يكن الحميدى قد أرخ لها ^(٦) .

والى جانب المقدمة التي تزيد على ثلاثين صفحة ، فقد سار الضبي وفق المنهج

(١) يطلق غرسيه غومس على اعتماد الضبي على سلفه الحميدى عبارة حادة هي : « اختصب الضبي مؤلف الحميدى بطريقة شائنة ، ولم يفعل أكثر من صياغة عمله بتوسع » وهذا دليل يؤكد انجهاها في هذا الوضع .

(٢) اللغية ص ١

(٣) انظر فضائل أهل الأندلس (رسالة ابن حزم) ص ٦ ، ٧ ، ٨ ، بتحقيق المنجد وانظر البعثة صفحات ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) انظر البعثة صفحات من ٤ إلى ٤٢ ، وانظر الجدوة الصفحات من ٨ إلى ٣٦

(٥) انظر الجدوة ص ٣٦

(٦) انظر البعثة صفحات ٤٢ إلى ٤٦

الذى رسمه الحميدى ولم يخرج عنه (١) . كما أنه أخذ عنه أخذاً شبه كامل . وقد تمثل ذلك فى الآتى :

١ - أعلام نقلها الضبى كما هى فى الجذوة وهى تبلغ ما يقرب من خمس وعشرين وثمانمائة ترجمة .

٢ - أعلام نقلها الضبى عن الجذوة وأجزها ، وتبلغ خمس عشرة ترجمة (٢) .

٣ - فإذا علمنا أن عدد تراجم الجذوة وهى سبع وثمانون وتسعمائة ترجمة أدركنا أن الضبى أخذ عن الحميدى معظم الجذوة !!

وأما التلميذ الثانى المباشر لابن حزم وهو القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فقد كان أقل اعترافاً بفضل أستاذه من الحميدى ومن اقتبسوا منه .

على أن كتابه « طبقات الأمم » يشهد فى منهجه ومادته بأنه متأثر تأثراً كبيراً بابن حزم .

فثمة عناصر التقاء نلمحها فى تقسيم صاعد للبشرية على أساس « اختلاف » الأمم وطبقاتها بالأشغال (٣) ، وأن هناك أمما عنيت بالعلوم كالهند والفرس والكلدانيين والعبرانيين والروم (٤) وأهل مصر والعرب . وطبقة لم تعن بالعلوم وهى بقية الأمم (٥) وابن حزم يرى أن العالم - حسب المشاهد - ينقسم إلى بلاد لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادر التى بين الحواضر (٦) وبلاد فيها علوم ، وهى ماسوى تلك الأماكن .

(١) انظر مقدمة البغية ص (س) .

(٢) انظر : البغية (مقلمة) ك .

(٣) طبقات الأمم ص ٧

(٤) يخالف صاعدا هنا ابن حزم (راجع النص التالى)

(٥) المكان السابق

(٦) رسائل ابن حزم (رسالة التوقيف على شارع النجاة) ص ٥٠

ويجعل صاعد أهل الصين أول الأمم التي لم تعن بالعلوم ، ويجعل حظهم من المعرفة مجرد « إتقان الصنائع العملية »^(١) .

وابن حزم يقول في أهل الصين : (على أن أهل الصين ليسوا أهل علوم ألبتة ، وإنما هم أهل صناعات)^(٢) .

والتشابه بين النصين لا يحتاج إلى بيان !!

ويشكو ابن حزم من أن آثار الهند والصين لم تبلغ إليه كما يريد^(٣) . ويردد الشكوى نفسها صاعدا ، ويرى أنها بسبب بُعد الهند عن بلاد الأندلس واعتراض الممالك بينهم^(٤) .

وفي الصابئة يبدو التشابه في المعلومات واضحاً .. فعمود مذهبهم عند كليهما تشبيه (البددة) - الأصنام - بأسماء الكواكب وتصاويرها - وتعظيمها^(٥) ويسمون كل صورة منها (بد)^(٦) .

ويقول صاعد في نهاية الكلام على الصابئة :

« وفي كل دور آراء كثيرة ، ومذاهب متفرقة ، على حسب ما بينا في كتابنا في مقالات أهل الملل والنحل »^(٧) - فإذا صح أن لصاعد كتاباً في هذا الموضوع ، فإن من المتوقع أن يكون فيه عالة على أستاذه ابن حزم - منهجاً ومادة ، وإذا لم يصح ذلك ، فإن العبارة تكون ناقصة ويكون تتمتها : (على حساب ما ورد في كتاب شيخنا - أي ابن حزم - في مقالات أهل الملل والنحل) !!

(١) الطبقات ص ٨

(٢) رسالة مراتب العلوم (من رسائل ابن حزم) ص ٦٩

(٣) الرسائل ص ٦٩ ، ٧٩

(٤) الطبقات ص ٨

(٥) انظر الفصل ١ - ٣٥

(٦) صاعد : الطبقات ١٥

(٧) المكان السابق

لقد قدم لنا ابن حزم نحو خمسين صفحة صدر بها موسوعته الفصل (١) استعرض فيها الأفكار الموجودة في العالم كله ، وقسمها إلى سبعة أقسام (٢) ، من حيث موقعها من « الحقائق » إبطالا وإثباتاً ، وما يترتب على موقعها هذا من تدبير العالم وحدثه .

وقد تناول ابن حزم الكلام على أهل كل قسم (٣) ، وما يتبعه من فرق كالجوسية والمزدكية والصابئة والديصانية والمزقونية ، والمنانية (٤) ، وغيرها ، ثم تكلم على الأديان الكبرى بتفصيل جدير بها .

ونحن نستبعد أن يكون صاعد في كتابه الصغير الشهير الذي تناول فيه (طبقات الأمم) لم يتعصر فكر شيخه ابن حزم صاحب « الفصل » الذي يمثل واحدة من أبرز موسوعات تاريخ الأفكار والعقائد في العالم .

وقد امتد تأثير فكر ابن حزم التاريخي عبر عديد من المؤرخين ، الذين لم يكتفوا - في نقولهم عنه - بنقل ما أورده من حقائق قد تكون عند غيره ، وإنما عملوا إلى

نقل آرائه الخاصة ، مثل ابن كثير ، الذي ينقل عنه في السيرة النبوية ، سواء في كتابه « البداية والنهاية » ، أو في الفصول ، والمقرئ الذي أكثر الاقتباس من سيرة ابن حزم إكثاراً أرى على غيره ، حتى لقد ورد في الجزء المطبوع من إمتاع الأسماع خمسة عشر نقلاً عن سيرة ابن حزم (٥) .

وقد نقل عنه - أيضاً - آراءه الخاصة ابن عذارى المراكشي (٦) ، وابن الأبار (٧) ، وغيرهما كثير (٨) .

(١) انظر الجزء الأول من ١ إلى ٤٨

(٢) انظر الفصل ١ - ٣

(٣) انظر الفصل ١ - ٨ ، ٩ ، ٢٤ وغيرها

(٤) انظر الفصل ١ - ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ وغيرها .

(٥) انظر الجزء الأول من إمتاع الأسماع صفحات ٦ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ١٠٧ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ ،

٢٥٧ ، ٢٧٦ ، ٣١٠ ، ٤١٧ ، ٥١١ ، ٥٣٩ ، وانظر د - إحسان عباس مقدمة جوامع السيرة ص ٧ ، ٩

(٦) انظر اليان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢ - ١٥ ، ٣٩ ، ٤٠ وغيرها .

(٧) انظر الحلة السراء ١ - ١٢٦ ، ٢ - ٨ وغيرها .

(٨) انظر د - إحسان عباس مقدمة الجوامع ص ١٨ ، ٩

ومن أبرز من أثر فيهم ابن حزم - وعرضنا لذلك من قبل - المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون . ونحن نوجز تأثير ابن حزم في ابن خلدون في النقاط التالية :

١ - في تبني النقد التاريخي الذي يبطل منهج الرد والنقل دون تحليل ودراسة . ويعتمد على العقل ، ورفض الأسطورة ، ويستعين بالظروف التاريخية والجغرافية وعلى الإحصاء والعدد في توثيق النص^(١) .

٢ - في الأنساب ، وبخاصة أنساب البربر ، بل إن نسب ابن خلدون نفسه - كما ذكرنا - قد اعتمد فيه على ابن حزم^(٢) .

وفي القسم الخاص لتأريخ ابن خلدون للبربر ، وهو القسم الذي يعتبره المؤرخون أقوى أقسام تأريخه أصالة وتحقيقاً وتجديداً وطرافة^(٣) ، تتكرر اقتباسات ابن خلدون عن ابن حزم ، وشهاداته له ، مما ألمعنا إليه سابقاً بحيث يبدو لنا أن ابن حزم من أهم مصادره المقرّوة^(٤) .

٣ - يعترف ابن خلدون بفضل أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) - صاحب سراج الملوك - عليه في مقدمته ، ويعتبر كتابه المذكور من الكتب التي سبقته إلى موضوعه . ومن المرجح عندنا - أن الطرطوشي - وإن كنا قد نفينا رواية المقرئ عن تعلمه المباشر على ابن حزم ، وذلك لحداثة سنه - قد تأثر بتفكير ابن حزم ، الذي كان فيلسوف العصر . وكان الطرطوشي جسراً من الجسور التي عبر عليها فكر ابن حزم النقدي والحضاري إلى ابن خلدون - ويؤكد هذا التأثير غير المباشر صراحة المؤرخ المعاصر محمد عبد الله عنان^(٥) والمستشرق « بلانثيا »^(٦) وغيرهما^(٧) .

(١) انظر ما كتبناه في الصفحات السابقة عن النقد التاريخي في منهج ابن حزم

(٢) انظر الجمهرة ٤٦٠

(٣) انظر د - علي عبد الواحد واى : عبقريات ابن خلدون ١١٠

(٤) انظر تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء السادس صفحات ٦ ، ٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، (وقد اعتبره في هذا أمام الموضوع إمام التابعين والعلماء) (١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ٢٠٣ وغيرها) وانظر المقدمة طبعة دار صادر بيروت ١ - ٤٦٧ ، ٨٠١ .

(٥) انظر دول الطوائف ٢٩٤ .

(٦) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ١٧٣

(٧) انظر د - عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٣٥٠ نشر دار القلم الكويت ط ١

٤ - وقد تأثر ابن خلدون بابن حزم في عدة قضايا أساسية من قضايا الفكر التاريخي التي حسب الفضل فيها لابن خلدون ، مع أن ابن حزم سبقه إليها وأفاض في نقدها في أكثر من مكان من كتبه .

وقد أعطاها حقها من النقد المفصل ، وفق أصول علمية ، بحيث لا يعقل أن يكون ابن خلدون لم يتأثر فيها به . وهذه القضايا هي :

(أ) رفض ابن حزم لتأثير النجوم والكواكب في العالم ، بل إنه جعل الاشتغال بأحكام النجوم عملاً لا معنى له^(١) ، ولا يدخل فيه من له مسكة عقل لأنه يتعاطى ما ليس في قوته الوفاء به فهو في دهره في كذب متصل ومواعيد مختلفة وخدائع متصلة^(٢)

وقد عقد ابن حزم فصلاً كاملاً بسط فيه القول في « الكلام في قضايا النجوم وهل يعقل الفلك والنجوم أم لا^(٣) » .

(ب) رفضهما معاً لفكرة المهدي المنتظر وتضعيفهما للأحاديث الواردة في ذلك^(٤) .

(جـ) ومن الظواهر التي رفضها ابن حزم ، وفندها وقال بها ابن خلدون أيضاً وحسبت له ، رفضه لظاهرة « السحر وإنكاره ثمرة الكيمياء » . ويقول ابن حزم في ذلك :

« اعلموا رحمكم الله أن من رأيتموه يدعى علم الطلسمان (السحر) فإنه كذاب ومشعوذ وقاح ، ومن وجدتموه يتعاطى علم الكيمياء فإنه قد أضاف إلى هذه الصفات الذميمة التي ذكرنا استكمال أموال الناس ... وأما هذا العلم الذي يدعونه

(١) انظر رسائل ابن حزم ص ٦٨ (مراتب العلوم) ٤٥ (رسالة التوقيف)

(٢) المصدر السابق ٧٦ وانظر د . عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ٧٠٦

(٣) انظر الفصل ج ٥ الصفحات من ٣٦ إلى ٤٠

(٤) انظر ابن حزم : الفصل ٤ - ١٧٩ ، ١٨٠ ود . علي عبد الواحد وإلى عبقريات ابن خلدون ص ١٣٢

من قلب جوهر الفلزات فلم يزل عدما غير موجود ، وباطلا لم يتحقق ساعة إذ من المحال قلب نوع إلى نوع^(١) .

وقد عقد ابن حزم فصلا في أكثر من عشر صفحات بين فيه أضرب السحر ما هو من قبل الكواكب ، وما هو بالرق ، ورد على كل ضرب من ضروبه بالعقل والمشاهدة والتجربة^(٢) .

(د) من الآراء التي قال بها ابن حزم ، واشتهرت عن ابن خلدون ... ما ذهب إليه ابن حزم من أن (سكان البوادي) يبرأون من عللهم بلا طبيب ، وأن علم الطب بالتالى ليس صناعة عامة ، لأننا رأينا أهل البادية هؤلاء تصح أجسامهم بلا معالجة ، ويبلغون من الأعمار كالذى يبلغه أهل التداوى فى القصر والطول ، وفيهم من يرتاض ومن يخدم ولا يرتاض^(٣) . بل إننا نرى بالمشاهدة - أيضاً - أن من أهل البادية هؤلاء من يكون أحسن أجساماً وأطول أعماراً من أهل الحضر^(٤) .

وهذه الأفكار وغيرها من الأفكار المتناثرة فى تراث ابن حزم والتي اشتهر بها ابن خلدون ، فضلا عن تأثر ابن خلدون الواضح فى بابى « النقد التاريخى » و « الأنساب » ، تجعلنا نرى فى تراث ابن حزم الموسوعى ، سواء فى الفصل ، أو الجمهرة أو الرسائل المختلفة ، التمهيد القوى ، والغذاء الدسم ، الذى اعتمد عليه ابن خلدون .

والفرق بين الرجلين فى الميول والفكر هو الذى حال دون أن يعترف آخرهما لأولهما بالفضل ، فابن حزم عرئ يميل إلى العروبة ، وينقم على البربر ، وابن خلدون يميل إلى البربر ... على الرغم من كل الذين تأولوا كلامه فى العرب^(٥) . كما أن ابن حزم ظاهرى عنيف على المالكية ، وابن خلدون مالكى متعصب ، يتولى مناصب المذهب المالكى ، ويعيب على ابن حزم ظاهريته ، وأسلوبه ، قائلا :

(١) انظر رسائل ابن حزم ص ٦٠

(٢) انظر الفصل: الجزء الخامس الصفحات من ٢ إلى ١٢

(٣) انظر رسائل ابن حزم ٤٦ (رسالة التوقيف على شارع النجاة) .

(٤) انظر المصدر السابق ٨٨

(٥) انظر محمد عبد الفتى حسن : علم التاريخ عند العرب ٢٥٨

« إن الناس قد أوسعوا مذهبه - أى الظاهري - استهجاناً واستنكاراً وتلقوا كتبه
بالاغفال والتَّرك ، حتى إنها يحظر بيعها في الأسواق ، وربما تمزق في بعض
الأحيان (١) » .

وقد قدم لنا ابن خلدون بهذا - السبب الرئيسي الكبير في أنه - بناء على كثير
من القرائن والمشابهات ، قد أفاد في منهجه وفكره من ابن حزم ، إلا أنه قد أبى
سامحه الله - أن يعترف له بالفضل والسبق .



(١) المقدمة ٣٧٣ طبعة بولاق .

الفصل الثالث



اتجاهات البحث التاريخي عند ابن حزم

توطئة :



تعددت أشكال البحث التاريخي عند ابن حزم كما تعددت مجالاته وعصوره . وفيما يبدو فإن التاريخ الإسلامي - بمعناه الكلي - الذي يتنظم كل نشاط إنساني مؤثر في حركة التاريخ كان مناط بحث دائم ومستمر وبصورة مختلفة ، في فكر ابن حزم .

ومن هنا استطاع ابن حزم أن يقدم لنا هذا التاريخ في طرق مختلفة ، فتارة يلتزم الطريقة الموضوعية ، وتارة يقدم التاريخ الحضاري كنشاط هام ، وتارة يقدم لنا أفراد هذا التاريخ في شكل تراجم وطبقات وأنساب .. وتارة يقدم لنا نفسه كنموذج لعصره ومجتمعه فيما يعرف باسم « السيرة الذاتية » وتارة يستغل « الشعر » كشكل من أشكال التعبير التاريخي !!

ولم يقدم لنا ابن حزم التاريخ في الإطار التقليدي الذي عرف « بالتاريخ الحولي » أو « التاريخ بالسنين » - لأن هذا الإطار أقل من غيره من صور التعبير التاريخي في إمكان إبراز ذاتية المؤرخ وتقديم رأيه ، واستخلاص العبرة الكلية من الأحداث المتشاكلة والمتشابهة .. إذ يبدو التاريخ في هذا الإطار رقعا ممزقا غير مترابطة وغير متحركة .. وهذا ما يرفضه ابن حزم الذي أولع بتقديم التاريخ بمعناه الكلي ، وبصورة متكاملة تجمع التشابهات بعضها إلى بعض مهما تناءت في الزمان والمكان ..

أولاً : التراجم والطبقات :



يعتبر العرب من أقدم الأمم وأكثرها عناية بالتراجم ، وكما نشأ التاريخ الإسلامى فى حوض علم الحديث ، كذلك نشأ هذا الفرع فى حوض علم الجرح والتعديل الذى هو خادم لعلم الحديث ، ويبدو أنه أقدم تقسيم زمنى وجد فى التفكير التاريخى الإسلامى^(١) .

وقبل ابن النديم - الذى عاش إلى أوائل القرن الرابع الهجرى فيما نرجح - والذى يعتبر صاحب أشهر محاولة مستقلة فى فن التراجم^(٢) وفى « البليو جرافيا » العربية - كان فن التراجم - فى أغلبه - مقصوراً على خدمة علوم الدين ، متأثراً بمنهج الحديث فى الإسناد ، وإن لم يمنع هذا ظهور بعض التراجم الأخرى كتراجم ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ - لطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام فى كتابه المشهور « طبقات الشعراء »^(٣) .

ونتيجة لطبيعة نشأة التراجم ، فإن أكثر كتب التراجم التى ظهرت إلى القرن الخامس كانت تتناول « المحدثين » و « الفقهاء » .. والصحابة والتابعين كالتاريخ الكبير - لطبقات الصحابة - الذى صنفه الإمام البخارى وكطبقات ابن سعد^(٤) .

فلما جاء القرن الخامس الهجرى كتب يوسف بن عبد البر - صديق ابن حزم - معجمه التاريخى الكبير للصحابة ورواة الحديث أسماء الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ورتب فيه الصحابة ترتيباً أبجدياً على طريقة أهل المغرب ، وقد اشتمل كتابه على ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة^(٥) .

(١) انظر روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ١٣٣ .

(٢) انظر د - مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب ٥٤٣ .

(٣) انظر محمد عبد الفتى حسى : التراجم والسور ص ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٥) للكان السابق .

كان ابن حزم من جيل ابن عبد البر - كما ذكرنا - لكنه كان أكثر منه دراية بالحديث واللغة .

وقد استطاع أن يقدم لنا في ثنايا كتبه المختلفة ، وفي دراسات قائمة بذاتها - مجموعة كبيرة من التراجم .. لم تكن هي المقصودة لذاتها وإنما كان المقصود تقديم اتجاهها ومكانها من الثقة والتجريح ، وما يتصل بها من آراء وأحاديث ومعارف مختلفة .

والسمة الغالبة على تراجم ابن حزم أنها أقرب إلى الطبقات ، التي هي نوع من أنواع التراجم .

ويعترف السخاوي لابن حزم بأنه من المبرزين في التراجم^(١) ، ويضمه إلى صديقه ابن عبد البر ، كما أنه يعتبره من الطبقة الوسطى ، التي لم تتعنت تعنتاً كبيراً فتجرح الراوى من أجل الغلطة أو الغلطتين ، لكنها ليست من الطبقة المعتدلة ، كأحمد ، والدارقطني ، وابن عدى^(٢) .

وقد استمد ابن حزم مصادره للترجمة من شيوخه وسماعه ، وقراءاته في كتب الحديث والتاريخ . ورواته الذين حدث عنهم ، ومشاهداته ، وغيرها من المصادر التي ذكرناها عند حديثنا عن ثقافته .

ونستطيع أن نقول إن أول معالم منهج ابن حزم في تناول هذه التراجم أنه لا ينقاد للرجال بقدر ما ينقاد لمنهج البحث ، وكان قدوته في ذلك منهجه العام في رفض التقليد والاجتهاد ، فكان يحكم على الرجال بالأقوال ولا يحكم على الأقوال بالرجال ، وهو منهج أحمد بن حنبل القائل : « لا تقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغفلوا » ومنهج ابن مسعود القائل : « ألا لا يقلدن أحدكم دينه الرجال إن آمنوا آمن وإن كفروا كفروا^(٣) » .

(١) انظر الإعلان بالتبويب ص ٣٤٨ .

(٢) المرجع السابق ٣٥٤ .

(٣) انظر عبد العزيز عبد الله الراجحي : التقليد وما يتعلق به من أحكام المفتى ، رسالة ماجستير لمعهد القضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٥٣ ، ٥٤ .

ولهذا فلم يسلم من تجريح ابن حزم كل من استحق ذلك وفق أصول منهجه ،
 مهما كانت مكانته ، وكانت الألفاظ التي يطلقها على هؤلاء المجرحين تدور في هذه
 المصطلحات : « ليس بمشهور ، ضعيف ، لا يدري من هو ، في غاية الضعف ،
 مجهول ، مذكور بالكذب ، ساقط متروك ليس بالقوى ، هالك ، ضعيف جداً
 وساقط ، ساقط ألبتة ، مدلس ، ليس بشيء ، متفق على ضعفه ، سيء الحفظ ،
 غير ثقة ، كذاب .. » .

وهي كلها مصطلحات دائرة مع أكثر صفحات موسوعة المحلى ، ولا تحتاج إلى
 دليل .

ومن المجرحين من الرجال عند ابن حزم : الحجاج بن أرطاة ، وشريك بن عبد
 الله ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، وعبد الملك بن حبيب الأندلسي ، وعبد الله ابن
 سمعان ، وعبد الله بن لهيعة ، ومحمد بن أبي ليلى ، وجابر الجعفي واسماعيل بن عياش ،
 واسرائيل بن يونس . وغيرهم .

أما أكثر أصحاب الآراء في المحلى فهم على الترتيب :

١ - عمر بن الخطاب وله	٦٢٣	رأياً .
٢ - عطية - - - - - وله	٦٠٢	رأياً .
٣ - الحسن البصري وله	٥٩٥	رأياً .
٤ - ابراهيم النخعي وله	٥٦٠	رأياً .
٥ - أبو سليمان وله	٥٤٠	رأياً .
٦ - عبد الله بن عمر وله	٥٠٨	آراء .
٧ - عبد الله بن عباس وله	٥٠٠	رأى .
٨ - علي بن أبي طالب وله	٤٧١	رأياً .
٩ - سفيان الثوري وله	٤٠٥	آراء .
١٠ - الشعبي وله	٣٦٥	رأياً .

ثم تتابع المرويات عن بقية ٥٤٦ عالماً ، اجتمعت لهم في المحلى ١٢٩٠٣ آراء

منهم من صحح له ابن حزم ثلاثة آراء ، ورأين ، ومنهم من لم يصحح لهم إلا رأياً واحداً فقط^(١) .

وقد ضم المحلى أنواعاً من الآراء انتظمت هؤلاء على طبقاتهم المتباينة فهناك طائفة صالحة من الآراء والفتاوى مبثوثة في جميع المجلدات ، تكون ما يمكن أن نسميه « فقه آل البيت » ، من أمثال فاطمة ، وعلى والحسن والحسين والعباس وغيرهم ، وهناك « فقه الصحابة » - وهو قسم كبير مبثوث في الكتاب ، وفقه التابعين ، وتابعى التابعين ، وفقه الأئمة المنقرضة مذاهبهم كالليث بن سعد ، والأوزاعي ، والحسن البصري وغيرهم^(٢) - وفقه الأئمة الأربعة - وفقه المرأة صحابية أو تابعية^(٣) .

وقد قدم ابن حزم تصنيفاً - في رسالة قائمة بذاتها - « لأصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا إلى عصره وقسمهم أقساماً ثلاثة : المكثرون ، وهم سبعة : عائشة ، وعمر ، وابنه عبد الله ، وعلى ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، والمتوسطون وهم ثلاثة عشر والمقلون وهم ١٤٢ ... ومن بين هذا العدد عشرون امرأة اعتمدن ابن حزم في جملة المفتين^(٤) .

وقد أورد ابن حزم أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم في الأمصار كمكة ، والمدينة والبصرة ، والكوفة ، وأهل الشام ، وأهل مصر ، وغيرها^(٥) .

كما قدم لنا في رسالة قائمة بذاتها تصنيفاً طبقياً - بالمعنى الزمني والمعنى المكاني - للفقهاء المفتين فقد قدم لنا تصنيفاً طبقياً - في رسالة قائمة بذاتها - لأسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من عدد الأحاديث المروية عنه .

وفي قمة هذه الطبقة يأتي أبو هريرة - صاحب الألف - وحده إذ روى عنه خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعون حديثاً ، ويأتي بعده أصحاب الألفين عبد الله ابن عمر ، ومالك بن أنس ، وأصحاب الألف عبد الله بن عباس وغيره ، وأصحاب

(١) أخذنا هذا الإحصاء عن الدراسة القيمة التي قام بها الأستاذ محمد رواس قلعي في أربع سنوات - وقدم خلاصتها في مقال : ابن حزم في المحلى : كتاب في أرقام - (مجلة حضارة الإسلام دمشق عدد ٥ ، ٦ السنة السابعة رجب وشعبان ١٣٨٦ هـ وقد اختبرنا الإحصاء فوجدناه سليماً على وجه العموم) .

(٢) انظر محمد ابراهيم الكتاني : معجم فقه ابن حزم (مقدمة) ص ٣٨ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) انظر رسالة أصحاب الفتيا (الرسالة الثالثة في جوامع السيرة ص ٣١٩ ، وانظر ص ٣٢٣ وانظر الإحكام في أصول الأحكام ٥ - ٦٦٣ وما بعدها) .

(٥) انظر المصدر السابق ص ٣٢٤ وما بعدها . وانظر ص ٣١٩ .

المعين كعبد الله بن مسعود وغيره ، وأصحاب المائتين وشيء ، وأصحاب المائة
وشيء ، وأصحاب العشرات وشيء ، وأصحاب العشرين ، وهلم جرا (١) .

وقد قدم لنا ابن حزم تراجم وطبقات من نوع آخر ، حين سرد علينا تراجم
وجيزة ، يبين فيها فضائل علماء الأندلس من طبقة المفسرين والمحدثين (٢)
واللغويين (٣) ، والمؤرخين (٤) ، والأطباء ، والفلاسفة (٥) في الأندلس .

وإن كل هذه الجهود لتدلنا على أن ابن حزم قد قدم جهداً كبيراً في باب التراجم
والطبقات ، الذى هو فرع من فروع البحث التاريخي .

ثانيا : الأنساب :



عرف ابن حزم بالأنساب . وقد ذهب كثير من المؤرخين ، ومنهم ابن خلدون -
إلى أن ابن حزم لإمام النسابين والمحققين .

والنسب عند المؤرخين باب أساسى من أبواب التاريخ الإسلامى ، وهو عند ابن
حزم - كما ذكرنا - جزء من علم الخبر أى التاريخ .

ويتصل باب النسب اتصالاً وثيقاً بباب التراجم ، فإن من عادة مؤلفى التراجم
عندما يذكرون ترجمة رجل عربى أن يأتوا على ذكر نسبه ، بيد أن مؤلفى التراجم
في الأندلس حرصوا - بالإضافة إلى ذلك - على ذكر اسم الجد الأول الذى جاء
إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادة إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن
نصير (٦) ...

وقد حافظ عرب الأندلس على تقسيمهم القبلى حتى جاء المنصور بن أبى
عامر (٧) .

(١) انظر رسالة أسماء الصحابة الرواة (من الرسائل الملحقة بمجموع السيرة) ص ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) فضائل الأندلس وأهلها بتحقيق الدكتور المنجد (رسالة ابن حزم) ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٣) انظر للمصدر السابق ص ١٥ .

(٤) انظر للمصدر السابق ص ١٧ .

(٥) انظر للمصدر السابق ص ١٨ .

(٦) انظر د - جودت الركابى : في الأدب الأندلسى الطبعة الثانية ص ٣٦ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

(٧) للمكان السابق .

وللنسب دور هام في الحياة الإسلامية والعربية ، فهو الجامعة التي يرجع إليها في التناصر والتوارث والتزاوج ، وهي وشائج أساسية في الحياة ، كما أن ابن حزم قد أضاف إلى ذلك شيئاً متصلاً بالأندلس ، حين عقد الصلة في دقة والتزام بين القبائل العربية النازحة إلى الأندلس والمغرب ، وبين أجدامها وأصولها المشرقية التي انحدرت منها وانسابت متشعبة في بلادها الجديدة (١) .

أما بقية فوائد علم النسب وضروراته .. فيوضحها لنا ابن حزم في إطار تاريخي فقهي .

فمن معرفة النسب ما هو (فرض عين) .. كمعرفة نسب النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. ومعرفة أن الخلافة لا تجوز إلا في قریش ، ومعرفة الأبوين ، ومن يتصل به رحماً يوجب الميراث أو النفقة (٢) .. ومنه ما هو (فرض كفاية) كمعرفة أمهات المؤمنين ونسب الأنصار (٣) .

ولابن حزم في دراسة الأنساب منهج منفرد ، تغلب فيه النزعة التاريخية وتمتزع امتزاجاً كاملاً بالأنساب بحيث يبدو لنا النسب علماً غير جاف ، وبحيث يبدو لنا أننا أمام عمل تاريخي يتكئ على النسب في تقديم مادته .

إن كلام ابن حزم عن بني العباس ، وهو يستغرق عشرين صفحة من الكتاب (٤) - هو تاريخ علم وحضارة ، واستقصاء لم يعهد في كتب الأنساب ، وعلى سبيل المقارنة فإن ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ قد أورد نسب العباسيين في صفحتين (٥) .

ولكن قيل إن نهج ياقوت كان الإيجاز والاقتضاب .. فإن أبا العباس القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ سرد تاريخ العباسيين في تاريخ أنسابه على أنهم بطن من بني عبد المطلب .. فذكر أولاد العباس التسعة ، وأشار إلى الخليفة الموجود في عهده منهم ، وهو المستعين بالله المتوفى سنة ٨١٥ هـ (الموجود بالقاهرة) - أي بعد ابن حزم

(١) انظر عبد السلام هارون (مقدمة تحقيق الجوهرة) ص ١٢ .

(٢) انظر الجوهرة ص ٢ .

(٣) انظر الجوهرة ص ٣ .

(٤) الصفحات من ١٨ إلى ٣٧ .

(٥) المقتضب من جوهرة النسب ص ١٤ من منشورات مجمع البحوث العلمية باكستان سنة ١٩٧٢ م .

بنحو أربعة قرون - ومع ذلك لا يزيد بحثه في نسب العباسيين على صفحة من القطع المتوسط^(١) . ولم يخرج في شيء عما أورده ابن حزم ، إلا أنه ذكر أن أم الفضل وعبد الله وقثم أبناء العباس من لبابة بنت الحارث من بني هلال بن عامر ابن صعصعة^(٢) ، فلربما استفاد القلقشندي من مصادر أخرى غير ابن حزم .

والمقارنة نفسها مع كتاب قلائد الجمان للقلقشندي ، الذي أورد فيه أنساب العباسيين في نصف صفحة^(٣) - تدلنا كذلك على مدى استطرادات ابن حزم التاريخية .

أما معاصر ابن حزم وصديقه ابن عبد البر ، فلم يذكر بنى العباس على أنهم فخذ مستقل ، وإنما أدمجهم في بنى هاشم بما لا يستحق أن يذكر^(٤) .

ومن باب أولى فإن ابن عبد البر لم يذكر شيئاً عن بنى العباس في « القصد والأمم » لأن منهجه فيه ذكر العرب بجانب الترك وغيرهم .

وقد ذكر نسب بنى العباس في نصف عمود فقط رضا كحالة في معجم قبائل العرب^(٥) الذي يعتبر من أوفى المراجع في الأنساب ، وقد قسم آل عباس إلى بطنين ، وقسم البطنين إلى فخذين معتمداً في ذلك على القلقشندي والنويري وابن حزم .

وبالمقارنة أيضاً مع المنتخب « في الأنساب » للمغري نجد أنه ذكر نسب العباسيين في خمسة أسطر ، وهو قد اعتمد كما ذكر المحقق على ابن حزم وابن جرير وابن سعيد والبيهقي وابن الجوزي ، وغيرهم^(٦) .

(١) انظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ١٤٣ ، وانظر ابن حزم الجمهرة ص ١٨ .

(٢) انظر القلقشندي نهاية الأرب ١٤٣ .

(٣) انظر ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٤) انظر الأنباء - حاشية القصد والأمم ص ٦٩ نشر مكتبة المقدس مطبعة السعادة ١٣٥٠ هـ .

(٥) راجع ج ٢ ص ٧٢١ طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ م .

(٦) انظر للمغري : المنتخب ص ٢٢٧ ، ص ٢٣٨ طبع المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق الطبعة الثانية

١٩٦٥ م .

ولعل أكثر من يقترب وفاء بنسبهم من ابن حزم نسابان أولهما الزبير بن بكار في كتابه « جمهرة نسب قريش وأخبارها » لتركيزه عليهم ، ولإقتراب منهجه من منهج ابن حزم^(١) وثانيهما السويدي في كتابه الذي انتهى من تأليفه سنة ١٢٠٩ هـ (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) ، فقد ذكرهم في سبع صفحات^(٢) - وهما مثالان نضربهما للدلالة على أن المنهج الذي تناول به ابن حزم الأنساب منهج يربط الأنساب بالمعلومات التاريخية ، ولا يصنفها على أساس جدولى جاف .

فنحن نستطيع أن نستخرج من الجمهرة فصولا تاريخية كاملة في السيرة النبوية ، وتاريخ العباسيين ، وبنى على ، وبنى أمية ، وفي تاريخ المرأة العربية ، وفي أخبار البربر^(٣) ، والفرس^(٤) ، وبنى إسرائيل^(٥) . وهى فصول لها أهمية تاريخية جيدة ، لأن ابن حزم اعتمد فيها على مكاتبات أهلها ، والمهتمين بها ، وروايات مؤرخين ينتمون إلى هذه البيوت ، كما أنه اعتمد على مصادر كثيرة لم تصل إلينا^(٦) .

ولإى جانب هذه النزعة التاريخية فى تناول ابن حزم للأنساب ثمة نزعة أخرى متصلة بها ، وهى حرص ابن حزم على الإشارة للجوانب الحضارية المتصلة بأصحاب النسب .

فهناك إشارات كثيرة إلى المذاهب والأعمال ونوع الثقافة^(٧) والكتب المؤلفة^(٨) ، وتاريخ وفاة المتحدث عنهم بدقة ، ونوع قتلهم إن كانوا قد قتلوا ،

(١) انظر المعرى : المنتخب ص ٤ (مقدمة) طبع للكتب الإسلامى دمشق الطبعة الثانية ١٩٦٥ م

(٢) انظر صفحات ٨٤ - إلى - ٩١ طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٣) انظر ص ٤٩٥ .

(٤) انظر ص ٥١١ .

(٥) انظر ص ٥٠٣ .

(٦) لا ينقص من هذه الخاصة التاريخية لى أنساب ابن حزم أن الزبير بن بكار صاحب جمهرة نسب قريش وأخبارها قد أخذ بهذا الأسلوب . فكتاب ابن بكار كما هو واضح من عنوانه كتاب أخبار وأنساب معا .

(٧) انظر مثلا صفحات : ٢٦ ، ٦٣ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ٢٥٨ وغيرها .

(٨) انظر صفحات : ٣٢ ، ٣٣ ، ٨٨ ، ٢٢ ، ٣٩٨ وغيرها .

والنوادير المتصلة ببعضهم ، والشعر المروى عنهم أو فيهم^(١) والولايات التي ولوها ، والقضاء الذي أسند إلى بعضهم^(٢) ، والفرق التي انتموا إليها ، وعدد زوجاتهم ، أو أزواجهن ، والأمثال التي ارتبطت بهم^(٣) ، ومظاهر كثيرة من البيعة العربية سواء في الاعتقادات ، أو الأيام الكبرى^(٤) أو غير ذلك مما يكون مادة حضارية خصبة .

ويدخل في هذه الخاصة أيضاً تلك المجموعة من المعارف العامة التي التزم فيها ابن حزم بأسلوب الجزم والقطع ، فعبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر أول قاض حنفى للبصرة^(٥) ، وعدى بن فضلة ، أول من ورث بحكم الاسلام^(٦) ومحمد بن حاطب بن الحارث هو أول من سمي محمداً في الاسلام^(٧) وهكذا .

كما يمدنا الكتاب بأخبار عن الحركات والفرق المختلفة ، كحركة الزنج^(٨) والقرامطة^(٩) ، والشيعية^(١٠) ، والزنادقة^(١١) ، وتفنيدها لدعاواهم التي اعتمدوا فيها على النسب ولاسيما العبيديون الذين رفض ابن حزم انتماءهم لفاطمة ، وهو الأمر الذي أخطأ فيه ابن خلدون خطأته المشهورة^(١٢) .

وإلى جانب ذلك نجد فيه تركيزاً على أخبار الأندلس ، وبيوتاتها^(١٣) . وحكامها ، وأنساب القبائل العربية فيها ، وخلفائها ومآثرهم^(١٤) ، كما نجد فيه

(١) انظر المغيرة : المنتخب ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ وغيرها . طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٢) انظر مثلاً صفحات : ٧١ ، ٧٥ ، ١١٤ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ٢٨٤ ، ٣٧٠ وغيرها .

(٣) انظر مثلاً صفحات : ٨٨ ، ١٥٦ ، ١٩٨ وغيرها .

(٤) انظر مثلاً صفحات : ٧٨ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ٣٣٥ وغيرها .

(٥) انظر ص ١٤٦ .

(٦) انظر ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٧) انظر ص ١٦٢ .

(٨) انظر ص ٥٧ ، ٥٨ وغيرها .

(٩) انظر ص ٥٥ ، ٦٠ .

(١٠) انظر ص ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ .

(١١) انظر ص ٧١ .

(١٢) انظر المقدمة ص ١٧ طبعة بولاق .

(١٣) انظر الجوهرة فصل (وهذه بيوتات البربر بالأندلس) ص ٤٩٨ .

(١٤) انظر - مثلاً - ص ٥٠ ، ٥١ وغيرها .

تعريفاً بعدد كبير من البلدان والأماكن (١) المرتبطة بالذين يؤرخ ابن حزم لهم .
وهذه المعارف الكثيرة المبنوثة المضافة إلى أصحابها تمدنا بقدر كبير من التراجم
الوجيزة التي ت تضم إلى جهود ابن حزم في باب التراجم والطبقات .
لقد اعتاد أكثر النسابة ذكر الأصول والفروع الكبرى فقط ، على أساس أن ذلك
من شأن كتب التاريخ العام . لكن ابن حزم كان يلجأ إلى التفريع ، ويذكر الفروع
بالتفصيل ، ويورد الأمهات ، ويبين هل هن حرائر ، أم أمهات أولاد ، بل إنه كان
مغرمًا بتتبع سيرة هؤلاء الأمهات ويان عدد الأزواج الذين تتابعوا عليهن (٢) ...
ففى أنساب ابن حزم من التفصيلات الدقيقة لحياة المرأة العربية ، والأبناء ،
والأحفاد ، وأنسابهم مالا نكاد نجده عند غيره .

- ومن محاسن منهج ابن حزم تحديده للمصطلحات وفق استعماله لها ، فالبيت
يقصد به الشرف والعدد يقصد به الكثرة (٣) ، وهكذا .

ومع استيعابه ، فعندما كانت المعلومات لا تتوافر لديه كان يذكر ذلك ، كما ذكر
عقب إيراده لنسب على بن محمد القرشي العباسي (٤) وكما عقب على ذكره نسب
القاضي المحدث المدنى المالكي قوله : لا أعرف من نسبه أكثر مما وجدت بخط الحكم
المستنصر : أبو مروان بن ظفر ، هكذا وجدت الاسم الأخير ولم أفهمه ولا وجدت
في شيء مما رويت وطالعت زيادة على ذلك (٥) .

(١) انظر الجوهرة ص ٤٧٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٢٢ ، ٣٢١ وغيرها .

(٢) انظر مثلاً : تفرعه لأولاد على بن عبد الله بن العباس ص ١٢ ، وتفرعه الأمويين والعباسيين وغيرهم ، وأبناء
على بن أبي طالب (من ص ٣٧ الى ٣٨) وانظر تتبعه لزيجات الزعوم بنت أبياس التي تتابع عليها خمسة (ص ٣٢٤)
وانظر تتبعه لزيجات « أم خارجة » التي تتابع عليها ثمانية (ص ٣٨٩ ، ٣٩٠) وانظر في اهتمامه بالأمهات ص ١٤ ،
١٥ وغيرها كثير وانظر رسالة في الأمهات بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٣٤ رمضان
١٣٧٨ هـ .

(٣) انظر الجوهرة ص ١٢ .

(٤) انظر ص ٣٤ .

(٥) انظر ص ٨٨ .

وكان يركز على المشهورين^(١) . وهو يبين ذلك في مقدمته ويقول : « فجمعنا في كتابنا هذا تواشج أرحام قبائل العرب ، وتفرع بعضها من بعض ، وذكرنا من أعيان كل قبيلة مقداراً يكون من وقف عليه خارجاً من الجهل بالأنساب ومشرفاً على جمهورتها^(٢) وهو إلى ذلك - لم يتعرض لما لا يقين فيه^(٣) ولا إلى من انقرض نسله من ولادات أوائل القبائل العربية وأوساطها ، لأنه لا معنى لذكره^(٤) .

وقد عمد ابن حزم إلى تلخيص هذا النسب^(٥) ، لإحساسه بصعوبة السير في أوديته المتشعبة ، كما ذيل الكتاب بالكلام على مفاخرة عدنان وقحطان^(٦) والكلام على ديانات العرب^(٧) ، وقدم وثيقة في أنساب البربر وهي التي يظن أنها الأصل الأصيل لكل ما عرف علماء النسب من العرب عن أنساب البربر ، وهي المرجع الذي اعتمد عليه ابن خلدون في تاريخه^(٨) . وميزات أخرى تتجلى بعد ذلك في ذكره لنسب بنى اسرائيل ، أفادته فيه خبرته الواسعة بالثورة^(٩) وذكره لأنساب ملوك الفرس^(١٠) ، وبذلك جعل ابن حزم من دراسته للأنساب وثيقة جامعة لأنساب العرب ومن لاذ بالعرب واتصل بهم في هذه الفترة الأصيلة من دنياهم ، هذا مع الإيجاز الكامل وحذف الفضول ، والاستيعاب ، والتحقيق الدقيق .

ومع ذلك فباب الأنساب ليس بالأمر الهين ، ولا هو بالصعب ، ولكنه أصعب من الصعب^(١١) - ولذا - فإن ابن حزم لم يسلم من بعض الهفوات التي أخذت

(١) انظر الجهرة ص ٣٦ .

(٢) انظر ص ٦ .

(٣) انظر ص ٧ .

(٤) انظر ص ٩ .

(٥) انظر الصفحات من ٤٦٣ الى ٤٨٧ .

(٦) انظر الصفحات من ٤٨٧ الى ٤٩٠ .

(٧) انظر ص ٤٩٥ وص ٤٩٨ وص ١٤ (مقدمة)

(٨) انظر ص ٥٠٣ وص ١٤ مقدمة .

(٩) انظر ص ٥١١ .

(١٠) انظر - عبد السلام هارون : مقدمة تحقيق الجهرة ص ١٤ ، ١٥ .

(١١) انظر عبد السلام هارون ١٨ (مقدمة الجهرة) .

عليه في هذا الباب ، سواء في المنهج أو المادة . فمما أخذ عليه في المنهج تفكك المعلومات بين يديه أثناء العرض في بعض الأحيان ، وذلك بتأثير الاستطرادات التي تدخل فيما يعرف باسم « تداعى المعانى » ثم اضطراره إلى العودة لايفاء الموضوع حقه .. فيقول مثلاً : « رجع الكلام على تاريخ العلويين » بعد أن يستطرد إلى حديث جانبي عن حركة الزنج (١) .

وقد يشفع له في هذا المأخذ أن طريقة « الحواشي » لم تكن قد عرفت بعد . وكثيراً ما يربك القارئ بتقديده المفعول على الفاعل مثل قوله : « وإمامة محمد تدعى القرامطة (٢) » ، وغيرها من الأساليب الخزمية التي تربك في باب النسب الصعب بطبيعته .

كما أن كثرة التفريعات سلاح ذو حدين ، وحدها السلبي أنها تبعد القارئ عن الأصول والأجزاء .. وقد شعر ابن حزم بالمعاناة التي سيتكلفها قارئ كتابه ، فعمد إلى تلخيصه كما ذكرنا سلفاً .

وهذا المنهج الصعب الذي انتهجه ابن حزم أوقعه في بعض الأخطاء من ناحية المادة العلمية . ومن هذه الأخطاء الظاهرة قول ابن حزم في مكان من كتابه إن رسول الله ﷺ : « لم يعقب ذكراً إلا إبراهيم ومات صغيراً ولم يستكمل عامين في حياة النبي عليه الصلاة والسلام (٣) » - وهو خطأ واضح لا يسقط فيه مثل ابن حزم ، وإنما جرت إليه نزعتة في إطلاق الأحكام الجازمة القاطعة ، وقد أورد هو نفسه - دون أن يدري - تصويماً لهذا الخطأ حين قال بعد ذلك بقليل : « وكان لرسول الله ﷺ من الولد سوى إبراهيم : القاسم ، وآخر اختلف في اسمه ، ف قيل الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله ... ماتوا صغاراً جداً (٤) » . ومن ذلك أيضاً قوله في عبارة متناقضة التركيب والدلالة :

(١) انظر الجبهة (تحقيق عبد السلام هارون) ص ٥٧ .

(٢) انظر ص ٥٩ .

(٣) انظر ص ١٥ .

(٤) انظر ص ١٦ وهذا يجعلنا نرجح أن الخطأ الأول خطأ مطبعي من النساخ أو سهو .

« أما أبو العباس أمير المؤمنين فأعقب بنيين ، أكبرهم محمد ولي البصرة ، ومات عن غير عقب . ولا عقب لأبي العباس السفاح ^(١) » .

وثمة ملاحظات أخرى . بعضها يعود إلى منهج ابن حزم في إطلاق الأحكام العامة ، وبعضها يعود إلى النساخ ^(٢) أو المحققين ^(٣) ، لكنها كلها لا تحول دون أن يظل جهد ابن حزم في الأنساب في قمة جهود النسابة والمؤرخين .

ثالثاً : السيرة الذاتية :



عبارة « السيرة الذاتية » من العبارات الحديثة ، التي لم تستعمل - كما يؤرخ قاموس اكسفورد - قبل عام ١٩٠٨ م . وإن كانت كتابة الإنسان لتاريخ نفسه من الأبواب المعروفة قبل ذلك في تواريخ العالم كله ^(٤) .

ومهما تنوعت أشكال السيرة الذاتية وألوانها ، من يوميات أو اعترافات أو رسائل - فإنها - على العموم - تعريف الكاتب بخبايا نفسه : نشأته ، وأطوار حياته ، وتجاربه ، وظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لازمت حياته .. وذلك في صراحة وشجاعة وموضوعية ^(٥) .

والسيرة الذاتية إذا توافرت لها الشروط الثلاثة سالفه الذكر تصبح باباً من أهم أبواب التاريخ فإن حياة « العظيم » حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه ^(٦) لأنه أقدر من أي إنسان آخر على ترجمة نفسه وحياته . بل إن السيرة الذاتية

(١) انظر الجوهرة (تحقيق عبد السلام هارون)

(٢) ورد في ص ٣١ قوله عن القائم : « وتختلف بنا ذكرا هو أمير المؤمنين اليوم » وهذا لا يمكن أن يكون من كلام ابن حزم لأن هذا لم يل الخلافة إلا في حلول سنة ٤٦٧ هـ وابن حزم مات سنة ٤٥٦ هـ . وقد نص ابن حزم في الصفحة نفسها على أن الخليفة القائم هو الخليفة الآن - وهو ما يستقيم زمناً - والتناقض جاء من إضافات النساخ .

(٣) انظر مقالة الأستاذ حمد الجاسر بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٥ ففيها نقد جيد في نحو ٧٠ موضعاً لتحقيق بروفنسال للجمهرة أما تحقيق أستاذنا عبد السلام هارون فقد برأ من كثير من هذه الأخطاء .

(٤) نقلاً عن : علي بركات : مقال رواد السيرة الذاتية بمجلة العربي عدد ١٦٥ .

(٥) انظر علي بركات : رواد السيرة الذاتية مقال بمجلة العربي الكويتية عدد ١٦٥ أغسطس ١٩٧٢ بتصرف .

(٦) انظر محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ص ٢٣ .

في هذه الحال تدرج تحت قائمة التقارير العمومية ^(١) التي هي من جملة الوثائق التاريخية ذات الشأن .

وفي تراثنا التاريخي عرفت الترجمة الذاتية ، بشكل متناثر وجزئي وعابر ، كما عرفت بتركيز وتفصيل ، وفي كتاب مستقل . وهذا أمر لا خلاف حوله .

لكن الخلاف يدور حول أفضلية السبق وحق الريادة في هذا اللون من التعبير التاريخي .

وفي رأي بعضهم أن سيرة عمارة اليمنى الذى عاش في القرن السادس الهجرى - وصاحب كتاب النكت العصرية - من أقدم ما عرفنا في هذا الفن . وقد تسبقه سيرة المؤيد داعى الدعاة الاسماعيلي ، الذى عاش في منتصف القرن الخامس الهجرى ، لكنها ظلت تغفل الإشارة إليها في كتب التاريخ نظراً للطبيعة السرية في المذهب الاسماعيلي نفسه ^(٢) .

أما من التراجم الوجيزة المبكرة فترجمة ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ لنفسه ^(٣) ويرى آخرون أنه وإن سبقه كثيرون إلى كتابة السيرة الذاتية كياقوت الحموى في معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب في « الإحاطة في أخبار غرناطة » وابن حجر في « رفع الاصر عن قضاة مصر » - فإن ابن خلدون هو أول باحث عربى يكتب عن نفسه ترجمة رائعة مستفيضة يتحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له .. بدقة المؤرخ الأمين الحريص ^(٤) .

يبد أننا نذهب هنا - إقراراً للحقيقة التاريخية من وجهة نظرنا - إلى أن ابن حزم الأندلسى هو الرائد الحقيقى لفن السيرة الذاتية في التاريخ العربى .. وقد قدم لنا في كتابه طوق الحمامة سيرة ذاتية لشبابه تمتاز بالصراحة والصدق والشجاعة ..

(١) انظر لويس حوتشلك : كيف نفهم التاريخ ص ١١٩ .

(٢) انظر محمد عبد الفنى حسن : التراجم والسير ص ٢٤ .

(٣) انظر المكان السابق .

(٤) دكتور علي عبد الواحد واى : عبقريات ابن خلدون ١١٣ .

كما قدم في كتابه « رسالة في مداواة النفوس » سيرة لشيخوخته تمتاز بالتجربة والوعى .. وقدم لنا - إلى جانب هذين الكتابين المستقلين - معلومات أخرى تتناثر في كل كتبه ، حتى في المحل في الفقه^(١) .. وفي الفصل في الملل والنحل^(٢) وغيرها .

وقد آثرنا حين عرضنا حياة ابن حزم في صدر هذا البحث^(٣) - أن نلجأ إلى ابن حزم في أكثر ما أوردناه .. أى أن ابن حزم - على وجه العموم - هو الذى كتب لنا سيرته في هذا البحث ، بحيث إننا نجد أنفسنا هنا في غنى عن أن نستعرض تفصيلات حياته ، للدلالة على طول باعه في باب السيرة الذاتية .

وحسبنا أن نستعرض في هذا المقام الدعائم الأساسية التى بنى عليها ابن حزم تاريخه لنفسه^(٤) .

يصرح ابن حزم في صدر طوق الحمامة بأنه إنما يكتب سيرة ذاتية لنفسه ، فيقول لصاحبه الذى يكتب الطوق له : والذى كلفتني لابد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي ، وأدركته عنايتي ، وحدثني به الثقات من أهل زمانى^(٥) .

ولا نكاد نمضى - بعد ذلك - خطوات من كتاب طوق الحمامة لابن حزم حتى نجد أنفسنا أمام فيض من ذكرياته عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين وكلهم من العشاق .. والكتاب إلى جانب ذلك معرض حافل للحديث عن شيوخ ابن حزم، والشخصيات العامة في قرطبة ... والحفلات الخاصة ... ومساكن آل حزم ومستواهم الارستقراطي^(٦) ... واعترافاته المخلصة التى ألقى بها في جرأة وصدق غير معهودين في الفكر العربى على أيامه وما بعدها إلى أيامنا^(٧) .

(١) انظر الكتاني : معجم فقه ابن حزم - (فصل ابن حزم من المحل) ص ٦٧ وما بعدها

(٢) انظر - مثلاً - مجادلاته وأسماء خصومه ومجادله - وقد ذكرناهم من قبل .

(٣) انظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٤) قسم آسبن بلايوس مصادر السيرة الذاتية لابن حزم بين كتاباته المخطوطة والمطبوعة ورأى أن مصادر سيرته في كتبه المطبوعة تتوافر في : الفصل - الأخلاق والسير - الطوق - نقط المروس - الجمهرة - رسالة فضائل الأندلس .. انظر مقالة ابن حزم في قرطبة .

(٥) انظر ص ١٦ .

(٦) انظر د - الطاهر مكي : درامات عن ابن حزم ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٧) المكان السابق - انظر د - مصطفى عبد الواحد « دراسة الحب في الأدب العربى » ج ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها .

وعبر عشرات التجارب في الحب الذي صورته ابن حزم : بكل جرأة ودون خوف من المجتمع ... والمشاركة في حل مشاكل أصدقائه المحبين .. والحياة الراقية التي يعيشها ابن حزم مع أفراد الطبقة العالية ... وأيضاً من جانب آخر مع تجاربه في الحياة ، حيث فقد كثيراً من الأصدقاء .. وحيث غدر به كثيرون ... وحيث ضاع منه مجد أسرته .. وأملأها في قرطبة ... وتنقل في بلاد الأندلس .. باحثاً عن الأمن ..

كل ذلك يصوره لنا ابن حزم من خلال كتابه الطوق دون أن نحس أنه يفصل نفسه عن المجتمع الأندلسي .. بل إننا لنحس دائماً أنه النموذج المعبر عن هذا المجتمع دون رياء أو زيف .

ونحن نستطيع أن نميل باطمئنان كبير إلى تصديق ابن حزم في سيرته الذاتية كلها لعدة قرائن : منها أنه صرح لنا بقدر كبير من خصوصياته ^(١) ما كان أغناه عن التصريح بها لو أنه كان من أهل الرياء ، ومنها أنه - وهو الفقيه الظاهري - أقسم لنا بالله أجل الإقسام عندما أراد تأكيد معنى العفة في نفوسنا ، وإخبارنا أنه ماحل مئزره على فرج حرام قط ، ولا يحاسبه الله بكبيرة الزنا ^(٢) - ولم يطلب منه أحد هذا القسم . ومنها أنه - في ثنايا اعترافاته نفسها - حدثنا - في مساحة مسهبة - عن جريمة الكذب .. واعتبر الكفر جزءاً منها ... وأنها كبيرة من الكبائر ولا يبلغ بعالم ورع فقيه كابن حزم أن يسجل على نفسه تناقضاً واضحاً .. ينم عن عدم خشية الله إطلاقاً ، وكيف يكذب وهو يقول في الطوق : كل ذنب يشوب عنه صاحبه .. وكل ذام فقط يمكن الاستئثار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانته ... وما رأيت قط كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ... ولا بدأت بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ^(٣) .

ثم إن خصوم ابن حزم - وما أكثرهم قد قرأوا اعترافاته ... ونعوته لنفسه ،

(١) انظر الطوق ص ٧٩ ، ١٤٥ وانظر المجلس الذي ضمه مع من كان يجب وكيف يصفه في ص ٩٣ .

(٢) انظر الطوق ص ١٦٥ .

(٣) ص ٨٥ وانظر ما بعدها .

فلو كان فيه مطعن لما تركوه ، بل لكان ذريعة لاعلان حرب كبيرة عليه ^(١) ، لكننا لم نر من قدحه في دينه .. ولا من رماه بالكذب ، مع أنهم تقولوا عليه الأقاويل الكثيرة .

ومن خلال التجارب أيضاً يطلعنا ابن حزم على أخلاقه في الوفاء وعزة النفس : فما شيء أثقل عليه من الغدر ، ولقد منحه الله عز وجل الوفاء لكل من يمت له ولو بقلية واحدة ^(٢) ، ومنحه عزة النفس التي لا تقرر على الضيم ^(٣) .

لقد صور لنا (الطوق) ابن حزم فتى وشاباً ورجلاً .. أما ابن حزم الذي يعطى خلاصة تجاربه ، ويرسم صورة حياته بإيجابياتها وسلبياتها النفسية .. كي يتعظ الآخرون ... فيصوره لنا كتاب آخر صغير . يسمى رسالة في مداواة النفوس .. الذي أنفق في تسجيل ملاحظاته - كما يقول : « أكثر عمره ^(٤) » « وأثر تقييد ما فيه بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع الملذات التي تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ^(٥) » .

وفي غير هذين الكتابين المباشرين .. هناك جوانب في سيرة ابن حزم مبثوثة في بقية تراثه ، نستطيع منها أن نعرف دراسته وثقافته وآراءه ^(٦) وشيونه ، ومؤلفاته واتجاهاته السياسية وأصدقاءه، ومجادليه من مسلمين وزنادقة ويهود وغيرهم ممن عاصروه في المجتمع الأندلسي .

ومن الجدير بالذكر أن تراث ابن حزم سواء منه ما كان مباشراً في التأريخ لحياته ، وما جاء هذا منه عرضاً - قد قدم لنا وثائق كثيرة شعرية ونثرية ورسائل وتراجم

(١) انظر د - الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ص ٢٢٦ .

(٢) الطوق ١١٣

(٣) الطوق ١٥٠ .

(٤) رسالة في مداواة النفوس (ضمن رسائل ابن حزم) ص ١١٥ .

(٥) انظر رسالة التلخيص لوجوه التلخيص من (الرد على ابن النخيلة ورسائل أخرى) ص ١٤٠ ، ١٤٣ ، ٢٧٣ وغيرها .

(٦) انظر مثلاً : رسالة البيان عن حقيقة الايمان من رسائل ابن حزم ص ٢٣ بتحقيق د - إحسان عباس .

وجيزة للرجال الذين أسهموا في صنع الحياة الفكرية والسياسية كما صور لنا نماذج من حياة الطبقة الراقية ساكنة القصور والمالكة لزمام الأمور في الأندلس ... وكل هذه الوثائق تمد المؤرخ بزايد جيد عند الحديث عن أندلس القرن الخامس الهجري ، وإن كانت قد ارتبطت بسيرة ابن حزم الذاتية .

رابعاً : التاريخ الموضوعي :



توطئة :

لابن حزم دراسات تاريخية في عصور التاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب إلى عهده .

كما أن له دراسات تاريخية مستقلة في قضايا جزئية من هذا التاريخ . ومن الملاحظ على منهج ابن حزم أنه يتناول الموضوع الواحد في أكثر من مكان ، مراعاة لأسباب التأليف وأهدافه (وقد تضمن كتاب الفصل بعضاً مما يتصل بهذا التاريخ على نحو متناثر ، كما أن الكتاب قد تضمن موضوعات متكاملة - ولاسيما في عصرى النبوة والراشدين - أما جمهرة أنساب العرب ، فقد عرض لهذا التاريخ كله بطريقة أخرى تأتي فيها الحقائق التاريخية تابعة لسلسلة الأنساب ومتعلقة بها) .

وبطريقة أخرى أقرب إلى التكاملية قدم لنا ابن حزم التاريخ الإسلامي كله إلى عصره في نقط العروس ، مركزاً على الجوانب السياسية ، وعلى وظيفة الخلافة . وما يقال عن هذه الدراسات يقال أيضاً عن جوامع السيرة الذي لخصه ابن حزم في رسالة أخرى مخطوطة تسمى « جمل من التاريخ » .

والحقيقة أن هذا المنهج يقودنا إلى ذكر عدة حقائق تتعلق بجهود ابن حزم في التاريخ الموضوعي :

١ - لقد كان ابن حزم يهدف من سرد التاريخ الإسلامي إلى غايات تعليمية وكان يهدف إلى نشر فكره بكل الطرق .

٢ - كان ابن حزم يهدف إلى تجريد هذا التاريخ مما هو مناط شك وليس .
٣ - وهو يفصل مرة ، ثم يوجز أخرى ، ثم يتناول التاريخ في مجال التدليل على آراء تتصل بهذا التاريخ في حالة ثالثة .

٤ - ونحن نرى أن ما قدمه ابن حزم يحتاج إلى أن يجمع إلى بعضه ، حسب العصور ، وفي هذه الحال سوف نجد لدينا تراثاً متكاملًا ، يعطى صورة دقيقة عن أربعة قرون ونصف من تاريخنا - لا تخلو من وجهات نظر ومعالم منهج - وهي بقلم محقق ثبت موسوعى النظرة علمى المنهج ، وهو ابن حزم - وعلى سبيل المثال : يمكن أن تضم رسالة جوامع السيرة ، ورسالة جمل التاريخ ، وما جاء في « الفصل » عن النبی ﷺ وما جاء في نسبه الشريف في الجمهرة ، ورسالته الكبيرة في حجة الوداع .. وذلك وفق تنظيم ملائم .

وبهذا نخرج « تاريخ » ابن حزم لعصر النبوة .

وفي الامكان أيضاً ضم ما جاء في الفصل عن الخلفاء الراشدين ، ورسالة جمل فتوح الاسلام بعد رسول الله ، ورسالة المفاضلة بين الصحابة ، ورسالة في أسماء الصحابة رواة الحديث .

وبهذا نخرج تاريخ ابن حزم لفترة الراشدين .

أما تاريخ الأندلس ، الذى أعطاه ابن حزم كثيراً من جهده ، فيمكن أن يضم فيه ما جاء في كتاب الجمهرة عن الأندلس - وهو كثير - ويضاف ذلك وفق تنظيم ملائم إلى رسالة فضائل أهل الأندلس ، وإلى ما جاء في رسالة التلخيص لوجوه التلخيص ، وإلى بعض ما جاء في طوق الحمامة والفصل .

وفي تاريخ المشرق تضم رسالة أسماء الخلفاء المهديين والأئمة أمراء المؤمنين إلى رسالة نقط العروس ، وإلى كثير مما جاء في الفصل وجمهرة الأنساب .

إن هذا التنظيم المتكامل سوف يعطينا صورة واضحة وافية لتاريخ ابن حزم لهذه الفترات ، إذ أن ابن حزم لم يكن مؤرخاً بالمعنى التقليدى ، وإنما كان مؤرخاً من طراز خاص .. يكتب لهدف يراه ، وليس لأنه محترف لكتابة التاريخ ، ولم يكن يهيم إلا أن يحقق أهدافه .

تراث ابن حزم في التاريخ الموضوعي :



(في السيرة النبوية) :

١ - جوامع السيرة :

هذا كتاب من كتب ابن حزم الكبيرة التي استقلت بموضوع واحد محدد هو سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وقد ورد في كل المصادر التي تحدثت عن مؤلفاته وأما تسمية الكتاب فقد تصرف فيها باختصار أو إطناب ف قيل « السيرة النبوية لابن حزم » وقيل « الجوامع » وما إلى ذلك (١) .

تقع النسخة المطبوعة التي قام على تحقيقها الأستاذان الدكتور إحسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الأسد في مائتين وسبعين صفحة من القطع الكبير (٢) وتضم بين دفتيها كل ما يتصل بالسيرة الزكية من نسبه عليه السلام ومبعثه ومعجزاته وحجه وعمراته وصفته وأسمائه وكتابه ورسله ونسائه وأولاده وأخلاقه (٣)

ونستطيع أن نطلق على هذه الموضوعات : الفصل الأول ... أما الفصل الثاني فيضم جملا أكثر تفصيلا من تاريخ الرسول منها : المسلمون الأوائل ، والمجاهرون بالأذى ، وصور التعذيب والفرار بالدين ، وعام الحزن ، والاسراء ، والعقبان وأسماء من بايعوا في كل عقبة وفرض الزكاة (٤) .

ويضم الفصل الثالث (تجاوزا كذلك) المرحلة التالية للهجرة (٥) كغزواته عليه السلام - وشهداء كل غزوة وبعوته ، وحجة أبي بكر الصديق - وحجة الوداع ووفاته ﷺ .

(١) انظر ترجمة ابن حزم : تذكرة الحفاظ للذهبي ، وانظر جوامع السيرة (مقدمة) ص ١٥ وانظر د - صلاح الدين المنجد : نقد جوامع السيرة - مقال بمجلة معهد المخطوطات العربية م ٢ ج ١١ شوال سنة ١٣٧٥ هـ .

(٢) طبع دار المعارف بمصر .

(٣) انظر صفحات ٧ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ وغيرها .

(٤) انظر ص : ٤٤ ، وما بعدها .

(٥) انظر ص ٨٥ وما بعدها .

حجة الوداع :



نخص ابن حزم « حجة الوداع » بكتاب كبير جمع فيه بين الحديث والتاريخ في تناسق وانسجام ، فقدم لنا « الواقعة التاريخية بلفظه هو ثم أيلها - بعد ذلك - بمجموعة من الأحاديث المتصلة الصحيحة ... حتى يستطيع استنباط ما يرى من أحكام شرعية على أساسها .

ويقع الكتاب في طبعته الثانية التي أصدرها المحقق الدكتور - ممدوح جقي في ثلاثمائة وخمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير^(١) .

وقد صدره ابن حزم بمقدمة في ثلاث صفحات ذكر فيها أسباب تأليفه للكتاب ومنهجه فيه ، فقال : إن الأحاديث قد كثرت في وصف عمل الرسول (ﷺ) في حجة الوداع ، وأنت من طرق شتى ، وبألفاظ مختلفة ، ووصفت فصول ذلك العمل المقدس في أخبار كثيرة .. حتى صار ذلك سبباً إلى تعذر فهم تأليفها ، وحتى ظن قوم أنها متعارضة ، وترك أكثر الناس النظر فيها من أجل ذلك .. فجمعنا على نحو متفق لا تعارض فيه ، ووصلنا ما بين أجزائها .. حاشى فصلاً واحداً لم يلح لنا فيه فصل الحقيقة عليه وهو : أين صلى رسول الله الظهر يوم النحر أم بمكة ؟ . وذلك مع طول البحث واستقراء الأحاديث ، وقد أوردناهما معا وما عارضهما أيضاً^(٢)

ومن معالم منهجه فيه - كما ذكر - إيراد ما يظن البعض أنه لا يعارض الآثار التي اعتمد عليها ، وبيان عدم تعارضها ، وعدم إطلاقه الأحكام على ما لم يهتد إلى وجه الرأي فيه^(٣) .

وقد ضم الكتاب سرداً وتمحيصاً لكل القضايا المتصلة بحجة الوداع ، وأهمها :

(١) طبع دار الیقظة العربية بيروت ١٩٦٦ م

(٢) انظر المقدمة ٤٤ .

(٣) انظر حجة الوداع ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .

- إعلامه عليه الصلاة والسلام الناس بخروجه للحج وتاريخ خروجه من المدينة .
- أين صلى النبي ظهر يوم خروجه .
- التأخير والإلزام في فسخ الحج .
- موضوع حيض عائشة .
- وقت دخول الرسول مكة .
- إهلال على وأى موسى الأشعري .
- تقديم الصلاة على الخطبة .
- نص خطبة يوم عرفة .
- الأذان والإقامة بعرفة .
- طوافه بعد الإفاضة .
- عدد ما نحر الرسول بمنى .
- إهداؤه عن نسائه .
- شربه من زمزم .
- نزوله يخيف ومنى .
- مقامه بمكة .

إلى غيرها من القضايا التي التزم فيها ابن حزم تطبيق منهجة السالف الذكر .

(٣) جهود متفرقة لابن حزم في السيرة النبوية :



وإلى جانب جوامع السيرة وحجة الوداع ، وتناول ابن حزم موضوعات السيرة في غير مكان ، ومن أكثر من زاوية .

فقد تناول ابن حزم السيرة النبوية من زاوية « الدفاع عنها » أمام أعدائها من اليهود والنصارى ، حيث حصر الشبهات الأساسية التي أثارها أعداء الاسلام حول حياة النبي عليه الصلاة والسلام ومواقفه ... وكان ذلك في الجزء الرابع من كتابه « الفصل في الملل والنحل » .

وقد حصر ابن حزم شبهات أعداء الاسلام حول الرسول في ثمانى شبهات هي :

« قصة عبس وتولى ، والغرائيق ، وتأخر الوحي بسبب عدم تقديم النبي المشيئة وقصة زينب بنت جحش ، وقبوله الفداء في أسارى بدر ، وقوله عليه السلام إنه لو كان مكان النبي يوسف لأجاب الداعي للخروج من السجن ، وخطئه في الصلاة وما زعمه بعضهم من شكه في الوحي (١) » .

وقد فند ابن حزم هذه الشبهات معتمداً على منهج النقل ، وبدائه العقل ، وذلك في صفحات متعددة كاملة من الفصل (٢) .

ومن جانب آخر تناول ابن حزم السيرة في معرض استخلاص الأحكام الشرعية وذلك في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام » كتطبيقه عليه السلام مبدأ الشورى (٣) وحضه على تعلم العلم (٤) ، وصلاته على المنافقين ونهى الله له عن ذلك (٥) وتركه للأفضل أحياناً رحمة بالمسلمين (٦) وغير ذلك .

كما تناول ابن حزم السيرة في مجال « التعليم » فاختصرها للصغار في رسالته « جمل من التاريخ » وذلك في خمس عشرة صفحة من القطع المتوسط (٧) .

(٤) تقويم جهود ابن حزم في السيرة النبوية :

لكي نصل إلى تقويم سليم لجهود ابن حزم في السيرة النبوية ، يجب أن نعرف تقدير ابن حزم لهذه السيرة ، فهو يراها الحقيقة الحية التي يمكن النظر إليها من أكثر من زاوية للوصول إلى الكمال الإنساني فمحمد ﷺ هو نموذج الكمال الأعلى الذي يجب الاحتذاء به .

(١) انظر الفصل ٤ - ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر الصفحات من ٢١ إلى ٣١ .

(٣) انظر الإحكام ٥ - ٧٦٧ .

(٤) انظر المصدر السابق ٩٨٢ .

(٥) انظر المصدر السابق ٤٣٤ .

(٦) انظر المصدر السابق ٢٧٤ .

(٧) انظر « خلاصة أصول الإسلام وتاريخه » رسالتان لابن حزم الصفحات من ١١ إلى ٢٥ بتحقيق أبي عبد الرحمن ابن عقيل و د . عبد الحليم عويس نشر دار الاعتصام ١٩٧٧م .

وهذه الغاية كانت واضحة كل الوضوح في ذهن ابن حزم ، وقد عبر عنها بقوله :
« من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا ومجمل السيرة ، والاحتواء على محاسن الأخلاق
كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد ﷺ ، وليستعمل أخلاقه وسيره
مأموكته ^(١) » ويقول : « قد كان رسول الله ﷺ هو القدوة في كل خير ،
والذى أثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع الله تعالى فيه أشد الفضائل بتمامها
وأبعده عن كل نقص ^(٢) » ويتصل بهذا التقدير - ما يراه ابن حزم من عدم جواز
التكنية بأبي القاسم أو نقل عبارة محمد رسول الله في الخاتم ^(٣) .

ويرى ابن حزم أن العلم بسيرة النبي فرض على الفقيه ليعلم آخر أوامره وأولها ،
وحره لمن حارب وسلمه لمن سالم ، وما يتصل بذلك ^(٤) .

كما يرى ابن حزم أن أول الفروض العينية في علم النسب « أن يعلم المرء أن
محمداً ﷺ - الذى بعثه الله تعالى إلى الجن والإنس بدين الاسلام - هو محمد ابن
عبد الله القرشى الهاشمى الذى كان بمكة ورحل منها إلى المدينة - فمن شك في محمد
ﷺ - أهو قرشى أم يمانى أم تميمى أم عجمى فهو كافر ، غير عارف إلا أن يعذر
بشدة ظلمة الجهل » ^(٥) .

ومن هذا التقدير ، والوعى بأهمية السيرة النبوية في التاريخ الإسلامى وفي الحضارة
الإسلامية - ينطلق ابن حزم إلى عالم السيرة ، يلجئه في كل مرة من مدخل جديد -
لكن الغاية في كل مرة واحدة .

وسيرة الرسول - عند ابن حزم - تكفى بذاتها دليلاً على نبوته : « فلو لم تكن
له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى ^(٦) » ، وسبب ذلك واضح : « فقد أتى - عليه
السلام - إلى قوم لقاح لا يقرون بملك ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس ...

(١) رسالة مداواة النفوس (من رسائل ابن حزم) ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ١٤٣ .

(٣) انظر كتاب الجامع (مخطوطة جستر حيتي) الورقة الثانية .

(٤) انظر الأحكام ج ٥ ص ٦٩٣ .

(٥) جمهرة أنساب العرب ٢ .

(٦) الفصل ١ - ٩٠ .

قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم والأنفة في طباعهم .. وهم أعداد عظيمة قد ملأوا جزيرة العرب في نحو شهرين في شهرين قد صارت طباعهم طباع السباع وهم ألوف الألوف قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض أبداً ... فدعاهم بلا مال ولا أتباع ، بل خذله قومه ، إلى أن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة ، ومن الحرية والظلم إلى جرى الأحكام عليهم ، ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا وأخذ مال من أحبوا إلى القصاص من النفس ومن قطع الأعضاء ومن اللطمة ، من أجل من فيهم لأقل عالج غريب دخل فيهم وإلى إسقاط الأنفة والفخر إلى ضرب الظهور بالسياط أو البغال إن شربوا الخمر وقذفوا إنساناً ، وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا ... فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعاً بلا طمع ولا غلبة ولا خوف^(١) .

وأيضاً فإنه عليه السلام نشأ في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ولا خرج عن تلك البلاد إلا خرجتين ... ثم أوطأه الله رقاب العرب كلها فلم تتغير نفسه ولا طالت سيرته إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعر لقوت أهله^(٢) .

ففي ظل هذه الغاية ، وهذا التقديس والإجلال ، والتعرف على خطورة كل ما يتصل بالنبى - عرض ابن حزم لسيرته عليه السلام ، فالتزم أدق توثيق أمكنه الوصول إليه ، حتى استطاع أن يعيد للسيرة الثقة الكاملة في روايتها بعد أن كاد يصيبها بعض مآصبات كتب التاريخ من زيادة ونقص وتبديل وتغيير وتعدد روايات واختلاف آراء في الحادث الواحد أو في الأسماء والأرقام والشهور ، سواء منها ما يتصل بأحداث السيرة العامة أو بحياة النبى ﷺ .

(١) الفصل ٢ - ٨٩ .

(٢) الفصل ٢ - ٩٠ .

فعودة الثقة في إطار منهج علمي سليم - هي أهم ما قدمه ابن حزم في رأينا - إلى السيرة النبوية . ولا غرو - في ظل هذا - أن تلقى سيرته شهرة كبيرة وأن تصبح مرجعاً معتمداً ينقل منه بعض من كتبوا في السيرة ، مثل ابن كثير والمقريزي وابن عساكر كما ذكرنا سابقاً^(١) وذلك على الرغم من تبينه لبعض الآراء المرجوحة كزعمه بأن والد الرسول مات وهو عليه السلام لم يكمل بعد ثلاث سنين^(٢) فالجمهور على أن أباه توفي وهو في بطن أمه ، وكجعله الحكم بن أبي العاص من طائفة المستهزئين^(٣) ، وإنما كان من الذين يؤذون الرسول فقط ، وكإيمانه بأن إعجاز القرآن راجع إلى منع الله الناس عن مجاراته « بالصرقة »^(٤) إلى غير ذلك من الآراء التي اعتمد فيها ابن حزم على اجتهاده ومنهجه في البحث التاريخي .

تراث ابن حزم في تاريخ المشرق العربي :

(١) رسالة « نقط العروس في تواريخ الخلفاء »

هذا نص نفيس ضم تاريخاً للخلفاء من النواحي العامة والسياسية حتى عصر ابن حزم ، إلى منتصف القرن الخامس الهجري .

ولعله أبرز نص وضع تاريخ الخلفاء بشكل منظم في إطارات متعددة بحيث يكشف لنا تطور هذا النظام الاسلامي وما أصابه من فساد وتدهور ، دون أن يغفل تقديم التفاصيل الشخصية عن حياة الخلفاء وذويهم ، ودون أن يبسط العبر ، ويقدم رأيه في كل خليفة .

« وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها خير معين لمن يريد أن يدرس نظام الخلافة .

(١) وانظر جوامع السيرة (مقدمة) ص ٨ وانظر ص ٣٩ .

(٢) انظر جوامع السيرة ص ٥ .

(٣) انظر جوامع السيرة ١٤

(٤) انظر المصدر السابق ص ٧ .

الإسلامية ويطلع على حسناته وعيوبه ، فإن ابن حزم لم يترك من ذلك شيئاً إلا أحصاه عدا^(١) .

تقع الرسالة في صورتها التي ظهرت بها^(٢) في اثنتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط . وهي تحوى فقرات متتالية لا يجمعها تنسيق جزئى وإنما يجمعها عنوان الرسالة فقط .

وأبرز ما تناولته بشأن الخلفاء الموضوعات التالية :

١ - الأسماء التى وقعت على الخلفاء (وهى فى الحقيقة ألقاب) إلى عصره سواء فى المشرق أو الأندلس .

٢ - من ولى العهد ولم يتسم أو تسمى ولم يتم له أمر .

٣ - من ولى الخلافة بعهد ومن وليها بتشاور .

٤ - من ولى الخلافة فى حياة أبيه .

٥ - من ولى وأخوه أسن منه حى .

٦ - أربعة إخوة ولوا الخلافة .

٧ - من ولى الخلافة صبياً .

٨ - من ولى مسناً تجاوز الستين .

٩ - أكثر الخلفاء عمراً وأقصرهم عمراً .

١٠ - من خلعت من الخلفاء وسلم ، ومن خلعت وبقي معتقلاً ، ومن خلعت وسمعت عيناه .

١١ - ومن خلعت وقتل إثر خلعه .

١٢ - من طال عمره فولى عشرين سنة فصاعداً .

١٣ - المعرفات فى الخلافة فى النساء .

١٤ - ثلاثة رشحوا للخلافة ماتوا فى أربعين يوماً .

١٥ - حمقى الخلفاء .

(١) دكتور شوق ضيف (مقدمة) تحقيقه للرسالة ص ٤٥ .

(٢) نشرت فى مجلة كلية الآداب المجلد ١١٣ الجزء الثانى ديسمبر ١٩٥١ بتحقيق الدكتور شوق ضيف .

- ١٦ - ذور الفتوح منهم .
- ١٧ - مجاهروهم بالانهماك في المعاصي .
- ١٨ - ذور السعد منهم .
- ١٩ - من قتل أباه منهم .
- ٢٠ - من قتل إبنه منهم .
- ٢١ - من قتل أخاه .
- ٢٢ - من قتل عمه أو خلمه .
- ٢٣ - من غرائب الدهر .
- ٢٤ - من جلد قبل الخلافة .
- ٢٥ - أخلوقه لم يقع في الدهر مثلها .

ونحن نرى أنه عمل إحصائى طريف ، يشبه أن يكون « معجماً تاريخياً » لكنه لا يخلو من إشارات تعكس رأى ابن حزم ، وتبين هدفه من هذا التتبع الإحصائى الظريف .

(٢) رسالة (جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ) :



هذه رسالة على وجازتها - تتبع فتوحات الخلفاء - إلى عصر ابن حزم بعد رسول الله عليه السلام ، وتخصر أصحاب الفتوحات وما فتحه كل واحد منهم من البلدان .

وتبدأ الرسالة بكلمة عن الفتوح بعد رسول الله منذ ارتد أكثر العرب ثم تتناول فتوحات الخلفاء الراشدين ومنهم على بن أبى طالب الذى يعتبر ابن حزم قتاله للخوارج فتحاً ، ثم تتحدث عن فتوحات الأمويين منذ معاوية وحتى عصر ابن حزم ، بادئة بالخليفة مثنى بذكر كل بلد فتحه على حدة والقواد الذين قاموا بالفتح . وتعتبر الرسالة سجلاً للتاريخ العسكرى إلى عصر ابن حزم ، وقد طبعت ملحقة بمجموع السيرة^(١)

(١) بتحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الأسد وهى الرسالة الرابعة .



٣ - رسالة « أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم » :

تتناول هذه الرسالة في تركيز حياة الخلفاء ابتداء من أبي بكر حتى ولاية القائم بالله عبد الله بن القادر بالله - الخليفة في عصر ابن حزم .

وفي هذه الرسالة التزم ابن حزم بذكر ما لا بد من ذكره^(١) في حياة كل خليفة ، وعدم تكلف ذكر ما هو مشهور^(٢) ، محافظا في عرضه لسيرة كل خليفة على الوفاء بعدة حقائق لا تتخلف ، أبرزها :

- ذكر الاسم والكنية .
- تاريخ البيعة وعمره إذ تولى .
- مدة الولاية ، وهو يعمد إلى تحديدها بالسنة والشهر واليوم .
- تاريخ وفاته وطريقة الوفاة ومدة عمره .
- ذكر أمه ونسبها وبيان كونها حرة أو أم ولد .

وهو لم يخل إلى جانب هذا الالتزام بإطلاق بعض الأحكام التي تمتاز بأسلوبها التقريرى الحاسم .

والحقيقة أنه حافظ على الموضوعية والعرض التاريخي الأمين فأرانا من خلال ذلك بعض الظواهر التي تستحق التسجيل . فمن بين تسع وثلاثين خليفة عرض ابن حزم لتاريخهم في الخلافتين الأموية والعباسية من معاوية حتى القائم بالله أبي جعفر الخليفة العباسي في عهده^(٣) نجد أن عدد أمهات الخلفاء من الجوارى اللاتي تحولن إلى « أمهات أولاد » بلغ تسع عشرة أما .

وكان نصيب خلفاء بني أمية الذين بلغ عددهم ثلاث عشرة خليفة ثلاث أمهات أولاد في رأى ، واثنين في رأى آخر ، هما أم يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وتدعى « شاه فريد بنت خسرو بن فيروز ملك الفرس^(٤) » .

(١) رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٢٦ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) انظر المصدر السابق ٣٨٠ .

(٤) انظر المصدر السابق ص ٣٦٤ .

وأم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك .. وقد ذكر ابن حزم أنها أم ولد لكنه لا يعرف اسمها^(١) ، وقد اختلف أمر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية^(٢) .

أما خلفاء بني العباس إلى عهده ، وقد بلغ عددهم ستة وعشرين خليفة فكان من بين أمهاته تسع عشرة أما كن جواري وأصبحن أمهات أولاد .

وهذه ظاهرة أطلعنا عليها ابن حزم من خلال السرد المنتظم لحياة الخلفاء سهلة واضحة في رسالته - موضوع البحث .

(٤) رسالة « أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد » :

تسير هذه الرسالة على نفس النهج الإحصائي الذي التزم به ابن حزم ، وهي إلى الحضارة أقرب منها إلى التاريخ بمعناه السياسي المعروف . وقد حصر فيها ابن حزم (حملة الحديث) عن رسول الله ﷺ ، بدءاً من أصحاب الألف ، وإنهاء بمن روى عنهم حديث واحد لرسول الله .

وتقع هذه الرسالة في أربعين صفحة من القطع المتوسط ، وهي الرسالة الثانية من ملحقات جوامع السيرة .

(٥) رسالة « أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا » :

وتمتاز هذه الرسالة بما تمتاز به الرسالة السابقة ، فهي ترتيب تنازلي لأصحاب الفتيا « على مراتبهم في كثرة الفتيا فقط » وفيمن بعدهم إلى زمان ابن حزم وقد انتهى ابن حزم إلى أن المكثرين في الفتيا سبعة هم : عائشة وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبو بكر وحذيفة بن اليمان .. ثم ثلاثة عشر متوسطون ، والباقون مقلون . ومجموعهم مائة واثنان وستون مفتياً .

(١) انظر رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٦٤

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٦٥ .



قدر لكتاب جبهة أنساب العرب أن يحظى بشهرة واسعة ، وأن يحتل مكانة طيبة في الفكر التاريخي الإسلامي ، وحسبنا ما ذكره العلامة ابن خلدون عن « ابن حزم النسابة » وكيف أنه جعله إمام النسابين والعلماء . والسبب في هذه الريادة هو كتاب « الجبهة » .

وقد اعتنى بتحقيق الجبهة المستشرق المعروف « ليفي بروفنسال » لكنه وقع في كثير من الأخطاء^(١) نظراً لما يتطلبه تحقيق كتاب في علم الأنساب من خبرة ودراية .

كما اعتنى به أيضاً المحقق الأستاذ عبد السلام هارون ونشره في طبعة تلافى أخطاء الطبعة الأولى ، وأكملت ما كان بها من نقص .

ويقع كتاب الجبهة في تحقيقه الأخير في عشر صفحات وخمسمائة من القطع الكبير .

وإذا كنا قد تناولنا جانبه الأساسي ، عندما تحدثنا عن « الأنساب في تاريخ ابن حزم » فنحن نشير هنا إلى أن من الجوانب المهمة في الجبهة أنه « تاريخ » كذلك وأنه قد ضم بين دفتيه كثيراً من الأحداث التاريخية والقبلية والأدبية وأيام العرب والمشهور من أمثالها وأبنائها .

وقد ذكرنا نفياً من أخباره التاريخية ، ونحن نتحدث عنه في النسب فنحن نكتفي بها ، كما أننا ذكرنا هناك بعض الأخطاء التي وقع فيها ابن حزم وإنها لأخطاء قليلة . كما عقدنا مقارنة بينه وبين غيره من كتب الأنساب خلصنا منها إلى إقرار « الفروق الكمية » التي كان سببها اهتمام ابن حزم بالأخبار التاريخية لم كان يتحدث عن نسبهم ، فأصبح كتابه مرجعاً في التاريخ الإسلامي وفي أنساب العرب ، في وقت واحد .

(١) انظر الأستاذ حمد الجاسر بمجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٢٥ (مطبعة دار المعارف ١٣٦٨) وانظر الأستاذ عبد السلام هارون : مقدمة تحقيق للجبهة .

(٧) رسالة « جل من التاريخ » :



هذه مخطوطة ظهرت أخيراً وحقت^(١) ، وهي تضم بعض أخبار عن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين إلى جانب ما ذكرته في السيرة النبوية ، وهي تمتاز بالابحار وتكاد تكون كتاباً تعليمياً . كتبه ابن حزم للصغار الذين كانوا يحملون إلى مجلسه ، وتبلغ صفحاتها خمسا وثلاثين صفحة من القطع المتوسط .

تقويم تاريخ ابن حزم للمشرق العربي :



هناك اتجاهات برزت في تاريخ ابن حزم للمشرق العربي في عصور الراشدين والأمويين والعباسيين .

ومن بين هذه الاتجاهات أنه لا يضيف قداسة كبيرة على عصر الصحابة ، ففي رأيه أن هذا العصر لا يبلغ عصر الاحتجاج بل العبرة في الاحتجاج هي الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما لمعرفة ما صح من فتوى عن الرسول عليه الصلاة والسلام .. ومن حق المسلم أن يأخذ عن أى صحابى بشرط أن ينظر ، ويرى أن أدلة هذا الصحابى هي الأقوى والأؤكد ، « وليس بعض الصحابة أحق بالاتباع من بعض ، فحتى لو صح عن عمر رضى الله عنه ... لكان رأياً منه ، غيره خير منه وهو ما أخبر به النبى ﷺ^(٢) - وهذا رأى يتفق - بالطبع مع أصول منهجه الظاهرى .

وفي الفتنة التى وقعت بين على ومعاوية بسبب مقتل عثمان يرفض ابن حزم آراء الشيعة والخوارج وبعض أهل السنة والمعتزلة ... وبعد أن يستعرض حججهم وآراءهم بالتفصيل^(٣) وبعض ما يتصل بها من مواقف تاريخية - يذكر لنا بعض آرائه الخاصة في تحليل هذه الفتنة التى احتلت من تاريخ المسلمين مكاناً بارزاً ، ومن عمل المؤرخين مساحة واسعة .

(١) انظر : خلاصة في أصول الاسلام وتاريخه نشر دار الاعصام ١٩٧٧ (رسالتان جديدتان لابن حزم) .

(٢) لجل ٧ - ٥٥٩ وأنظر الأحكام ٤ - ٥١٢ وما بعدها .

(٣) انظر الفصل ٤ - ١٥٣ - ١٥٤

فابن حزم يرى أن عائشة والزبير وأمثالهما « ما أبطلوا إمامة على ولا طعنوا فيها ولا ذكروا فيه جرحه تحطه عن الامامة ولا أحدثوا إمامة أخرى ولا جددوا بيعة لغیره ... فصيح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ظلماً^(١) » .

وبرهان ذلك عند ابن حزم أنهم عندما اجتمعوا لم يقتتلوا أو تحاربوا فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الدائرة ربما تدور عليهم - فبذلوا السيف في عسكر طلحة والزبير ... ثم في معسكر على .. فطعن الفريقان أن الآخرين هاجموا ودافع كل منهم - وهو محقق في ذلك - عن نفسه ... فالفسقة من قتلة عثمان هم سبب هذه الحرب^(٢) .

« وأما أمر معاوية بخلاف ذلك ولم يقاتله على لامتناعه من بيعته لأنه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره ، لكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره في جميع أرض الشام وهو الإمام الواجبة طاعته ... ولم ينكر معاوية قط فضل على واستحقاقه للخلافة لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان^(٣) » .

ويعقب ابن حزم تعقياً جريئاً :

« ولا عجب ممن يميز الاجتهاد في الدماء وفي الفروج والأنساب والأموال والشرائع ... ويرى ذلك مباحاً لليث وأبي حنيفة والثوري ومالك .. وأشهب وابن الماجشون والمازني ... فواحد من هؤلاء يبيع دم هذا الإنسان وآخر منهم يحرمه .. كراهم فيمن عمل عمل قوم لوط .. ثم يضيقون ذلك على من له الصحبة والفضل والعلم والتقدم والاجتهاد كمعاوية وعمرو بن العاص^(٤) » .

وخطأ معاوية الكبير والوحيد عند ابن حزم أنه رأى تقديم القصاص على البيعة « ولو أنه بايع علياً لقوى به على أخذ الحق من قتلة عثمان^(٥) » .

(١) الفصل ٤ - ١٥٨ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) المصدر السابق ٤ - ١٦٠ .

(٤) الفصل ٤ - ١٦٢ .

(٥) انظر رسالة جمل فتوح الإسلام : ص ٣٤١ .

والحقيقة أن رأى ابن حزم هذا لا يخلو من تعاطف مع معاوية والتماس أعذار له ، وإن كان هذا لا يجعل من ابن حزم ناصبياً ، فرأيه في يزيد وعبد الملك ابن مروان واضح ، وإنما هو رأى أداه إليه اجتهاده .

أما فتوحات الراشدين ، فقد حصرها ابن حزم ، حصراً شاملاً وجيزاً في غير موضع ، واعتبر « حروب الردة » من فتوحات أبي بكر « وهي من أجل الفتوح » واعتبر علياً من جملة أصحاب الفتوحات وذلك في قتله الخوارج وكفى به فتحاً ... لأنهم كانوا لا يرون طاعة خليفة^(١) - وهذا - بلا شك - تكلف من ابن حزم . وقد أغرم ابن حزم بحصر مدد حكم الخلفاء بدقة بالغة ، فأبو بكر تولى سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وعمر تولى عشر سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً^(٢) .

كما عني بذكر تواريخ الوفاة بنفس الدقة ، وبذكر أمهات الخلفاء وأنسابهم^(٣) وهي ظواهر سنجدها في تاريخ ابن حزم لبقية الخلفاء الذين عرض لهم حتى أيامه .

وقد أظهر لنا ابن حزم أنه يملك حاسة تاريخية تستطيع تقويم الأشخاص والدول تقويماً عادلاً دون تأثير بالمواقف والظروف ، الضاغطة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك حكمه على مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية ، فمع أنه لم يستقر له حال ولا ثبت في مكان واحد واضطربت عليه الأمور بكثرة خروج بني عمه عليه^(٤) إلا أن ابن حزم يلتزم روح الإنصاف في الحكم على شخصه ويعتبره شجاعاً مات دون أن يمكن من نفسه^(٥) ، مقبلاً غير مدبر ، وسيفه بيده يحارب به حتى سقط^(٦) .

(١) رسالة جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ من ٣٣٩ ، ٣٤٠ (من ملحقات جوامع السيرة) .
(٢) انظر رسالة جمل من التاريخ (مخطوطة) مكتبة جستر جيتي بديلن ، الورقة الثالثة وانظر رسالة أسماء الخلفاء وذكر مددهم من ٣٥٣ رسائل (جوامع السيرة) .
(٣) انظر رسالة أسماء الخلفاء المهديين من ٣٥٣ وما بعدها (من رسائل جوامع السيرة) .
(٤) جوامع السيرة (رسالة أسماء الخلفاء والولاة) ٣٦٥ .
(٥) انظر المكان السابق .
(٦) انظر مخطوطة جمل من التاريخ الورقة الرابعة .

ومثل آخر أكثر بروزاً في الدلالة على روح الإنصاف لدى ابن حزم في دراسته
لبنى أمية والعباسيين إلى عهده ...

فهو يمدح دولة أمية بقوله :

« وانقطعت دولة بنى أمية ، وكانت دولة عربية ، لم يتخذوا قاعدة ، إنما كان
سكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا
جمع الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبواهم بالتحويل
ولا التسديد ، ويكاتبواهم بالعبودية والملك ، ولا تقبيل الأرض ، ولا رجل ولا يد ،
وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصى البلاد ^(١) » .

ويقدم دليلاً إحصائياً مقارناً للدلالة على عروبة بنى أمية ، فيقول : « لم يل الخلافة
في الصدر الأول من أمه أم ولد : حاشى يزيد وإبراهيم ابني الوليد - ولا وليها من
بنى العباس من أمه حرة حاشى السفاح والمهدى والأمين ^(٢) » .

لكنه مع ذلك - ينصف الدولة العباسية ويثنى عليها في الجانب الذى يرى أنها
تستحق أن يشاد بها فيه ... فيقول :

« وانتقل الأمر إلى بنى العباس ،... وكانت دولتهم أعجمية ، سقطت فيها دواوين
العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً محققاً
كسروياً .

إلا أنهم لم يعلنوا سب أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، بخلاف ما كان
بنو أمية يستعملون من لعن على بن أى طالب رضوان الله عليه ولعن بنيه الطاهرين
بنى الزهراء ، وكلهم كان على هذا ، حاشى عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد
رحمهما الله تعالى فإنهما لم يستجيزا ذلك .. واقتربت في ولاية بنى العباس كلمة

(١) رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ (من ملحقات جوامع السيرة) .

(٢) نقط العروس ٨٨ .

المسلمين ، فخرج عنهم من منقطع الزاين دون أفريقية إلى البحر وبلاد السودان ،
وجميع الأندلس وتغلب الكفرة على نصف الأندلس^(١) .

ومع هذا الجهد الذى بذله ابن حزم فى تأريخه للخلافتين : الأموية والعباسية إلى
عهده ، فإنه تناقض مع نفسه فى ذكر بعض التواريخ ، بحيث إننا نجد أمامنا نماذج
متعددة لهذا التناقض .

فقد حدد مدة خلافة معاوية تارة بعشرين سنة غير سبعة أشهر^(٢) وتارة
بعشرين سنة غير أربعة أشهر^(٣) .

وحدد ولاية يزيد بن معاوية تارة ثلاث سنين وثمانية أشهر وأياماً^(٤) وتارة
أخرى بثلاثة أشهر^(٥) .

وقد أهمل ذكر معاوية بن يزيد فى ذكره للخلفاء بنى أمية^(٦) أحياناً ، وذكره
أحياناً أخرى . وحدد خلافة عبد الله بن الزبير بتسعة أعوام وشهرين ونصف
تارة^(٧) ، وبسبعة أعوام وثلاثة أشهر تارة أخرى^(٨) .

وحدد ولاية هشام بن عبد الملك بتسعة عشر عاماً وسبعة أشهر غير أيام
تارة^(٩) ، وبسبعة عشر عاماً وسبعة أشهر غير أيام تارة أخرى^(١٠) .

واختلط عليه اسم الخليفة أبى العباس المعتضد بالله فسماه مرة : أحمد بن محمد
الموفق بن المتوكل^(١١) ومرة أحمد بن طلحة بن المتوكل^(١٢) .

(١) نقتط العروس ٨٨ وانظر مخطوطة جمل من التاريخ الورقة الرابعة .

(٢) انظر جوامع السيرة ٣٥٦ .

(٣) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ورقة رقم ٤ .

(٤) انظر رسالة أسماء الخلفاء (من ملحقات الجوامع) ص ٣٥٨ .

(٥) انظر مخطوطة جمل من التاريخ الورقة الرابعة .

(٦) انظر رسالة الخلفاء ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٧) المصدر السابق ٣٦٠ .

(٨) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ، الورقة الرابعة .

(٩) انظر رسالة الخلفاء ٣٦٣ .

(١٠) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ، الورقة الرابعة .

(١١) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ، الورقة الخامسة .

(١٢) انظر رسالة الخلفاء ٣٧٥ .

وحدد ولاية ألى الفضل جعفر المقتدر بالله - بخمس وعشرين سنة غير شهرين^(١) ، ثم حددتها بخمس وعشرين سنة غير عشرين يوماً^(٢) .

قدر ولاية ألى العباس الراضى بالله سبع سنين غير شهر تارة^(٣) واثنين وعشرين يوماً ، وسبع سنين غير أيام تارة أخرى^(٤) .

وقدر ولاية ألى القاسم الفضل المطيع بن المقتدر تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف تارة^(٥) ، وثلاثين سنة كاملة تارة أخرى^(٦) .

جعل خلافة ألى بكر عبد الكريم الطائع ستة عشر عاماً وأشهر^(٧) ، ثم جعلها ستة عشر عاماً فقط مرة أخرى^(٨) .

وترجع هذه الأخطاء في نظرنا إلى منهج ابن حزم في التقييد الشديد للتواريخ ، ولعل هناك تصحيحاً من النساخ في بعض الأعداد - كما أننا نرجح أن ابن حزم كان يكتب أحياناً من الذاكرة ، وبخاصة أن كثيراً من كتبه أصابها الإحراق ، ولعله - رحمة الله - لم يكن يستطيع معرفة ما انتهى إليه قبل ذلك ، حتى يتلافى مثل هذا القصور .

تراث ابن حزم في التاريخ الأندلسي :



(١) فضائل الأندلس وأهلها :

كتب ابن حزم هذه الرسالة دفاعاً عن « الأندلس » في مواجهة « المشاركة » ، وقد كان السبب المباشر في كتابتها - كما حكى لنا - أن ابن الربيب الحسن بن محمد

-
- (١) انظر رسالة الخلفاء ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
 - (٢) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ، الورقة الخامسة .
 - (٣) انظر رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٧٨ .
 - (٤) انظر مخطوطة جمل من التاريخ الورقة الخامسة .
 - (٥) انظر رسالة أسماء الخلفاء ص ٣٧٩ .
 - (٦) انظر جمل من التاريخ ، الورقة الخامسة .
 - (٧) انظر رسالة الخلفاء ص ٣٧٩ .
 - (٨) انظر مخطوطة جمل من التاريخ ، الورقة الخامسة .

القيروانى - المواطن - قد أرسل رسالة إلى أبى المغيرة عبد الوهاب ابن عم ابن حزم يعيب فيها على أهل الأندلس تقصيرهم في تخليد علمائهم ومآثر فضائلهم^(١) .

وقد اتخذ ابن حزم الأساس الفكرى وسيلة للتفضيل ، دون أن ينسى أن يضيف إلى ذلك خصائص قرطبة ، وما قدمته الأندلس - بعامة - من نتاج علمى .

فالرسالة بهذا جزء من التاريخ الحضارى للأندلس . وقد كانت رائدة في الأندلس لفن المفاخرات وهو فن أبرزه شعور الأندلسيين بالحب لوطنهم الذى تحيط به المشكلات من أكثر من جهة ، وعلى خطى رسالة ابن حزم هذه جاءت رسالة ابن سعيد الأندلسى التى تمثل تذييلاً لرسالة ابن حزم ، ثم أتت بعدهما بقرنين رسالة اسماعيل بن محمد الشقندى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ، فكانت تطوراً جديداً في هذا الفن التاريخى .

وتقع رسالة ابن حزم في إحدى وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، وهى ثبت بأهم المؤلفات والعلماء المعتد بهم في تاريخ الحضارة الأندلسية إلى عصر ابن حزم ، وسوف نتناولها بالتقويم بعد سردنا لمؤلفات ابن حزم في التاريخ الأندلسى .

٢ - ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس :



هذا مخطوط لم يصل إلينا بعد ، لكن تلميذ ابن حزم أبا عبد الله الحميدى قد لخصه لنا أو ربما حمل إلينا أكثر ما فيه ، وذلك حين اتكأ عليه اتكاء كلياً فيما أورده صدر كتابه (جذوة المقتبس) عن تاريخ الأندلس منذ افتتاحها إلى عصره - وهى الفترة نفسها التى كانت موضوع كتاب ابن حزم المقصود .

وقد كان الحميدى أميناً صادقاً ، فاعترف لنا بعد أن أورد مقدمته عن تاريخ أمراء الأندلس إلى عهده أن ما أورده من تاريخ أمراء الأندلس قد استفاد أكثره من شيخه

(١) رسالة فضائل أهل الأندلس الصفحة الأولى تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

أبى محمد على بن حزم^(١) ، كما أنه في ثنايا الصفحات المذكورة قد ردد هذا الاعتراف غير مرة .

ولما كانت هذه المعلومات التاريخية التي ذكرها لم توجد في كتاب من كتب ابن حزم التي طبعت ، فمن المرجح أن الحميدى قد نقلها عن مخطوطة ابن حزم المفقودة (ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) .

ونحن نرجح شيئاً آخر : هو أن كتاب « الأمراء » هذا كان كبيراً ، ذلك لأن الحميدى قد اعتمد في ذكر كثير من تراجمه على ابن حزم - وقد حللنا ذلك من قبل عند الحديث عن مدرسة ابن حزم التاريخية .

وليس في مخطوطات ابن حزم كتاب مؤهل ليضم هذه المعلومات غير هذا الكتاب . وربما جاء بعده مخطوطه المعنون « بفهرست شيوخ ابن حزم » الذي لا نعتقد أنه يمكن أن يضم أكثر التراجم التي أوردها الحميدى واعتمد فيها على شيخه ابن حزم .

(٣) رسالة « التخليص لوجوه التخليص » :



تجلى قيمة هذه الرسالة في أنها تجيب عن عدة أسئلة وجهت لابن حزم يعيننا منها سؤالان هما :

- ما رأى ابن حزم في الفتنة الأندلسية وانقسام البلاد إلى إمارات ؟ .
- كيف تكون السلامة في المطعم والمأكل والملبس للذين يسكنون الأندلس في ظل تلك الفتنة ؟

وإذا كان السؤال الأول سيفسر لنا بعض الأمور السياسية فإن السؤال الثانى يفسر لنا بعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية في عصر الفتنة .

وتقع هذه الرسالة في خمس وأربعين صفحة من القطع المتوسط^(٢) ، وتكاد

(١) انظر الجذوة ص ٣٦ .

(٢) من ملحقات كتاب : الرد على ابن النفريلة ورسائل أخرى بتحقيق الدكتور إحسان عباس .

تهيمن عليها ، وعلى أسئلتها وإجابات ابن حزم ، روح الإحساس بالأزمة الحضارية الأندلسية ، وروح النعمة على ملوك الفتنة المتصارعين .

٤ - طوق الحمامة في الألفة والألاف :

يعتبر الطوق وثيقة تاريخية مهمة تناولت عصرى الفتنة والطوائف ، بل وألقت كثيرا من الأضواء على عصرى بنى عامر الذين وزر لهم والد ابن حزم . وتكمن قيمة الطوق التاريخية فى أنه وثيقة تكشف لنا كثيرا من أبعاد الحياة الاجتماعية الأندلسية ، لم نكن نستطيع التعرف عليها من خلال كتب التاريخ السياسى وجميع من تناولوا « الطوق » بالدراسة مجمعون على أهمية الطوق فى معرفة حقائق خفية عن مجتمع الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، وبخاصة الحياة الاجتماعية للطبقة الراقية .

وقارىء رسالتنا هذه سوف يرى الطوق يتردد فى غير مكان كأحد المصادر الأساسية فى الحديث عن الأندلس اجتماعيا وسياسيا .

ولم تصل إلينا نسخة كاملة من الطوق حتى الآن وإنما وصلت إلينا نسخة قد حذف أكثر ما فيها من شعر ، ولا يدرى هل حذف شىء من نثرها أم لا ؟ وتقع النسخة التى اعتمدنا عليها ولعلها آخر مخطوط حقق للكتاب فى خمس وثمانين ومائة صفحة من القطع المتوسط^(١) .

وقد حظى الطوق بتحقيقات ودراسات لعلها لم تتوافر لكتاب آخر من كتب الفكر الإسلامى^(٢) . وكان للمستشرقين نصيب وفير فى هذا الاهتمام .

(١) بتحقيق الأستاذ الدكتور - الطاهر أحمد مكى . طبع دار المعارف .
(٢) نذكر هنا - على سبيل المثال - بعض الطبقات والتحقيقات والدراسات التى دارت عن الطوق ومنها : ١ - ترجمة خوان فاليرا الأسبانية . ٢ - ترجمة يونس بويجى إلى الأسبانية . ٣ - طبعة درك بتروف الروسى للطوق سنة ١٩١٤ (وهى الطبعة الأولى للنص العربى) ٤ - طبعة محمد ياسين عرفة . ٥ - طبعة ليون بلرشييه وله دراسة أيضا . ٦ - طبعة حسن كامل الصوفى . ٧ - طبعة الدكتور الطاهر أحمد مكى وله دراسة أيضا . ٨ - دراسة لريتهادت دورى ٩ - دراسة - لكارل روكلمان . ١٠ - دراسة لحولد تسهر . ١١ - طبعة لقان أرايدونك المستشرق - دراسة للمستشرق الايطالى فرانيسكون جابريل سنة ١٩٤٩ . ١٣ - طبعة بالروسية للمستشرق لبقان كوزمين سنة ١٩٣٣ ١٤ - دراسة للمستشرق الأسباني اميليو غرسيه غومس .

تقويم تراث ابن حزم في التاريخ الأندلسي :



يعتبر تاريخ ابن حزم للأندلس - تصويرا صادقا لأندلس النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

وإذا كان أبو مروان بن حيان قد قدم لنا التاريخ السياسي لهذا العصر وجاء بعده ابن بسام - فقدم النواحي الأدبية ، بما يمتاز به أولهما من مقدرة نقدية فائقة ، وما يمتاز به ثانيهما من جزالة وبيان مشرق - فإن أحداً منهما لم يوفق إلى شيء من تلك النظرات الصادقة ، والأحكام الصائبة النافذة التي أبداهما ابن حزم نحو أحداث عصره ونحو مجتمع الطوائف^(١) .

لقد عاش ابن حزم في عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف^(٢) - كما نعلم - وقد شهد ابن حزم عن كثب - وبحكم طبقته الاجتماعية والسياسية - الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته . ومن تصرفات أمراء الطوائف ومثاليهم ، وبغيتهم ، واستهتارهم وقد هزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق^(٣) . ويضاف إلى هذا - أن ابن حزم أندلسي الولاء ، يدين لهذه الأمة الأندلسية ، العربية بمشاعره وعواطفه .. وبالتالي فإن ما آل إليه أمر الأندلس قد هزه هزا عنيفا ، فدفعته الاستجابة للتحدي إلى أن يقف مدافعا عن « إسلامية الأندلس » ، وعن « عروبتها » وعن « شخصيتها وتاريخها » .

١٥ - دراسة للمستشرق ليفي يروفتسال . ١٦ - ترجمة إلى الروسية للمستشرق سالة سنة ١٩٣٣ ، ١٧ - ترجمة إلى الإنجليزية للمستشرق الأمريكي نيكول . ١٨ - ترجمة إلى الألمانية للمستشرق فايسنباير . ١٩ - دراسة لجونثال بلانثيا . ٢٠ - دراسة لديلاس أوليري . ٢١ - دراسة لفوستاف فون غرنباوم . ٢٢ - وهناك دراسات في دائرة المعارف المختلفة . عربية وأجنبية طبعات غير محققة صدرت دون أن تضيف شيئا ونحن لم نذكر الدراسات التي دارت حول الطوق العربية لأنها أكثر من أن تحصر وحسبنا أن نشر إلى أن صديقنا الدكتور مصطفى عبد الواحد قام بدراسة الطوق في نحو مائة صفحة من كتابه : « دراسة الحب في الأدب العربي » وأن الأستاذ الدكتور طاهر مكي أصدر كتابا مستقلا عن (ابن حزم وكتابه) (الطوق) بالإضافة إلى تحقيقه الجيد للطوق .

(١) عنان : مقال : ابن حزم الفيلسوف الذي أرح لمجتمع الطوائف العربي ٦٨ يوليو ١٩٦٤ م وانظر عنان : دول الطوائف ٤٣٢ .

(٢) انظر ابن عذاري : البيان للمعرب ٣ - ١٣٧ ، وانظر د - علي حبيبة مع المسلمين في الأندلس ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٣) انظر عنان : دول الطوائف ٤٣٢ . بتصرف .

لقد عرض ابن حزم لتاريخ الأندلس منذ افتتاحها ، فتحدث عمن فتحها ، ومن وقع ذكره ممن دخلها من التابعين وممن وليها من الأمراء^(١)

ثم عرض لتاريخ الأندلس في ظل الأمويين منذ أول أمراء بني أمية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام - المكنى بأبي المطرف - ومولده بالشام سنة ثلاث عشرة ومائه ، وأمه أم ولد اسمها راح ... واتصلت ولايته إلى أن مات سنة اثنتين وسبعين ومائة ... وكان من أهل العلم .. والعدل .. كذا قال أبو محمد علي بن حزم^(٢) . وتتابع التراجم وفق الترتيب التاريخي وعلى هذا النهج نفسه - بعد عبد الرحمن الداخل - فيورد ابن حزم ترجمة الأمير هشام بن عبد الرحمن ، والحكم ، وعبد الرحمن - إلى أن يصل إلى هشام المعتد ، ثم يختم عرضه بتصوير الفتنة والطوائف^(٣) .

ويحدد ابن حزم بداية هذا العصر النكد (الفتنة والطوائف) بهشام بن سليمان ابن الناصر القائم على المهدي سنة ٣٩٩ هـ - فمن ذلك اليوم سل سيف الفتنة ولم يغمد إلى يومنا هذا^(٤) .

ويمتاز منهج ابن حزم في هذا العرض التاريخي بالخصائص ذاتها التي امتاز بها منهج ابن حزم في عرض شخصيات الدولتين الأموية والعباسية في المشرق وهي الإيجاز والدقة في تحديد تاريخ الوفاة وتحديد مدة الولاية ، وذكر الأم ونسبها ومكانتها الاجتماعية^(٥) .

(١) انظر الحميدى حذوة المقتبس من ص ٢ إلى ص ٧ ونشر هنا مرة أخرى إلى أن المقدمة التاريخية للحميدى في صدر الجلوة قد نقلها باعتراؤه عن ابن حزم وقد لخصها فيما أرجح من رسالة ابن حزم المفقودة : (ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس)

(٢) الحميدى : الجلوة ٨ ، ٩ .

(٣) المصدر السابق - الصفحات من ٩ إلى ٣٧

(٤) جبهة أنساب العرب ١٠٢

(٥) وهذه الخصائص دليل على نسبة المقامة التاريخية التي صدرت كتاب (الجلوة للحميدى) - لابن حزم ، حتى ولو يعترف الحميدى بذلك صراحة .

هذا فضلا عن اهتمام ابن حزم بالاستشهاد ببعض الشعر المنسوب إلى المترجم له ، وبعض الأحداث والمآثر المتصلة به على نحو ما أورد من شعر - عبد الرحمن الداخل في شوقه إلى معاهده بالشام^(١) وعلى نحو ما أورد في الحديث عن مآثر عبد الرحمن وابنه الحكم المستنصر^(٢) ، وعبد الرحمن المستظهر^(٣) .

كما أنه يقدم المترجم له بما يعتقد أنه فيه ، كنعته للحكم بن هشام الربضي بأنه سفاك للدماء مجاهر بالمعاصي^(٤) ، ولمحمد بن عبد الرحمن المستكفي بأنه كان في غاية السخف ، وأن له أخباراً يقبح ذكرها^(٥) .

وإلى جانب هذا التاريخ كان لابن حزم فضل تعريفنا بكثير من البيوتات الأندلسية كدار « بلى » بالموضع المعروف باسمهم في شمالي قرطبة^(٦) ، ودار ثوابة بقرية آشن^(٧) وبيوتات البربر بالاندلس كوزداجة وملزوزة ، ومكناسة ، وزنانة ، ومديونة ، وهوارة ، ومصعدة ، وأوربة ، وزوارة ، وصنهاجة^(٨) . وغيرها من بيوتات العرب والبربر . كما كان له فضل تعريفنا بعشرات من علماء الأندلس وأعمالهم العملية ، وبالكتب والمؤلفات التي صنفت في فنون مختلفة كالتفسير والحديث والأدب والتاريخ وغيرها^(٩) .

وإلى جانب العرض التاريخي كانت لابن حزم نظرات تحليلية نقدية وآراء جديدة طريفة ، وتصوير لآفات اجتماعية أندلسية - مكنته من إعطائنا زادا لا بأس به في حقل الدراسات التاريخية الأندلسية .

(١) انظر الحميدى : الجذوة ٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، وانظر الجبهة أنساب العرب ص ١٠٠ .

(٣) انظر الحميدى ٢٥ ، ٢٦ ، وانظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣ - ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤) انظر نقط العروس ٧٣ وانظر عنان : دولة الإسلام في الأندلس ١ - ٢٥١ .

(٥) انظر الحميدى : الجذوة ٢٧ .

(٦) انظر جبهة العرب ٤٤٣ .

(٧) انظر المصدر السابق ٤٢٣ .

(٨) انظر المصدر السابق ٤٩٨ وما بعدها .

(٩) انظر رسالة فضائل الأندلس وأهلها الصفحات من ١٢ إلى ٢٨ .

ولعل ابن حزم كان صاحب الفضل في تعريفنا بأن الأندلس لم تخمس وتقسّم عند الفتح كما فعل رسول الله فيما فتح ... ، لكن نقد الحكم فيها بأن لكل يد مأخذت ، ووقعت في البلاد غلبة إثر غلبة ، دخلها أولا البربر الأفارقة فحازوا ما حازوا ثم الشاميون أصحاب بلج بن بشر ، فأخرجوا الفتنة البربرية فأخذ البربر يستولون على ما بأيدي السكان ويشنون الغارات على المواشي وثمار الزيتون^(١) .

وكلام ابن حزم هذا قد قطع الشك في قضية من القضايا التي ثار حولها خلاف كبير بين المؤرخين^(٢) . واعتبرت أول نشاز في تاريخ الفتوحات الإسلامية .

لكن عظمة ابن حزم (مؤرخ الأندلس) قد تجلّت على نحو بارز في تقويمه للملوك الطوائف الذين كانوا من أسباب الفتنة . التي اجتاحت الأندلس فإن ابن حزم لم يبع ضميره لأحد من ملوك الطوائف أو زعماء الفتنة ولم ينتفع من أعطياتهم ، كما فعل نظرائه كأبي الوليد الباجي الفقيه ، والمؤرخ الكبير ابن حيان وغيرهما .

بل استطاع أن يتعد عنهم جميعاً ، وأن يضعهم جميعاً في ميزان الحق وأن يقومهم تقويماً صحيحاً ، وأن يرقب خطر انحرافاتهم وصراعاتهم على الأندلس . ويتضح هذا الموقف الموضوعي الحر من ابن حزم في تعليقاته الكثيرة التي حفلت بها دراساته . منها تعليقه الساخر على ما حدث من قيام محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن حمود ببشتر ، وخلف الحصري باشبيلية (المتسمى كذبا بهشام ابن الحكم) بقوله :

إنها « فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها ... أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام .. كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ويخطب لهم بها في زمن واحد^(٣) .

ومن هذه المواقف تعليقه على ادعاء خلف الحصري أنه هشام بن الحكم بعد اثنتين وعشرين سنة من موته ، ومبايعة الناس وإقامة الخطب له على جميع منابر

(١) رسالة التلخيص لوحوه التلخيص ص ١٧٦ (من الرد على ابن التبريلة ورسائل أخرى) بتحقيق الدكتور إحسان عباس وانظر المقدمة ص ٢٩ .

(٢) انظر د - حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ .

(٣) نقط المروس ٨٣ بتحقيق الدكتور شوق صيف .

الأندلس في أوقات شتى وسفك الدماء وتصادم الجيوش في أمره - بأنها « أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها »^(١) .

وتعليقه - على تصالح يحيى بقرطبة والقاسم بأشبيلية بأنه لم يسمع في الدنيا أن خليفتين تصالحا إلا هذين ، وبأن هذا من الشنع الدالة على إدبار الأمور^(٢) .

ويدخل في هذا الباب أيضا تعليقه على كثرة ألقاب الخلفاء ونعوتهم ، قال : « ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب جدا حتى تسمى هذه الأسماء السماسرة ورذالات الناس ... ولقد كانت دولة عبد الملك وسليمان والوليد وعمر وهشام لا عضد لها ولا عماد ولا لقب إلا أسماءهم ، وكانت قد طبقت الدنيا طاعة واستقامة والدولة الآن أكثر ما كانت أعضادا وعمداً وقد طبقت الدنيا ضعفا ومهانة »^(٣) .

ويقدم ابن حزم - في سخرية شديدة - لجماعة المتهافتين من هؤلاء الخلفاء الصغار قائمة طويلة من الأسماء التي تصلح للخلفاء ولم تستعمل بعد^(٤) ! !

ويدين ابن حزم العصر كله بسبب هذه الأوضاع الظالمة السائدة التي تردى إليها ملوك الطوائف ، حتى اختلط الحلال بالحرام اختلاطا شديدا : « إني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالا ولا دينارا طيبا يقطع على أنه حلال حاشي ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب »^(٥) .. والسبب في ذلك اغتصاب الملوك لأموال الناس ظلما وعداونا ، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته والقمع لمن خالفه^(٦) .

بل إنه يرمى ملوك الطوائف بأشد صور الخيانة لله والأندلس ، فيقسم بالله إن هؤلاء الملوك : لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية لأموالهم لبادروا إليها فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم

(١) نقط العروس ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٨٠ وانظر المراكشي : المعجب ١٥١ .

(٣) نقط العروس ٨٦ .

(٤) المصدر السابق ٨٤ .

(٥) الرد على ابن الغزيلة ورسائل أخرى ص ١٧٥ .

(٦) المكان السابق .

أسارى إلى بلادهم ... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه ^(١) .

- وفي رأينا - أن هذه الأحكام القاطعة - السليمة في عمومها - تدمغ عصر الطوائف بشدة ، وتبعث في النفس أشد ضروب الأسى والألم ^(٢) لهذا الذى انتهت إليه حال مسلمي الأندلس في القرن الخامس الهجرى .

ونحن لا نظن أن ابن حزم قد تجنى على ملوك الطوائف هؤلاء على الرغم مما قيل عن معطيات عصرهم في مجال الشعر والأدب .

فالحقيقة أن ابن حزم كان ينظر للوضع بمقياس حضارى .. ينطلق من رؤية تاريخية واعية ، وإحساس بالمسئولية . ولقد أثبتت كثير من الدراسات والوثائق التى ظهرت بعد ابن حزم أن هؤلاء الملوك قد أساءوا في سلوكهم الشخصى وفي سياستهم الداخلية والخارجية ، ولم يكونوا على مستوى الأخطار المحدقة بالأندلس وقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالقروض والمغارم لملء خزائنها وتحقيق ترفهم وبذخهم . ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من الدين ولا من الأخلاق ... وقد كانت سياستهم الخارجية موضع السخط من شعوبهم والظعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين ^(٣) . ولاسيما المفكرين المخلصين الذين لا يأكلون على موائدهم ، ولا يعملون في وظائفهم .

وكان ابن حزم من أبرز هؤلاء المفكرين الصادقين الذين وضعوا هؤلاء الملوك في مكانهم الصحيح من التاريخ ، وقدموهم دون خوف أو ملق - كتجربة سيئة - إلى من جاء بعدهم . مبينين في الوقت نفسه السبب الأكبر الذى من أجله ضاعت دولة الاسلام في الأندلس .

وهذه يد أخرى من أيادى ابن حزم المؤرخ الأندلسى المسلم .

(١) الرد على اس التفريلة ورسائل أخرى ١٧٧ .

(٢) انظر عنان : دول الطوائف ٤١٩ .

(٣) عنان : مقال ابن حزم الفيلسوف الذى أرخ لمجتمع الطوائف ، العربى ٦٨ يوليو ١٩٦٤ م

خاتمة عن أثر فكر ابن حزم في المغرب العربي :



عاش ابن حزم مبغضاً للسياسة ، بعد أن ذاق من جرائها مرارة السجن ، وعلى من الاضطرابات والتقلبات ^(١) التي صاحبت الحقبة الأخيرة التي أعقبتها سقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ ^(٢) .

وكان رجال السياسة ينفرون منه تملقاً للعامة الذين نجح الفقهاء في تشويه صورة ابن حزم عندهم . وما كان لإحراق المعتضد بن عباد - حاكم أشبيلية - لكتبه إلا تملقاً لغرائز الفقهاء والغوغاء معاً .

لكن لم يكد يظهر عصر عبد الواحد المراكشي (٥٨١ - ٦٤٧ هـ) حتى وجد المراكشي نفسه مضطراً لأن يقطع نسق حديثه ليتكلم عن ابن حزم وليقول : إنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل - أي ابن حزم - وإن كانت قاطعة للنسق مزيجية عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء على ألسنة العلماء ، وذلك لخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر - ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم ^(٣) .

لقد كان المراكشي مؤرخاً للدولة الموحدين ، وكان الموحدون قد أسسوا دولة سيطرت على الشمال الأفريقي كله ، ولم تلبث أن عبرت المضيق إلى الأندلس ، وكانت مبادئ هذه الدولة تقوم على أساس نبذ الارتباط في الفروع بمذهب معين بل عمدت إلى محاربة المذاهب وإحراق كتبها - كما أحرقت من قبل في عصر سيطرة الفروع (عصر الطوائف والمرابطين) كتب أبي حامد الغزالي وأبي محمد بن حزم .

(١) انظر ماورد في الفصل الثال من الباب الأول .

(٢) انظر ما ورد في ذلك في الفصل الأول من الباب الأول .

(٣) المعجب ص ٩٦ ، ٩٧ .

نشأت فكرة دولة الموحدين في المغرب على يد المهدي بن تومرت (٤٧٣ - ٥٢٤ هـ) الذي مات قبل أن تقف الدولة على قدميها عندما كانت مراکش ممتنعة عن قواته ^(١) ، فجاء من بعده تلميذه عبد المؤمن بن علي فتمكن في عام ٥٤٨ هـ من توحيد المغرب العربي (المغرب الأقصى ، والأوسط ، وتونس ، وجزء من طرابلس) تحت راية الدعوة الموحدية ، محققاً بذلك حلم أستاذه المهدي في القضاء على دولة المرابطين التي استبد بها الفقهاء ، وانتشرت في أرجائها المفاصد ، وتبعد الناس فيها بفقهم مالك ، وابتعدوا عن الاتصال بالقرآن والسنة ، وعن رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان المهدي الذي بنى الكيان الفكري للدولة متأثراً بالإمام أبي حامد الغزالي في آرائه الكلامية من جانب ^(٢) ، وبأساليب ابن حزم العنيفة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^(٣) ، وآرائه في الفروع وموقفه من الفقهاء ^(٤) ، ومعارضته للصوفية من جانب آخر ، فضلاً عن بعض آرائه الخاصة التي جعلته يشد في بعض الجوانب عن الغزالي وابن حزم معاً ، بل عن التفكير الإسلامي الصحيح كله ^(٥) .

ويؤكد الزعم بتأثير المهدي بكتب ابن حزم أن المهدي نزل قرطبة ، وأنه تتلمذ على أحد المتأثرين بابن حزم وهو الطرطوشي ، وأن هناك احتمالاً في أن المهدي قد قرأ كتب ابن حزم أثناء وجوده بالأندلس بعد عودته إلى المغرب ^(٦) .

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٢٥ ، ٣٢٦ وانظر د . عبد الله علام : الدولة الموحدية في المغرب

٤٣ واطر أوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ٢٥٣ ، ٢٥٥ . ج

(٢) انظر عبد الله عنان : تراجم إسلامية ٣٤٢ .

(٣) في أساليبه العنيفة انظر : د - عبد الله علام : الدولة الموحدية ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ..

(٤) انظر أوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ٢٥٥ ، وانظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٢٥ وانظر مونتجمري وات مجلة watt ، Actus 707 ، P مقال فلسفة الموحدين وعقيدتهم عند عام ١٩٦٤ مدريد مركز الدراسات الإسلامية .

(٥) وذلك مثل دعواه العصمة واعتماده على بعض الحيل في إقناع الناس بدعوته واستنائه باللماء ودعوته لإحياء القومية البربرية ويرى « مونتجمري وات » أن تأثير ابن حزم في ابن تومرت قليل لدرجة أن ابن تومرت كان كأنه يرتاد أرضاً جديدة . وإن كان قد عاد فذكر أن ابن تومرت سار على نهج ابن حزم الفكري إجمالاً واختلف عنه في التفصيل .

(٦) انظر أحمد أمين ظهر الاسلام ٣ - ٣٧ .

هذا بالإضافة إلى إحتمال أن يكون المهدي قد وجد في مذهب ابن حزم ما يؤيد دعوته^(١) ويبدو أثر ابن حزم واضحاً في المهدي بن تومرت في عدة مسائل تعتبر قوام مذهب الدينى : « أولى هذه المسائل هى رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة فهو يرى قبل كل شئ أن الشريعة لا تثبت بالعقل ، وعنده أن أصول الشريعة تنحصر فى القرآن والسنة ، وهو لا يعتبر القياس والإجماع من تلك الأصول^(٢) .

وواضح فى هذا الأساس مدى تأثير ابن حزم والظاهرية . وقد تأثر المهدي بابن حزم فى دعوته إلى القرآن والسنة ، وإعلان الثورة على الجمود والوقوف عند مذهب مالك فقد كان المهدي منذ رجوع من المشرق إلى المغرب محارباً لمفاهيم الفقه السائدة فى المغرب داعياً الناس إلى طريقته التى تؤكد فى الدرجة الأولى على التوحيد والاعتماد فى النظر الفقهي على السنة - بعد القرآن - كنموذج يحتذى فى الحياة ، بينما كان لاجتهادات الفقهاء التشريعية (الفروع) المحل الأرفع فى عهد المرابطين الذين جعل المهدي هدفه الأكبر - بالجدل والسلاح - القضاء على دولتهم ، وعلى فقهاءهم المتعبدين بالفروع^(٣) .

على أننا نستطيع القول : إن تأثير ابن حزم فى المهدي ذاب وسط آراء كثيرة متعارضة آمن بها المهدي ، ودعا إليها ، وهى آراء جعلت المهدي فى نظر بعض المفكرين شخصاً غامضاً يجمع بين آراء سنية وشيعية وبدعية .. لكن استتباب الأمر للدولة الموحدية على يد « عبد المؤمن بن علي » مهد الأمر أمام الموحدين للتخلص من بعض آراء المهدي .. فلم يأت بعده من تشبث بمجموع آرائه ، بل إن عبد المؤمن بن علي نفسه (٤٨٧ - ٥٥٨) هـ وأبا يعقوب يوسف الموحدي الذى ملك

(١) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٨ وانظر ورم لاندو الإسلام والغرب ٢٢٩ ، ٢٤٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ص ٢٥١

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٦ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن تومرت .

بين عامي ٥٥٨ ، ٥٨٠ هـ - كانا يميلان إلى « الظاهر » إلا أنهما لم يظهرهما (١) .

ويرى ابن أبي زرع المتوفى حوالي ٦٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وتابعه صاحب الاستقصاء في ذلك - أن عبد المؤمن أمر سنة خمسين وخمسمائة بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث - وكتب ذلك إلى طلبة المغرب والأندلس والعدوة ، ويبدو أن ذلك لم يتم .

فلما ملك الأمير الموحدى يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٨٢ - ١١٩٩ م) الذى كان يريد حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث (٢) - قام بجمع كتب الفروع من أنحاء البلاد وإحراقها ، وقد شاهد ذلك المؤرخ المعاصر عبد الواحد المراكشى (٣) .

وقد نجح يعقوب المنصور - بتأثير من آراء ابن حزم - فى تخليص الدولة الموحدية من بعض آراء المهدي الشاذة ، كقوله بالعصمة والإمامة كما أنه اعتبر المهدي مجرد مصلح ديني لا يعدو درجة عن ذلك (٤) ، ومهد بذلك الطريق للأمير الموحدى إدريس المأمون (٦٢٤ - ٦٢٦ هـ) - لإعلان نبذ الدولة الرسمى لكل مبالغات المهدي .

ولما رجع المنصور من غزوة الأرك المظفرة تقدم إليه أبو بكر بن هانيء الحباني - ممثلاً لأهل حبان للتهنئة - فسأله المنصور : ما قرأت من العلم ؟ قال : قرأت تواليف ابن تومرت - قال له المنصور : ما هكذا يقول الطالب . إنما حكمك أن تقول : قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت (٦) .

(١) انظر المراكشى : المعجب ص ١٨٥ د - عبد الله علام : الدولة الموحدية ٣٠٨ - ٣٠٩ ، وانظر مجلة اكسيريس تامودا الفرنسية بالرباط (مجلة كلية الآداب) عدد ٢ - ١٩٦١ مقال حول كتاب القدرح الملل للمستغرب أنور (مع ترجمته) (نقلا عن مجلة معهد المخطوطات ج ٢ مجلد ٤ - ١٩٥٨ محمد إبراهيم الكتاني) .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٨٤ .

(٣) انظر المعجب ص ١٨٤ .

(٤) انظر محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٤٣ .

(٥) انظر د - عبد الله علام : الدولة الموحدية ٢٢٣ .

(٦) انظر محمد الرشيد ملين . عصر المنصور الموحدى ٢٤٤ .

وهذه الواقعة تعكس روح المنصور في العمل على الاحتفاظ للكتاب والسنة بمنزلة رفيعة التي لا يجوز لأى كتاب أن يسمو إليها ... وتعنى وضع ابن تومرت في مكانه الطبيعي .

وقد حكى أحمد بن إبراهيم بن مطرف المرى أن المنصور استدعاه يوماً وقال له :
ياأبا العباس ، اشهد لى بين يدي الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة يعنى عصمة
ابن تومرت (١) !!...

ويذكر المراكشى أن يعقوب المنصور أنزل بكتب مذهب مالك محنة كبرى ،
فانقطع في أيامه تعليم كتب الفروع ، وخافه علماء المالكية ، وأحرق كتبهم - بعد
أن جرد ما فيها من الحديث والقرآن ... وقد أحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة
سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، ومختصره كتاب التهذيب
للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ...

ويقول المراكشى في مشاهدته لصورة من صور إحراق هذه الكتب : لقد شهدت
عنها - وأنا يومئذ بمدينة فاس - يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار ، وأمر
يعقوب بعدم الاشتغال بعلم الرأى ويوعده على ذلك بالعقوبة الشديدة (٢) .

والحق أن يعقوب المنصور كان قبل أن يقدم على الإحراق يدعو إليه أعيان المالكية
في المغرب ، ويناقشهم ، ويأمرهم بالإقلاع عن التعصب المذهبي وبالرجوع إلى
الكتاب والسنة ... ويبين لهم النتائج السيئة لهذه الخلافات المذهبية ، فإذا رضوا
فذاك ، وإلا هددهم بالسيف ، وقد قال بحسم لزعيم المالكية في عصره حين اجتمع
معه : ليس إلا هذا - أى القرآن - أو السيف (٣) .

وانتهت هذه المعركة الفقهية بوضع فقه على أساس من القرآن والسنة (٤) .

(١) انظر محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٨٢ .

(٢) د - عبد الله علام : الدولة الموحدية ٢٢٢ .

(٣) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٤٤ .

(٤) انظر المعجب (١٨٤) .

ويرى بعض المعاصرين أن فكرة الرجوع بالفقه المغربي إلى الكتاب والسنة ليست فكرة المنصور الموحدى ، وإنما الحقيقة أن ابن تومرت هو الذى بدأ ذلك ، ثم أراد عبد المؤمن بن على أن يعمم ذلك ، ولم يتمكن من تنفيذ ما أراد كما لم يتمكن ابنه يوسف من التنفيذ ، وكان فضل المنصور فى أنه الذى استطاع أن يبرز ذلك بوضوح وقوة ، وأن يحقق أحلام ابن تومرت (١) . وأن يجعل قاضى الجماعة (٢) فى عهده ظاهرياً من أتباع ابن حزم وهو أبو عبد الله محمد بن مروان التلمسانى الذى اشتهر بتعصبه لابن حزم تعصباً كبيراً (٣) ، كما أن المنصور عزم على فقهاء عصره وعلماء زمانه ألا يقللوا أحداً من الأئمة الماضين - وهى دعوة ابن حزم - بل تكون أحكامهم مما ينتهى إليه اجتهادهم (٤) .

ويتضح من ذلك أن الدولة الموحدية قامت منذ مؤسسها الأول على فكرة نبذ كتب الفروع ، والعودة إلى الأصول ، وهى الفكرة نفسها التى دعا إليها ابن حزم ، ولم يكن تأجيل تطبيق هذا الفكر راجعاً إلا إلى خشية سطوة فقهاء مذهب مالك الذين كانت لهم مكانة كبيرة بين العامة .

لكن عندما أصبح المنصور فى مركز الحكم والقوة ، اشتد فى معاملة المالكية ، ولم يحجم عن الأمر بتعذيبهم عذاباً كان يؤدى بهم إلى الموت أحياناً فلقد توفى أبو بكر الجيائى المالكى بعد امتحان من أبى يوسف (٥) .

ولما كان المنصور يريد لكل عالم أن يجتهد لنفسه من دون أن يعتمد على إمام

-
- (١) انظر : د - عبد الله علام : الدولة الموحدية ٣١٢ وانظر أحمد أمين : ظهر الاسلام ٣ - ٦٦ .
(٢) وصل كثير من أتباع ابن حزم - وبخاصة فى عهد الموحدين - إلى كبار المناصب ومن هؤلاء الفقيه الغرناطى أبو سليمان بن حوط الله وقد ولى قضاء أشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا ميورقة وعلى ابن على عبد الله بن يوسف المعافى قاضى أشبيلية ، والحافظ أبو بكر بن سيد الناس خطيب مسجد تونس أبو العباس أحمد بن مفرج الأشبيلية ، وابن دحية ، وغيرهم . (انظر بالشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ١٣٨ - ٢٣٩) .
(٣) انظر أبا سعيد أبا الحسن على بن موسى الأندلسى : الفصول الياضة ٣١ .
(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ١ - ٣٢٢ .
(٥) انظر محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٥٤ .

يرجع إلى رأيه في عويص المسائل ، فقد أراد حمل الناس على مذهب الظاهرية (١) باعتباره المذهب الذى يقوم أساساً على مبدأ الاجتهاد ورفض التقليد الأعمى .

ولقد عبر المنصور عن تقديره الكامل للإمام أبى محمد بن حزم عندما وقف على قبره (بأوفية) من أرض شابر حينما استردها من النصارى ... وقال عجباً لهذا الموضوع يضم رفات مثل هذا العالم ... ثم قال « كل العلماء عيال على ابن حزم » (٢) .

وهذا رأى الذى يعزو فكرة العودة إلى الأصول إلى المهدي بن تومرت نفسه ينتهى إلى أن الدولة الموحدية كانت على امتداد تاريخها ومنذ نشأتها تضمحل العمل بالظاهر والمذهب الحزمى ، لكنها كانت تنتظر الفرصة السانحة .

والحقيقة أننا عندما سردنا آراء المهدي بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن على - كنا نؤيد تأييداً محدوداً هذا رأى (٣) .. لكنا نعتقد أن الأمير يعقوب المنصور هو الذى حمل - بشجاعة - عبء العمل الظاهر ومقاومة سيطرة المذهب المالكي والتقليد ، ولم تعد آراء سابقه عن كونها فكرة لم تتجسد ، أو حكماً لم يصل إلى أرض الواقع ، لأن الظروف لم تكن تسمح بتحقيقه .

ومن الأسف أن دولة بنى مرين لما جاءت نقضت ذلك كله ، وجددت كتب الفروع ، وأحييت كتب الفقه على مذهب مالك من جديد .



(١) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٥٤ وانظر سعيد الأفغانى : ملخص إبطال القياس (مقدمة) ص ١٠
(٢) انظر المقرئ : نفح الطيب : ٢٢٢ ٤ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ، ومحمد الرشيد ملين : عصر المنصور ٢٥٥ ومحمد الكتانى : مقال مؤلفات ابن حزم : الثقافة الغربية عدد ١ الرباط ، وسعيد الأضاقي : ملخص إبطال القياس ص ١٠ (مقدمة) .

(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ٣ - ٦٦ .



الباب الثالث

الحضارة عند ابن حزم



الفصل الأول

الفكر السياسي عند ابن حزم



المؤثرات في الفكر السياسي عند ابن حزم :

يعتبر ابن حزم مفكراً إسلامياً شأنه شأن كثير من المفكرين الذين يدورون في فلك الإطار الإسلامي - لكنهم - في الوقت نفسه - ينجحون في الوصول إلى آراء تنتسب إليهم ، ويكون من نتائجها إثراء الفكر الإسلامي في المجال الذي يدرسونه . ومن واقع التراث الذي خلفه لنا ابن حزم في مجال الفكر السياسي الإسلامي نستطيع أن نقرر أن الفكر السياسي عند ابن حزم ينطلق من أنه فقيه مسلم له منهجه الظاهري في فهم النصوص ، وأنه مفكر مثقف عاش تجربة سياسية ، لها سلبياتها ، التي أوحى إليه ببعض عناصر الفكر السياسي الصالح . وأرته عن كثر الآثار السيئة للنظام السياسي الفاسد .

وبالإضافة إلى ذلك فإن ابن حزم مؤرخ درس نظام الخلافة الإسلامية واطلع على حسناته وعيوبه ، ولم يترك من ذلك شيئاً إلا أحصاه عداً^(١) ، وله في ذلك رسالة تعد نصاً نفيساً ضم الخطوط العامة للخلافة الإسلامية والخلفاء حتى عصره ، سواء ما اتصل بإقامة هذا النظام وانتقاله من عصر إلى عصر ، ومن خليفة إلى خليفة بعهد أو مغالبة ، أو ما أصاب هذا النظام من تدهور وفساد^(٢) .

(١) انظر د - شوقي ضيف مقدمة نطق العروس ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

وقد ساعده في استيعاب القضايا السياسية أنه رائد في دراسة الملل والنحل ،
والصلة وثيقة بين الملل والنحل - والفكر السياسي ، بل إن كثيراً من المذاهب قد
قامت على أساس فكرة هي في حقيقتها - سياسية ، ولأغراض سياسية كذلك .

والحق أن ابن حزم قد تناول كثيراً من قضايا الفكر السياسي من جوانبها التاريخية
والتشريعية والكلامية .

ومن هذه القضايا التي تناولها ابن حزم بالدرس والتحليل ، وكانت ذات صلة
كبيرة بالفكر السياسي الإسلامي : آراء الخوارج في الحكم ومرتكب الكبيرة ، وآراء
السنة والشيعة وغيرهم في المفاضلة بين الصحابة (في أمور السياسة) ونظام الخلافة
في الإسلام وما يتعلق به من ولاية وقضاء وحقوق وواجبات وما إليها .

رأيه في مذهب الخوارج :

لقد أدى حادث التحكيم بين علي ومعاوية ، والذي حكم فيه أبو موسى الأشعري
وعمر بن العاص - إلى بدء ظهور الفرق ذات الآراء السياسية في التاريخ الإسلامي .
وقد كان ذلك - أول ما كان - عندما رفض فريق من جيش علي بن أبي طالب -
رضي الله عنه - نتيجة التحكيم ، إذ لم تأت بما يوافق هواهم . وادعوا عند ذلك
أنهم لا يرضون نتيجة التحكيم ، وإنما يرفضون مبدأ التحكيم ذاته . رافعين شعاراً ،
وصفه علي بن أبي طالب بأنه « حق يراد به باطل » ، وهو شعار « لا حكم إلا
لله »^(١) وهو الشعار الذي أصبح علماً على مذهبهم ، والذي - يؤدي في
النهاية - إلى نوع من مساندة الفوضى ضد كل حاكم وضد كل وحدة قانونية .

ويرى ابن حزم - في الخوارج - أنهم كفرة خارجون يجب قتالهم ولهذا فهو يعتبر
قتال « علي » لهم فتحاً كفتوحات أبي بكر وعمر : « وكفى به فتحاً ، ولقد لقي

(١) انظر د. محمد سليم العوا - في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ٦٨ بتصرف .

الناس ممن نخا نحوه من المخاوف والقتل والنهب مالا يجهل وكيف وهو فتح قد أنذره به ، رسول الله ﷺ (١) .

ويدعم ابن حزم رأيه - في الخوارج - بسرد آراء فرقة من فرقهم وهم الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق ، فهؤلاء « أباحوا دم الأطفال ممن لم يكن في عسكرهم ، وقتل النساء أيضاً ... وقالوا باستعراض كل من لقوه من غير أهل عسكرهم ويقتلونه إذا قال أنا مسلم ، ويحرمون قتل من انتمى إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى المجوس .

وبهذا تنبأ لهم رسول الله ﷺ بالمرقوق من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، إذ قال عليه السلام إنهم يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان » (٢) .

ومن جانب آخر خالف ابن حزم رأى الخوارج في مرتكب الكبيرة ، فإن أكثريتهم قد رأت أنه كافر ليس من أهل القبلة - في حين اعتبره الحسن البصرى منافقا ، وقال أكثر المعتزلة إنه في منزلة بين المنزلتين (مسلم فاسق) وذهب بعض المرجئة إلى أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة (٣) .

لكن ابن حزم قد عالج هذه المشكلة التي شغلت حيزاً من الفكر السياسى الإسلامى بمنهج ظاهرى يعتمد على النصوص كلها ، فلا يفضل نصوص العفو والمغفرة ، ولا نصوص الحساب والعقاب (٤) ، ولذا يقول : من لقي الله عز وجل وله كبيرة لم يتب منها فأكثر فالحكم في ذلك الموازنة ، فمن رجحت حسناته على كبائره فإن كبائره وسيئاته كلها تسقط ، وهو من أهل الجنة لا يدخل النار ، وإن استوت حسناته مع كبائره وسيئاته فهؤلاء مجازون بقدر ما رجح لهم من الذنوب (٥) .

(١) جل : فتوح الإسلام ص ٣٤٠ (من ملحقات جوامع السورة) .

(٢) الفصل ٤ - ١٨٩ .

(٣) انظر أبو زهرة : ابن حزم ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) المكان السابق .

(٥) الفصل ٤ - ٤٥ ، ٤٦ .

وقيمة هذا الرأي من الناحية السياسية هو بيان مدى الانفساح الذي تقع فيه دار الإسلام ، وهل يدخل فيها « مرتكب الكبيرة » أم لا ؟ وبالتالي فهل موقف « التكفير » من الخوارج مخالفهم في المواقف السياسية - موقف مقبول أم لا ؟ .
ونحن نرى أن رأي ابن حزم في هذه القضية أقرب إلى روح الفكر الإسلامي من آراء طائفة الخوارج والمعتزلة .

المفاضلة بين الصحابة :



لقضية المفاضلة بين الصحابة أهميتها في الفكر السياسي الاسلامي إذ هي - في نتيجتها - ستنتهي إلى تحديد من من الصحابة كان أولى بالتقديم بعد وفاة رسول الله ﷺ .

وقد استعرض ابن حزم أقوال الفرق المختلفة فيمن هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ : فمن قائل على بن أبي طالب ومن قائل عمر بن الخطاب ومن قائل جعفر ابن أبي طالب ، ومن قائل أبو بكر ، وهم كثيرون ^(١) .

ويرى ابن حزم أن أفضلية الخلفاء الراشدين تتسلسل بحسب ولايتهم فأبو بكر أفضل من عمر ، وعمر أفضل من عثمان ، وعثمان أفضل من علي . وكل منهم يفضل ما يليه جهاداً وعلماً . وقد فضل أبو بكر الجميع بأن الرسول استعمله ، واستخلفه حين غزا ، كما استخلفه على الصدقات والحج ، والبعوث ، وكان مسامره ومجالسه في ظعنه وإقامته ^(٢) . كما أنه فضل في الفتيا ^(٣) والقراءة ^(٤) والزهد ^(٥) والعدل ^(٦) والكرم ^(٧) والسياسة ^(٨) وغيرها ^(٩) .

(١) انظر الفصل : ٤ - ١١١ ، ١١٢ .

(٢) انظر ابن حزم : رسالة المفاضلة بين الصحابة ٢٣٤ ، ٢٣٥ وانظر الفصل : ٤ - ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٦ .

(٤) المصدر السابق ٢٤٠ .

(٥) انظر المصدر السابق ص ٢٤٢ .

(٦) انظر المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٧) انظر المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٨) انظر المصدر السابق ص ٢٥٠ .

(٩) انظر المصدر السابق ٢٥٣ وما بعدها .

بل إن ابن حزم يرى أن أبا بكر ولى الخلافة بعهد صريح من رسول الله ﷺ ونص منه عليه ^(١) بينما تولاهما على مغالبة وقوة ^(٢) .

وتبع ابن حزم المنهج نفسه في تفضيل عثمان على (على بن أبى طالب) رضى الله عنهما ، وإن كان لا يجزم بهذه الأفضلية على نحو رأيه الحاسم في أفضلية أبى بكر ^(٣) .

لكن ابن حزم لم يفصل القول في تفضيل عمر ، لأنه - فيما نرجع - جعله يندرج تحت أبواب التفضيل التى تحدث فيها عن أبى بكر ، كما أن مقام المقارنة كان التفضيل بين أبى بكر وعلى لأن هذه هى شبهة الشيعة التى يعيشون عليها - وقد حرص على الرد عليهم - وإذا بطل تفضيل « على » على أبى بكر بطل - بالتالى - استحقاقه لأن يكون الخليفة الراشدى الأول .

ويصنف ابن حزم طبقات العصر الراشدى تصنيفاً دينياً ودنياً (فضل اختصاص من الله بلا عمل وفضل مجازاة بعمل ^(٤) على الترتيب التالى :

- ١ - نساء النبى عليه الصلاة والسلام وأفضلهن عائشة وخديجة ^(٥) .
- ٢ - الخلفاء الراشدون بترتيبهم فى الخلافة ^(٦) .
- ٣ - المهاجرون الأولون .
- ٤ - أهل العقبة .
- ٥ - أهل بدر .
- ٦ - أهل المشاهد مشهداً مشهداً بالترتيب فى المشاهد حتى الحديبية ^(٧) .
- ٧ - التابعون .
- ٨ - ثم عامة من أسلموا من العرب والعجم .

(١) انظر نقط العروس ٥٥ ، وجوامع السيرة ٢٦٤ والإحكام ٧ - ٩٨٢ ، ٩٨٣ .

(٢) نقط العروس ٥٦ .

(٣) انظر المصدر السابق ٢٦٣ وما بعدها . وانظر الفصل : ٤ - ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق ١٧٣ وانظر فى ذلك الفصل ٤ - ١١٢ .

(٥) انظر رسالة الخاضعة ص ٢٢٤ .

(٦) انظر المصدر السابق ٢٣٠ .

(٧) انظر المصدر السابق ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وهناك طوائف أخرى لا تندرج تحت هذه الطبقات ، وليس لها حق في العمل السياسي وإن كان لها تأثير سلبي ، وهم المناقسون^(١) ، والخوارج والروافض^(٢) .

وهذا التصنيف ، إنما يورده ابن حزم ، لتدعيم رأيه في أحقية أبي بكر في الخلافة من جهة ، ولبيان ضلال الشيعة الذين اعتمدوا على قرابة « فاطمة » التي فضل ابن حزم نساء النبي عليها - من جهة أخرى ، فهو بالتالي - يعطل دعوى الشيعة من جهتين : من جهة أفضلية نساء النبي على فاطمة ، ومن جهة أفضلية أبي بكر على علي بن أبي طالب .

ونحن نرى أن ابن حزم قد بالغ في أفضلية نساء النبي ، كما أننا لا نرى أن أبا بكر قد ولى بعهد صريح من الرسول عليه الصلاة والسلام وإلا لما كان للآراء التي قيلت في اجتماع السقيفة معنى .

رأيه في نظام الحكم وما يتصل به :

يرى ابن حزم أن الإمامة العامة^(٣) فرض لازم ، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة^(٤) ولا يجوز للأمة أن تتردد في اختيار إمام أكثر من ثلاث ليال^(٥) ومن بات ليلة وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية^(٦) .

ووجوب الإمامة العامة يرجع إلى النقل وإلى العقل ، فمن النقل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . ومن العقل أن

(١) انظر رسالة المفاضلة بين الصحابة ٢٦٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ٢٦٨ .

(٣) في تحديد مصطلح الإمامة انظر : دكتور ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية من ١٠٠ إلى ١٠٦ وانظر محمد حسن آل ياس : الإمامة ص ١٧ وما بعدها .

(٤) انظر الفصل : ٤ - ٨٧ وانظر الدكتور محمد فاروق النبهان : نظام الحكم في الإسلام ١٤٣ .

(٥) انظر معجم قه ابن حزم ٣٣٧ .

(٦) المحلى ١ - ٥٨ .

قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال والجنايات والدماء والنكاح والطلاق ... ومنع الظالم وإنصاف المظلوم وأخذ القصاص .. على تباعد أفكارهم وشواغلهم واختلاف آرائهم ... غير ممكن إلا بالإستناد إلى واحد^(١) .

وأيضاً : لما كانت الخلافة من الله على مناج رسوله ، وإقامة شعائر دينه ، احتاج الناس إلى من يقوم فيهم مقام نبيهم ﷺ - لتألف برهته الأهواء المختلفة ، وتجمع بهيبته القلوب المتفرقة .. وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبية ، وتنقمع من خوفه النفوس المعاندة ، لأن في طباع البشر من حب المغالبة والقهر مالا ينفكون عنه إلا بمنازع قوى ورادع كفاء^(٢) .

شروط الإمامة :



يفرق ابن حزم بين شروط الإمامة العامة للمسلمين (الخلافة) وبين شروط الامامة الصغيرة ، وبين شروط إمامة الصلاة .

وهو يرى - بحق - أن الإمامة العامة (الخلافة) لها شروط تفوق شروط الإمامة في الصلاة ، وبالتالي ولاية الأمور الأخرى . ولهذا فهو يرفض الذين يحتاجون لخلافة أى بكر بالقياس على استخلاف الرسول في الصلاة إذ إن شروط الإمامة في الصلاة أقل شأنًا من شروط الامامة العامة فلا يحتاج بهذه على تلك .

ونتيجة لهذا فإن ابن حزم إذا كان يتفق مع كثير من أئمة السنة في اشتراط أن يكون الخليفة : مسلماً - عاقلاً - بالغاً - رجلاً^(٣) ، فاضلاً مؤدياً للفرائض ، رفيقاً ، عالماً ، حسن السياسة ، قوياً على الإنفاذ^(٤) . فإنه - يستقل بشرطين آخرين يلتقى فيهما مع بعض الطوائف ويختلف مع آخرين .. وهذان الشرطان هما :

(١) انظر الفصل : ٤ - ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) ابن حزم : شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ص ٢ (بمجلة تطوان عدد ٥ - ١٩ تحقيق محمد إبراهيم الكتاني) .

(٣) انظر المحلى : ١ - ٥٨ ، ٥٩ .

(٤) انظر الفصل : ٤ - ٨٧ ، ١٦٦ وانظر عبد اللطيف شرارة : ابن حزم رائد الفكر العلمي ٩٦ .

(١) أن هذه الإمامة العامة لا تجوز إلا لواحد ، فلا يجوز كون إمامين في وقت واحد في العالم كله^(١) وإذا بويع لخليفتين - على امتداد العالم كله - وجب قتل الثاني منهما^(٢) ، لأنه لو جاز أن يكون في العالم إمامان لجاز أن يكون فيه ثلاثة وأربعة ... وهذا هو الفساد المحض وهلاك الدين والدنيا^(٣) .

(ب) وهذه الخلافة لا يجوز أن يتولاها إلا رجل من قريش صلبه^(٤) من ولد فهر بن مالك من قبل آبائه خاصة ، ولا تحل الإمامة لغير قرشي ، ولو كان حليفا لهم ، ولا تحل لمولى لهم ، ولا لمن أمه منهم وأبوه من غيرهم^(٥) .

بيد أن قريشية الإمامة عند ابن حزم لاتعني وراثتها ، بل هو يصرح بأنه لا يجوز التوارث فيها ، عكس ما يقول الروافض^(٦) .

اختيار الإمام :



يرى ابن حزم في اجتماع السقيفة رأيا لعله قد انفرد به من بين من حللوا ما دار في هذا الاجتماع التاريخي . فهذه الآراء التي ظهرت في هذا الاجتماع ، والتي مال فيها الأنصار إلى أحقيتهم في الخلافة .. لفضلهم في الإسلام ، وذهب فيها المهاجرون إلى أحقيتهم وحدهم في الخلافة لأن العرب لن تصرف هذا الأمر إلا هذا الحى من قريش ، ورأى فيها الحباب بن المنذر - من الأنصار - حلا وسطا ... أن يكون من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير^(٧) .

(١) انظر الفصل : ٤ - ٨٨ ، المحل : ١ - ٥٨ ، وانظر د - محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية ١٩٩ . وانظر عبد اللطيف شرارة : ابن حزم رائد الفكر العلمى ٩٥ .

(٢) المحل : ١ - ٥٩ .

(٣) الفصل : ٤ - ٨٨ .

(٤) انظر الأحكام : ٧ - ٩٨٦ والفصل ٤ - ٨٩ ، ١٦٦ ومعجم فقه ابن حزم ٣٣٧ وقد كان من واجب ابن حزم أن يبين لنا شروط هذه « القرشية » وظروفها التاريخية . انظر د - أحمد شلى السياسة والاقتصاد ٣٣٧ .

(٥) انظر الفصل : ٤ - ٨٩ ومعجم فقه ابن حزم ٣٣٧ .

(٦) انظر الفصل : ٤ - ١٦٧ وانظر أبو زهرة : ابن حزم ٢٤٣ وانظر د - ضياء الدين الرئيس : (النظريات السياسية الإسلامية ص ١٩٤ الطبعة الرابعة) .

(٧) انظر جوامع السيرة ٢٦٤ وانظر الفصل : ٤ - ٩٧ ، ١٧٠ .

هذه الآراء ، يرى فيها ابن حزم أنها انتهت إلى التسليم لأبي بكر ليس لثبوت فضله وجهاده في الإسلام أكثر من غيره ، ولكن لأن الأنصار - وهم أهل الدار والمنعة والعدة والسابقة ومن المحال أن يتركوا اجتهادهم لاجتهاد غيرهم^(١) وقد رأوا أن الحجة قائمة عليهم بنص من رسول الله ﷺ على أن الحق لغيرهم في ذلك^(٢) .

والحق أن ابن حزم إذا كان قد رضى الوراثة في اختيار الخليفة ، فإنه قد قيد جدول الاختيار بميله إلى التولى بعهد ، وتفضيله هذا الأسلوب على سائر أساليب الاختيار ، وفي رأيه أن أبا بكر وعمر وعثمان قد ولوا بهذا الأسلوب مع اختلاف قليل في التطبيق .

وابن حزم يفضل أسلوب التولى بالعهد صراحة ، حين يذكر أساليب اختيار الإمام ويحضرها في ثلاثة :
أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إماما بعد موته ... وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره^(٣) .

وإنما أنكر من أنكر من الصحابة رضى الله عنهم ومن التابعين بيعة يزيد ابن معاوية والوليد وسليمان لأنهم كانوا غير مرضيين لا لأن الإمام عهد إليهم في حياته^(٤) .

وأما الأسلوبان الآخران ، فهما موت الخليفة دون عهد وتقديم إنسان مستوف للشروط للدعوة لنفسه ، كما فعل على بن أبي طالب ... أو تفويض الإمام قبل موته رجلا أو جماعة في اختيار إمام صالح كما فعل عمر بن الخطاب^(٥) .

والحق أننا نلمح في آراء ابن حزم تأثيراً كبيراً بالأوضاع السياسية المنحدرة في أندلس الفتنة والطوائف .

(١) الفصل : ٤ - ٨٩ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) الفصل : ٤ - ١٦٩ وانظر د - ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ١٩٧ .

(٤) انظر المصدر السابق ٤ - ١٧٠ .

(٥) انظر بلاسيوث : ابن حزم في قرطبة ص ٨٩ .

وهو تأثير جعله يؤثر الوحدة - مع التولى بعهد - على الفوضى مع الشورى بمعناها الواسع الذى يخشى منه ابن حزم ... ولعلنا هنا نلمح - أيضا - تأثير ابن حزم بأسلوب حكم الدولة الأموية وبخاصة فى الأندلس ، وهو الأسلوب الذى قام على ولاية العهد ... وأدى إلى استقرار وازدهار الأمة .

ولم يستطع ابن حزم أن يبصر من خلال هذين المؤثرين السلبيات التى يحملها هذا الأسلوب فى باطنه ، وأقل هذه السلبيات أنه لو استقرت قواعد هذا الأسلوب ، وقام باستعماله رجال ليس من السهل أن يكونوا دائما فى مستوى أى بكر وعمر - وهو الواقع فعلاً - دون إحداث انقسام وفوضى - خلع هؤلاء من إمامتهم .

ويؤخذ على ابن حزم هنا أنه خالف ظاهره ، فتكلف التأويل فى تفسير الوقائع كما ذكرنا - فقاده ذلك إلى هذا الرأى الذى إن نجح مرة فمن المتوقع أن يؤدى إلى عواقب وخيمة فى كثير من المرات .

غاية الحكومة الإسلامية ومهامها^(١) :



يقرر ابن حزم أن على الخليفة تقع مسئولية تحقيق غايات الحكومة الإسلامية وأهدافها ، وتنظيم أمورها فى الخارج ، أى تنظيم سياستها الخارجية وعلاقاتها الدولية ، وفى الداخل أى تنظيم مابه يصلح أمر الجماعة ومعاشهم .

ولم يفرق ابن حزم فى تقديمه لهذه الواجبات بين الخارجى منها والداخلى بل قدمهما فى سياق واحد ، كما هو المنهج السائد فى كتب الحضارة الإسلامية خلال هذه العصور .

وهذه الواجبات يقدمها ابن حزم مجملة ، ثم يورد بعض التفاصيل المكمل لها ، فواجبات الإمام على نحو مجمل عنده عشرة أشياء :

- ١ - حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة .
- ٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين .
- ٣ - الحماية والذب عن الحرم ليتصرف الناس فى المعاش ...

(١) انظر الدكتور أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى ط ٣ ص ٧٩ .

- ٤ - إقامة الحدود لتحصان محارم الله تعالى .
- ٥ - تحصين الثغور بالعدة المانعة .
- ٦ - جهاد من عاند الإسلام - بعد الدعوة .
- ٧ - جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع .
- ٨ - تقدير العطاء وما يستحق من بيت المال .
- ٩ - الاستعانة بالأمناء وتقليد النصحاء فى الأعمال .
- ١٠ - أن يياشر بنفسه فى مشاركة الأمور ، وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة ، وحراسة الملة (١) .

ويقدم ابن حزم بعض التفصيلات الجيدة التى تكفل للإمام تحقيق غايات الحكومة الإسلامية التى أجهل ذكرها فى البنود العشرة السابقة .

- فمنها أن يجعل يوماً فى الجمعة يركب به فتراه العامة .

- وينظم بقية الأيام للنظر فى الأمور ومجالسة أهل العلم والعقل وحسن التدبير (٢) .

- ويفرغ نفسه فى ليلة لعياله ونسائه وولده .
- ويختار وزراءه من وجوه الكتاب والأطباء والعلماء والقضاة (٣) .
- فإذا نزلت به معضلة شاور من أصحابه وولاته وجنوده من يرجو عنده فرجا من ذلك ، ويشاور فى الحروب أهل الحرب ، ويسأل عن كل علم أربابه (٤) .
- وأن يأخذ الناس بالعمارة وكثرة الفراس .
- ويولى الصلاة رجلاً قارئاً للقرآن .. عالماً بالأحكام (٥) .
- ويلزمه عدم البحث عن الحدود إلا أن يجاهر بها صاحبها أو يشتكى إليه بفعل شئ منها (٦) ، أى عدم التجسس على الرعية .

(١) ابن حزم - شذرات من كتاب السياسة بتحقيق محمد إبراهيم الكنائى مجلة تطوان عدد ٥ - ١٩٦٠ ص ٣ ، ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٥ .

(٤) المصدر السابق ٥ ، ٦ .

(٥) المصدر السابق ٦ .

(٦) المصدر السابق ٧ .

- وترتيب قوم من فرسان الجند للبريد ، ويقدم عليهم ثقة منهم ، ويرتبون في كل قاعدة ، وتكون لهم علامة يعرفون بها لا يشركهم فيها غيرهم^(١) أو لباس خاص .

- ويخرج لكل جهة عمال زكاتها العالمين بالأحكام ، ويرتب والى الخراج ، وبقية الولاة والعمال للصلاة والحدود والأقضية والجيش والشرطة والحسبة وغيرها^(٢) ، كما أن على الامام اتخاذ خازن ثقة عفيف لماله ، وخازن للسلاح ، وناظر على الخيل ، وناظر الموارث ، وقائمين على السجون التى يجب على الإمام أن يلزم ولاته بإقامتها لذوى الدعارة وغيرهم ، ويجعل سجنأ مفردأ للنساء على حدة^(٣) .

وفى هذه الولايات - ماعدا الصلاة - يميز ابن حزم تولى المرأة كما يميز تولى العبد القضاء^(٤) . وهو يستشهد بسوابق تاريخية من عصر الراشدين .

تغيير الإمام :



يستقى ابن حزم بصورة واضحة رأيه فى تغيير الامام سواء بالعزل أو القتل من تجربته فى عصر الفتنة والطوائف . فمن خلال نظراته إلى ملوك الطوائف على أنهم خونة تجب الثورة عليهم لأنهم محاربون لله ورسوله ، ساعون فى الأرض بالفساد .. لايتورعون عن شن الغارات على أموال المسلمين وقطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، وضرب المكوس والجزية على رقاب المسلمين وتسليط اليهود على قوارع الطرق ، لأخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام^(٥) .

من خلال هذه التجربة يدعو ابن حزم إلى ما يسمى « بالعنف الدموى » عندما تغشل وسائل إعادة هؤلاء الحكام إلى حظيرة الشريعة والاقلاع عن الجور .

(١) ابن حزم : شذرات من كتاب السياسة تحقيق محمد الكتانى مجلة تطوان عدد ٥ - ١٩٦٠ ص ٨ .

(٢) انظر المصدر السابق صفحات ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) انظر المصدر السابق صفحات ١١ ، ١٢ .

(٤) انظر المحلى ١٠ - ٦٣١ ، ٦٣٢ ومجمع فقه ابن حزم ٨٥٣ .

(٥) انظر رسالة التلخيص لوجه التخليص (من ملحقات رسالة الرد على ابن النفريلة) ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

ومقياس الحكم على الخلفاء وطاعتهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإن قادونا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وجبت طاعتهم ، وإن زاغوا في شيء منهما ، منعوا من ذلك وأقيم عليهم الحد والحق ، فإن لم يؤمن أذاهم إلا بالخلع خلعوا وولى غيرهم^(١) ، فإن لم يكن خلعهم إلا بالقتل وجب قتلهم .

يناقش ابن حزم بعض الأئمة الذين حثوا على الصبر والتغيير بالقلب واللسان فيرد أدلتهم مفسراً الأحاديث النبوية التي تحض على الصبر عند أخذ المال وضرب الظهر بأن ذلك إذا تولاه الإمام بحق^(٢) «وأما إن كان يبطل فمعاذ الله أن يأمر رسول الله ﷺ بالصبر على ذلك^(٣)» .

وقد قال الرسول لمن سأله عمن طلب منه ماله بغير حق فقال عليه السلام : لاتعطه ، قال : فإن قاتلني ، قال : قاتله ، قال فإن قتلته قال : إلى النار ، قال : فإن قتلني قال : فأنت في الجنة .. وهذا حديث عام يشمل السلطان وغيره^(٤) .

ولئن قال بعضهم : « إن في القيام بإباحة الحريم وسفك الدماء وأخذ الأموال وهتك الأستار .. فيقال لهم : لو كان خوف ما ذكروا مانعا من تغيير المنكر ومن الأمر بالمعروف لكان هذا يعنيه مانعا من جهاد أهل الحرب ، وهذا مالا يقوله مسلم .. وإن أدى ذلك إلى سبي النصراني لنساء المسلمين وأولادهم .. فلا خلاف بين المسلمين في أن الجهاد واجب مع وجود هذا كله ولا فرق بين الأمرين وكل ذلك جهاد ودعاء إلى القرآن والسنة^(٥) .

« يقال لهم : ماتقولون في سلطان جعل اليهود أصحاب أمره والنصارى جنده . وألزم بالمسلمين الجزية ، وحمل السيف على أطفال المسلمين ، وأباح المسلمات للزنا ، وحمل السيف على كل من وجد من المسلمين ، وملك نساءهم وأطفالهم ، وأعلن العيب بهم ، وهو في كل ذلك مقر بالاسلام ، يعلن به لا يدع الصلاة^(٦)» .

(١) انظر الفصل ٤ - ١٦٧ ، ١٧٦ وانظر د - محمد فاروق النبا : نظام الحكم في الإسلام ص ١٤٩ .

(٢) انظر الفصل ٤ - ١٧٢ .

(٣) المصدر السابق ١٧٣ .

(٤) المصدر السابق ١٧٣ .

(٥) انظر المصدر السابق ١٧٥ .

(٦) المكان السابق .

ويجب ابن حزم بأن هذا السلطان لو ترك لأدى إلى ألا يبقى على الأرض إلا هو والكفار معه .. وجواز الصبر على هذا مخالفة للإسلام .. ويجب أن يدفع مثل هذا السلطان . وقتاله فرض^(١) .

لكن ابن حزم - مع إيمانه بوجوب التغيير الدموي مع أمثال هؤلاء الحكام - يرى اتباع بعض أساليب المقاومة الهادئة إن كان متعذراً قتال هؤلاء الحكام وهذه الأساليب هي :

- ١ - مخاطبة هؤلاء الملوك ونصحهم إن وقع شيء من الجور^(٢) .
- ٢ - فإن لم يمكن مخاطبتهم وجب الإمساك عن مدحهم ، بل ويجب ذم جميعهم^(٣) .
- ٣ - فمن عجز عن ذلك فتسعه (التقية) مع أن هذا لا يجوز ، لأنه لو اجتمع كل منكر على هؤلاء ، ولو بقلبه لما غلبوا .
- ٤ - عدم معاونة هؤلاء الحكام باللسان أو اليد .
- ٥ - وعند الاضطرار لمعاملتهم يجب معاملتهم على نحو ما يضطر المسلم لمعاملة اليهود والنصارى^(٤) ؛

العلاقات الدولية عند ابن حزم :



عالج ابن حزم عديدا من القضايا التي تنتمي الى ما يسمى حديثا بالعلاقات الدولية ، أو ما يسمى في كتب الحضارة الإسلامية بالعلاقات مع (دار الحرب ودار العهد) . ودار الحرب هي الدول المعادية للمسلمين ، والتي لا يأمن المسلم فيها على دمه أو عرضه أو ماله . أما دار العهد فهي دول غير المسلمين التي تربطها بالمسلمين عهود ومواثيق .

(أ) والقاعدة الأساسية في التعامل مع هؤلاء عند ابن حزم هي :

(١) انظر الفصل ٤ - ١٧٥ وانظر د - محمد ضياء الدين الرئيس النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٩٦ .

(٢) انظر الفصل : ٤ - ١٧٦ .

(٣) انظر رسالة التلخيص (من ملحقات رسالة الرد على اس النغيلة) ص ١٧٤ .

(٤) انظر المكان السابق .

(١) «لزوم الشريعة الإسلامية لكل مؤمن وكافر في الأرض ووقت لزوم الشرائع للإنسان على أساس قوله تعالى : ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجلبونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ وقوله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ وهذه النصوص جلية على لزوم شرائع الإسلام كالصلاة والصيام والجمع وغيرها (٢).

وإذ قد صح هذا بيقين فواجب أن يحدوا في الخمر والزنا وأن تراق خمرهم ، وتقتل خنازيرهم .. ويلزموا من الأحكام كلها في النكاح والموارث والبيوع والحدود كلها وسائر الأحكام - مثل ما يلزم المسلمون ولا فرق (٣)

وينتهي ابن حزم بعد أن يورد عديداً من النصوص القرآنية والنبوية إلى أنه لا يجوز أن يترك أحد على غير دين الإسلام إلا من صح النص على إقراره من قبل النبي عليه الصلاة والسلام (٤) - وواجب ألا تقبل الجزية ونقر على غير دين الإسلام من خرج من دين كتابي إلى دين كتابي آخر ولا من دان آباؤه بعد مبعث النبي ﷺ بدين كتابي انتقلوا إليه عن كفرهم ، ولا من كان أجداده أو جداته - من أى جهة كان مسلم أو مسلمة وإن بعد وبعدت ، ولا من سبى وهو بالغ ، سواء سبى مع أبويه أو مع أحدهما .. ولا يقبل من كل ذكرنا إلا بالإسلام أو السيف لأن الإسلام دين كل مولود (٥).

أما عن قوله تعالى « لا إكراه في الدين » - فيرى - ابن حزم أنها مخصوصة بالنصوص الثابتة عن رسول الله ، حين أكره غير أهل الكتاب على الإسلام أو السيف ، وأيضا فإن الأمة كلها مجمعة على إكراه المرتد على الإسلام وبالتالي فلا

(١) الإحكام ٥ - ٦٧٨

(٢) الإحكام ٥ - ٦٧٩ .

(٣) المكان السابق .

(٤) المصدر السابق ٦٨٢ .

(٥) الإحكام ٥ - ٦٨٢ .

يقبل من اليهودى أو النصرانى أو المجوسى جزية بأن يقرؤا بأن محمداً رسول الله إلينا ،
وآلا يطعنوا فيه ولا فى شىء من الإسلام^(١)؛

(ب) والعهود مع المشتركين لاتصح - عند ابن حزم - إلا إذا وافقت تعاليم
الإسلام ... ولهذا يرى ابن حزم أن صلح الحديبية الذى عقده الرسول مع مشركى
مكة ، قد نسخ القرآن بنوده التى لا تتفق مع الإسلام وذلك فى قوله تعالى : « يا أيها
الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن
علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار^(٢) » ، فإذا نسخ الله تعالى عهد نبيه عليه
السلام وعقده وشروطه ، فمن هذا الجاهل الذى يميز لأحد بعده شرطاً مخالفاً
للدين^(٣) ! مع أن الرسول يقول : ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست فى كتاب
الله . كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . شرط الله أوثق
وكتاب الله أحق^(٤) .

فصح بيقين - من كل هذا أنه لايجل أن يعاهد مشرك عهداً ولا يعاقد عقداً
إلا على الإسلام فقط ، أو على غرم الجزية والصغار إن كان كتابياً ، وضح يقيناً
أن كل عهد أو عقد أو شرط عقد أو عوهدوا عليه أو شرط لهم بخلاف ما ذكرنا
فهو باطل مردود ، لايجل عقده ولا الوفاء به إن عقد ، بل يفسخ ولابد^(٥) .

(ج) أما الحرب مع المشركين فيتمسك ابن حزم كشأن فقهاء الإسلام
بآدابها الإسلامية ، فلا يجل عقر شىء من حيواناتهم ألبتة لإبل ولا بقر ولا غنم
ولا خيل ولا دجاج ولا حمام ولا إوز^(٦) . لكنه يبيح تحريق أشجارهم وأطعمتهم
وزرعهم ودورهم ، مستدلاً بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أحرق نخل بنى
النضير ، وهى طرف المدينة ، وقد علم أنها تصير للمسلمين فى يومه أو غده^(٧) .

(١) المحلى ٧ - ٥١١ مسألة ٩٤١ ، ومعجم فقه ابن حزم ٣٨١ .

(٢) سورة المتحنة الآية رقم ١٠ .

(٣) انظر الأحكام ٥ - ٦١٣ .

(٤) المكان السابق .

(٥) المكان السابق .

(٦) المحلى ٧ - ٤٦٨ .

(٧) المصدر السابق ٤٦٧ .

ولا يحل ابن حزم قتل نساء الكفار ولا قتل من لم يبلغ الحلم منهم إلا أن يقاتلوا المسلمين^(١)؛

ويجوز ابن حزم قتل كل من عدا من ذكرنا من المشركين من مقاتل أو غير مقاتل أو تاجر أو أجير أو شيخ كبير ، أو فلاح ، أو أسقف ، أو قيس أو راهب ، أو أعمى ، أو مقعد ، وجائز استبقاؤهم أيضا^(٢)؛

ويرى ابن حزم أنه لا يحل دخول دار الحرب لغير جهاد أو أداء رسالة من أمير ، كما لا تحل التجارة بها ، ولا يحل أن يحمل إليهم سلاح ولا خيل ولا شيء يتقوون به على المسلمين^(٣).

وفيما يتعلق بأحكام أسرى الحرب يرى ابن حزم أنه لو نزل أهل الحرب عندنا تجارا بأمان أو رسلا أو مستأمنين مستأجرين ... فوجدنا بأيديهم أسرى مسلمين أهل ذمة أو عبيدا أو إماء أو مالا لمسلم أو لذمي . فإنه ينتزع كل ذلك منهم بلا عوض ، أحبوا أم كرهوا^(٤)؛

ولا يحل فداء الأسير المسلم إلا بمال أو بأسير كافر^(٥)؛ ومن كان أسيرا عند الكفار فعاهدوه على الفداء وأطلقوه فلا يحل له أن يرجع إليهم ولا أن يعطيهم شيئا ، ويحل للإمام أن يجبره على ذلك^(٦).

أما هبة أهل الحرب للمسلم الرسول إليهم أو التاجر عندهم فهي خلال ، وهبته صحيحة ، ما لم يكن مال مسلم أو ذمي ، وكذلك ما ابتاعه المسلم منهم فهو ابتياع صحيح ما لم يكن مال مسلم أو ذمي^(٧).

تلك هي بعض الأحكام التي أفاض ابن حزم في تأييدها ونقد مخالفها وتتصل بالعلاقات الدولية .

(١) المحلى ٧ - ٤٦٩ .

(٢) المصدر السابق ٧ - ٤٧٢ .

(٣) معجم فقه ابن حزم ٣٤٩ .

(٤) المحلى ٧ - ٤٩٠ .

(٥) المحلى ٧ - ٤٩٠ .

(٦) المحلى ٧ - ٤٩٤ والمعجم ٤٤ .

(٧) المحلى ٧ - ٤٩٥ .

ونحن نلاحظ هنا أيضا ظاهرة ابن حزم في فهم النصوص - أما رأيه في إبطال
العهود مع المشركين إن كانت مخالفة لما ورد في القرآن - فيلمح فيها نقد ابن حزم
للأساليب التي جرى عليها ملوك الطوائف في عهودهم التي كانوا يعقدونها مع ملوك
النصارى حماية لعروشهم على حساب دار الإسلام .

وقد نختلف مع ابن حزم في بعض آرائه السياسية ، سواء منها ما يتعلق بالخلافة
أو غيرها ، ولكن الذى لا ينكر أن ابن حزم قد قدم بعض الآراء الجديدة التي أثرت
الفكر السياسى الإسلامى ، وهى آراء تظهر فيها روح الاستقلال العلمى والاجتهاد
الحر .

وغير هذا فإن ابن حزم قد عرض بتفصيل واف لكل وجهات النظر في
الموضوعات السياسية التى عرض لها ، وكان كعادته منصفاً في عرض آراء الآخرين
سواء وافقهم أو خالفهم ، يؤثر الإطناب على الإيجاز ، ويناقش أدلتهم دليلاً
بلغته الصارمة العنيفة^(١) .

وقد قدم بهذا العرض الأمين يدا أخرى في مجال الفكر السياسى الإسلامى .



(١) انظر أبو زهرة : ابن حزم ٢٤٠ .



الفصل الثاني

الفكر الاقتصادي عند ابن حزم

توطئة :



تعتبر كلمة الاقتصاد ، شأنها في ذلك شأن كلمتي الاجتماع والسياسة من الكلمات التي طرأ على دلالتها تغيير كبير . فقد أصبحت كل كلمة من هذه الكلمات علما على « علم » قائم بذاته ، متصل بغيره من العلوم ، ومنفصل عنها . لكنه يملك مقومات « العلم » المستقل . وهذا العلم إنما أخذ استقلاله في الحقيقة في القرن السادس عشر الميلادي ، وعلى يد المفكرين الغربيين .

ولما تنظم المؤتمرات الإسلامية وتقام المعاهدات والدراسات الآن من أجل الوصول إلى تقعيد لهذا العلم ، وفق الأصول الإسلامية ، بعد أن أحس المفكرون الإسلاميون بالحاجة الملحة لوضع التراث الفقهي الاقتصادي في إطار منظم علمي يعتمد عليه في المعاملات الحديثة ، وذلك استكمالا لجانب مهم من جوانب الاستقلال الحضاري .

والتشريع الإسلامي غني بأفكاره الاقتصادية المتناثرة بين كتب الفقه المذهبي وغيرها من الكتب التي تبحث في الأحكام . ولكي تكون هذه الكتب « علما » ينبغي أن نستخلص تلك الأحكام الفقهية ، وتدوّن منفردة في أبحاث مستقلة وفقا

للطرق التي يدرس بها علم الاقتصاد^(١) . على أن نربط كل ذلك بصياغة فلسفية تستوحى الأسس الفلسفية الكبرى التي تقوم عليها المذهبية الإسلامية^(٢) .

لقد مثل الفقه الإسلامى - فى الحضارة الإسلامية ركنى الاقتصاد والاجتماع بمعناهما العلمى الحديث . ولقد قام الفقه بدوره على يد مفكرين وفقهاء عظماء معروفين . ولولا أن كثرة من طبقة الفقهاء التي قاومها ابن حزم قد جمدت عند فرع مذهبى معين - فانقلب من قائد مصلح للبناء الاقتصادى والاجتماعى إلى تابع ومبرر للأوضاع المختلفة^(٣) - لأمكن أن يكون لعلم الفقه فى حضارتنا دور عظيم غير دوره الذى انحصر فيه .

وفى مواجهة هؤلاء الفقهاء ، ظهر ابن حزم المجتهد الظاهرى يستقى من الدلالة الظاهرية لنصوص القرآن والسنة آراءه ، دون مبالاة بمن خالفه من رجال المذاهب السائدة .

وقد نجح ابن حزم - بمنهجه الاستقلالى فى الفهم - فى أن يصل إلى آراء جديدة مخالفة للأوضاع الاقتصادية السائدة ، ولما راج لدى فقهاء المذاهب . وهذه الآراء تكون - لو جمعت - إضافة جديدة للفكر الاقتصادى الإسلامى .

البواعث التاريخية لنظرية ابن حزم الاقتصادية :



لأنستطيع - مهما كان التزام ابن حزم بظاهر النصوص - أن نغفل دور الباعث التاريخى فى اتجاه ابن حزم إلى آراء اقتصادية أو اجتماعية فى دائرة الفكر الإسلامى - ذات منحى خاص - فإن ملوك الطوائف فى حقيقتهم كانوا أشبه بأصحاب إقطاعيات عمهم الإثراء الكبير ، دون مبالاة بأوضاع الرعية ، ودون مبالاة بأنواع الظلم التي

(١) انظر د - محمد فاروق البهان : الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى الإسلامى ص ١٦ طبع دار الفكر بيروت ١٩٧٠ وانظر د - محمود أبو السعود: مقال الاقتصاد فى المذهبية الإسلامية مجلة المسلم المعاصر البيروتية عدد شوال سنة ١٣٩٦ هـ .

(٢) انظر د - محمود أبو السعود: المقال السابق .

(٣) انظر عبد الحليم عويس: مقال (دور الفقه فى الحضارة) مجلة المسلم المعاصر عدد رجب ١٣٩٥ هـ .

تحقيق بالرعية من كثرة أنواع الضرائب والمكوس . بل إنهم - كما صورهم ابن حزم - كانوا أشبه بقطاع الطرق، يضربون الدراهم ويسبكون الدنانير ، ثم يشترون بها من الرعية - وهم عماد الأرض وفلاحوها - الدقيق والقمح والشعير والفول والحمص والعدس واللوييا والزيت والملح والتين والزبيب وأنواع الفواكه والكتان والقطن والصوف والغنم والألبان والجبن والسمن والزبد والعشب والخطب ، فما هو إلا أن يقع الدرهم في أيدي الرعية حتى يسلبوه منهم بالعنف ظلماً وعدواناً بقطع مضروب على جماعتهم كجزية اليهود والنصارى^(١) .

وفي مواجهة هذا الظلم الذي حاق بالناس ، والذي تمثل في اغتصاب أمراء الطوائف لأموالهم وأملاكهم ، كما تمثل في اغتصابهم لأرض بعضهم البعض ذهب ابن حزم إلى تلك الآراء التي اتجهت إلى التزام المجتمع بتوفير الحاجات الأساسية للفرد وإلى تحرير إيجار الأرض بمقابل مالى وإلى غيرها من الآراء التي تشكل جزءاً من فكره الاقتصادى .

ابن حزم والاشتراكية (١١) :



لكننا قبل أن نسوق الآراء الاقتصادية التي انفرد بها ابن حزم والتي اعتبرها بعضهم دليلاً على أن التشريع الإسلامى فى الذروة العليا من الحكمة والعدل ، وبأنها لو طبقت فى العالم الإسلامى - لحمته من الثورات المخربة الهدامة والفتن المهلكة^(٢) .

قبل أن نقدم هذه الآراء نجد أنه من الضرورى أن ننفى عن ابن حزم ما ذهب إليه بعض المتحمسين ، الذين لا يحسنون استخدام المصطلحات ولا فهم أسسها الفلسفية ممن يرون - خضوعاً لأوضاع عصرية - أن ابن حزم « ناثراً » فى ميدان التشريع الاشتراكى ، بل إنه « ليقفز قفزة هائلة يصل بها إلى أعلى ما وصل إليه التفكير

(١) انظر رسالة التلخيص (من ملحقات الرد على ابن النخيلة) ص ١٧٥ ، وانظر الفصل ٤ - ١٧٥ .
(٢) انظر فتحي عثمان : آراء من تراث الإسلام ص ١٣ ، ١٤ (نقلاً عن نص للأستاذ أحمد محمد شاكر) .

الاشتراكي في عالم الغرب» ، بحيث يصح اعتباره « مفكر الاشتراكية الإسلامية »^(١) .

فهذه الأقوال - ونحوها كثير - لا تمت إلى الحقيقة الموضوعية بصلة ، فابن حزم مفكر إسلامي ، جاء قبل أن يعرف العالم كله « الاشتراكية » كمذهب يرتبط فيه الاقتصاد بالأسس الفلسفية للمذهب ، وما جاء من آراء ابن حزم في الفقه الاقتصادي والاجتماعي ؛ إنما جاء عن عرض كفقيه مسلم ، وصفه بعض المعاصرين ، نتيجة تشدده في الالتزام بظاهرية النصوص « بالرجعية »^(٢) - وهو يعتمد على أدلة من مصدرى التشريع الإسلامي الأساسيين .

وإن ما انتهى إليه ابن حزم إنما هو جزء لا يتجزأ من النظرة الإسلامية . ولا مجال في الحقيقة - لفرض هذه المصطلحات على ابن حزم أو غيره من المفكرين المسلمين .

إضافات ابن حزم في الفكر الاقتصادي الإسلامي :

تفرد ابن حزم ببعض الآراء التي خالف فيها جمهرة الأئمة^(٣) حتى داود الظاهري ، واعتبرت رائدة في الفكر الاقتصادي الإسلامي .
وأول هذه الآراء التي تفرد بها ابن حزم رأيه في إجارة الأرض الزراعية فابن حزم يرفض - بكل حسم - إجارة الأراضي - أصلاً - في أية صورة من الصور ، وهو اتجاه (حزمي) وصفه عالم محقق بأنه ينزع منزع الاشتراكية^(٤) ، لأن الأرض لا يكون خيرها إلا للعاملين عليها أو المشتركين في غرمها وغنمها^(٥) .

(١) بحث : الاجتماع في الإسلام في مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية - المؤتمر السادس لعلماء المسلمين ١٩٧٢ م للأستاذ إبراهيم اللبان .

(٢) انظر عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ١٩٣ ، ١٩٤ وديلاس أوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ فيما يتعلق بمفكرى الإسلام ولاسيما الذين ظهروا قبل أن يعرف العالم هذه الكلمة الدالة على فلسفة مادية بحتة .

(٣) أبو زهرة : ابن حزم : ٥١١

(٤) المكان السابق ، وقد سبق أن أوردنا اعتراضنا على استعمال مثل هذه المصطلحات فيما يتعلق بمفكرى الإسلام ، ولاسيما الذين ظهروا قبل أن يعرف العالم هذه الكلمة الدالة على فلسفة مادية بحتة .

(٥) أبو زهرة : ابن حزم ٥١٤

ويسقط ابن حزم نظريته تلك في عدة مسائل من فقهه ، ويؤكددها بكل طرق الاستدلال العلمي ، من إيراد الأدلة المعارضة والموازنة والترجيح بمنهج علمي .

يقول ابن حزم : « ولا تجوز إجارة الأرض أصلاً ، لا للحرث فيها ، ولا للغرس فيها ، ولا للبناء فيها ، ولا لشيء من الأشياء أصلاً ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا لغير مدة مسماة لا بدنانير ، ولا بدراهم ، ولا بشيء أصلاً ، فمتى وقع فسخ أبداً .. » .

« ولا يجوز في الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها ، أو المغارسة كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء قل أو كثر جاز استئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعاً لذلك البناء غير داخلة في الإجارة أصلاً^(١) ومن هذا نرى أن كل صور الإجارة إذن ، عدا ما استثنى منها ممنوعة على وجه القطع عند ابن حزم .

- فهل معنى ذلك أن يتحول الناس جميعاً إلى مزارعين - وفقاً لنظرية ابن حزم ؟

إن ابن حزم لا يبيح للمزارعة إلا مصارف ثلاثة :
« إما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه وبذره وحيوانه »
« وإما أن يبيع لغيره زرعها ولا يأخذ منه شيئاً ، فإن اشتركا في الآلة والحيوان ، والبذر ، والأعوان دون أن يأخذ منه للأرض كراء فحسن » .

« وإما أن يعطى أرضه لمن يزرعها يبذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء ، ويكون لصاحب الأرض مما أخرج الله تعالى منها مسمى : إما نصف وأما ثلث أو ربع^(٢) .

- ويبين لنا ابن حزم أنه يستمد أصوله - في هذا الرأي الخطير - من فهمه الظاهري لنصوص السنة الشريفة ، فمن ذلك ما روى عن الأوزاعي عن عطاء عن

(١) إطل ٩ - ١٦ (مسألة رقم ١٢٩٧) وانظر معجم فقه ابن حزم ١٣ ، ٩٣٠ .

(٢) إطل ٩ - ٥٣ .

جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت له أرض فليزرعها أو لينحها ، فإن أبي فليمسك أرضه^(١) » ومن طريق البخارى - عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما - أنه كان يكرى مزارعه - قال : فذهب إلى رافع بن خديج وذهب معه ، فسأله قال رافع : نهى رسول الله ﷺ عن كراء الأرض^(٢) .

ومن طريق مسلم .. عن أبي هريرة . قال ، قال رسول الله ﷺ من كانت له أرض فليزرعها أو لينحها أخاه ، فإن أبي فليمسك أرضه^(٣) . ومن التاريخ النبوى أن رسول الله ﷺ أعطى خبير ليهودها على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها ، وأنه أعطاهم نخيلها وأرضها على أن يعملوها من أموالهم وللرسول نصف ثمرها^(٤) . ويستطرد ابن حزم فيقدم عديدا من أحاديث النبى وأقوال الصحابة وأفعالهم ، ويحلل آراء المبيحين للإجارة على نحو يعتبر ميزة كبرى في منهجه .
وجدير بالذكر أن استطراده في دراسة هذه المسألة يعتبر من الاستطرادات الكبرى القليلة في موسوعته الفقهية^(٥) .

ونظرية ابن حزم هذه بما تفضى إليه من نفى الإجارة ونفى أخذ شيء من الأرض إلا على أساس المشاركة في المغم والمغنم ، فإذا لم تخرج شيئا فلا يأخذ المالك شيئا ، حتى ولو كانت الأرض بيد مؤاجر - قد تأثر بها الإمام ابن تيمية . فمع أنه أجاز الإجارة ، بصورتها المقررة من الائمة الأربعة والمعروفة في عصرنا - إلا أنه « قرر أن الجوائح توضع ، فإذا أصابت الزرع آفة من الآفات ، أو سقط الثمر فإن الأجرة توضع ولا تجب^(٦) » .

وقد دعم هذا رأى باحثون إسلاميون محدثون ، بالغ أحدهم ، فرفض إجارة الأرض الزراعية ، ولم يوافق ابن حزم في استثناء المزارعة ، ورفض الاحتجاج بواقعة

(١) الخلى ٩ -

(٢) المصدر السابق ٥٤ .

(٣) المكان السابق .

(٤) انظر الخلى ٩ - ٥٧ ومعهما

(٥) نالت هذه المسألة (رقم ١٣٢٩) أكثر من عشرين صفحة (انظر الجزء التاسع من الخلى الصفحات من ٥٣ إلى ٧٦) .

(٦) انظر أبو زهرة : ابن حزم ص ٥١٥ ، ود - فتحى عثمان : آراء من تراث الفكر الاسلامى ٢٣ ، ٢٤ .

خير ، لأنها واقعة شاذة عن القاعدة^(١) ، تشبه أن تكون إجراء سياسيا لاعتقاد مدنيا ، ويعتمد أصحاب وجهة النظر هذه على تبرير اقتصادي حديث إذ يرون أن الأرض « سلعة غير استهلاكية » كما أنها في أغلبها ليست من عمل الناس أو إنشائهم ، فينبغي ألا تقاس إيجارها بإجارة الدار أو الآلة^(٢) .

وقد مالت إلى هذا الرأي بعض الدول الإسلامية ، كما أن بعض الدول من الناحية الإجرائية - تعتمد إلى إلغاء الضرائب وإرجاء الديون أو إلغاء بعضها . عن المزارعين ، إذا ما أصيبت المحاصيل بالآفات الزراعية وهذا جانب من التأثير بآبن حزم .

ومن الآراء التي تفرد بها ابن حزم ، واعتبر فيها مجدداً ما ذهب إليه من عدم جواز « بيع الماء » تأكيداً لمعنى الملكية العامة فيه .. فهو يقول : « ولا يجوز بيع الماء بوجه من الوجوه لافي ساقية ، ولا من نهر أو من عين ، ولا من بئر ، ولا في بئر ، ولا في صهرج ، ولا مجموعاً في قرية ، ولا في إناء^(٣) .

« ولا يملك أحد الماء الجارى إلا ما دام في ساقيته ونهره ، فإن فارقهما بطل ملكه عنه ، وصار لمن في أرضه ، وهكذا أبداً^(٤) - ودليل ابن حزم الحديث المروى من طريق مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يباع فضل الماء لبيع به الكلاء » وأحاديث وأقوال أخرى^(٥) « ومن ملك بئراً بحفر فهو أحق بمائها ما دام محتاجاً إليه ، فإن فضل عنه مالا يحتاج إليه لم يحل له منعه عمن يحتاج إليه ، وكذلك فضل النهر والساقية^(٦) » .

ومن استسقى قوما ولم يسقوه - وهم يعلمون أنه لا ماء له ألبته - فهم قاتلوه عمداً ، وعليهم القود بأن يمنعوا الماء حتى يموتوا كثروا أو قتلوا^(٧) وهكذا القول في الجائع والعارى ولا فرق^(٨) .

(١) نقلا عن د - فتحى عثمان - آراء من نزلت الفكر الإسلامى ٢٥ وما بعدها .

(٢) المحلى ٩ - ٦١١ ، ٦١٢ وانظر معجم فقه ابن حزم ١٦٠ ، ٩٨٥ .

(٣) المحلى ٩ / ٦١٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ٩ - ٦١٣ ، ٦١٤ .

(٥) المكان السابق وانظر المعجم ٩٨٤ ، ٩٨٥ .

(٦) انظر المحلى ١٢ - ٢١٩ .

(٨) انظر المكان السابق .

ومن الآراء الجديدة أيضا لابن حزم رأيه في عدم إباحة أكل الميتة أو لحم الخنزير للمسلم المضطر ، وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لدمي ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإن كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله^(١)

ومن آراء ابن حزم المؤيدة لهذا الاتجاه التجديدي ما ذهب إليه من أنه « فرض على كل ذى إبل وبقر وغنم أن يحملها يوم وردها على الماء ، ويتصدق من لبنها بما طابت به نفسه^(٢) » وذلك لحديث أبي هريرة من طريق البخاري أن رسول الله ﷺ قال : تأتى الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها قال : ومن حقها أن تحلب على الماء^(٣) .

ويتساق مع اتجاه ابن حزم هذا ما ذهب إليه - في غير موضع من توسيع رقعة الزكاة الواجبة ، حتى يمكن أن تفي بحاجات المجتمع - فهو يذهب إلى أن الزكاة فرض إذا حال الحول - في حلى الذهب والفضة لامرأة أو لرجل - ولو حراماً - أو في حلية السيف أو المصحف أو المنطقة^(٤) .

ويوجب الزكاة أيضا في المهور ، والخلع ، والديات ، ويجعلها بمنزلة الذهب والفضة ، لأنها أموال صحيحة ظاهرة موجودة^(٥) ويوجبها في مال الصبي والمجنون^(٦) .

(١) المحلى ٦ - ٢٣٠ وانظر د - يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ٢ - ٩٨٣ .

(٢) المحلى ٦ - ٥٤ .

(٣) المكان السابق .

(٤) المحلى ٦ - ٩٢ .

(٥) المحلى ٦ - ١٤٠ .

(٦) انظر يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ١ - ١٠٨ .

كما أنه لا يسقطها بالتقادم ، حتى ولو اجتمع على صاحبها زكاة عشر سنوات ومهما كان سبب تأخر دفعها^(١) .

فليس صحيحا إذن ما ذهب إليه البعض من أن ابن حزم - لأنه لا يأخذ بالقياس - قد ضيق مجال الزكاة^(٢) . وحسب ابن حزم أنه جعل في المال حقوقا سوى الزكاة ، وذلك لدرء كل خلل اقتصادي أو حاجة اجتماعية كما أن الزكاة - في نظر ابن حزم - جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي وليست كل أبوابه . وأما ذكره البعض من هذا التضييق فليس إلا أن ابن حزم - مع نزعه في إنصاف الفقراء - يقيم فلسفته الاقتصادية على أمرين :

- ١ - حرمة مال المسلم ، فلا يجوز أن يؤخذ شيء إلا بنص شرعي أو لحاجة ملحة .
 - ٢ - أن الزكاة تكليف شرعي ، والأصل براءة الذم ، إلا ما جاء به النص حتى لانشرع في الدين ما لم يأذن به الله^(٣)
- ولو أن ابن حزم جاء في عصرنا الذي تعددت فيه مصادر الدخل لوجد من مضامين النصوص النبوية العامة ، ومن قاعدته في مصدر الكفاية الاجتماعية ما يقدم به لنا نظرية اقتصادية واسعة تستوعب سائر مجالات النشاط الاقتصادي فالذي أوجب الزكاة في حل المرأة والمهور لا يمكن أن يعفى منها المصانع والعمارات ورجال المهن الحرة وكبار الموظفين .

« هذا مع رعايته للحاجات المعقولة لصاحب المال وعائلته ومع تقديره للظروف المخففة عنه ووضعها في الاعتبار عند تقدير الواجب عليه^(٤) » ... فابن حزم كان متوازنا في نظريته فلم يوسع من مصادر الزكاة الواجبة .. لكنه فتح الباب على مصراعيه في الوقت نفسه ، حين أعطى الفقراء حقوق الحياة الأساسية ومنح الحاكم سلطات توفير هذه الحقوق .

(١) انظر المحلى ٦ - ١١٠ ، ١١١ وانظر د - يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ١ - ٨٣٣ .

(٢) د - يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ١ - ٦٤٦ .

(٣) المكان السابق .

(٤) دكتور يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ١ - ٣٩٠ .

وقد قدم لنا ابن حزم بهذا أفكارا اقتصادية جديدة ، من شأنها أن تدعم باب التكافل الاجتماعى ، ولو أنها سيطرت فى العالم الإسلامى ، لمنعت مسيرة الحضارة الإسلامية من كثير من الشرور فإنه مما لا شك فيه أن عدم قيام المسلمين - منذ بدء ضعف الدولة الإسلامية وتمزقها- بتنفيذ ما وضعه القرآن من مبادئ فى التكافل الاجتماعى - كان سبباً من أسباب انهيار حضارة المسلمين^(١) .



(١) انظر - بتصرف . دكتور محمد عبد الجواد محمد: ملكية الأراضى فى الإسلام ٢٥٦ .



الفصل الثالث

الفكر الاجتماعي عند ابن حزم



النظرة الاجتماعية لابن حزم :

خلف لنا ابن حزم تحليلاً صافياً للمجتمع الأندلسي في عصره^(١) كما خلف لنا نظرة اجتماعية أخلاقية متكاملة^(٢) ، ونظرات أخرى متناثرة ، بحيث إننا نستطيع أن نطمئن إلى أن لابن حزم بابا يستحق الدرس والتحليل في مجال الفكر الاجتماعي .

على أن ابن حزم شأنه في الفكر الاجتماعي شأن كبير من مفكري الإسلام قبل ابن خلدون - فإنهم لم تتوافر لديهم النظرة الشاملة لتقديم « فلسفة اجتماعية » تصلح أن تكون علماً قائماً بذاته ، لها منهجها ، ولها موضوعات بحثها المستقل .

ومع ذلك فقد مثل كثير من هؤلاء الفلاسفة ، كابن حزم ، وتلميذه الطرطوشي والفارابي وغيرهم - الرواد الذين عبدوا الطريق لابن خلدون كي يصل إلى وضع أسس علم الاجتماع .

وتستقي نظرة ابن حزم الاجتماعية أحكامها من منبعين أساسيين :

١ - المشاهدة والملاحظة^(٣) .

٢ - التجربة الخاصة .

ويؤثر في اتجاه استخلاص الأحكام المستفادة من هذين المنبعين : الالتزام الإسلامي الظاهري لابن حزم من جانب - والاتجاه الخلفي المثالي من جانب آخر .

(١) انظر طرق الحمامة ، ورسالة التلخيص لوجوه التخليص .

(٢) انظر رسالته في مناواة النفوس .

(٣) أُلح إلى هذا الدكتور - طه حسين (أنظر ألوان ص ١١٤) الطبعة الثالثة دار المعارف .

لقد كان ابن حزم « إنساناً اجتماعياً » يدعو إلى « التغيير » بكل الطرق الممكنة ولم يكن بالفيلسوف الذى يرصد « الواقع » ويستسلم له ، ويجعله المعيار الثابت الذى تستمد منه المعايير ، بل كان ابن حزم يرفض هذه الواقعية ، ويعمل على أن يحكم الواقع بالقيم ، لا أن يحكم « القيم » بالواقع .

والحق الذى يجب الإشارة إليه أن هذه النظرة « الواقعية الأخلاقية »^(١) التى كانت خلاصة معيار ابن حزم وتقويمه فى الحقل الاجتماعى - هى نظرة إسلامية بالدرجة الأولى ، ولا يستثنى منها ابن خلدون ، الذى هو أيضاً مفكر اجتماعى إسلامى .

فعلى الرغم من أن ابن خلدون جعل من العمران البشرى جماع الدراسة الاجتماعية : أصولها وفروعها على السواء ، فإنه - أيضاً - جعلها تسير فى نفس المنحى الذى ينحوه الفكر الإسلامى ، وتطابق طبيعة هذا المجتمع الإسلامى من حيث إنها تتسم بواقعية لا تنزع عنها سمة الطابع الأخلاقى فى النظرة الإسلامية^(٢) وهذا الطابع - الواقعى - الأخلاقى - النقدى - هو خلاصة نظرة ابن حزم للواقعات الاجتماعية ومعيار تقويمه لها ، كما أنه - مع فروق كثيرة بالطبع - هو أيضاً منطلق ابن خلدون ، واضع علم الاجتماع .

وفى ظل هذا .. نجد أنه ليس بصحيح إذن ما يراه البعض من التفرقة بين ابن حزم وابن خلدون ، وفى النظرة الاجتماعية ، على أساس أن ابن حزم أقرب إلى الفيلسوف الأخلاقى ، ومن هذا الوضع ينظر إلى المجتمع ، ويهتم بالفرد اهتماماً بالغاً ، أما ابن خلدون فإنه عالم اجتماعى لا يعير الفرد فى فلسفته ومبادئه أدنى اهتمام .^(٣) - فنحن لا نرى أن ابن خلدون - المفكر الاجتماعى المسلم - قد سحق حقوق الفرد

(١) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ٣ - ٢٦٥ .

(٢) انظر - د - مصطفى محمد حسين : المدخل إلى المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع ص ٨١ وهذه النظرة تخالف نظرة كثير من الاجتماعيين كابن خلدون .. فهم يرون أنه مثل لاحق « دور كليم » الذى جعل الظاهرة الاجتماعية هى الحكم والفاعل .. وهى التى عنها تتولد الأشياء والأفكار .. حتى الدين نفسه من صنع هذه الواقعة الاجتماعية ، وهذا تفكير لا يمكن أن يكون قد طرأ لابن خلدون (وانظر المرجع السابق ص ٨٥) .

(٣) د - إحسان عباس : رسائل ابن حزم ، مقدمة د .

كما لا نرى أن ابن حزم ، قد أعطى الفرد أكثر من حقه . بل أن حقوق الفرد وواجباته ، قد توازنت في نظري ابن حزم وابن خلدون على السواء .

والفرق الكبير بين الفيلسوفين - أن ابن حزم لم يكن قد استطاع الوصول إلى تفعيد علمي شامل لقوانين الاجتماع ، ومن هنا فنظراته متناثرة وجزئية ، أما ابن خلدون فقد كان فيلسوفاً اجتماعياً بمعنى الكلمة .

« ومع ذلك فابن حزم - في نظراته الاجتماعية ، يظل مقدمة صالحة لذلك السموق الشاغل في الفكر الإسلامي كما يمثل ابن خلدون :

أولاً : في تلك النظرة الإجلالية للتاريخ ، واعتباره علماً ،
ثانياً : في ذلك التقدير لمعنى التعاون في الحياة الاجتماعية^(١) ، ذلك المبدأ الذي تلقاه ابن حزم عن أستاذه ابن الكتاني ودان به في نظراته للمجتمع ، فقد كان ابن حزم معجباً بقول ذلك الأستاذ : « إن من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة أما يرى الحراث يحرث له والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والحياط يخطط له . . . وسائر الناس كل متول شغلا له فيه مصلحة به وإليه ضرورة ؟ أفما يستحي أن يكون عيالا على كل العالم لايعين هو أيضا بشيء من المصلحة ؟^(٢) »

ويعلق ابن حزم على هذه الجملة بقوله : « ولقد صدق .. ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له . وأى كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس . وقد نبه الله تعالى عباده بقوله : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ فكل ما لمخلوق فيه مصلحة في دينه أو ما لا غنى للمرء في ديناه عنه فهو بر وتقوى ، إذا استعان به على ما أمر الله وحض عليه^(٣) . »

وهذا النص دليل قوى على فهم ابن حزم لضرورة « التعاون الاجتماعي » .

وعدم انحيازه للفرد على حساب المجتمع .

(١) انظر د - إحسان عباس : رسائل ابن حزم ، مقدمة هـ .

(٢) ابن حزم : رسالة مراتب العلوم « من رسائل ابن حزم » ص ٨٣ .

(٣) رسالة مراتب العلوم ٨٣ (من رسائل ابن حزم) .

يدير ابن حزم محور الحياة الاجتماعية على « هدف واحد » - هو غاية النشاط الانساني كله .. وهو « طرد الهم » .. وهو غرض يستوى الناس كلهم في استحسانه وطلبه ولا يتحركون حركة بل ولا يتكلمون كلمة إلا من أجله . فمن مخطيء وجه سبيله ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب^(١) وهو « هدف قد اتفقت الأمور كلها عليه .. وكل الأهداف الأخرى لا تحظى بمثل الإجماع المعقود عليه .. إذ في الناس من لا دين له .. ومن لا يستحسن أذى الناس ... ومن يريد الخمول على الصيت والشهرة ... ومن لا يريد المال .. ومن يبغيض اللذات ... ويؤثر الجهل على العلم ... وليس في العالم كله من يستحسن الهم ولا يريد طرحه^(٢) .

وليس من سبيل لطرد « الهم » إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة^(٣) .

ويفضل ابن حزم اللذات المعنوية على اللذات الجسمية معتمدا على مقياس مقنع وهو أن الذين يلجئون إلى اللذات الروحية ، يفضلونها على اللذات المادية وهم قد ذاقوا من اللذات المادية ، وعرفوا .. وقارنوا ، وفضلوا اللذات المعنوية ، أما أصحاب اللذات المادية فلم يجربوا اللذات الروحية . فالأولون أصدق حكماً^(٤)

لكن النظرة الاجتماعية لابن حزم تكاد تصاب بنوع من العقم أو الجزئية الشديدة ، حين نراه يحرص « الباعث » على النشاط الإنساني في « باعث » واحد هو « الطمع »^(٥) ، فإذا كانت غاية « طرد الهم » يمكن أن تكون واحدة إذ هي جماع الانسجام الداخلي مع السلوك الخارجى . فإن « الباعث » لا يمكن أن يتوحد بل إن « بواعث » النشاط الإنساني من الطبيعي أن تكون متعددة .

يقول ابن حزم : « وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها . فتكون المحبة لله عز وجل وفيه ، وللاتفاق على بعض

(١) رسالة في مداواة النفوس ١١٦ (من رسائل ابن حزم) .

(٢) المصدر السابق ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) انظر المصدر السابق ١١٦ .

(٥) انظر المصدر السابق ١٣٨ .

المطالب وللأب والابن والقراة والصديق والسلطان ولذات الفراش والمحسن والمأمول والمعشوق . فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه - كما وصفت لك - على قدر الطمع فيما ينال ، فلذلك اختلفت وجوه المحبة ^(١) .

ويستمر ابن حزم في تقديم مبررات نظريته « التوحيدية » تلك ، مطبقاً إياها على عديد من العلاقات الاجتماعية كالعشق ، وحب الأب لابن ، وغيرها . ثم ينتهي مرة أخرى إلى تأكيد أن « المحبة كلها جنس واحد ولكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها . وإلا فطبائع البشر كلهم واحدة ، إلا أن للعادة والاعتقاد الدياني تأثيراً ظاهراً » ^(٢) .

إن هذا الطمع - الذى هو باعث إيجابى للنشاط الإنسانى - يولد عاملاً سلبياً عنه ينشأ ، بل إن ابن حزم يرى كل هم حتى فى الأموال والأحوال .. فبدون هذا الطمع لا يحزن الإنسان على قريب مات أو جار فقد أو منصب ضاع أو خلاف ذلك .. ^(٣) . « ولولا الطمع ماذل أحد لأحد ، وأخبرنى أبو بكر ابن أبى الفياض قال : كتب عثمان بن محامس على باب داره بإستجه : يا عثمان لا تنطمع » ^(٤) .

والحق أن هذا التركيز على « الباعث » الواحد - تبسيط شديد فى تقدير الطبيعة البشرية المركبة المعقدة ، وهو تبسيط مجحف ، يشبه ما ذهب إليه أصحاب المدرسة النفسية من تلامذة « فرويد » حين ركزوا على باعث واحد هو (الجنس) كما يشبه ما ذهب إليه أصحاب المدرسة « البيولوجية » - حين ركزوا على جانب واحد هو « الاقتصاد » واعتبروه المحرك الوحيد للنشاط الإنسانى .

وثمة مبدأ تجلّى لنا فى جميع نظرات ابن حزم الاجتماعية ، إنه مبدأ « التوجه إلى الله تعالى » ^(٥) الذى يعنى - فى معنى من معانية .. الزهد والرضا ، وهو يضرب

(١) رسالة فى مداواة النفوس ١٣٨ (من رسائل ابن حزم)

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٣) انظر المصدر السابق ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) المصدر السابق ١٤٠ .

(٥) د - إحسان عباس : رسائل ابن حزم « مقدمة هـ » وانظر ص ١١٨ وغيرها .

في ذلك المثل الأعلى بالرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي كان لا يتكلف إطلاقاً ..
يمشي أحياناً بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ، لا يتكلف مالا يحتاج إليه ،
ولا يترك ما يحتاج إليه^(١) .

- ومن النظرات الاجتماعية الصائبة لابن حزم رأيه في أن كل صاحب فكرة
من طبعه إذا قوى أن يخلع على غيره من الأنواع هيأته ، ويلبسه صفاته ، فترى
الفاضل يود لو كان كل الناس فضلاء ، وترى الناقص يود لو كان كل الناس نقصاء ،
وترى كل من ذكر شيئاً يحض عليه ...

وكل ذى مذهب يود لو كان الناس موافقين له ... وترى ذلك في العناصر
وفي تركيب الشجر ... وفي تغذى النبات والشجر ورطوبة الأرض وإحالتها ذلك
إلى نوعها^(٢) .

فهذا الذى ذهب إليه ابن حزم يذهب إليه علماء الاجتماع المحدثون فيما
يسمونه بالميل إلى « الانسجام » الاجتماعى^(٣) « أو التوافق الاجتماعى » .

- ومن التحليلات الاجتماعية الصائبة لدى ابن حزم ، والتي نحس فيها وكأنه
يتحدث بطريقة تحليلات علماء الاجتماع المعاصرين ، وذهب ابن حزم إلى أن -
« أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر »^(٤) .

- ويركز ابن حزم في تشخيصه الاجتماعى - على مرضين يرى فيهما خطورة
كبيرة ولذا فهو يتتبعهما بالتحليل والتفسير ، وهذان المرضان . هما : العجب
والكذب .

ويرفض ابن حزم العجب في كل حال . فسواء كان مصدره « الفضل »^(٥) أو
« الفعل »^(٦) أو « الشجاعة » أو « الجاه » أو « المال »^(٧) أو الحسن أو »

(١) رسالة فى مداواة النفوس (من رسائل ابن حزم) ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) انظر : د - إحسان عباس مقدمة الرسائل (ز) .

(٤) المصدر السابق ١٦٦ .

(٥) انظر المصدر السابق ١٥٠ .

(٦) انظر المصدر السابق ١٥١ .

(٧) انظر للمصدر السابق ١٥٣ .

النسب^(١) فكل ذلك يدل على نقص ، وهو مرض يحتاج إلى علاج . وهذا المرض يتفرع عنه التيه والزهو والكبر والنخوة والتعالى^(٢) .

أما الكذب - فهو الداء الذى لا براء منه عند ابن حزم ، فما روى قط كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه^(٣) وهو أصل كل فاحشة وجامع كل سوء ، وجالب لمقت الله عز وجل^(٤) وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل^(٥) أى أن الكفر جزء من الكذب .

وعلى أية حال فإن هذه التحليلات والآراء - تعطينا فى مجموعها تصوراً لجهود ابن حزم فى حقل الفكر الاجتماعى .

ومن الواضح أنها نظرات جزئية متناثرة ، ينقصها البناء النظرى المتكامل . لكنها فيما نرجح - كانت ذات أثر إيجابى فيما ظهر بعد ذلك من نظرة أقرب إلى التكاملية ، على يد الطرطوشى وابن خلدون .

نظرية التكافل الاجتماعى عند ابن حزم :

نسجل من آراء ابن حزم - فى هذا المقام - ما نعتقد أنه ارتبط به ، وما نظر إليه فيه من قبل معظم الدارسين على أنه تجديد فى الفقه الاجتماعى والإسلامى . ومن أبرز آراء ابن حزم التى اعتبرت من باب التجديد - رأيه فى ضمان المجتمع والدولة للحقوق الأساسية للفرد .

ولابن حزم نص فى ذلك مشهور يتداوله الفقهاء وخاصة المعاصرين على أساس أنه قاعدة تشريعية رائدة سبق بها التراث الإسلامى النزعات التى تدعو إلى « العدالة الاجتماعية » أو ما يسمى « بالاشتراكية » والحركات التى انتهت بإقرار « حقوق الإنسان » الاجتماعية والاقتصادية .

(١) د - إحسان عباس : رسائل ابن حزم ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق ١٥٨ .

(٣) انظر طوق الحمامة ٨٥ .

(٤) المصدر السابق ٨٦ .

(٥) المصدر السابق ٨٧ .

يقول ابن حزم :

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم « الزكوات » بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين به ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكتفون من المطر والصيف والشمس وعيون المارة^(١) .

برهان ذلك قول الله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل^(٢) ﴾ .

وليست الحقوق التى يطلب إعطاؤها لكل واحد من هؤلاء إلا توفير المأكل والملبس والمسكن .

وقوله عليه السلام : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » - ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته - فقد أسلمه^(٣) .

- ويكمل ابن حزم جوانب نظريته هذه باستنتاج بعض الأحكام الأخرى المتساوية معها ، منها أنه لا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه ، لمسلم أو لذمى ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقاً ، وهو طائفة باغية^(٤) .

ونحن نرى فى هذين النصين اللذين دعمهما ابن حزم بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة- تأكيد جوانب ثلاثة :

١ - التكافل الاجتماعى .

٢ - التزام الدولة بكفالة حقوق الفرد الاجتماعية .

(١) المحلى ٦ - ٢٢٤ وانظر معجم فقه ابن حزم ٤٥٦ .

(٢) المصدر السابق ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٧ .

(٤) المحلى ٦ - ٢٣٠ .

٣ - المستوى المعاشي الكريم الذي يعتبر الحد الأدنى لكل إنسان^(١) . وهذا الحد الأدنى حدده ابن حزم في ثلاث حاجات : الغذاء بما يقيم الحياة الكريمة ويحفظ الصحة ، ويبقى من المرض والضعف . واللباس الذي يحفظ من البرد والحر . أى ملابس الصيف وملابس الشتاء . والمسكن القوى الذي يثبت أمام الريح ، ويبقى من الحر ، وكل ذلك ليتحقق للفقير مستوى لائق من المعيشة ، لائق بوصفه إنساناً كرمه الله^(٢) .

وغنى عن البيان أن مقياس الكفاية والملاءمة في هذه الحاجات الأساسية يختلف من عصر لعصر ، ولذا فإننا نجد ابن حزم لم يتعرض لتحديدتها بمقادير أو أثمان ، وإنما يتركها لمقياس المجتمع وظروف البيئة ومستوى التطور .

لكن السؤال الذي يتبادر هنا هو : إذا لم تكن الدولة بما تجببه من مورد الزكاة والموارد المحدودة الأخرى قادرة على تحقيق هذه الكفاية - فمن أين لها أن تحقق هذه الحاجات الأولية للأفراد ؟ .

- ويرى ابن حزم في هذا الحال أن من حق الدولة المسلمة أن تفرض على الأغنياء ما يساعدها على تحقيق الكفاية المنشودة ، « لأن في المال حقاً سوى الزكاة » ومن قال إنه لاحق في المال غير الزكاة فقد قال الباطل ، ولا برهان على صحة قوله لا من نص ولا إجماع^(٣) .

فليس بالزكاة وحدها يقوم التكافل الاجتماعي في الإسلام . وإنما بالتكافل الاجتماعي في جميع صورته يقوم هذا النظام . ولا سيما أن مطالب الحياة والتزامات الدولة قد تتشعب وتعدد . وهذا الرأي الذي ذهب إليه ابن حزم مكملًا به شطر نظريته في توفير الحاجات الأساسية للإنسان - هو الرأي الذي رجح لدى الباحثين الإسلاميين المعاصرين ، لأنه يقوم على أساس اجتماعي اقتصادي متكامل^(٤) . ويعطى

(١) انظر د - فتحى عثمان : آراء من تراث الفكر الإسلامى ١١ .

(٢) انظر المرجع ص ١٢ وانظر د - يوسف القرضاوى: فقه الزكاة ٢ - ٥٧٥ والجدير بالذكر أن ابن حزم ساوى في هذه الحقوق بين الأحرار والعبيد - (انظر المحلى ١٠ - ٢٥٧ ، ٣٠٨ ، ٦٣٢ ، كما أعطى « ولد الزنا » كل الحقوق الإنسانية) انظر المحلى ١٠ - ٦٣٢ - ٣٩٩ .

(٣) المحلى ٦ - ٥٤ وانظر د - يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ٢ - ٩٨٣ .

(٤) انظر د - محمد عبد الجواد محمد : ملكية الأرض في الإسلام ٢٥٤ .

الدولة فرصة تسد التزاماتها في حدود اقتصادية مرنة ، تستطيع من خلالها أن تفرض إلى جانب الزكاة ضريبة دخل تكفي لسد احتياجات الطبقات الفقيرة^(١) وإلى بناء المشاريع ، والمؤسسات التي تفرضها ضرورات العصر .

والحق أن مبدأ (إن في المال حقاً سوى الزكاة) المعتمد على أصل نبوى والذي عارضه بعض الفقهاء بحجة أن الزكاة نسخته - هذا المبدأ لم يجادل عنه ، ولم يعضده بالأدلة الوفيرة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين - وسلوكهم - أبلغ وأفصح من الفقيه الظاهري أبى محمد بن حزم^(٢) ، بحيث إننا لانبالغ إذا قلنا : إن هذا رأى لم يبرز في الفكر الإسلامى - ولم يلتفت إليه إلا بعد هذا الدفاع الحار الموثق من ابن حزم .

وينضم إلى عناصر نظرية ابن حزم في التكافل الاجتماعى رأيه في جانبين من جوانب الحياة الاجتماعية :

١ - حق الجوار والماعون .

٢ - حق الضيافة .

فإن هذين الحقين لم يدرسا بعناية من أكثر المفكرين الإسلاميين ، لأن أكثر الفقهاء نظروا إليهما على أنهما من باب « المندوبات الشرعية والآداب الاجتماعية » . لكن ابن حزم من بين أكثر أئمة المذاهب ، هو الذى تناول هذه الجوانب من وجهة نظر قانونية ، وأعطاهما حيياتها الشرعية ، كجزء من التشريع الاجتماعى والإسلامى لها صفة الإلزام والفرض ، وليست شيئاً متروكاً لرغبة الفرد ومزاجه الخاص .

فمن المألوف في العرف أن يحتاج الجار إلى جاره في بعض المنافع كاللدابة للركوب ، والثوب للباس ، والفأس للقطع ، والقدر للطبخ ، والمقل للقل ، والدلو

(١) انظر مقال الاجتماع في الاسلام (من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية المؤتمر السادس ١٩٧٢ م) .

(٢) انظر د - يوسف القرضاوى : فقه الزكاة ٢ - ٩٨١ وانظر أيضاً ٢ - ٩٦٨ وما بعدها .

والحبل والرحى للطحن ، والإبرة للخياطة ، وسائر ما يتتفع به — هذه الأشياء من سأل جاره إعارته شيئاً منها ، وهو محتاج إليها ، ففرض عليه إعارته إياها إذا وفق بوفائه .. أما كونها فرضاً فلقول الله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ فقد توعد عز وجل في منع الماعون بالويل^(١) .

ويقدم ابن حزم — بعد هذا الحكم — بعض التعريفات التي وردت في « الماعون » وبعض الأحاديث والروايات التاريخية من سلوك الصحابة والتابعين التي تؤكد فرضية « الماعون »^(٢) ، وهو يعتبر هذا الماعون المعار غير مضمون إن تلف من غير تعدى المستعير^(٣) ، لأن الأصل في علاقة الجوار هو الثقة وليس التهمة أو الظن ، فالظن أكذب الحديث^(٤) .

الحقيقة أننا نلمح في نص ابن حزم الشهير : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك »^(٥) نوعاً من التكافل الاجتماعي على أساس الوحدة الجغرافية والسكانية القائمة على الجوار ، فبالمعنى الفقهي الذي مال إليه بعض الفقهاء للجار ، وهو أنه أربعون من كل ناحية — تكون القرية الواحدة ، بل المدينة الصغيرة — وحدة متكاملة — يقوم أغنياؤها بحق فقرائها في أمر توفير حاجاتهم الأساسية . ويدعم هذا ما ذكرناه من اتجاه ابن حزم في حق الماعون ، كما تدعمه القاعدة الفقهية التي لا تجيز إخراج الزكاة من بلدها إلا عند الكفاية .

ومن صور التكافل الاجتماعي التي أبرزها ابن حزم ، والتي اشتهرت عند تقنيته لحق الضيافة ، وإنزاله هذا الحق منزلة الفرض ، واعتباره ركناً ملزماً من أركان النظام الاقتصادي الإسلامي ، للضيف أخذه مغالبة وقوة بأي طريق .

(١) المحلى ١٠ - ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) انظر المصدر السابق ١٠ - ١٦١ ، ١٦٢ ، وانظر د - يوسف القرضاوى: فقه الزكاة ٢ - ٩٧٨ ، انظر د - فاروق النبهان : الاتجاه الجماعى فى الإسلام ٢٣١ .

(٣) انظر المصدر السابق ١٠ - ١٦٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ١٠ - ١٦٣ .

(٥) المحلى ٦ - ٢٤٤ .

يقول ابن حزم :



« الضيافة فرض على البدوي ، والحضري ، والفقير ، والجاهل : يوم وليلة مبرة واتحاف ، ثم ثلثه أيام : ضيافة ولا مزيد .. فإن منع الضيافة الواجبة فله أمحذها مغالبة ، وكيف أمكنه ، ويقضى له بذلك » (١) .

ويستدل ابن حزم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق أبي داود - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام ، وما بعد ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يجرجه » (٢) . وقد صرف ابن حزم هذا الحديث - وغيره - إلى ظاهره كما هو منهجه في فقه الشريعة ، فأعطاه صفة الالتزام ، وخالف أكثرية الفقهاء الذين يرون أن حقوق الجوار والضيافة من مكارم الأخلاق ومحاسن الدين ولكنها ليست فرضاً ملزماً (٣) .

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند ابن حزم (٤) :



اهتم ابن حزم بالمرأة في كل دراساته ، وأعطاهها حقها في الهيئة الاجتماعية وساواها بالرجل مساواة تامة في الحقوق الإنسانية . وقد فسر قوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ - بأنها قوامة لا علاقة لها بالحقوق والطبيعة الإنسانية أو القدرة على تصريف الأمور . ولو كانت قوامته بهذا المعنى للزم أن يكون كل رجل أفضل من كل امرأة ، وهذا لا يستقيم في لغة العقل .

وهو يناقش في ذلك آراء الفقهاء الذين لم يقدرُوا المرأة قدرها ، ويقول : « وجائز أن تلي المرأة الحكم ، وهو قول أبي حنيفة - وقد روى عن عمر أنه ولي الشصاء

(١) اهل ١٠ - ١٧١ وانظر د - فاروق النيهان : الاتجاه الجماعي ٢٢٩ .

(٢) للكان السابق .

(٣) انظر د - فاروق النيهان : الاتجاه الجماعي ٣٣٠ .

(٤) يلاحظ هنا أننا نبسط آراء ابن حزم بأماته ، وليس من شأننا في هذا البحث التاريخي مناقشة هذه الآراء بالتقدير الكبير الكافي .

امرأة من قومه - السوق، فإن قيل قد قال رسول الله ﷺ : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة . قلنا - إنما قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذي هو الخلافة . برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : المرأة راعية على مال زوجها وهي المسئولة عن رعيته . وقد أجاز المالكية أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص في منعها أن تلي بعض الأمور^(١)

أما تولى المرأة القضاء فقد أجازها ابن حزم على الإطلاق أيضا ، ووافق فيه بعض الأئمة^(٢) .

ومساواة المرأة بالرجل - في حدود تخصصها - ينضح به فكر ابن حزم في مواضع كثيرة - فالجهاد على المرأة ندب ... لكن لانهى عنه ، وجهادها الحج والنفار للثقة في الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليها كوجوبه على الرجال ، وفرض عليها - أيضا إلى جانب هذا الفقه العام - التفقه في كل ما يخصها كما أن ذلك فرض على الرجال ... ولوتفقهت امرأة في علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها وقد كان ذلك . فهؤلاء أزواج النبي وصواحيبه قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع نحلنا في ذلك^(٣) .

وإذا كان ابن حزم قد اهتم بالحقوق العامة للمرأة ، فإنه قد تناول قضاياها في صورها المختلفة ، فاهتم بها « أما » وخصص لذلك رسالة وجيزة مستقلة سماها « رسالة في الأمهات » تحدث فيها عن الأمهات المشهورات بدءا من أم النبي عليه الصلاة والسلام ، وحتى أم الخليفة المستكفي^(٤) كما أنه اهتم بهن في تاريخه كله فلم يكن يذكر خليفة إلا ويذكر أمه^(٥) ، وما يعد من معلومات عنها .

(١) المحلى ١٠ - ٦٣١ مسألة ١٨٠٤ .

(٢) انظر المحلى ١٠ - ٦٣٢ .

(٣) انظر الأحكام : ٣ - ٣٢٥ .

(٤) انظر رسالة الأمهات مخطوط (٦٨٢ تاريخ) ورقة ١ ، ٢ ، معهد المخطوطات التابع للجامعة الدول العربية .

(٥) انظر - مثلا - الجمهرة ١٤ ، ٢٠ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ١١٤ ، ١١٨ وغيرها ، وانظر جوامع السيرة في حديث عن خلفاء بني أمية وبني العباس . وانظر نقت العروس في هذه المواطن أيضا .

واهتم ابن حزم بالمرأة « زوجة » ولعل ابن حزم هو أبرز فقيه اشتهر بدراسته الرائدة في الحب العفيف ولم يظلم ابن حزم المرأة أو يحملها المسؤولية الاجتماعية - عند الخطأ وحدها - أو ينتظر منها فوق طاقتها بل إنه يحدد معنى « الصلاح لدى المرأة والرجل على السواء ، فيقول : « ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت ، والفاصلة هي التي تسهل الفواحش وتتحيل في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل .. والصالحة من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاصلان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء^(١) .

ونقد ابن حزم آراء الذين يطلبون الوفاء من المرأة وحدها دون الرجل ويلومون المرأة إذا سقطت ولا يلومون الرجل : « وإني لأسمع كثيراً ممن يقول الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فأطيل العجب من ذلك . وإن لي قولاً لا أحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيعين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي ، واستفزه الحرص وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضياً ، وحكماً ، نافذاً لا محيد عنه ألبتة^(٢) .

وفي ثنايا الطوق نحس من أسلوب ابن حزم وتحليله إكباراً للمرأة في أكثر أوضاعها التي أحلها الله . ومساواة تامة بالرجل في حدود ما أمر الله . بل إننا لنشعر بأنه يحاكي المرأة في بعض الأحيان ... أليس ابن حزم قد رى في حجورهن ؟ وهن علمنه القرآن والخط ؟ ...

ومن أجل نظرتهم للمرأة تلك ، يرفض ابن حزم تزمت جماعة الفقهاء المنقصبين المرأة حقها الشرعي ويعلل أن موقفهم من المرأة هو موقف المراءة ، وهو يرفض المراءة ولا ينسك نسكاً أعجمياً . ومقاسه الوسط : أن المسلم يكفيه أداء الفرائض

(١) الطوق ١٦٤ وانظر د - زكي مبارك: المذخر الفنى ٢ - ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) الطوق ١٦٣ .

واجتناب المحرمات وعدم نسيان الفضل مع الناس ، وما سوى ذلك لا ضير عليه فيه (١) .

والحق أن ابن حزم قد كرم المرأة - في هذا الباب - تكريماً عالياً ، وحين ارتفع بالنظرة إليها عن مستوى الشهوة ، وقعد للحب قواعده التي تجنح إلى العفة والعذرية ، وتسمو به عن المستوى الذي شاع بين الناس (٢) . من أن المرأة ليس فيها من جوانب الحياة التي تستحق التعامل معها .. غير الجنس .. ففي الطوق وفي سائر تراث ابن حزم ، ظهرت المرأة في أكثر من صورة ، معلمة ، متعلمة ، شاعرة ومثقفة ، عفيفة لا تطمع فيها الأبصار ، وفي ذات خلال عالية ، تستحق أن ييكها الرجل ، بل أن يموت أسفاً عليها إذا فارقتها حية أو ميتة ...

هذه المكانة للمرأة ، كان ثمة تواطؤ من طائفة المتعصبين المرائين على إخفائها ، لكن ابن حزم الظاهري - قد أبانها وكتب فيها صفحات رائعة أحدثت دويماً في الأدب الإنساني كله .

وعندما نجد في الطوق التعبير عن المرأة بلفظ الجارية ، فإن من الضروري الوعي بأن لفظ الجارية ليس بمعنى الأمة ، بل إن لفظ « الجارية » في الأندلس كان لفظاً يقال للتدليل « وما زالت القبائل العربية التي استقرت في أعلى صعيد مصر ، قادمة من المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي وما تلاه ، والأندلسيون الذي استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣ م ، ما زالوا يستعملون كلمة الجارية في حياتهم الأسرية تدليلاً من الرجل لزوجته (٣) » .

ومع كل ذلك فإن ابن حزم لم يكن يحسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهي نتيجة طبيعية لما مر تحت عينيه من تجارب وأحداث لم يستطع لها تعليل ولا ردها لأسبابها المنطقية ،

(١) انظر الطوق ١٩٦ ، وانظر يوسف الشاروني: (طوق الحمامة) مقال بمجلة المجلة عدد ١٠٢ وانظر الدكتور طه حسين : ألوان ١١٤ .

(٢) انظر د - سعد شليبي: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ١٢٩ وانظر يوسف الشاروني: مقال (طوق الحمامة) مجلة المجلة عدد ١٠٢ يونيو سنة ٦٥ .

(٣) انظر د - الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ٢٥٥ .

فأدى ذلك إلى غيرة شديدة قد طبع عليها ، وسوء ظن من جهتهن فطر عليه ^(١) . ولعل أكبر الأسباب في ذلك أنه حصر نفسه في دائرة الحديث عن نساء الطبقة العليا ، ولم يطلعنا إلا قليلاً جداً عن المرأة الأندلسية التي عانت - مع الرجل - ظروف الفتنة بكل آثارها النفسية والاقتصادية والاجتماعية

النظرية التربوية لابن حزم :



غاية العلوم :

قدم ابن حزم نظرية تربوية متكاملة ، بناها على أسس واضحة ، ورتب على أساسها لكل مرحلة من مراحل النمو الجسمي والعقلي - قدراً ملائماً من المعرفة . ونظرية ابن حزم في التربية ، تقوم على أساس التصور الإسلامي الشامل الذي يرى « أن مدة المقام في هذه الدار إنما هي أيام قلائل ، وإجهاد المرء نفسه فيما لا ينتفع به إلا في هذه الدار من العلوم سعى خاسر ^(٢) » .

ويحلل ابن حزم ذلك تحليلاً نحس وكأنه تحليل عصري نعيشه ونلمسه فهو يقول : إن اكتساب المال بغير العلم أجدى وأشد توصيلاً إلى المرء من التوسع في العلم لكسب المال ، كصحبة السلطان وعمارة الأرض والتقلب في التجارات ... فالشغل يطلب العلم ليكون سبباً إلى كسب المال والتعب فيه بهذه النية عناء وضلال ، وفاعله قد جمع عيين عظيمين : أحدهما ترك أخصر الطرق إلى مطلوبه ، وأسهلها في التوصل إلى غرضه ، وركب أوعرها مسلكاً وأطولها تعباً وأقلها فائدة . والوجه الثاني أنه استعمل الفضيلة التامة والتي بان بها عن الحشرات والبهائم « في اقتناء حجارة لا يدرى متى تدعه أو يدعها » ^(٣) .

(١) انظر الطوق ٧٩ ود-الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، وانظر د . مصطفى عبد الواحد :

دراسة الحب في الأدب العربي ص ٢٧٢ طبعة دار المعارف ١٩٧٢ م وانظر د - زكي مبارك : النثر الفني ٢ - ٢٠٩ .

(٢) رسالة مراتب العلوم .

(٣) المصدر السابق .

« وأما العلم الذى ليس فيه إلا صحة الجسم فقط ، فإن المتعب فيه بدنه المجهد لنفسه فى تلقيه وتقييده لا يحصل من تمامه لديه إلا على الحصر فى معاناة مرض لا يدرى أيتم له غرضه من برئه أم لا يتم ^(١) ... » .

وهو يقصد بهذا الصنف ، تلك الطائفة التى تحصر حياتها فى دائرة « التريية البدنية » والتى تعيش لهذه الألعاب « وتعيش عليها دون أن تكون لها فى الحياة غايات أخرى » .

فهذان الاتجاهان فى غايات المعرفة مرفوضان عند ابن حزم وإذا كان الأمر كذلك فأفضل العلوم « ما أدى إلى الخلاص فى دار الخلود ، ووصل إلى الفوز فى دار البقاء » ^(٢) .

التعليم فى مرحلة الطفولة :

يرى ابن حزم أن وسائل تحصيل العلوم ثلاث : السماع والكتابة والقراءة ، ولا سبيل دونها لشيء من العلوم ألينة ^(٣) .

وعند بلوغ الصبى سن الخامسة أو نحوها - وهى السن التى يراها ابن حزم ملائمة لبدء العلم - يجب تسليم الصبى إلى مؤدب ليعلمه « الخط » « وتأليف - الكلمات من الحروف » .

وعلى المؤدب فى هذه الحالة - مراعاة أن يعلم الصبى « الخط » بحيث يكون قائم الحروف بيناً ، صحيح التأليف الذى هو الهجاء .

فإن الخط إن لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد ^(٤) .

(١) رسالة مراتب العلوم ٦٢

(٢) المصدر السابق ٦٢ .

(٣) انظر المصدر السابق ٦٣ .

(٤) المكان السابق .

ويحذر ابن حزم المؤدب من « التزيد في حسن الخط » فليس ذلك فضيلة بل هو داعية إلى التعلق بالسلطان ، وإفناء الدهر في ظلم الناس والكذب والباطل ^(١) .

-وحد تعلم القراءة أن يمهر الصبي في قراءة كل كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها قومه .

-والخطوة الثانية في تعليم الصبي - هي أن يحفظ القرآن ، لأنه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة كالتدريب في القراءة وتمرين اللسان على التلاوة ، والتخلق بالأخلاق الحميدة التي يقرؤها فيه ^(٢) .

التعليم في مرحلة الصبا ونظريته في تصنيف العلوم :

وبعد أن ينتهي ابن حزم من بسط رأيه في تعليم الأطفال - يقدم لنا نظريته في تصنيف العلوم الواجب تعلمها ، مبتدئاً بالأهم ومقدراً لكل علم حجماً معيناً تتضح فيه رؤية ابن حزم الظاهرية للأشياء ، وبالبعد عن الترف العقلي الموجود بخاصة في كتب النحو أو الفقه .

والعلم الأول في هذه المرحلة - عند ابن حزم - هو علم النحو واللغة وتجزيء فيهما لغير المتخصص بعض الكتب الأساسية ككتابي الواضح ، ومختصر العين للزبيدي ، والموجز لابن السراج والغريب لأبي عبيد ^(٣) « وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها بل هي مشغلة عن الأوكد ومقطعة دون الأوجب الأهم ، وإنما هي تكاذيب ... فما وجه الشغل بما هذه صفته ^(٤) ؟ » .

(١) رسالة مراتب العلوم ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ٦٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ٦٤ ، ٦٥ .

(٤) المصدر السابق ٦٥ .

العلم الثاني :

الشعر الذى فيه الحكم والخير كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وصالح ابن عبد القدوس^(١) « والإكثار من الشعر كسب غير محمود ، لأنه من طريق الباطل والفضول لا من طريق الحق والفضائل »^(٢) .

العلم الثالث :

الحساب « فليحكم الضرب والقسمة والجمع والطرح وليأخذ طرفاً من المساحة ، وليشرف على « الأرثماطيقى » وهو علم طبيعة العدد »^(٣) .

العلم الرابع :

الفلك ، فيه يتوصل إلى معرفة نسبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها . ويحسن فى هذا العلم عند ابن حزم - مطالعة كتاب المجسطى حتى يعرف المتكلم الكسوفات وعروض البلاد وأطولها والأوقات^(٤) . إنلج وطلب علم الفلك لايمنى الاشتغال بأحكام النجوم « فإنه لا معنى له »^(٥) .

العلم الخامس :

المنطق .- ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب العقلى وكيف التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان .

(١) رسالة مراتب العلوم ٦٥ وقد ذكرنا من قبل فى الباب الأول (الفصل الثالث) أنه رفض من الشعر ضرونا أربعة هى : الغزل والحرب والتعرب والمهجاء (انظر المصدر السابق ٦٦) .

(٢) المصدر السابق ٦٧ .

(٣) المكان السابق .

(٤) المصدر السابق ٦٨ .

(٥) المكان السابق .

العلم السادس :

الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر .

العلم السابع :

كتب التشريع ليقف على تأليف الأعضاء وكلمة الله .

العلم الثامن :

كتب التاريخ القديمة والحديثة ، ليقف على فناء الممالك وخراب البلاد ودثور المدائن ... وعلى حمد المتقين .. وذم أهل الرذائل ^(١) .

العلم التاسع :

الفلسفة ، لأنها تحتاج إلى نضج عقلي ، وإلى رصيد كبير من المعارف فيعرف ماله خرج إلى هذا العالم وما إليه يرجع ^(٢) .

العلم العاشر :

مقارنة الأديان لمعرفة صحة الإسلام على سائر الأديان .

العلم الحادى عشر :

الشريعة .. فهى الأعلى والأعظم منفعة ..

(١) انظر رسالة مراتب العلوم ٧١ وانظر ٧٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ٧٢ .

هذا هو تصنيف ابن حزم للعلوم . ومن الملاحظ أنه ينتهي بعلوم الدين ، على عكس ما يراه الكثيرون من البدء بها وهو يرى أن الذي تختلف فيه الأمم من هذه العلوم ثلاثة : علم الشريعة وعلم الأخبار وعلم اللغة .. أما بقية العلوم فهي علوم مشتركة (١) .

كما أن ابن حزم لا يميل إلى التخصص الشديد ، بل يرى ضرورة الأخذ من كل علم بطرف فإن سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون نعمة عظيمة - كما روى ابن حزم عن شيخه يونس بن عبد الله وصدقه في ذلك ، بالإضافة إلى أن هذه العلوم تتعلق بعضها ببعض ولا يستغنى فيها علم عن غيره (٢) .

والحق أن ابن حزم قد جمع بين عمومية الثقافة والتخصص الدقيق في إطار متناسق رائد ، وذلك في جملة محددة يقول فيها :

« ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره أو شك أن يكون ضحكة ، وكان ما خفى عليه من علمه الذي اقتصر عليه أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم بعضها ببعض .. ومن طلب الاحتواء على كل علم أو شك أن ينقطع وينحسر ولا يحصل على شيء (٣) . »

العلوم العملية :



يرى ابن حزم أنه عند التحقيق وصحة النظر يثبت أن « كل ما علم فهو علم » فالتجارة والخياطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها ، وغرسها ، والبناء - كل هذه علوم نافعة ...

لكن ابن حزم يقدم على هذه العلوم ، العلوم النظرية السابقة ، إذ أن هذه علوم

(١) انظر رسالة مراتب العلوم ٧٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ٧١ .

(٣) المصدر السابق ٨١ .

يحتاج إليها الناس في معاشهم ، أما الآخرة ففرضها التوصل إلى الخلاص من العذاب فقط (١) .

لكن ابن حزم مع ذلك لم يذم هذه العلوم - كما فعل بعض العلماء - بل إنه ليعتبر ذلك دليل نقص وقولا بغير معرفة (٢) .

إضافات تربوية أخرى لابن حزم :

يرى ابن حزم أن التعليم إجباري ، ليس إلى مرحلة « محو الأمية » في القراءة والكتابة فقط ، بل إلى مرحلة أعلى من ذلك وهذه المرحلة « الإلزامية » لا يسع أحداً من الناس الإفلات منها : الأحرار والعبيد والإماء . وهي تفرض بقوة القانون ، فالإمام يجبر أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا - إما بأنفسهم وإما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم . وفرض عليه - أيضاً - أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتب أقواماً لتعليم الجهال (٣) .

وفي هذه المرحلة يجب تعليم الطهارة والصلاة والصيام بفرائضها وكيفية أدائها ، وتعليم ما يحل وما يحرم « من المأكل والمشرب والملابس والفروج والدماء والأقوال والأعمال » (٤) .

وترتبط بهذه المرحلة ، وتأتي بعدها في الوقت نفسه ، مرحلة تعليمية أخرى أقرب إلى التخصص العملي في أنشطة الحياة المتباينة :

« ثم فرض على كل ذي مال تعلم حكم ما يلزمه من الزكاة ، وسواء الرجال والنساء والعبيد والأحرار ، فمن لم يكن له مال أصلاً فليس تعلم أحكام الزكاة عليه فرضاً . ثم من لزمه فرض الحج ففرض عليه تعلم أعمال الحج والعمرة ، ولا يلزم ذلك من لا صحة لجسمه ولا مال له » ثم فرض على قوة العساكر معرفة السير

(١ ، ٢) انظر رسالة مراتب العلوم ٨٠ .

(٣) انظر الإحكام ٥ - ٦٩٠ .

(٤) انظر المكان السابق .

وأحكام الجهاد وقسم الغنائم والفيء ، ثم فرض على الأمراء والقضاة تعلم الأحكام والأقضية والحدود وليس ذلك فرضاً على غيرهم . ثم فرض على التجار وكل من يبيع غلته تعلم أحكام البيوع وما يحل منها وما يحرم .

« ثم فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو معسكر أو حلة أو حصن أن ينوب منهم لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها (١) » .

ونحن نرى فيما ذكره ابن حزم منطقاً عملياً (٢) ، وتوجيهاً للعلم في خدمة المجتمع ، وإيماناً بأن من الصعب التوصل إلى كل العلوم ، فمع ضرورة الأخذ من كل فن بطرف لا بد من دقة في معرفة التخصص .

وهذا الجمع في التربية بين أرضية ثقافية واسعة ، وتخصص دقيق وتوجيه للعلم في خدمة المجتمع ، ووفقاً لاحتياجاته - هو الرأي الذي انتهت إليه المدارس التربوية في العصر الحديث ، وسبق إليه ابن حزم منذ أكثر من تسعة قرون .

ويرفض ابن حزم ذلك التصور الخاطيء الذي يسيطر في عصور التخلف الفكرى ، وهو ما ذهب إليه نفر من أهل العلم الدينى من ازدراء سائر العلوم فهذا نقص عظيم شديد لا ينتفع به صاحبه ، إذ أن هذه العلوم الدنيوية خادمة ومتصلة اتصالاً قريباً بعلوم الدين . كما فصل ذلك ابن حزم (٣) .

كما يرفض ابن حزم ما ذهب إليه الذين طلبوا علوم العرب فازدروا سائر العلوم ، إذ أن هؤلاء بمنزلة من ليس في يده من الطعام إلا الملح ، وليس معه من السلاح إلا المصقلة ، فهو لا يظن أنه ليس هناك أفضل منهما (٤) .

ومثل هذين هؤلاء الذين طلبوا علوم الأوائل أو علما منهما ، فاتخذوا سائر العلوم سخرياً ، مثل من تعلق بالطب فلم ير علماً غيره ... ومثل قوم من أهل الهندسة وعلم الهيئة لا يرون ما عدا ذلك (٥) .

(٣) انظر الأحكام ٥ - ٦٩٠ .

(٤) انظر د - فتحى عثمان : آراء من تراث الفكر الإسلامى ص ٤٠ وما بعدها .

(١) انظر رسالة مراتب العلوم ٨٧ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) انظر المصدر السابق ٨٨ .

فهذه كلها نظرات جريئة متعصبة يرفضها ابن حزم لأنها لا تصمد أمام النظرة التربوية الشاملة التي يدعو إليها ، والتي على أساسها يبنى نظريته في تكامل العلوم وترابطها .

إضافات أخرى في الفكر الاجتماعي عند ابن حزم :

وثمة آراء أخرى لابن حزم نرى أنه أضاف بها جديداً إلى الفكر الاجتماعي . ومن هذه الآراء رأيه في (حقوق العبيد) فقد قدم ابن حزم إجابة شافية لذلك السؤال الذي يتردد كثيراً على ألسنة أعداء الإسلام حول أسباب عدم إعلان الإسلام لتحرير العبيد بطريقة مباشرة وعامة ...

فابن حزم يرى أن حرية العبد هي حق له يستطيع أن يحصل عليه متى شاء إذا هو أحس القدرة على تحمل تكاليف الحرية ومواجهة أعباء الحياة وحده ... فكأنه بهذا يقول إن الاسلام قد حرر العبيد وبقي على العبيد أن يحرروا أنفسهم ..

يقول ابن حزم : « من كان له مملوك مسلم أو مسلمة فدعا أو دعت إلى الكتابة : فرض على السيد الإجابة إلى ذلك ، ويجبره السلطان على ذلك بما يعرف أن المملوك العبد أو الأمة يطيقه مما لاضير فيه على السيد - لكن مما يكتب عليه مثلهما » (١) .

ويستشهد ابن حزم بالقرآن وبرهان ذلك قول الله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ .

وابن حزم يعتبر صرف الأمر بالكتابة من الفرض إلى الندب محرفاً للقرآن عن مواضع كلماته (٢) .

(١) المحلى ١٠ - ٢٥٧ مسألة رقم ١٦٨٦ وانظر معجم فقه ابن حزم ٨٧٠ .

(١) انظر المحلى ١٠ - ٢٦١ .

فهذا الرأي القوى المستقى من الفهم الظاهري البعيد عن التأويل للآية الكريمة ،
يرد على من يقولون على الإسلام في هذا الشأن ، كما أنه يشبه أن يكون إعلاناً
من ابن حزم لحقوق العبيد في الحرية ، أطلقه ذلك الفقيه الظاهري في عصر كانت
تجارة الرقيق فيه عرفاً سائداً في الأندلس وأوروبا والعالم كله .

والى جانب هذا الذى أعلنه ابن حزم في شأن العبيد ، هناك حقوق إنسانية أخرى
فرضها في حال عبوديتهم ، منها : كسوتهم وإطعامهم^(١) ، وعدم تكليفهم مالا
يطيقون ، وعدم تسميتهم بأسماء قد تسيء إلى مشاعرهم : مثل : أفلح ، ويسار ،
ونافع ورباح ، لأن الاجابة عن وجودهم بالنفى ذات دلالة سيئة^(٢) .

ويجوز للعبد - أن يلى القضاء ، والإمامة الراتبية في المسجد ، وهو الحر في ذلك
سواء^(٣) وشهادة العبد والأمة مقبولة في كل شيء^(٤) .

وللعبد أن ينكح أم أو بنت أو أخت سيده إذا أذن له ، ولا يحل للسيد أن يجبر
العبد أو الأمة على النكاح^(٥) . وحكم العبد في الكفالة والشهادة حكم الحر على
السواء^(٦) .

وبلغ الإنصاف الاجتماعى بابن حزم مبلغه حين يقرر أن « من لطم خد عبده
أو خد أمته بباطن كفه فهما حران ساعتئذ إذا كان اللاطم بالغاً مميزاً^(٧) » .

ويعطى ابن حزم ولد الزنى حقه الإنسانى في الحياة ، إذ لا ذنب له في جريمة
لم يرتكبها ... وعند ابن حزم أن ولد الزنا « جائز له أن يكون إماماً راتباً ، لا تفاضل
مع غيره إلا بالقراءة والفقه وقلم الخير والسن فقط » وشهادته جائزة في الزنا وغيره ،

(١) انظر المحلى ١٠ - ٣٠٨ وانظر الكتانى: فقه ابن حزم ٤٠٢ .

(٢) انظر المحلى ١٠ - ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، وانظر الكتانى: معجم فقه ابن حزم ٤٠٤ .

(٣) المحلى ١٠ - ٦٣٢ ، معجم فقه ابن حزم ٤٠٥ .

(٤) المحلى ١٠ - ٥٩٨ ، ومعجم فقه ابن حزم ٤٧٢ .

(٥) المرجع السابق ٤١٠ .

(٦) المرجع السابق ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٧) المحلى ١٠ - ٢٣٥ مسألة رقم ١٦٧٧ ومعجم فقه ابن حزم ص ٧٤٦ .

وبلى القضاء ، كغيره من المسلمين ^(١) وهو « يرث أمه وترثه أمه ، ولها عليه حق الأمومية من البر والنفقة والتحريم وسائر أحكام الأمهات . ولا يرثه الذى تخلق من نطفته (أبوه) ولا يرثه هو ، ولا له عليه حق الأبوة لا فى بر ولا نفقة ولا فى تحريم ولا فى غير ذلك وهو منه أجنبى ^(٢) .

وهذه الآراء الجريئة التى تنضح بإنسانية ابن حزم خالفه فيها كلها أو فى بعضها جمهرة الفقهاء ، وقد ناقشهم ابن حزم بالنصوص الشرعية . وفند فهمهم الذى يميل إلى التأويل والقياس ، وهى آراء تدلنا على مدى ما يمكن أن نصل إليه من خلال فقهننا لتراثنا ، وعودتنا إلى أصوله ... وقد سبق بها ابن حزم النداءات المعاصرة لحقوق الإنسان ، تلك التى تدعو للحرية والإخاء والمساواة فى حدود المسئولية الشخصية .

وفى مواضع أخرى من تراث ابن حزم يتناول إحدى الظواهر الاجتماعية الخطيرة بالعلاج ، مستغلا فقهه الاجتماعى ، ووعيه بتاريخ الملل والنحل وظروفها التاريخية . وهذه الظاهرة التى يعالجها ابن حزم باعتبارها مرضاً اجتماعياً خطيراً مستخدماً فى علاجها أسلحته تلك .. هى ظاهرة (الإلحاد) التى تنفشى فى بعض المجتمعات خلال ظروف حضارية معينة ...

وابن حزم يرجع هذه الظاهرة إلى « الجهل » وسوء « المنهج التربوى » و « ضعف العقل » وحب « المخالفة » وهو يرى أن الملحد ين طائفة شاذة من الناس « افتتحت عنوان فهمها ودخولها إلى المعارف بطلب علم العدد وطبائعه ، ثم تدرجوا إلى تعديل الكواكب وهىة الأفلاك وكيفية قطع الشمس والقمر والدرارى وتقاطع لفلكى النيرين والكلام فى الأجرام العلوية وفى الكواكب الثابتة ... وفيما دون ذلك من الطبيعيات وعوارض الجو ومطالعة شىء من كتب الأوائل وحدودها .. وما مازج بعض ما ذكرنا من آراء الفلاسفة فى القضاء بالنجوم ، وأنها ناطقة مدبرة .. وكذلك الفلك . فأشرفت هذه الطائفة من أكثر ما طالعت على أشياء صحاح براهينها ضرورية لائحة ^(٣) .

(١) انظر المجلد ١٠ - ٦٣٢ .

(٢) المجلد ١٠ - ٣٩٩ مسألة رقم ١٧٤٤ وانظر معجم فقه ابن حزم ٤٧٢ .

(٣) الفصل ٢ - ٩٢ .

وليس هذا وحده هو سبب إلحاد هذه الطائفة ... وإنما السبب الأهم الذى ارتبط بهذا الانبهار ببعض نتائج العلوم الطبيعية والرياضية أن هذه الطائفة « لم يكن معها من قوة المنّة وجودة القرينة وصفاء النظر ما تعلم به أن من أصاب فى عشرة آلاف مسألة مثلاً ، فجائز أن يخطئ فى مسألة واحدة لعلها أسهل من المسائل التى أصاب فيها فلم تفرق هذه الطائفة بين ما صح مما طالعه بحجة برهانية وبين ما لم يصح فى أثناء ذلك وتضاعفه مما لم يأت عليه من ذكره من الأوائل إلا باقناع أو بشغب وربما بتقليد ليس معه شيء مما ذكرنا ، فحملوا كل ما أشرفوه عليه محملاً واحداً وقبلوه قبولاً مستوياً^(١) ...

وأما الطائفة الثانية ، فهم قوم ابتدأوا الطلب لحديث النبى ﷺ ، فلم يزيدوا على طلب علو الاسناد وجمع الضرائب دون أن يهتموا بشيء مما كتبوا أو يعملوا به ، وإنما تحملوه حملاً لا يزيدون على قراءته دون تدبير معانيه ودون أن يعلموا أنهم ، المخاطبون به ، وأنه لم يأت هملاً ولا قاله رسول الله ﷺ عبثاً ... وأكثر هذه الطائفة لا يعمل عندهم إلا ما جاء من طريق مقاتل بن سليمان والضحاك بن مزاحم وتفسير الكلبي ... وغيرها من كتب الخرافات الموضوعة والآذيت المفتعلة التى ولدها الزنادقة تدليسا على الإسلام وأهله ، فأطلقت هذه الطائفة كل اختلاط لا يصح من أن الأرض على حوت ، والحوت على قرن ثور والثور على الصخرة ، والصخرة على عاتق ملك والملك على الظلمة والظلمة على مالا يعلمه إلا الله عز وجل . وهذا يوجب أن جرم العالم غير متناه .

وهذا هو الكفر بعينه ...^(٢) .

(١) الفصل ٢ - ٩٢

(٢) انظر الفصل ٢ - ٩٣ ، ٩٤ ومقاتل بن سليمان الخراساني البلخي الأصل مفسر جرحه الكثيرون وقد تكلم فى صفات الله بما لا يليق ، وكان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذى يوافق أهوائهم . توفى بالبصرة سنة ١٥٠ هـ . (انظر ترجمته فى دائرة المعارف فريد وجدى) والضحاك ابن مزاحم الخراساني مفسر ومعلم للأطفال اشتهر بالخلط (انظر محمد هشام الأيوبي : مجلة الاعتصام المعربية مقال أساس إلحاد عبد ابن حزم عدد صفر ١٣٩٦ هـ) .

وهكذا فإن ابن حزم حين يرصد ظاهرة الإلحاد وأسبابها ، يحيلها إلى :

- ١ - عدم توافر منهج علمي وعقلية سوية في البحث .
- ٢ - الخضوع للخرافات التي لا يقبلها عقل ولا دين .
- ٣ - تناول بعض الطوائف للإسلام تناولها لشيء فكري ترفي يؤولونه بمزاجهم ويتلاعبون به حسب أهوائهم .
- ٤ - زعم بعض الطوائف أن الدين لا يؤخذ عن عقل وعن حجة ، وقد أوضح ابن حزم ذلك فقال : « هم زاد قوم منهم فأتوا بالأفكية التي يقشعر منها وهي أن أطلقوا أن الدين لا يؤخذ بحجة فأقروا عيون الملحدين وشهدوا أن الدين لا يثبت بالدعوى والغلبة ^(١) » .

ويرد ابن حزم على هذه الطائفة بقول الله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

- ٥ - استخفاف بعض الطوائف بالكتب العلمية المفيدة وكتب المنطق دون أن يطالعوها أو يروا منها كلمة ^(٢) .
- ٦ - وثمة سبب آخر يرشح به فكر ابن حزم ، وهو الدور السلبي للفقهاء في المجتمع ، إذ أنهم لم يكونوا الممثلين المخلصين لمبادئ الإسلام كما أنهم لم يدافعوا عنه إلا بقدر مصالحهم ، ولم يستخدموا أساليب العلم في الدفاع عنه ، بل كان موقفهم من كل جديد موقف المعارضة والتخذيل ^(٣) .

ويرصد ابن حزم المظاهر السلوكية والفكرية للملحدين ، وهي مظاهر يبدو منها تلازمهم في كل عصر ، إذ أننا نلمح فيها وكأنها مما نراه ونحسه من مظاهرهم في عصرنا ...

فهؤلاء الملحدون مغرورون يملأهم الفخر والزهو بما لديهم من علم يظنون أنهم أفضل من كل الناس .

(١) الفصل ٢ - ٩٤ .

(٢) انظر الفصل ٢ - ٩٥ .

(٣) انظر محمد هشام الأيوبي: مقال أسباب الإلحاد عند ابن حزم مجلة الاعتصام المغربية العدد رقم ٣ صفر ١٣٩٦ هـ .

وهم قوم لا يأخذون إلا بالشبهات والاسرائيليات الدخيلة ويعمدون إلى التأويل
وابتسار الحقائق والبراهين

وأما سلوكهم فينضح بعدم احترام الشريعة ، وعدم احترام كتاب الله ولا سنة
رسوله ، بل السخرية منهما كلما سنحت لهم فرصة (١) .

والحق أن ابن حزم قد لمس جوانب موضوع الإلحاد لمساً يمتاز بالأنانة والواقعية
لكنه - فيما يبدو - كان رصداً لواقع عاشه ، ولم يكن نظرة تحليلية شاملة ،
فموضوع الإلحاد من الموضوعات التي تتعدد أسبابها ، وتخضع لظروف فكرية ونفسية
وسلوكية واقتصادية متعددة .. ولا تقف أسبابه ، ولا مظاهره عند الأسباب أو
المظاهر التي رصدها ابن حزم .

هذه بعض آراء ابن حزم في الفكر الاجتماعي . ومن الجلي أنها آراء تمتاز باستقلال
النظرة ، وانفساح الرؤية الاجتماعية مع التزامها في الوقت نفسه بالمنهج الظاهري في
فقه النصوص ، فضلاً عن التزامها الكامل بمنهج النقل .

وقد أثرى ابن حزم الفكر الإسلامي بآرائه الاجتماعية الرائدة ، وكانت محل اهتمام
الدارسين من مسلمين ومشرقين . وقد فسر لها بعض أصحاب الاجتهادات المذهبية
المعاصرة تفسيراً يتلاءم مع أهوائهم ، مما يدل على أنها اجتهادات رائدة سبقت عصرها
وإن كنا نؤمن بأنها آراء من صميم الفكر الاجتماعي الإسلامي ولا يجوز أن تقطع
عن هذا الأصل الكريم .

(١) انظر الفصل ٢ - ٩٢ وما بعدها . وانظر مقال محمد هشام الأيوبي أسباب الإلحاد عند ابن حزم مجلة الاعتصام
العدد الثالث .

الفصل الرابع



العقائد والمذاهب عند ابن حزم

توطئة :



يعترف مؤرخو الأديان بأن علم « مقارنة الأديان » علم إسلامي ، نشأ بفضل التسامح الذي عرف به المسلمون تجاه النحل الأخرى ^(١) .

أما العقائد الأخرى فلم يعترف أى منها بأحقية الآراء الأخرى في البقاء وبالتالي فلم يكن ثمة مجال للمقارنة ، لأن المقارنة تأتي نتيجة للاعتراف بالتعدد وليس التعدد معترفاً به عندهم ^(٢) .

« وجاء الإسلام ، وكان موقفه بالنسبة للأديان الأخرى ينضوى تحت اتجاهين : الناحية النظرية ، والناحية الواقعية ^(٣) » فمن الناحية النظرية أعلن الإسلام أنه الحلقة الأخيرة في سلسلة الأديان . ومن الناحية الواقعية ، اعترف بالوجود الفعلي للجماعات غير المسلمة ^(٤) .

(١) انظر آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ - ٣٨٤ .

(٢) انظر أستاذنا الدكتور أحمد شلبي : اليهودية ص ٢٥ .

(٣) المكان السابق .

(٤) انظر المرجع السابق ٢٦ .

وقد عرض القرآن الكريم للعقائد الوثنية ، ولعقائد أهل الكتاب وفندوها ، وتناول المفسرون هذه الأديان بالشرح والتفسير .

ثم ظهرت كتابات المسلمين في مجال « عرض آراء الأديان » على نحو وصفي لم يصل - في أولى مراحلها - إلى مستوى الدراسة النقدية المقارنة ، و انتهاج نهج علمي متكامل الجوانب ، فظهر في هذا السبيل كتاب أبي محمد التوحيدي (٢٠٢ هـ) - الآراء والديانات ، ثم كتاب المسيحي (٤٢٠ هـ) درك البغية في وصف الأديان والعبادات ، وكتاب أبي منصور البغدادي (٤٢٩ هـ) الملل والنحل ^(١) .

ابن حزم وعلم مقارنة الأديان :

ثم ظهر بعد ذلك كتاب ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل) فكان منعطفاً جديداً ، أبرز (مقارنة الأديان) كعلم له طريقته في البحث ، من استقصاء وتبويب وتحقيق ومقارنة كما أن له موضوعاته المحددة ، وإلى ابن حزم يرجع فضل الأسبقية . في طريقة التبويب ، والاستنباط ، وانتظام التفكير ، وسعة الاطلاع ، وشمول النظرة ^(٢) ، يقول تلميذ ابن حزم الحميدي تعليقاً على رسالة ابن حزم « كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى » المدججة في الفصل : « وهذا مما سبق به ^(٣) » .

وينقل الضبي العبارة نفسها ، لأنه اعتمد على الحميدي في ترجمته لابن حزم ^(٤) كما أن ابن خلكان يذكر المعنى نفسه بأسلوبه ، فيقول : « وهذا معنى لم يسبق إليه ^(٥) » .

(١) انظر د . أحمد شلبي . اليهودية ٢٨ وانظر آدم متر : الحضارة الإسلامية ١ - ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
(٢) انظر محمد إبراهيم الكتاني : (ترجمة مقدمة الفصل) لآسوس بلاثيوس (مقال هل أتر ابن حزم في الفكر المسيحي) مجلة البينة المغربية عدد يونيو ١٩٦١ م .
(٣) انظر المجلد : ترجمة ابن حزم .
(٤) انظر البنية : ترجمة ابن حزم .
(٥) انظر وفيات الأعيان : الجزء الثالث ترجمة ابن حزم .

فهؤلاء بعض المترجمين الأول لابن حزم اعترفوا له بالسبق في هذا الميدان . أما المحدثون ، ومن بينهم المستشرقون ، فقد اعترفوا بمكانة ابن حزم الرائدة في هذا المجال .

فقد ترجم المستشرق الأسباني (ميغيل آسين بلاثيوس) كتاب الفصل إلى الأسبانية وصدر الترجمة بمقدمة حافلة في مجلد يزيد على ثلاثمائة وأربعين صفحة^(١) تحدث فيها عن مكانة ابن حزم وفضله في تاريخ الأفكار الدينية^(٢) واعترف له بالسبق في هذا المجال ، وبين امتيازاه عن غيره من السابقين بطريقته العملية النقدية التي لم يعرفها مؤرخو الأديان في أوروبا إلا في القرن العشرين^(٣) .

ويذكر « بلاثيا » أن كتاب الفصل هو « أشهر ما ألف ابن حزم في مادة التاريخ وأعظمه قيمة ، وأنه تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب حافل بما فيه من مادة وأفكار يعرض لشتى مذاهب الذهن البشري في موضوع الدين بدءاً من الإلحاد المطلق الذي عليه السوفسطائيون ... إلى إيمان العوام الذين يصدقون كل شيء ، ويؤمنون بالخرافات في جهل ولا يشكون في شيء^(٤) » .

ويقول بلاثيا : « إنه نتيجة لذلك صار كتاب ابن حزم تاريخاً لعلم الكلام في الإسلام مع اتجاه واضح لبيان فضائله ، وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعي والمتجرد عن هوى صاحبه^(٥) » .

ويقول الدكتور « فيليب حتى » عن كتاب الفصل :
« أما أنفس كتب ابن حزم الباقية إلى الآن وأفيدها فهو كتاب الفصل في الملل

(١) نشرت الكتاب كاملاً في خمسة مجلدات ضخام الأكاديمية التاريخية بمدريد سنتي ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ بعنوان : (بن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأديان) وقد ترجم المقدمة إلى العربية الأستاذ الدكتور الطاهر مكي .

(٢) انظر : آسين بلاثيوس : ابن حزم في قرطبة ٢٦٦ .

(٣) انظر ترجمة المقدمة للأستاذ محمد إبراهيم الكنانى (مقال : هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي) مجلة البنية المغربية عدد يونيو ١٩٦١ م

(٤) انظر تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢١ .

(٥) المرجع السابق ٢٢٧ .

والأهواء والنحل الذى يؤهل مؤلفه لاحتلال الأولية بين العلماء الذين عنوا بدراس الأديان على سبيل النقد والمعارضة . وفى هذا الكتاب لفت ابن حزم الأنظار إلى بعض مشاكل فى قصص التوراة لم يتنبه لها فكر أحد من العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمى فى القرن السادس عشر^(١) .

ويقول بروكلمان عن الفصل : « إنه مؤلف دينى تاريخى عظيم ، وهو كتاب لم يسبق إلى مثله فى الأدب العالمى^(٢) » .

ويقول المستشرق (جب) : « إن ابن حزم كُرم فى الغرب باعتباره مؤسساً لعلم مقارنة الأديان^(٣) » .

ويقول المستشرق الفريد جاليوم : « إن باحثاً مثابراً كابن حزم القرطبى قد استطاع أن يحشد قواه ليؤلف أول موسوعة دينية أوروبية ، وليكتب أول دراسة على مستوى عال من النقد والترابط حول العهدين القديم والجديد^(٤) » .

فهذه - أيضاً - بعض آراء المحدثين ، فى سبق ابن حزم إلى هذا الميدان . وهو وإن لم يكن سبقاً زمنياً إلى تناول الموضوع ، فهو سبق فى منهج البحث^(٥) ، وفى إمامة بنيان هذا العلم على أساس من الدراسة المقارنة النقدية ، وليس على مجرد السرد الوصفى ، أو الهجوم المسبق ، دون الرجوع إلى المصادر الأصلية لكل نحلة من النحل أو مذهب من المذاهب . وهذا هو السبق الحقيقى الذى نراه لابن حزم .

منهج ابن حزم فى تناول العقائد والمذاهب :



يوضح ابن حزم السبب الذى حدا به إلى الكتابة فى هذا الباب من المعرفة بأن

-
- (١) العرب تاريخ موجز ١٨٢ .
 - (٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ٣١٢ .
 - (٣) انظر شريعة الإسلام ص ١٨٧ .
 - (٤) انظر شريعة الإسلام ص ٢٨٢ .
 - (٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم ٨١٩ .

الذين كتبوا قبله بعضهم أطال وهجر واستعمل الأغاليط والشغب وبعضهم حذف وقصر وقلل وأضرب عن كثير من الحجج القوية لأصحاب العقائد فكان في ذلك غير منصف لنفسه وهو ظالم لخصمه لم يوفه حق اعتراضه فضلاً عن أن الفريقين قد تعمد التعقيد ، والتحليق على المعالي من بعد ، حتى صار ينسى آخر كلامهم أوله ، أو كأنهم يريدون بهذا التحليق ستر فساد ما عندهم^(١) .

فمنهج ابن حزم الذى يحاول السير عليه - إذن - هو منهج علمى منصف برىء من الاستطراد والإخلال والتعقيد ، يعتمد على إيراد البراهين المنتجة من المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس من قرب أو من بعد ، على حسب قيام البراهين التى لا تخون أصلاً^(٢) .

وقد اعتمد منهج ابن حزم على تدرج عقلى ، وعلى نظرة شاملة للملل والنحل التى استطاع أن يصل إلى معرفتها وتحقيق القول فى مبادئها . وبالتالي فقد قسم الفرق الموجودة فى العالم كله - غير الإسلام - إلى ست فرق وهى :

- ١ - مبطلو الحقائق (السوفسطائية) .
- ٢ - مثبتو الحقائق ، مع عدم الاعتراف بالخالق والزعم بأزلية العالم (الفلاسفة الملحدون) .
- ٣ - مثبتو الحقائق مع القول بأزلية الله والعالم معاً (الفلاسفة الكفرة) .
- ٤ - مثبتو الحقائق مع القول بأن للكون مدبرين كثيرين (الزرادشتيون) ، (والمانيون ومعدو الآلهة) .
- ٥ - مثبتو الحقائق مع القول بأن للكون خالقاً واحداً وإنكار النبوات (البراهمة) .
- ٦ - مثبتو الحقائق مع الاعتراف بالخالق والإيمان ببعض الأنبياء فقط (اليهود ومبتكرو التثليث من النصارى والصابئة) .

ومن هذه الأقوال تتفرع آراء هى منتجة منها^(٣) .

(١) انظر الفصل ١ - ٢ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) الفصل ١ - ٣ وانظر بلانثيا - تاريخ الفكر الأندلسى ٢٢٢ .

ثم يأتي الإسلام بعد ذلك ، ويثبت ابن حزم من خلال البراهين العقلية والسرد التاريخي أنه العقيدة الإيجابية الوحيدة الحقة وبرسالته نسخ الله ما أوحى به من قبل إلى الأنبياء .

وفي دراسة ابن حزم المستفيضة لهذه الملل والنحل نراه يطبق عليها جميعاً منهجاً واحداً يعتمد على الفهم الظاهري لدلالة اللغة ، وعدم الاعتراف بالتأويل ، بل إنه يعتبر اللجوء إلى التأويل نوعاً من التضليل والخداع ، كما أن ابن حزم يطبق عليها كلها أحكامه العامة وقواعده النقدية بلا استثناء بينها ، وكثيراً ما يلجأ إلى حصر الظواهر فيها مجتمعة ، وذلك مثل جمعه للآراء الضالة التي قال بها أصحاب الفرق والمذاهب المختلفة في موضوع الأركان الأساسية للعقيدة القويمة تحت أبواب خمسة هي :

- ١ - التوحيد (الله) .
- ٢ - القدر (الجبر والاختيار) .
- ٣ - الإيمان (العقيدة) .
- ٤ - الوعد والوعيد (الحياة الأخرى) .
- ٥ - الامامة ^(١) .

ومن قواعده العامة في نقد الأديان أن « كل كتاب دون فيه الكذب فهو باطل موضوع ليس من عند الله عز وجل ، فظهر من فساد دين المجوس كالذي ظهر من فساد دين اليهود والنصارى سواء بسواء ^(٢) » .

ومن قواعده عدم الاعتراف بالكثرة « فالحق حق صدقه الناس أو كذبوه والباطل باطل صدقه الناس أو كذبوه ، ولا يزيد الحق درجة في أنه حق إطباق الناس كلهم على تصديقه ^(٣) » .

ومن قواعده التركيز على العقائد في مناقشة الملل والنحل على السواء ، لأنه

(١) انظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٧ (وقد وردت هذه الموضوعات بتوسع في الفصل) .

(٢) الفصل ١ - ١١٦ .

(٣) الفصل ١ - ١٠٣ .

ليس في الاشتغال بالأحكام الشرعية شيء يوجب العقل أو يمنعه ، بل كلها من الممكن ، فإذا قامت البراهين الضرورية على قبول الأمر بها ووجوب طاعته وجب قول كل ما أتى به كائناً ما كان من الأعمال^(١) .

ومن قواعده في نقد الكتب المقدسة أن كل كتاب وشرعة كأننا مقصورين على رجال من أهلها ، وكان محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما^(٢) .

ومن قواعده احترام الأساليب الجدلية في المنطق ، بل إنه من أجل هذا وضع كتابه التقريب لحد المنطق^(٣) ، وهذه الأساليب هي الاعتراف ببداهة الحس وبداهة العقل ، والمقدمات الصالحة المعقولة .

وأما عرض ابن حزم لآراء الخصوم ومناقشتهم ، فإن الكتاب حافل بهذا ، ومن هنا اعتبر تاريخاً نقدياً للملل والنحل ، وهذه في الحقيقة ميزة منهج ابن حزم الكبرى .

إن الدكتور أحمد شلبي يحدد منهج دراسة (مقارنة الأديان) بطريقتين :
١ - الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هي عناوين الكتب كأن نكتب كتاباً عن الله ، وتدرس به مختلف الاتجاهات عن الإله ، ونكتب كتاباً آخر عن « النجوة » ، وثالثاً عن « التشريع » ... وهكذا^(٤) ولهذا الطريق سلبياته الكثيرة الناشئة من ضرورة تفكك الموضوعات وصعوبات عدم تشابه الموضوعات في الأديان ، وضرورة دراسة الأديان قبل المقارنة الجزئية ، وهو عمل صعب^(٥) .

٢ - الطريق الثاني هو أن يخصص كتاب لكل دين، تدرس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال ، وهذا الطريق هو الذي يسير عليه

(١) الفصل ١ - ٣٧ .

(٢) انظر الفصل ١ - ١١٣ .

(٣) انظر الفصل ١ - ٤ ، ١٩ .

(٤) انظر د . أحمد شلبي : اليهودية ٢٩ .

(٥) انظر المرجع السابق ٣٠ .

أغلب الكتاب - كما يذكر أستاذنا الدكتور أحمد شلبي^(١) - لأن من شأنه ألا يوقع في مآخذ الطريق الأول ، كما أنه يوفر قدراً كبيراً من النظرة الشمولية ... وهذا الطريق الثاني هو الذى سار عليه ابن حزم ، منذ أكثر من تسعة قرون . بحيث إننا نجد موضوعات (الفصل) فيما يتصل بالأديان تتسلسل (موضوعياً) على النحو التالى :

(أ) تعريف بالملل ومبادئها ، ويشمل :

١ - الفرقة الأولى - المبطللة للحقائق وبراهينهم وبيان فسادها .

٢ - الكلام عن النصارى وفرقهم .

٣ - الكلام على منكرى النبوة والملائكة .

٤ - الكلام على منكرى الشرائع .

٥ - الكلام على اليهود ومنكرى التثليث من النصارى وغيرهم .

(ب) دراسة للكتب المقدسة من واقعها : التوراة ، والأنجيل الأربعة ، والقرآن . وميزة « النقل » عند الأمة الإسلامية . واعتراضات الملحددين على الإسلام .

(ج) دراسة النحل والفرق الإسلامية وبيان خروج أكثرها على الإسلام بناء على عرض مبادئها على الأصول الإسلامية الاعتقادية ، كالخلاف فى صفات الله ، وفى إعجاز القرآن وإلهيته ، والقضاء والقدر والغيبيات .

(د) دراسة حياة الأنبياء وبيان الصحيح من تاريخهم ، ودفع شبهات التوراة والأنجيل عنهم .

(هـ) ذكر شنع الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم .

(و) الكلام فى قضايا عامة من وجهة نظر إسلامية : الجن ووسوسة الشيطان

(١) انظر د . أحمد شلبي : اليهودية

والرؤيا والنجوم والكواكب والحركة والسكون والتولد والطفرة والانسان والجواهر والأعراض والجسم والنفس وغيرها^(١) .

فالمنهج الموضوعي ، الذي يدرس كل عقيدة دراسة متكاملة مقارناً بينها وبين غيرها -كلما وجب ذلك - هو المنهج الذي سار عليه ابن حزم . وجدير بالذكر أن الإسلام ، يدخل فيه الفرق التي انتسبت إليه بحق وبغير حق ، قد أخذ حيزاً كبيراً من الكتاب .

كما أن ابن حزم بوثيقة (الفصل) قد قدم دفاعاً ممتازاً عن « الأنبياء في التاريخ » ، وعرض تاريخ كل منهم في إنصاف وإكبار يليقان بشخصياتهم العالية .

وهذا المنهج المتكامل الموضوعي الذي التزمه ابن حزم هو الذي حدا (بآسين بلاثيوس) أن يقول : « إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب الفصل لابن حزم ، ثمكنتنا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب^(٢) .

الوثنيات في دراسات ابن حزم :



يربط ابن حزم - في مقارنة ذكية - بين اليهود وبعض فرق النصرانية وبين أكثر النحل الوثنية ، من ناحية أن كلا منهما مقر ببعض الأنبياء منكر لبعضهم الآخر .

وهو يتوجه إلى أهل الكتاب بهذا الربط الذي يسوقه في مجال الاعتراض عليهم ، إذ لا فرق إذن بينهم وبين الزرادشتيين المكذبين بنبوة موسى وسائر الأنبياء ، والمانيوية المصدقة بنبوة عيسى وزرادشت المكذبين بنبوة إدريس وغيره^(٣)

(١) هذه خلاصة مركزة لموضوعات الفصل (بأجزائه الخمسة) رتبناها وفقاً لترتيب ابن حزم متخطون بعض الموضوعات الجزئية التي فرعها من الموضوعات الأصلية أو أقحمها دون ترتيب علمي ، لأنه جمع في الفصل كتاباته الأخرى التي كانت متناثرة ورأى ابن حزم أنها تدخل في إطار (الملل والنحل) وتمت إلى قضاياها بصلة .

(٢) نقلا عن بلاثيوس في : تاريخ الفكر الأنلسي ٢٢٨ .

(٣) انظر الفصل ٢ - ١٠٢ .

فالإيمان : إما أن يكون بكل الأنبياء الذين يمكن التأكد - بالمنهج العقلي والنقل - من صدق نبوتهم ، وإما أن يكون إيمان هوى وتعصب .. ولا فرق فيه بين أهل الكتاب والوثنيين إلا في الدرجة فقط .

والقاعدة في النظر إلى هذه الأديان الوثنية من ناحية أصل الفكرة أن النبوة ليست بمدفوعة قبل رسول الله لمن صحت عنه معجزة^(١) ، لكن سبيل الحكم عليها - بعد تطاول القرون - هو تواتر نقلها ، أما إذا احتكرت معرفة مبادئها وحفظ كتبها ، فهذا ييقن سيؤدي إلى التحريف والضلال ، فكتاب المجوس وشريعتهم ، إنما كان طول مدة دولتهم عند « الموبذ » وعند ثلاثة وعشرين « هربذا » لكل هربذ سفر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره ، ولا يتاح لأحد سواهم ... ثم دخل فيه الحرم بإحراق الاسكندر الأكبر لكتابهم أيام غلبته « لدار بن دارا » - هم مقرون بأنه ذهب منه مقدار الثلث - ذكر ذلك بشير الناسك وغيره من علمائهم^(٢) .

وقد نقلت كواف المجوس الآيات المعجزات عن زرادشت ، كالصفر^(٣) الذي أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره ، وقوائم الفرس التي غاصت في بطنه فأخرجها وغير ذلك^(٤) .

ويحكى ابن حزم أن علي بن أبي طالب وحذيفة بن اليمان وسعيد بن المسيب وجمهور أصحاب الظاهر يقولون إن المجوس أهل كتاب^(٥) .

ويقرر أن الزرادشتيين - وهم بعض المجوس - لا يزيد عددهم في الأرض على عهده على أربعين^(٦) ، وهو حصر نراه مجافياً للحقيقة مهما تكن الاحتمالات . وفي هذا المجال نلمح في تقديرات ابن حزم خطأ آخر ، تناقض فيه مع نفسه ، ولا ندري كيف فاته ، وهو الثقة المدقق .

(١) انظر الفصل ١ - ١١٣ .

(٢) انظر المكان السابق .

(٣) لعله نوع من المعادن أقرب إلى النحاس .

(٤) انظر الفصل ١ - ١١٤ .

(٥) انظر المكان السابق .

(٦) انظر المكان السابق .

فقد ذكر في موضع من كتابه كما أسلفنا أن المجوس مقرون بأنه قد ذهب من كتابهم مقدار (الثالث) بسبب إحراق الاسكندر^(١) - وبعد ذلك بصفتين فقط ذكر أنهم مقرون بأن كتابهم ذهب منه (الثلثان) وأكثر وأنه لم يبق منه إلا أقل من الثلث ، وأن الشرائع كانت فيما ذهب ، وأن هذا الضياع كان بسبب إحراق الاسكندر^(٢) .

فالتناقض واضح بين التقديرين ، ولا ندري كيف فاتته هذا .. مع أن احتمال الخطأ في النسخ مستبعد .

والمهم أنه على أساس هذا الضياع الذى نشأ عن عدم التواتر في نقل الكتاب المقدس للمجوس يبطل ابن حزم دينهم - بالعقل - بالإضافة إلى إبطاله بالنصوص القرآنية .

والمبادئ التى تقوم عليها المجوسية - كما أرخ ابن حزم - خمسة :

١ - أورمن (البارى تعالى فاعل الخير) .

٢ - هرمن (إبليس فاعل الشر) .

٣ - كام (الزمان) .

٤ - جام (المكان والخلاء) .

٥ - توم (الجوهر والهيولى) .

فهذه عندهم خمسة لم تزل ، وهم يعظمون إلى جانبها الأنوار والنيران والمياه ، ويقرون بنبوّة زرادشت ..

وأشهر فرقهم: الزرادشتية ، والمزدكية (القائلون بالشيوعية في المال والنساء) والخرمية أصحاب بابل .

ويختلف الصابغون عن المجوس - فهم وإن قالوا بقدم الأصليين : النور والظلمة ، إلا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر ويصورونها في هياكلهم

(١) انظر الفصل ١ - ١١٣ .

(٢) انظر الفصل ١ - ١١٥ .

ويقربون الذبائح والدخان ولهم صلوات خمس في اليوم والليلة ، ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون الكعبة كالمسلمين^(١) ...

وعلى نحو هؤلاء تفعل (البددة) بالهند في تصويرها على أسماء الكواكب (والدقاقرة) في السودان ، حتى آل الأمر إلى عبادتهم إياها مع طول الزمان^(٢) .

ويجمع ابن حزم بين فرق وثنية ثلاث تذهب كلها إلى أن العالم هو مدبر أمره ، وتؤمن بأزلية الطبائع ، وامتزاجها الذي حدث بامتزاجه حدوث العالم . وهذه الفرق هي المانوية والديسانية والمزقونية^(٣) .

وينفى ابن حزم أن ديسان هو تلميذ ماني ، كما يزعم المتكلمون ، لأنه أقدم من ماني ، بدليل أن ماني ذكره في كتبه ورد عليه ، مع اتفاقهما في أصول الفكر (الظلمة والنور) إلا أن الظلمة عند ماني حية وعند ديسان ميتة .

وأما المزقونية ، فقد أضافوا إلى النور والظلمة ثالثاً بينهم لم يزل^(٤) ...

وقد ناقش ابن حزم هذه الفرق فرقة فرقة ، وفند أقوالها ، معتمداً على البراهين العقلية والأساليب المنطقية^(٥) .

وكما أرخ ابن حزم لهذه الفرق الوثنية ، فقد أرخ للبراهمة ، وضمهم إلى منكري النبوات^(٦) ، وإن قالوا بالتوحيد المشوب بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح .

والبراهمة قبيلة بالهند من ولد « برهم » ملك قديم من ملوكهم ويقيم البراهمة أفكارهم للنبوات على حجج عقلية ، ففى رأيهم أنه لا يليق بالله أن يرسل رسلاً يعلم

(١) انظر الفصل ١ - ٣٤ ، ٣٥ وانظر صاعد:طبقات الأمم من ١٥ وما بعدها .

(٢) انظر الفصل ١ - ٣٥ وهذا إدراك من ابن حزم لفكرة (الطوطمية) .

(٣) انظر الفصل ١ - ٣٥ .

(٤) انظر الفصل ١ - ٣٦ ، ٣٧ .

(٥) انظر الفصل ١ - الصفحات من ٣٧ إلى ٤٨ .

(٦) هذا خطأ من ابن حزم وقع فيه كما وقع فيه الباقلاني والبغدادى والشهرستانى فالصواب أنهم ليسوا من منكري النبوات كمبدأ ، بل أثبتوها . انظر د - عماد الطالبى إراء أبى بكر العرى الكلاية ١ - ٣٧٩ وهامش ٢٧٠ .

أن أكثر الناس لا يصدقونهم ، فهذا عبث وتعنّت ، كما أنه أولى به وأتم لاطراده أن يكتفى بالعقول ، وإلا فما قيمتها (١) .

ويرد ابن حزم بأن إرسال الرسل جائز من باين : باب الإمكان قبل الوقوع ، وباب الوجوب بعد الوقوع ، ثم يستطرد على هذين الأساسين فيدحض حججهم بتقديم العلل العقلية الموجبة لإرسال الرسل (٢) .

والحقيقة أن ابن حزم في تقسيمه العام للأفكار على مستوى العالم كله ، قد أدمج الآراء المتشابهة بعضها في بعض - فيما يتعلق بالوثنيات (٣) - فوق في تلك المآخذ التي يقع فيها سالكو طريق (مقارنة الأديان) - على أساس القضايا - من تفكك واضطراب في عرض الموضوعات .

وفيما يبدو لي فإن من أسباب القصور في عرض أسس العقائد الوثنية عند ابن حزم أن المعلومات التي وصلته ، وقدمها لنا ، لم تكن كافية نظرا لبعدها عن الأقطار التي تنتشر فيها الوثنيات عن الأندلس ، كما يبدو لي أن مصادره التي اتكأ عليها كانت قليلة ، وأكثرها مراجع غير أصيلة .

وثمة سبب آخر يجب ذكره في هذا المقام ، فإن الملل الوثنية في الأعم الأغلب تخضع لتطور كبير في أصولها الاعتقادية ، وهذا على عكس الأديان وبخاصة الإسلام الذي لا يقبل التطور في هذه الناحية .

وعلى سبيل المثال فإن التطور في الهندوسية ، ومثلها أديان الهند الكبرى قد مر بمراحل متعددة ، بحيث إن أصولها الاعتقادية كانت تتعرض لتغير في كل قرنين تقريباً من الزمان (٤) .

(١) انظر الفصل ١ - ٦٩ وانظر صباغ: طبقات الأمم ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر الفصل ١ - الصفحات من ٦٩ إلى ٧٨ (ويلاحظ بناء على الهامش الأسبق أنه يرد على قضية غير موجودة)

(٣) انظر مثلاً فصل ١ : الكلام على من قال بتناسخ الأرواح : الفصل ١ / ٩٠ .

(٤) انظر الدكتور أحمد شلي : أديان الهند الكبرى ص ٣٥ وانظر ص ٩٥ .

وهذا هو الذى يجعلنا نشعر بتباين فى بعض جوانب الفكر بين ما قدمه لنا ابن حزم ، وما تقدمه لنا الدراسات التاريخية الحديثة عن الأديان الوثنية المعاصرة لنا .

اليهود فى دراسات ابن حزم :

عرف ابن حزم بتاريخه المبتكر ، ومناقشته المستفيضة للعصرين القديم والجديد . وقد توافرت لابن حزم فى هذا السبيل أدوات البحث ، فقد ناظر كثيراً من اليهود والنصارى ، وكانت له معهم مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة^(١) واطلع على كتبهم ، وعاشرهم عن كثب . وقد شحذ همه ابن حزم لدراسة اليهودية ومناقشتها بصفة خاصة ، أنه عاصر ظروفاً بلغ فيها من اليهود وتطاولهم على المسلمين فى الأندلس حداً لا يطيقه مسلم غيور كابن حزم وكان ذلك فى الربع الثانى من القرن الخامس للهجرة^(٢) .

فى هذا الجو المشحون بالصراع ، والذى يأخذ فيه كل فريق عدته فى البحث ناقش ابن حزم اليهودية وكتب فيها فصولاً فى موسوعته « الفصل » ثم أفرد رسالة فى الرد على اليهودى « يوسف بن النغيلة » عرفت باسم « الرد على ابن النغيلة » ، وقد كتب يوسف المذكور رداً على ابن حزم لم يصل إلينا وأغلب الظن أنه كتب بعد وفاة ابن حزم وأثناء ارتفاعه إلى الوزارة .

وناقش ابن حزم فى حديثه عن اليهود جوانب أربعة هى :

(أ) كشف التناقض فى نسخ التوراة (كما هو الحال بين توراة السامرى وتوراة سائر اليهود) .

(ب) كشف الأكاذيب فى نصوص التوراة المعتمدة لدى اليهود ، والتناقض فيها ، وفى هذا الجانب قدم ابن حزم دراسة نقدية أثنى عليها كثير من المستشرقين ، واعتبرت رائدة مدرسة جديدة هى مدرسة (النقد التاريخى للتوراة) .

(١) ابن سنام : اللخيرة م ١ - ج ١ - ١٤٣ .

(٢) انظر الرد على ابن النغيلة ص ١٨ مقدمة للدكتور إحسان عباس .

ومن ابرز الأكاذيب التي كشفها ابن حزم في التوراة ما ورد فيها عن النهر الذي يخرج من الجنة متفرعاً إلى أربعة رؤوس هي : النيل وجيحان ودجلة والفرات ^(١) .
وقد رد ابن حزم هذه الأسطورة بالأسلوب العلمي الذي أوردناه من قبل ^(٢) .
- ومن أكاذيبهم حكايته عن الله أنه اعترف بأن آدم قد صار مثله في القوة ^(٣) وزعمهم بأن لله أولاداً ، وأنهم اتخذوا بنات آدم نساء في الحرام ^(٤) . وقولهم « في لوط وبناته بما لا يطيق » ^(٥) وزعمهم في اسحاق شنعاً مخزية ^(٦) وبطريقة إحصائية - قدمنا قبل ذلك نماذج منها - كشف ابن حزم عن أخطاء حساية وقعت فيها التوراة ^(٧) ، ولا يمكن أن تصدر عن الله سبحانه وتعالى .

ولم يفت ابن حزم أن يعقد الصلة بين بعض آراء اليهود كالتخداع اسحاق في إعطائه بركته ليعقوب بدل (عيو) - بما عند بعض الشيعة من زعمهم أن جبريل أخطأ في تبليغ الرسالة لمحمد ﷺ بدل على رضى الله عنه ^(٨) ومثل دعوى مجوس الفرس انتظار برهام راكب البقرة وانتظار الشيعة للمهدي وانتظار النصارى السحاب ، وانتظار الصابئين لقصة أخرى ، وانتظار غيرهم للسفياني ^(٩) .

(جـ) والجانب الثالث من جوانب حديث ابن حزم عن اليهودية هو تفنيده لافتراءات بعض كتاب اليهود على الإسلام .

وقد لخص في صدر رسالته في الرد على ابن النغيلة شبهات اليهود على الإسلام : مثل زعمهم أن القرآن جعل الإنسان مرة مسئولاً عن سيئاته ومرة جعل محمداً مسئولاً عن سيئاتهم ^(١٠) ومثل زعمهم أن القرآن ذكر مرة أن الأرض مدحوة ، ومرة أنها

(١) انظر الفصل ١ - ١١٨ .

(٢) انظر (المدرسة التاريخية لابن حزم) الفصل الثالث من الباب الثاني .

(٣) انظر الفصل ١ - ١٢٠ .

(٤) انظر المصدر السابق ١٣٣ .

(٥) انظر المكان السابق ١٣٢ .

(٦) انظر - مثلاً - الفصل ١ - ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٨٤ ، غيرها .

(٧) انظر المصدر السابق ١٣٧ .

(٨) انظر المصدر السابق ١٣٨ .

(٩) انظر المصدر السابق ١٣٩ وانظر خلاف : غرناطة في عهد بنى زيرى . رسالة ماجستير ص ٩٦ .

(١٠) انظر الرد على ابن النغيلة ٤٧ .

مسواة^(١) وزعمهم أن القرآن ذكر أن المجرمين يوم القيامة لا ينطقون ثم ذكر أنهم يجادلون عن أنفسهم^(٢) ، وزعمهم أن النبي عليه الصلاة والسلام شك في دعوته بناء على قول القرآن : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ »^(٣) .

ومن اعتراضات ابن النفريلة اليهودى أيضاً على القرآن قوله عن العسل « فيه شفاء للناس » فتساءل .. كيف يكون كذلك وهو يؤذى المحمومين وأصحاب الصفراء المحترقة ؟ وقوله في وصف القرآن للمطر بأنه « مبارك » إذ كيف يكون مباركاً وهو يهدم البناء ويهلك كثيراً من الحيوان^(٤) ؟

(د) ولا يكتفى ابن حزم بالرد على هذه الشبه وغيرها ، بعد أن يحصرها حصراً ومياً ... لكنه يتبع ذلك بذكر « قليل من كثير من قبائحهم التي يدبرونها وينسبونها إلى البارئ تعالى في كتبهم التي طالعناها ووقفنا عليها^(٥) » .

ومن قبائحهم التي ذكرها ابن حزم: استباحتهم الكذب بغير العبرية ، وتصويرهم الله في صورة الخائف من يعقوب ، ونسبتهم الزنا لأنبيائهم^(٦) وزعمهم أن كل نكاح على غير حكم التوراة هو زنا ، ودعواهم أن السحرة يقدرون على إحالة الطيبات ، كإحالة الإنسان حماراً ، أو العكس ، وزعمهم أن الله حضهم على سرقة أموال المصريين حين خروجهم من مصر^(٧) . وأن هارون هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه^(٨) ، وغير هذا كثير وكثير مما تحفل به التوراة^(٩) .

(١) الرد على ابن النفريلة ٥١ .

(٢) انظر المصدر السابق ٥٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ٦٠ .

(٤) انظر المصدر السابق ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) انظر المصدر السابق ٦٤ وانظر الفصل ١ - ٢١٧ .

(٦) انظر الفصل ١ - ٢١٨ وانظر الدكتور أحمد شلبي : اليهودية ١٣٢ وما بعدها .

(٧) انظر الدكتور أحمد شلبي : اليهودية ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٨) انظر المرجع السابق ٦٨ ، ١٦٧ .

(٩) انظر الرد على ابن النفريلة الصفحات من ٦٥ إلى ٨١ .

ونستطيع أن نقول إن ابن حزم قد التزم بمنهجه الظاهري في نقد التوراة وكان عنيفاً في مناقشته لمناظره من اليهود ، وهو عنف أصيل في ابن حزم وقد زاد من حدته هنا ، ذلك الجو العام الذي سيطر على علاقة اليهود بالمسلمين في ظل دولة البربر الزيريين في غرناطة ، كما أوضحنا سلفاً .

النصرانية في دراسات ابن حزم :

من الناحية المنهجية ، يضم ابن حزم النصارى إلى المجوسية في النوع لأنهم « وإن كانوا أهل كتاب ، ويقرون بنبوّة بعض الأنبياء عليهم السلام ، فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجرداً بل يقولون بالتثليث ، والمجوس أيضاً وإن كانوا أهل كتاب فهم لا يقرون ببعض الأنبياء ، ولكننا أدخلناهم - أى المجوس - في هذا المكان - أى مع المشركين - لقولهم بفاعلين لم يزالا ، فالنصارى أحق بالإدخال ههنا لأنهم يقولون بثلاثة لم يزالوا^(١) » .

وبعد هذا المدخل - يذهب ابن حزم إلى الحديث عن « الفرق النصرانية » أصحاب أريوس ، وأصحاب بولس الشمساطى الذى يتفق مع النظرة الإسلامية إلى المسيح ، والبربرانية الذين يقولون بألوهية المسيح وأمه مريم - وهم فرقة قد بادت ... ثم الفرق المشهورة الملكانية (مذهب جميع ملوك النصارى في عهده) ، والنسطورية .. واليعقوبية^(٢) ...

ويحدد ابن حزم في ثنايا حديثه مجالات انتشار كل فرقة من هذه الفرق .

مناقشة عقائد النصارى :

يقول ابن حزم في صدر حديثه عن النصارى : « وتا الله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلا يسع هذا الكفران »^(٣) .

(١) الفصل ١ - ٤٨ .

(٢) انظر الفصل ١ - ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) الفصل ١ - ٤٩ .

وليس في باب المحال أعظم من أن يكون الذى لم يزل يعود محدثاً لم يكن ثم كان ومن - ياترى - دبر العالم خلال الثلاثة أيام التى يقولون إن التحول قد تم فيها ؟ .

وكيف يمكن أن يصبح الثلاثة شيئاً واحداً ، وبأى معنى - إذن - استحق أن يسمى أحدها أباً والآخر ابناً ، مع أن الانجيل يقول : سأقعد عن يمين أبى ، وإن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده ، فهذا يوجب أن الأب غير الابن . وإن كانت الثلاثة متغايرة فيلزم أن يكون فى الابن معنى من الضعف أو الحذوث يوجب أن ينحط عن درجة الأب . والنقص ليس من صفة الذى لم يزل^(١) .

وأما ما يقول به النصارى من اتحاد الإله مع الإنسان كاتحاد الماء يلقى فى الخمر أو الزيت . فيرد عليه ابن حزم متسائلاً .. ترى أيهما استحال فى الآخر ، الإله أم الإنسان ؟ وأيهما أصبح عرضاً والآخر جوهرأ ؟ وأيضاً فإن كان الإله استحال إنساناً فالمسيح - إذن - إنسان ، وإن كان الإنسان استحال إلهاً فالمسيح إله^(٢) ١١

ولسنا نريد أن نتبع أساليب نقد ابن حزم العقلية للنصارى ، لأن ذلك يستغرق عرض مئات الأفكار التى وردت فى نحو عشرين صفحة^(٣) .

لكن الذى يهمنا الالماع إليه هو أن ابن حزم بدا فى هذه المناقشة صاحب عقل كبير ، وفكر ممتاز ، وأنه كشف لنا عن وعى دقيق بالإنجيل ، بل باللغة العبرية ، مما يجعلنا - وإن لم نجزم بإتقانه لها - إلا أننا نرجح أنه كان على صلة كبيرة بها .

ب - كتب النصارى :



ومن أساليب مناقشة ابن حزم للنصارى استعراضه لكتيبهم ، وبيان ما يعترض به عليها من الناحية التاريخية والتدوينية .

(١) الفصل ١ - ٥٠ .

(٢) انظر الفصل ١ - ٥٥ .

(٣) انظر الفصل ١ - الصفحات من ٤٧ إلى ٦٥ .

والنصارى لا يعدون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح ، ولا أن المسيح أتاهم بها ، بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة ... أولها تاريخ ألفه « متى اللاوانى » بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح ، في نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط ^(١) . والآخر تاريخ ألفه « ماركس الهارونى » بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح عليه السلام ، وكتبه باليونانية في أنطاكية ، والثالث تاريخ ألفه « لوقا الطيب » تلميذ شمعون باطرة ، كتبه باليونانية بعد تأليف مرقس المذكور في حجم إنجيل متى ، والرابع تاريخ ألفه باليونانية (يوحنا بن سيناى) بعد رفع المسيح بوضع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة ^(٢) ثم ليس للنصارى كتاب يعظمونه سوى « الأفركسيس » الذى ألفه لوقا ، وكتاب (الوحي والإعلان) ليوحنا ، و « الرسائل القانونية » ورسالتين لباطرة شمعون ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار ، وأخرى لأخيه يهوذا ، ورسائل بولس تلميذ شمعون ^(٣) ...

وكل كتاب لهم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطارقتهم ^(٤) .

وبدبى أن ما ألفه فرد - ونسبه إلى الله - لا يمكن أن يكون في ثقة ماصدر عن الله مباشرة باللفظ والمعنى ، بدليل ذلك التفاوت في الأساليب والمضامين بين هذه الأناجيل ، حتى في العقيدة ذاتها .

ج - تصورات الأناجيل للمسيح :

وكنموذج لمدى التناقض في هذه الكتب ، مما يسقطها كلها ، ويجعل قول ابن حزم صائباً موضوعياً - يسوق إلينا ابن حزم التصورات المتناقضة للمسيح ، والتي عبرت عنها هذه الكتب ... يقول :

(١) انظر الفصل ٢ - ٢ .

(٢) انظر الفصل ٢ - ٢ ، ٣ وانظر في ذلك الدكتور أحمد شلبى : المسيحية ١٠٣ وما بعدها وص ١٧٤ وما بعدها .

(٣) انظر الفصل ٢ - ٣ .

(٤) انظر المكان السابق وانظر ص ٦٩ وما بعدها .

« وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله ومرة هو ابن يوسف ، وابن داود ، وابن الإنسان ، ومرة هو إله يخلق ويرزق ، ومرة هو خروف الله ، ومرة هو « في الله » والله فيه ، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه ، ومرة هو علم الله وقدرته ، ومرة لا يحكم على أحد ولا ينفذ إرادته ، ومرة هو نبي و غلام الله ، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه ، ومرة قد انعزل الله له عن الملك - وتولاه هو ، وصار يولى أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض ، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل ، ويعرف من الخوف ، ويفضل فيركب حماره ويؤخذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصة ويمسكه الشرط ، ويصلب بين ساريتين ، ومات ودفن ثم قام بعد الموت فلم يكن له من هم بعد أن قام إلا طلب ما يأكل ثم انطلق إلى شغله (١) .

د - تناقضات النصوص :



وأما تناقضات النصوص ، فقد شغلت من دراسة ابن حزم للنصرانية حيزاً كبيراً ، وهو أمر طبيعي بالنسبة لهذا العدد الكثير من الكتب المقدسة والرسائل الملحقة بها . ويمهد ابن حزم لدراسته تلك ، ببيان التناقض بين هذه الأناجيل من جهة ، والتوراة التي هي « العهد القديم » المعترف به لدى النصارى من جهة أخرى . وهو لا يورد من نماذج التناقض إلا ما اتفقت عليه هذه الكتب النصرانية المقدسة ، ثم يقارنها بالتوراة .. فمن ذلك ما ورد في التوراة أن آدم ولد له « شيث » وهو ابن مائة وثلاثين سنة ، وفي الأناجيل أنه ولد وآدم ابن مائتين وثلاثين سنة . وفي التوراة أن « شيث » هذا بعد أن بلغ خمس سنين ومائة ، ولد له « أثيوش » وعند النصارى كلهم أنه لما عاش شيث (٥٠٢) سنة ولد له « أثيوش » (٢) .

وثمة سبعة عشر موضعاً ، غير هذين - أوردها ابن حزم . وكلها تكشف التناقض

(١) الفصل : ٢ - ٦٩ وانظر د - أحمد شلبى - المسيحية ٨٤١ .

(٢) انظر الفصل ٢ - ٧ .

في تقدير السنوات بين أبناء آدم المتسلسلين^(١) مما يؤكد أن خطأ قد وقع في أحد المصادر ، والمرجح أن يكون الخطأ قد وقع في الأناجيل - ونتيجة لهذا الخطأ قدر ابن حزم أن ثمة خلافاً بين التوراة والأناجيل في عمر الدنيا إلى عصره يقدر بألف عام وثلاثمائة عام وخمسين عاماً - زيادة عند النصارى^(٢) ... ومثل هذا الكذب لا يمكن أن يكون من عند الله .

الفرق الإسلامية في دراسات ابن حزم :



يوضح ابن حزم في صدر حديثه عن « النحل » هدفه من دراستها وهذا الهدف هو « إيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل كما فعلنا في الملل^(٣) » .

والحق أن حديث ابن حزم عن النحل ، قد شغل حيزاً يفوق من ناحية الكم حديثه عن الملل .

وقد قسم ابن حزم الفرق الإسلامية قسمين بارزين :

١ - فرق المقرين بملة الإسلام .

٢ - الفرق الخارجة على الإسلام .

والفرق المقررة بالإسلام عند ابن حزم خمس هي : أهل السنة ، والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج ، ثم اختلفت كل فرقة من هذه على فرق ، أما أكثر افتراق أهل السنة فعلى - الفتيا ونبد يسيرة من الاعتقادات وأما سائر الفرق الأربع ففيها ما يخالف أهل السنة الخلاف البعيد وفيها ما يخالفهم الخلاف القريب .

وأما الفرق التي حملت كلمة الإسلام تجاوزاً لكنها غير إسلامية فكثيرة منها :

(١) انظر الفصل ٢ - ٧ ، ٨ ، ٩ وغيرها .

(٢) انظر المصدر السابق ٩ .

(٣) الفصل ٢ - ١١١ .

١- طوائف من الخوارج غلوا فقالوا إن الصلاة ركعة بالغداة وأخرى بالعشية .

٢- وآخرون استحلوا نكاح بنات البنين وبنات البنات . وقالوا إن سورة يوسف ليست من القرآن .

٣- وطوائف كانوا من المعتزلة ثم قالوا بتناسخ الأرواح .

٤- وطوائف من المرجئة قالوا إن إبليس لم يقر بخلقه من نار وآدم من تراب .

٥- وآخرون منهم قالوا باكتساب النبوة بالعمل الصالح .

٦- وبعض أهل السنة الذين قالوا بأن من الصالحين من هو أفضل من الأنبياء والملائكة كبعض الصوفية .

٧- والحلوليون كالحلاج .

٨- وطوائف الشيعة الذين قالوا بألوهية على بن أبى طالب أو نبوته وبتناسخ الأرواح^(١) .

٩- القائلون بأن الله جسم كأبى شعيب القلال^(٢) .

١٠- المشركون كأبى حاصر النصيبى وأبى الصباح السمرقندى ، وأصحابهما الذين زعموا أن الخلق لم يزلوا مع الله تعالى^(٣) .

وبين ابن حزم السبب التاريخي وراء ظهور هذه الفرق ، وخروج أكثر أتباعها - في رأيه - على الإسلام .

فإن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد ما جعلهم يعدون سائر الناس عبيداً . فلما امتحنوا بزوال دولتهم على أيدي العرب تعاضلهم الأمر وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى . وكان من قائمتهم : سباز واستاسيس والمقنع وبابك وغيرهم ، وقبل هؤلاء : خداس وأبو سلم السراج ... فرأى هؤلاء أن كيد الإسلام

(١) انظر الفصل ٢ - ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ١١٧ ، وج ٤ - ٢٢٧ .

(٣) انظر الفصل ٤ - ٢٢٦ .

على الحيلة أنجح فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستألوا أهل التشيع ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم على الإسلام^(١) .

قضايا الخلاف بين الفرق :



أبرز قضايا الخلاف بين الفرق الإسلامية - في رأى ابن حزم - هي قضية (صفات الله) وابن حزم يرى أنه لا يجوز إطلاق كلمة « الصفات » على الله جملة أخذاً من قول الله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ وفقاً للفهم الظاهري الذى يسير عليه ، وعنده أن لفظة الصفات لم يأت بها نص ولا إجماع ولا أثر عن السلف الصالح^(٢) .

بل إنه يرى أن الصفة غير الموصوف ، والقول بالصفات - بالتالى - ينتهى إلى الشرك والتعدد .

وقد جر هذا الرأى الذى تبناه ابن حزم إلى تهجمه على الأشعرية وإلى ظلمه لهم ظلماً كبيراً ، ونسبته إليهم ما لم يقولوا به . كما أن المعتزلة وإن قالوا (بالتوحيد) بين الذات والصفات ، لم يفلتوا من هجوم ابن حزم فى هذا الجانب ، لأنهم على الأقل قد استعملوا كلمة (الصفات) فضلاً عن رأيهم بأن « الله فى كل مكان » وهو ما يرفضه ابن حزم ، ويرفضه معه رأى السلف^(٣) .

ومن قضايا الخلاف - أيضاً - التى ذكرها ابن حزم فى مناقشته للفرق الإسلامية القول فى « القرآن » وهل هو مخلوق أو غير مخلوق وما وجه الإعجاز فيه ، والكلام فى القضاء والقدر^(٤) .

ومن قضايا الخلاف بين الفرق أيضاً ، القضايا السمعية ، الوعد والوعيد والشفاعة والميزان والجنة والنار والإمامة « وما يتصل بها » .

(١) الفصل ٢ - ١١٥ .

(٢) الفصل ٢ - ١٢٢ .

(٣) انظر د - عمار طالبي : اراء أبى بكر بن العرى الكلامية ١ - ٢٤٦ وما بعدها .

(٤) انظر الفصل ٣ - ٢٢ ، ٥١ .

وهذه هي أبرز القضايا التي استعرض فيها ابن حزم آراء الفرق الإسلامية وحجج كل فرقة ، ثم رد عليها ، وبين رأيه فيها .

منهج ابن حزم في دراسة الفرق :



طبق ابن حزم « الظاهرية » القائمة على فهم ما شهدت له اللغة وضرورة الحس والعقل دون تكلف^(١) في مناقشة أصحاب الفرق كما طبقها من قبل في مناقشة أصحاب الفروع وأصحاب العقائد وهذا هو ما جعله يرفض إطلاق كلمة الصفات ويستعمل بدلا منها كلمة الأسماء^(٢) .

وكان التزام ابن حزم بما ورد في الكتاب والسنة وأثر عن السلف معلما بارزاً من معالم منهجه في دراسة الفرق^(٣) .

وحتى لا تختلط المفاهيم يحدد ابن حزم « المصطلحات المستعملة » لأنها في مجال الفرق « مصطلحات » شائكة يؤدي سوء الاستعمال فيها إلى الكفر والضلال ومنها أسماء الله ، وهو يرفض الاشتقاق في أسماء الله^(٤) كما يرفض إطلاق المعاني المترادفة عليه سبحانه^(٥) .

ويرفض ابن حزم « القياس » في مناقشة الفرق ، مع أن قياس « الشاهد » على الغائب « بناء على أن الله يخاطبنا على قدر أفهامنا » أمر شائع بين المتكلمين^(٦) ...

ويميل ابن حزم إلى ترجيح الفرق الإسلامية ، بل إلى تكفير كثير منها وهو لا يلتمس لها عذراً أو يدرس الظروف السياسية والفكرية التي ربما تكون قد أثرت فيها . ونحن نسوق هذا النص الذي يبدو فيه ابن حزم كأنه يدين أكثر فرق المتكلمين في الإسلام . قال أبو محمد :

(١) انظر الفصل ٢ - ١٣٠ ، ١٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٩ .

(٣) انظر الفصل ٢ - ١٧٧ .

(٤) انظر المصدر السابق ١٥٦ .

(٥) انظر المصدر السابق ١٦٢ .

(٦) الفصل ٢ - ١٥٨ وانظر ١٦٣ .

« وأما الأسوارى فجعل ربه تعالى مضطرباً بمنزلة الجمد .. وهذه حال لا تليق بجلال الله سبحانه وتعالى ، وأما أبو الهذيل فجعل قدرة ربه تعالى متناهية ... وهذا هو التشبيه ... وأما النظام والأشعرية فكذلك أيضاً ... وأما سائر المعتزلة فوصفوه تعالى بأنه لا نهاية لما قدر عليه من الشر وأن قدرته على الخير متناهية ^(١) » .

ونحن نلمح هنا مدى جرأة ابن حزم على إطلاق الأحكام العامة ومدى ميله إلى التجريح أكثر من التعديل . وهو منهج له مبرراته على كل حال إذ أن باب العقائد باب خطير لا ينبغي أن يكون مجالاً للمجادلات اللفظية ولو سد هذا الباب في حضارتنا لوفر على المسلمين طاقات كثيرة عطلها هذا اللجج الذي لم يعد علينا بأى نفع ، بل - على العكس من ذلك - كان سبباً من أسباب تدهورنا الفكري والسياسي والاجتماعي .

ويرتبط بالعلم السابق في منهج ابن حزم - معلم آخر ظهر بوضوح في مناقشته وهو عنفه وحدته ، وعدم تخرجه من رمى أصحاب هذه الفرق بأقذع الألفاظ كسخافة العقل والحماسة الظاهرة ، والجهل القوى ، والضعف في الدين ^(٢) بل والخروج منه إلى اليهودية أو النصرانية أو الشرك ^(٣) .

والذي يبدو لنا أن ابن حزم قد عرض لكثير من آراء الفرق الإسلامية على نحو أقرب إلى الشمول ، وإن كنا نلاحظ أن بعض الفرق « الفرعية » كالاسماعيلية التي هي جزء من الباطنية ، لم تنل قسطاً كافياً من الدراسة ^(٤) .

ومع ذلك فنحن نميل إلى أن ابن حزم لم يحالفه التوفيق في دراسة النحل ، على المستوى الذي حالفه في دراسة الملل . فقد خالف منهجه الظاهري في بعض المواطن وأول ، حتى الفهم اللغوي الواضح ، كما في مصطلحي العلم والقدرة ^(٥) .

(١) الفصل ٢ - ١٩٣ .

(٢) انظر الفصل ٢ - ١٩١ .

(٣) انظر المصدر السابق ١٣٥ .

(٤) انظر مثلاً : الفصل ٢ - ١١٦ وانظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢ - ٧٥ .

(٥) انظر الفصل ٢ - ١٢٩ .

كما أنه تجنى على الأشاعرة كثيراً ، ورماهم بالقول بالشرك ونسب إليهم ما لم يقل به جمهورهم ، ونحن نعلم أن أشعرياً لا يمكن أن يقول مارواه ابن حزم عن بعضهم عندما سأله : لماذا أنكرتم على النصارى قولهم : إن الله ثالث ثلاثة وأنتم تقولون بتغاير الصفات وتعددتها ؟ فقال له : ما أنكرنا على النصارى إلا اقتصارهم على الثلاثة فقط ولم يجعلوا معه تعالى أكثر من ذلك^(١) ، فهذا قول خارج عن دائرة الإسلام بالجملة ، ولا يصدر عن أشعري أو أى مسلم ، وأغلب الظن أن ابن حزم لم يقرأ كتب الأشاعرة الأساسية وإنما تلقى فكرته عنهم من بعض الأندلسيين المتسبين إليها على أسس غير صحيحة .

ومع ذلك فقرة جانب من التسامح يدعو إليه ابن حزم ، حين يرى أن تكون بيوت الله بعيدة عن هذا اللجج ، وألا يسأل إمام عن فرقته أو مذهبه ، كما فعل الخوارج الذين يسألون الناس عن مذهبهم ويمتحنونهم وسلك سبيلهم المأمون والمعتصم والواثق مع ابن أبى داود وبشر المريسى في قضية خلق القرآن^(٢) .

وما امتنع قط أحد من الصحابة من الصلاة خلف كل إمام حتى خلف الحجاج وحبش بن دجلة ونجدة الخروروى والمختار ، وكل منهم بالكفر ... وقد قيل لابن عمر في ذلك فقال : إذا قالوا حى على الصلاة أجبتهم ، وإذا قالوا حى على سفك الدماء تركناهم^(٣) .

والذى لا شك فيه على وجه العموم أن ابن حزم قدم جهداً كبيراً في بسط آراء الفرق وفق ما يعلم أنه من آرائهم ، ولا شك في أنه كان مخلصاً في تحرى الحقيقة ، وإن أخطأ سبيلها في بعض المواطن . وقد قدم لنا صورة قوية الوضوح لحركة الفكر الإسلامى في عصره ، وفي القرون الأربعة التى سبقتة . وهو بهذا مؤرخ رائد من مؤرخى الحضارة الإسلامية الذين نبغوا في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ومهدوا لمن جاء بعدهم من المؤرخين الذين أولوا الجانب الحضارى فى تاريخنا عناية تليق به .

(١) الفصل : ٢ - ١٣٥ وانظر ١٣٦ .

(٢) رسالة في الإمامة : مخطوطة شهيد على ٢٧٠ ورقة ٢٢٥ .

(٣) المكان السابق .



خاتمة عن

أثر ابن حزم في الحضارة

أثره في الحضارة الإسلامية

أثره في الحضارة الإنسانية

أثر ابن حزم في الحضارة الإسلامية :



كانت حياة ابن حزم الفكرية سجلاً حافلاً بألوان متعددة من الثقافات المتشعبة ولم يكن ابن حزم من ذلك النوع الذي تستبد به فكرة ، أو تحجبه عن الحقيقة موروثات فكرية ، قد يكون بعضها في حاجة إلى نقد تاريخي وعقلي ، بل إنه كان ثورة على هذا الاستسلام للسهل المشهور والموروث من الآراء والأفكار وبخاصة إذا اصطدمت هذه الموروثات بالدلالة العقلية الظاهرية التي يوحى بها النص . الشرعي المعقول .

وكان ابن حزم غير هباب للآراء السائدة وللمخالفين لرأيه وبالتالي فقد أحدث في حياته - وعلى امتداد العصور التي تلت وفاته - رد فعل قوياً ، بين مخالفين ومؤيدين .

لعلنا لانعدو الصواب إذا قلنا : إن هذا كان هدفاً من أهداف ابن حزم ، إنه بإيجاز كان يهدف إلى إقلاق العقل الإسلامي من سكونه وجموده وتحريكه في اتجاه الاجتهاد والدليل بعد أن سيطرت عليه المذهبية التقليدية وبعد أن ترك أمر التفكير في حقائق الكتاب والسنة مكتفياً بما انتهى إليه فقهاء المناصب وبخاصة ذلك العقل

الأندلسى الذى حصل من مذهب مالك ، وعقيدة صارمة وليس اجتهاداً فردياً يقبل الصواب والخطأ ، فلما ظهر ابن حزم فى منتصف القرن الخامس الهجرى - سار فى تطوره الفكرى حراً بعيداً عن هذا النوع من التبعية المذهبية الجامدة ولم يكتف بهذا بل راح يسقط هذه المالات المصطنعة التى أحيط بها أئمة المذاهب .. وكانت تلك مرحلة مهمة لإفساح المجال أمام العقل الإسلامى ... كى يبدأ هذا العقل فى ولوج باب « الاجتهاد » والثقة فى قدرته .. وفى أن هؤلاء الأئمة رجال من الناس يخطئون ويصيبون ... ويؤخذ من كلامهم ويترك ..

وعلى الرغم من أننا لا نوافق ابن حزم على كثير من أساليبه التى استعملها مع هؤلاء الأئمة فإننا نرجع حدثه فى نقد الأئمة إلى هذه الغاية ، بسبب من وضعه الفكر الإسلامى آنذاك .

وما زلت أذكر له هذه العبارات وأسمع فى نفسى - بعد هذه السنين الطوال الحافلة - أصداها متجاوبة : « أما قول أبى حنيفة ففى غاية التخليط والتناقض والفساد » وأما قول مالك فظاهر الخطأ « وهذا كذب مطلق لا ندرى كيف استحله من أطلق لسانه به » (١) .

بل إن « القياس » الذى هو فى رأى كثير من الأصوليين الدليل التالى للقرآن والسنة والإجماع .. هذا القياس (ومثله الاستحسان والرأى والمصالح المرسلة وسد الذرائع) كان يمر بدوره بأزمة منهجية بحيث أصبح لونا من الترف العقلى ومحاولة لإقرار انحراف المجتمع ، وتكأة يلجأ إليها كل من يستخف بالنصوص الشرعية (٢) . ويستثقل استيعاب علوم القرآن وعلوم الحديث ويرضى بقلة البضاعة فيهما مكتفياً بالرأى يبينه على الرأى، والعلة يقيمها على العلة ...

(١) انظر ابن حزم : المحلى ٦ - ٤٩ ، ٧ - ٤٥٢ ، ٤٩٧ ، ٨ - ٣٧٩ ، ٩ - ١٠٤١٥٣ - ١٧ وغيرها كثير

وانظر د - طه الحاجرى : ابن حزم صورة أندلسية ص ٦ .

(٢) انظر محمد إبراهيم الكتانى : حول كتاب المرد الأحمى مقال بمجلة معهد المخطوطات العربية م ٤ ج ١ مايو ١٩٥٨ م

وانظر الأستاذ أنور الجندى (نوابع الفكر الإسلامى ص ٢٣٠ ، ٢٣١) .

وهذا يفسر لنا ثورة ابن حزم على القياس والتعليل والمصالح المرسلة وما ظنك
برجل يستطيع أن يتناول الأمور التشريعية كلها : عباداتها ومعاملاتها ويقضى فيها
دون أن يرجع في شيء منها إلا إلى الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع التام على
ما هو عنده^(١) .

وبهذا الاستقلال في الرأي والبعد عن تلك الرواسب التي رسيها الأجيال المختلفة ،
وكثير منها كان يخضع لألوان من الفساد الاجتماعى تؤثر تأثيراً قوياً في التفكير
الدينى ... بهذا الاستقلال الفكرى كان ابن حزم من الدعائم القوية التى تقام عليها
النهضة الدينية لتربية الروح الاستقلالية ، والتخلص من شعور القداسة الذى يربطنا
بالمقدمين من أسلافنا دون تمييز^(٢) .

كان فتح باب الاجتهاد نظرياً وتطبيقياً - هو أهم تأثير لابن حزم في حركة
الحضارة الإسلامية - وسواء كان الاجتهاد في حقل الفقه الاجتماعى . وهو المعنى
الاصطلاحي البارز للاجتهاد - أو كان في حقل الفلسفة ، أو مقارنة الأديان ، أو
في حقل الرؤية الحضارية الواعية لمسيرة التاريخ الاسلامى - فإن ابن حزم كان أبرز
من فتح هذا الباب بعد أن أغلق أكثر من قرنين .

وثمة إلحاح في كل تراث ابن حزم - بالدليل والحجة والحوار المنطقى - على تدعيم
الاجتهاد ونبد التقليد ، فالمقلد عنده آثم مذموم^(٣) والتقليد حرام ، ولا عذر على
الإطلاق لأى مقلد وما التقليد إلا بدعة لم تكن معروفة في القرون الثلاثة الفاضلة ،
وإنما حدث في القرن الرابع . وابتدىء بها بعد الأربعين ومائة من تاريخ الهجرة وبعد
ازيد من مائة وثلاثين عاماً بعد وفاة النبي ﷺ ، وإنه لم يكن قط في الإسلام قبل
الوقت الذى ذكرنا مسلم واحد فصاعداً على هذه البدعة ولا وجد فيهم رجل يقلداً
عالمًا بعينه ، فيتبع أقواله في الفتيا ، فيأخذ بها ولا يخالف شيئاً منها^(٤) .

(١) انظر د - طه الحاحرى صورة أندلسية ص ٧

(٢) نفس المكان السابق .

(٣) رسائل ابن حزم ٢٧ .

(٤) انظر ابن حزم : الإحكام في الأصول ج ٦ ص ٨٥٨ وانظر معجم فقه ابن حزم مقدمة الكتانى ص ٣٣ وانظر

ملخص إبطال القياس ص ٥٢ ، ٥٣ .

ويسرد ابن حزم - كما هو الشأن في منهجه - حجج القائلين بالتقليد . ثم يفندها (١) .

ومع تتبع ابن حزم لحجج المقلدين وجهاده الواضح في سبيل أن يعود المسلمون إلى الاجتهاد في إطار المصادر الأصلية والبعد عن تقديس الأشخاص ووصوله إلى الداء العقلي الذي أصاب المسلمين وهو داء الافتراضات الخيالية الجدلية - غير الواقعة أو العملية - الذي شغل به الفقهاء أنفسهم ، وهو ما عبر عنه ابن حزم بحملته : « وأقبلوا على ظلمات من قراءة دروس معتمة مملوءة : فإن قلت وأرأيت (٢) » - مع هذا كله ذهب أحد المعاصرين إلى أن رمى ابن حزم بالجمود لأنه « حين ترك الجمود على تقليد المذاهب الأربعة أثر عليها مذهباً جامداً يقف عند الظواهر ، ويرفض القياس لأنه يعده من القول بالرأى والقول بالرأى عنده من أشد المنكرات ، وبهذا يكون مذهباً ضيقاً جامداً ، ولا يدخل تقليده في هذا القرن في دائرة التجديد (٣) » .

وقد كانت منهجية البحث تقتضي وضع فكر ابن حزم في إطار الظروف التاريخية لإدراك مدى الوعي التاريخي الذي جعل ابن حزم يرى العلاج لذلك الترف الذي أصاب الحياة الأندلسية فكراً وسلوكاً . هو العودة إلى الكتاب والسنة اللذين هجرهما الناس مكتفين بما ينقله الفقهاء من أتباع مالك ، بالإضافة إلى ذلك فإن ابن حزم نفسه ، قد تناول ارتباطه بالظاهرية وشرح موقفه العلمي من شيخه إمام الظاهرية الذي ينسبونه إليه ، كما شرح موقفه من بعض أتباعه الذين يمكن أن يتعصبوا له مثلما تعصب غيرهم للأئمة الأربعة يقول :

« ولسنا نرضى عمن يغضب لنا إنما نرضى عمن يغضب للحق ، ولا نسر بمن ينصر أقوالنا إنما نسر بمن ينصر الحق حيث هو ... » .

(١) انظر الإحكام ٦ - ٨٤٨ ، وانظر ملخص إبطال القياس ٥٣ .

(٢) انظر الإحكام ٦ - ٨٢٧ ، وانظر ٨ - ١١١٤ .

(٣) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

ولا يجهل علينا جاهل فيظن أننا متبعون الإمام أبى سليمان داود بن علي إنما أبى سليمان شيخ من شيوخي ، ومعلم من معلمينا إن أصاب الحق فنحن معه اتباعاً للحق ، وإن أخطأ اعتذرنا له ، واتبعنا الحق حيث فهمناه (١) .

ولإى جانب ذلك فإن التأثير الفكرى لابن حزم فى مسيرة الحضارة الإسلامية لا يقف عند حد ثورته على « التقليد » و « الجمود » اللذين أصابا العقل الإسلامى فحسب بل إن ابن حزم قد نجح فى إحياء مذهب فقهى يعتمد على الاتصال المباشر والواضح . « بالقرآن والسنة » وهو المذهب الظاهرى الذى نشأ على يد مؤسسه الفقيه أبى سليمان داود بن علي الظاهرى الأصبهاني المتوفى سنة ٢٧٠ هـ .

لقد كان الظاهرى قد أفل نجمه مدى عصرين فى الشرق ثم بزغ فى المغرب على يد ابن حزم (٢) ، فقد دونه فى المحلى وفى كتبه الأخرى ووازنه بغيره ، ورتب أصوله ودافع عنها أقوى دفاع فسجله فى الوجود بحيث يتجعه من يقصد إليه ، وحسبك أنه بهذا التدوين قد استطاع أولو الأمر فى مصر أن يقبسوا منه ما بنوا عليه « الوصية الواجبة » - فى قانون الموارث - وكذلك أولو الأمر فى سوريا (٣) ...

ويعتبر « المحلى » رائد كتب « الفقه المقارن » فهو قد سبق المبسوط للإمام شمس الدين السرخسى المتوفى عام ٤٨٣ هـ (ويقع فى ثلاثين جزءاً طبع القاهرة) وسبق المغنى لابن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ هـ (ويقع فى عشرة أجزاء طبع القاهرة) ، وسبق نيل الأوطار لمحمد بن علي الشوكاني قاضى قضاة اليمن المتوفى عام ١٢٥٠ هـ (ويقع فى ثمانية أجزاء طبع القاهرة) . ولعل المحلى أول موسوعة فقهية فى تراثنا السلفى تضمنت آراء المذاهب الأخرى وأبرزتها بأمانة علمية وردتها إلى الكتاب والسنة .

(١) نص ابن حزم انفرده بنقله ابن خليل الظاهرى بن خليل وانظر الكتانى: مقدمة كتاب المورد الأجل فى احتصار المحلى

مجلة معهد المخطوطات مجلد ٤ - ١٩٥٨ م .

(٢) المكان السابق .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ٥١٨ .

وقد امتد تأثير فكر ابن حزم بعد وفاته : حيث حمله مجموعة من الذين تأثروا به إلى المشرق والمغرب ، وذلك على الرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها أعداء ابن حزم ، حتى نجحوا في إحراق كتبه ، وإقصائه عن الملوك وتبغيضه لدى العامة .

وقد تتابع هؤلاء المتأثرون عبر القرون ، ونحن كنا قد ذكرنا تلامذته المباشرين الذين كونوا الطليعة الأولى لمدرسته من أمثال الحميدى ، وصاعد وأبى محمد أبى العزى ، وغيرهم - فإننا - فى هذا المقام - سوف نحاول تتبع مسيرة المتأثرين به ، ممن جاعوا بعد هذا الجيل ، بادئين حديثنا بذكر بعض الأعلام الذين تأثروا بابن حزم ولكنهم مثلوا تيارات فكرية أحدثت صداها فى تاريخ الفكر الإسلامى ، ثم نخرج بذكر المتأثرين به ممن دونهم حتى العصر الحديث .

كان أبو حامد الغزالى واحداً من أبرز المفكرين الإسلاميين الذين تأثروا بابن حزم ، ومثلوا - فى مجرى الفكر - تياراً له خصائصه ومنهجه . وقد وصلتنا عبارة صريحة عن الغزالى يمدح فيها ابن حزم .. فقد قال : لقد وجدت فى أسماء الله الحسنى كتاباً ألقه أبو محمد بن حزم الأندلسى يدل على عظيم حفظه وسلامة ذهنه (١) . وعلى الرغم من وجود خلافات فكرية بين ابن حزم والغزالى فقد وجد تشابه كبير بينهما فى أسلوب الإصلاح وفى الفكر يؤكد تأثر الغزالى بابن حزم .

لقد عاش أبو حامد الغزالى بين سنتى ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ (٢) - أى فى تلك الحقبة التالية لوفاة ابن حزم . ولم تكن الحال التى عاصرها الغزالى فى المشرق سياسياً وثقافياً أفضل من تلك الحال التى عاصرها ابن حزم فى المغرب ، ففى هذه الحقبة كان الصراع الداخلى قد احتدم بين أبناء البيت السلجوقى الحاكم (المسيطر على الخلافة العباسية) مما أدى إلى انتشار الفساد والاضطراب . ونتيجة هذه الخلافات السلجوقية ظهرت الاسماعيلية كحركة نشطة تستغل الظروف (٣) ، على نحو يشبه بروز اليهود

(١) ابن حزم فى سير النبلاء بتحقيق سعيد الأفغانى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ١٦ والمقرى فى نفع الطيب ٢ - ٢٨٣ والأفغانى فى ابن حزم ورسائله فى المفاضلة بين الصحابة ص ٥٢ وبالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٧ بترجمة الدكتور حسين مؤنس .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ - ١٧٣ .

(٣) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ - ١٥٩ (سنة ٤٩٤) وغيرها ، وانظر الدكتور عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى ٣١٦ .

في الأندلس في عصر الطوائف وأخذت هذه الطائفة تبت الرعب في قلوب الناس وامتد نشاطها إلى العالم الإسلامي كله ، وبسبب من هذه الأوضاع اكتسح الروم البلاد ، وبدأت الحملات الصليبية تهب على العالم الإسلامي حتى نجحت خلال السنوات الأخيرة من حياة الغزالي في أن تدق باب العالم الإسلامي بعنف وقسوة^(١) .

- وابن كان الفقهاء إبان هذه الظروف ؟

لقد كانوا مشغولين بالتقرب من أمراء المسلمين ، وبالحظوة عندهم فنفتت في ذلك الزمان كتب المذاهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي الناس النظر في كتاب الله وحديث الرسول ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء^(٢) .

وأما هذا التعبد بالمذاهب وهجر القرآن والسنة فقد أحس الغزالي تجاهه بما أحس به ابن حزم من ضرورة إعطاء العقل الإسلامي وثبة تجمعية ترد نثاره إلى الجذور ؛ فكان كتابه « إحياء علوم الدين » - الذي أحرق بتأثير ضغوط الفقهاء^(٣) على نحو ما حدث لكتب ابن حزم - هو هذه الوثبة التجمعية ، التي وقفت أمام هجر القرآن والسنة ، وصمدت في وجه الدعوة الباطنية الاسماعيلية^(٤) - وفي تصوري أن « إحياء علوم الدين » هو موسوعة عقدية وفقهية احتذت حذو ذلك المنهج الذي قعده وطبقه ابن حزم في « المحلى » و « الفصل » .

وقد كان للغزالي تأثير على مؤسس دولة الموحدين^(٥) كما كان لابن حزم تأثير

(١) انظر ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٠ وما بعدها والبداية والنهاية ج ١٢ ، أحداث سنة ٤٩١ (وفيها ملك الافرنج مدينة انطاكية سنة ٤٩٢ وفيها أخذ الفرنج بيت المقدس) .

(٢) المراكشي : المعجب ٢٣٧ بتحقيق المرحوم سعيد العريان .

(٣) انظر ابن كثير في البداية والنهاية ١٢ - ١٧٤ ، وانظر عبد الحليم عويس : مقال : محاولة لبيان دور الفقه في الحضارة : مجلة المسلم المعاصر العدد ٣ رجب ١٣٩٥ هـ .

(٤) انظر الدكتور عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني ٣١٦ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢ - ١٨٦ .

كذلك على هذه الدولة (١) - كما بينا في حديثنا عن تأثيره في التاريخ الإسلامى .

وثمة مجال آخر أثر فيه ابن حزم في الغزالي ، ذلك هو مجال المذاهب والعقائد فقد سار الغزالي على نفس الدرب ، شاهراً قلمه ولسانه في وجه الطوائف التى تكيد للإسلام ، فوقف ضد الباطنية ، وضد النصارى وضد بقية الفرق الضالة مستخدماً الأصول المنهجية التى وضعها ابن حزم وهى تلك الأصول التى برزت فى كتاب « الفصل » والتى تعتبر مقدماتها الأساسية الدراسة المحايدة لآراء الخصم من مصادره الأساسية .

وهكذا فعل الغزالي حين ناقش النصارى فى كتابه « الرد الجميل على من حرفوا الإنجيل » .

لقد عكس هذا الكتاب الاتفاق فى المنهج بين ابن حزم والغزالي وقد تجلّى ذلك فى هذه الأمور :

الأول : تحرى الدقة فى حكاية ما يقول به المسيحيون ، على قدر علمهم بكتبهم المقدسة . فالغزالي لا يتكلف لمخالفه شبهة ويتعمق فى دراسة مذاهبهم ، كما أوضح مذهبه فى النقد . وابن حزم يعنى فى مقدمة كتابه الفصل على المصنفين فى الملل والنحل استعمال الأغاليط والشغب ، وظلمهم لخصومهم إذا لم يفهمهم حق اعتراضهم (٢) .

الثانى : أن كلا من ابن حزم والغزالي يرد على المسيحيين بكل من المنقول والمعقول ، بيد أن ابن حزم كثيراً ما يلجأ إلى الرد بالمعقول مباشرة ، دون أن يحاول تأويل النصوص تأويلاً مجازياً ، أما الغزالي فيصرف ظاهر المعنى فى هذه النصوص إلى المجاز وفق ما يقضى به العقل والنظر (٣) .

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٢ - ٦٣ .

(٢) الأب روبرت شدياق: (مقدمة تحقيق الرد الجميل للغزالي) ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠٣ .

الثالث : هناك قدر مشترك من الحجج التي أوردها كل من ابن حزم والغزالي في ردودهما على المسيحيين ، وإن اختلفت هذه الردود في العبارة ، ومن أمثلة ذلك رددهما على ما ورد في « إنجيل متى » من أن إبليس قال للمسيح : إن كنت ولد الله فأمر هذه الجنادل تصير لك خيراً ، ورددهما على ما جاء في إنجيل يوحنا أن المسيح قال لتلاميذه : أنا فيّ أئى وأنتم في وأنا فيكم ^(١) .

وقد كان أبرز ما خالف الغزالي فيه ابن حزم هو موقف كليهما من التصوف ، فقد كان شأن الغزالي في التصوف شأن تلميذ ابن حزم الشهير الذي سمع عنه معظم مصنفاته: يحيى الدين بن عري ^(٢) ، والذي كان ظاهري الفروع ، باطني الاعتقاد ، وإن كان ثمة فرق كبير بين الغزالي ويحيى الدين .

أما ابن حزم فكان أشد علماء عصره هجوماً على التصوف والمتصوفة حتى حكم بكفر أئى سعيد أئى الخير وأشباهه من صوفية هذا القرن ^(٣) .

لقد انتشر تلاميذ ابن حزم على امتداد القرن السادس الهجرى في سائر أقطار الاسلام ، يحملون فكره ، ويدافعون عن الاجتهاد ويلحون في ضرورة أن يعود العقل الاسلامى إلى الكتاب والسنة كمصدرين ثابتين للفكر الإسلامى ، كما يلحون في ترك الجدل دون سند علمى من النص المنقول ...

وفى كتب الرجال التى ظهرت خلال هذا القرن أو التى أرخت لرجاله ينتشر كثير من تلامذة ابن حزم ^(٤) الذين لعبوا دوراً مهماً في دفع الفكر الإسلامى خطوات إلى الأمام ... ومثلوا تياراً عاماً سمي بتيار الظاهرية أو الحزمية ، تلك التى كادت تموت لولا أن أحياها أبو محمد على بن حزم الظاهري - رضى الله عنه .

(١) الاب روبر شدياق (مقدمة تحقيق الرد الجميل للغزالي) ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ تصريف

(٢) ياقوت : معجم الأدياء ج ١٢ - ٢٤٢ .

(٣) عبد المتعال الصعدي : المجلدون في الإسلام ١٧٨ ، وانظر ٥٤٣ .

(٤) انظر بشكوال : الصلة ج ١ صفحات ٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٣١١ .

وقد ظلت البذور الحزمية تنمو خالقة وعياً جديداً ملحاً في ضرورة أن يتحد المسلمون على الأصولين الثابتين ، وأن ينبذوا الخرافات والتقليد .

وكان أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وصاحب سراج الملوك من تأثروا بآبائهم حزم في اتجاهه ذلك ، ويروى المقرئ أنه قرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم في أشيلية^(١) ، ونحن نستبعد ذلك نظراً لأن الطرطوشى ولد في جهادى الأولى سنة ٤٥١ هـ فمن الصعب توقع تأثير فكرى لصبي في الخامسة من عمره^(٢) إذ أن ابن حزم لقي ربه - سنة ٤٥٦ هـ فضلاً عن أن الطرطوشى عرف بتلمذه على منافس ابن حزم إمام المالكية في الأندلس أبى الوليد الباجى .
ولمّا الذى يمكن التصديق به أن الطرطوشى تأثر بتفكير ابن حزم تأثراً عاماً^(٣) من ناحية غزارة العلم ، والجرأة على نقد المؤلف .

وكان لابن حزم تأثير بصورة ما - كما ذكرنا - على الصوفى المعروف محبى الدين ابن عربى أبو عبد الله محمد بن على الطائى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ والملقب بالشيخ الأكبر متأثراً بآبائهم حزم في الفروع^(٤) وفى أشيلية قرأ القرآن والحديث ودرس الفقه على يد أحد تلاميذ ابن حزم الظاهرى^(٥) ولابن عربى رؤيا وردت في الفتوحات ترمز إلى أن المعتنق لفقه ابن حزم معتنق لفقه رسول الله ﷺ ، وما ابن حزم إلا دليل خير لذلك الفقه الحق وداع إليه .

قال الخاتمي : رأيت النبى ﷺ في المنام وقد عانق أباه محمد بن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر ، فلم نر إلا واحداً وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام فهذه هي غاية الوصلة^(٦) .

(١) نفح الطيب ٢ - ٢٩٢ طبعة محبى الدين ، وقال بهذا (بلاثيا) : تاريخ الفكر الأندلسى ١٧٣
(٢) من الجدير بالذكر أن الطرطوشى كان أستاذاً لأبى بكر بن العربى - الذى هاجم ابن حزم بمجدة - وكان أبو بكر ابن العربى صديقاً للغزال وتلميذاً له وقد مدح الغزال ابن حزم كما ذكرنا آنفاً (انظر عمار الطالبي: آراء أبى بكر بن العربى ١ - ٣٧ ، ٥٢) .

(٣) انظر محمد عبد الله عثان : تراجم أندلسية وشرقية ص ٢٩٠ .

(٤) انظر الغدني فى عنوان الدار ص ٥٨ وما بعدها وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن عربى .

(٥) بلاثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٧١ - وانظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ٣ - ٦٣ .

(٦) نقلاً عن محمد المنتصر الكتانى : معجم فقه ابن حزم ٣٧ .

وفي سنة ٦٦١ هـ ولد بجران الإمام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، فكان أئمة أبرزها تيار الدعوة إلى ضرورة الاجتهاد الذي هز العقل الإسلامي هزة عنيفة ، وهو التيار الذي غذاه وجاهد في سبيله ابن حزم .

وقد جاءت ظروف عصره رحمة الله على النسق نفسه الذي ساد عصر ابن حزم والغزالي ، فقد كان شبح التنازع يقلق مضاجع المسلمين ، وكانت الحالة الفكرية متردية على يد جماعة من الفقهاء المذهبيين . وكانت حران - موطنه - مهد الفلاسفة والصابئة من أقدم عصور^(١) .

وقد وقف ابن تيمية من عصره موقفاً قريباً من ابن حزم ، ولقد قرأ كتب ابن حزم وعلق على بعضها وحرر ما كان من ضعف فيها ، واستعمل الأدوات ذاتها التي عرفت عن ابن حزم ، وكان أسلوبه قريباً من الأساليب الحزمية العنيفة الحادة كقوله « هذا من الجهل » ، أو « هذا من عدم الفهم » وغيرها من الألفاظ التي استعملها ابن حزم^(٢) فضلاً عن موقفهما المشترك من التصرف والتوسل^(٣) .

ولئن كان ابن تيمية قد خالف ابن حزم في بعض النظرات ، نحو موقفه ، القياسي ، وموقفه من بعض القضايا الكلامية ، وموقفه من علم المنطق^(٤) ؛ فإن ذلك من باب الاجتهاد الذي توجبه أصول الظاهرية نفسها . ومع ذلك فابن تيمية خليفة ابن حزم على جوهر الظاهرية وروحها^(٥) .

وقد خلف ابن تيمية في أسلوبه تلميذه ابن قيم الجوزية عبد الله شمس الدين المتوفى سنة ٧٥١ هـ فكانت له جهوده الكبيرة في الحرب على التقليد وفي الوقوف أمام جمود الفقهاء ، والدعوة إلى بعث الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح^(٦) . وقد عرف عن ابن القيم أنه إذا قال في أسلوبه :

(١) انظر الشيخ محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ١٧ وانظر البداية والنهاية لابن كثير في سنة ٨٠٠ وما بعدها (ما يتعلق بابن تيمية ومواقفه وتعرض الناس للمهلكات) .

(٢) انظر الشيخ محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ٣٢ ، ٥٣ .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم وانظر الكتاني : مقال بالثقافة الحزبية بالرباط ١٠٠ .

(٤) انظر الشيخ أبو زهرة : ابن تيمية ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ - ٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن تيمية .

(٦) د . بدران أبو العنين الشريعة الإسلامية تاريخها ونظرية الملكية والعقود ص ١٥٣ وانظر أبو عبد الرحمن بن

عقيل « حوار حافل مع شيخ الظاهريين » مقال بمجلة الدعوة السعودية عدد ٤٩١

« قال أبو محمد » فهو موافق لابن حزم ، وإذا قال : « قال ابن حزم » فهو مخالف^(١) .

وفي القرون التالية ظهر بعض المجددين الذين نشروا فكر ابن حزم ودعوته ففي القرن التاسع ظهر أحمد بن محمد المعروف بابن البرهان وكان قد درس ابن حزم وابن تيمية وتأثر بفكرهما وتخلص من جمود أهل القرن^(٢) وخرج عندما تغلب الظاهر برقوق من المماليك على المملكة - إلى الشام والعراق يطالب بقيام رجل من قريش^(٣) يدعو أهلها إلى ذلك فمال إليه بعض أهلها لما كانوا يرونه من فساد الأحوال^(٤) .

وفي هذا القرن ظهر محمد بن إبراهيم المعروف « بابن الوزير اليمنى »^(٥) المولود سنة ٧٧٥ هـ الذي تأثر بمدرسة ابن حزم وابن تيمية على الرغم من زيدته وثار على الالتزام بمذهب واحد ، وتحاشى الخوض في علم الكلام وجدلياته .

وفي القرن الثاني عشر الهجري ظهر محمد بن عبد الله الشوكاني اليمنى فأخذ ينشر فكر ابن حزم وابن تيمية .. وقد أثر عنه قوله في ابن تيمية : « أنا لا أعلم بعد ابن حزم غيره » أي ابن تيمية - إلا أنه كان زيدا مثل سابقه ابن الوزير اليمنى .

وفي العصر الحديث كان الشيخ رشيد رضا متأثراً بابن حزم وكانت هذه إحدى نقاط الخلاف بينه وبين الشيخ محمد عبده^(٦) ، وقد اعتبر السيد رشيد رضا ابن حزم مجدد القرن الخامس الهجري^(٧) .

(١) الشريعة الإسلامية تاريخها ص ١٥٣-١ حوار حافل - مقال بمجلة الدعوة السعودية عدد ٤٩١

(٢) المكان السابق

(٣) انظر عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص ٣٣٥ .

(٤) وهو شرط ابن حزم في الخلافة كما رأينا في فصل النظام السياسي عند ابن حزم .

(٥) انظر عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٦) انظر المرجع السابق ص ٣٣٥ .

(٧) المرجع السابق ٥٤٣ .

(٨) المرجع السابق ١٣ ، ١٤ ، وانظر مقال إبراهيم الكنتاني بالثقافة المغربية بالرباط العدد الأول .

وقد ظهرت بصمات ابن حزم واضحة على الحركة السلفية التي ظهرت في أكثر من بقعة في العالم الإسلامي خلال القرن الأخير ... وكانت حركة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الحركات بروزاً ونجاحاً ، وهي في جوهرها عودة إلى الكتاب والسنة الصحيحة .

ولا يكاد يخلو قرن من القرون التسعة التي أعقبت وفاة ابن حزم ، وحتى عصرنا هذا ، من دراسات ، أو مناقشات ، تدور حول ابن حزم أو فكره ، بحيث يمكن القول : إن تأثير ابن حزم الفكري قد امتد في العقل الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري وإلى القرن الرابع عشر . ولعل لا أبعد عن الصواب إذا قلت إن التبع للدارسين لتراث ابن حزم عبر القرون - يعتبر الدليل العلمي على مدى ما أحدثه هذا المفكر العظيم في العقل الإسلامي ، وبالتالي فإنني أقدم هذا التثبيت لمن شغلوا بابن حزم في القرون المتتالية ، منوهاً بأن هذا العمل الإحصائي التاريخي ليس كاملاً . بل إنه من الصعوبة بمكان محاولة الوصول إلى إحصاء كامل لمن درسوا فكر ابن حزم أو اعتمدوا عليه أو عارضوه : لأن ذلك يقتضي النظر في سائر كتب الفقه والكلام ، والفرق الإسلامية والملل والنحل والتاريخ ، والأصول ، وغيرها من فروع المعرفة التي برز فيها ابن حزم ...

وليس هذا مناط الصعوبة فحسب ، بل إن كثيراً من الكتب التي تناولت ابن حزم خلال القرون المتتالية إما مفقودة أو مخطوطة يصعب الحصول عليها وإن كان جلها بعيداً عن ضروريات بحثنا .

ومع ذلك فهذا التثبيت يعكس التأثير الفكري لابن حزم في العقل الإسلامي عبر القرون ، ويظهر مدى ما أحدثه أبو محمد في النشاط الفكري الإسلامي .

أولاً : في القرنين الخامس والسادس الهجريين (١) :

كان تأثير أبي محمد على حركة الفكر خلال هذين القرنين في قمته . وقد أعاد

(١) انظر ابن بشكوال: الصلة ١ - ٢٢١ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ وابن الأبار: التكملة ١ - ٥١٢٥ ، ٥٤ ، ٣١١ ، ٢ - ٧٠٠ ، ٧٠٧ وغيرها .

أبو محمد للظاهرية مجدها الذي اندثر ، وبدأ رافده الفكرى يشق له جدولا كبيراً
لم تعقه عن غايته ضغوط الحكام ولا الفقهاء .

وفى هذين القرنين برز تلامذة ابن حزم الذين أخلصوا لفكره ، وعلى رأسهم
الحميدى ، وصاعد ، كما أن كثيراً من الردود على فكر ابن حزم ظهرت فى هذه
الفترة وظهر خلالها كذلك أهم المصادر التى تحدثت عن ابن حزم مادحة أو ذامة
أو منصفة .

وأصحاب المصادر التى تحدثت عن ابن حزم فى هذه الفترة سواء منهم من وصلنا
فكره أو من دلتنا عليه المصادر الأخرى - هم :

١ - صاعد بن أحمد الجياني الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وتلميذ ابن حزم
وصاحب طبقات الأمم (١) .

٢ - أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلى ت ٤٦٦ هـ (وله رد على
ابن حزم) .

٣ - أبو نصر على بن هبة الله بن ماکولا (٢) صاحب كتاب الإكمال والمتوفى سنة
٤٧٥ هـ .

٤ - أبو الوليد الباجى (ت ٤٧٤ هـ) فى مناظرته لابن حزم ، كما ذكره ابن حجر
فى اللسان . وفى كتابى الباجى عن « فرق الفقهاء » والانتصار لأغراض الأئمة
الأخبار « وهما مفقودان » .

٥ - أبو عمرا بن عبد البر صديق ابن حزم فى الاستذكار (٣) .

٦ - المؤرخ أبو مروان ابن حيان فى كتابه الكبير « المتين » (وهو مفقود) .

٧ - طاهر ابن مفوز زميل ابن حزم فى الطلب .

(١) يرى العارف بابن حزم أن روحه تسرى فى طبقات الأمم كلها - وقد حللنا ذلك سلفاً - وتعتبر ترجمة صاعد
لأستاذه ابن حزم مصدر كثير من التراجم ، انظر ١٠١ ، ١٠٢ وانظر ترجمة صاعد فى الضئى : بغية الملتبس ص ٣٢٣
وقد أخطأ فى تاريخ وفاته فجعله سنة ٣٦٢ هـ وهو من أخطاء النسخ .

(٢) انظر ترجمته فى ابن خلكان : وفيات الأعيان .

(٣) لم يكن ابن عبد البر تلميذاً لابن حزم بل صديقاً وبدأ له . وكان مالكياً من تلاميذ أبى الوليد الباجى . وقد عده
شذرات أحمد أمين تلميذاً له وهو غير صحيح (راجع ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٣ وانظر شذرات الذهب لابن العماد
الجنبل ٣ - ٣١٥) .

- ٨ - أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ت ٤٢٦ هـ صديق ابن حزم .
- ٩ - ابن الطنبى أبو مروان (عبد الملك بن زيادة الله) المتوفى فى ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ . وكان من أصدقاء ابن حزم وتلامذته (١) .
- ١٠ - خلف بن هارون القطيبي ، له شعر مدح فيه ابن حزم (٢) .
- ١١ - أبو المغيرة عبد الوهاب معاصر ابن حزم (وكانت بينهما مساجلات) .
- ١٢ - أبو الأصبع عيسى بن سهل الأسدى القرطبي نزيل سبتة توفى سنة ٤٨٦ هـ وهو من ألد أعداء ابن حزم ، وقد تطاول عليه بالسباب دون دليل وأخذ على ابن حزم قوله بكروية الأرض وتناقض التوراة وتحريفها وما إلى ذلك وتوجد من كتابه بقايا أوراق فى مكتبة القرويين بفاس (٣) .
- ١٣ - أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروشى ، روى كتب ابن حزم عنه ابنه أبى رافع أسامة (٤) .
- ١٤ - أحمد زروق دفين مصراتة بليبيا توفى سنة ٨٩٩ هـ كان يرى أن ابن حزم يعتمد عليه فى النقلات لافى العقائد .
- ١٥ - أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدى الظاهرى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ تلميذ ابن حزم وصاحب الجذوة .
- ١٦ - أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى ، المعاصر لابن حزم فى رد له على ابن حزم .
- ١٧ - أبو حامد الغزالى ت ٥٠٥ هـ فى كتاب مفقود له مدح فيه ابن حزم (وقد ورد فى مكان سابق من هذا الفصل) .
- ١٨ - أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ .
- ١٩ - مكى بن أبى طالب - الذى ناظره أبو محمد .

(١) انظر الحميدى فى الجذوة ص ٣٨٤ وابن بشكوال فى الصلة ٢ - ٤٦٠ وما بعدها وابن الأبار فى التكملة ٢ - ٧٠٠ .

(٢) الحميدى : الجذوة ٢١١ ، ٢١٢ ، والضئى : البقية ٢٨٩ .

(٣) محمد ابراهيم الكتانى : مؤلفات ابن حزم : مقال بمجلة الثقافة المغربية العدد الأول .

(٤) باقوت : معجم البلدان مادة بطروش .

- ٢٠ - أبو محمد العربي الوزير والد أنى بكر ابن العربي ، صاحب ابن حزم وتعلمذ عليه . وأجازاه ابن حزم (١) .
- ٢١ - محمد بن خلف الخولاني أبو عبد الله روى عن ابن حزم وكان حياً سنة ٤٩٤ هـ (٢) .
- ٢٢ - أبو الحسن على بن بسام الشتريني صاحب الذخيرة ، والمتوفى سنة ٥٤٢ هـ .
- ٢٣ - أبو محمد عبد الله بن أحمد النباهي المالقي في رد له على ابن حزم فيما انتقده على ابن الأفلح في شرح المتنبي (٣) .
- ٢٤ - أبو العباس أحمد بن العريف .
- ٢٥ - السمعاني صاحب الأنساب .
- ٢٦ - الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .
- ٢٧ - أبو يحيى اليسع بن حزم الغافقي في كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب .
- ٢٨ - أبو الوليد بن الدباغ في طبقات المحدثين .
- ٢٩ - ابن الجوزي في المنتظم حوادث سنة ٤٥٦ هـ .
- ٣٠ - العماد الأصفهاني في الخريدة قسم الأندلس .
- ٣١ - أبو بحر صفوان بن إدريس في زاد المسافر .
- ٣٢ - أبو عامر محمد بن سلمة القرطبي في (حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح) .
- ٣٣ - محمد بن إبراهيم الحجازي في « المسهب في غرائب المغرب » أصل مغرب بن سعيد .
- ٣٤ - الزوزني في مختصر تاريخ الحكماء (٤) .
- ٣٥ - أحمد بن سعيد بن حزم (حفيد أنى محمد) نزيل شليكان كان ظاهرياً كجده وكان داعية إلى مذهب جده ، توفي في حدود ٥٤٠ هـ بعد محنة عظيمة (٥) .

(١) ياقوت : معجم الأديباء ١٢ - ٢٤٣ طبع القاهرة .

(٢) المراكشي : الذيل والتكملة ص ١٨٨ .

(٣) انظر ابن بشكوال: الصلة ١ - ٣٨٣ وانظر د - سعد شليبي : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ص ١٨ .

(٤) انظر محمد إبراهيم الكتاني : مؤلفات ابن حزم مقال بمجلة الثقافة المغربية العدد الأول وانظر القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٢٣ .

(٥) الصندى : الوافي بالوفيات ج ٦ ص ٣٩١ ترجمة رقم ٢٩٠٥ .

٣٦ - محمد بن أحمد بن محمد بن حسن ، روى عن ابن حزم ، وهو في عداد أصحابه ، كان شديد العناية بالرواية ضابطاً مقيداً بليغاً توفي في حدود الخمسين وأربعمائة^(١) .

٣٧ - يزيد بن محمد الراضى أبو خالد بن المعتمد بن عباد - ولاء أبوه الجزيرة الخضراء ، وكان بها عند إجازة عساكر يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس واشترطه إياها ، فنقله أبوه إلى رندة ...

٣٨ - وكان الراضى من أهل العلم والأدب كلفا بالمطالعة والدراسة أشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى ، فمهر في الأصول وذهب إلى النظر والاختيار ، وتوفى سنة ٤٨٤ هـ^(٢) .

٣٩ - محمد بن عبد الله بن العرى (أبو بكر ابن العرى) صاحب العواصم من القواصم^(٣) . والدواهى والنواهى ، والغرة ، وعارضة الأحوذى توفى ٥٤٣ هـ .
٤٠ - أبو الفضل عياض بن موسى الحصبى السبتي ، صاحب كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك ، توفى ٥٤٤ هـ .

٤١ - أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الأشبيلي صاحب « فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب القلم وأنواع المعارف » توفى ٥٧٥ هـ^(٤) .

٤٢ - أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى صاحب معجم السفر ت ٥٧٦ هـ .
٤٣ - أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال ، صاحب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم ت ٤٧٨ هـ^(٥) .
٤٤ - أبو الحسن على بن عباس أستاذ وخال أبى القاسم السهلى المحدث الفقيه

(١) انظر أبو عبد الرحمن المراكشى : الدليل والتكملة ٣٧٨ ، ٣٨٠ .

(٢) انظر ابن الأبار : الحلة السراء ٢ - ٧٠ ، ٧٦١ .

(٣) انظر صفحات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ وغيرها بتحقيق عمار طالبي وقد تجنى ابن العرى على ابن حزم ورماء بالسخط ورد عليه الأستاذ - أحمد أمين في ظهر الاسلام ٣ - ٦٤ وانظر في ترجمته : التباهى تاريخ فقهاء الأندلس ١٠٥ .

(٤) انظر فهرست ابن خيرة الصفحات ٤٠٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، وغيرها .

(٥) انظر القسم الثانى من الصلة ص ٤١٥ وعشرات صفحات الأخرى التى تتصل بابن حزم .

النحوى الأصولى ، وقد توفى سنة ٥٨١ هـ وهو ظاهرى متأثر بابن حزم^(١) .
٤٥ - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي صاحب بغية الملتبس فى تاريخ رجال
الأندلس ٥٩٩ هـ^(٢) .

٤٦ - بكير بن عبد خلف بن سعيد أبو عمرو وكان فقيهاً على مذهب أهل
الظاهر أديباً شاعراً ، أخذ عنه بأشبيلية سنة ٥٠٥ هـ^(٣) .

٤٧ - حسين بن عبد الرحيم البهراني المتوفى سنة ٥١٥ هـ^(٤) .

٤٨ - خضر بن محمد بن نمير النجيبى الكفيف الاشبيلي ، كان فقيهاً على مذهب
أهل الظاهر يدافع عنه^(٥) .

٤٩ - أحمد بن على بن الفضل بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم يكنى أبا عمر
توفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة^(٦) .

٥٠ - أحمد بن سعيد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى يكنى أبا عامر .
كان فقيهاً على مذهب جده أبى محمد الظاهرى عارفاً مصمماً عليه صلباً فيه ، مجادلاً
عنه^(٧) .

٥١ - أبو النجاة سالم بن أحمد بن فتح القويطى المتوفى سنة ٤٦١ هـ . وقد اجتهد
فى إذاعة نسخ مؤلفات ابن حزم^(٨) .

٥٢ - شرح بن محمد بن شريح الرعينى المحدث توفى سنة ٥٣٧ هـ^(٩) .

٥٣ - محمد الأنصارى الجودى ، وأبو بكر بن ياسر الأنصارى ، (...) أبو بكر
عبد الله بن طلحة اليابرى وغيرهم كثيرون^(١٠) .

(١) انظر ابن وحيه : المطرب ص ٢٣١ .

(٢) ترجمة ابن حزم ٤١٥ .

(٣) انظر ابن الأبار : التكملة ١ - ٢١٧ .

(٤) انظر ابن الأبار : التكملة ١ - ٢٧٤ .

(٥) المرجع السابق ٣١١ ، وانظر ملاتيا تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٨ .

(٦) المرجع السابق ٥٤ .

(٧) المرجع السابق ٥١ .

(٨) ملاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٧ .

(٩) انظر الضبي : لبغية ٣١٨ ، وملاتيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٧ وقد جعل وفاته سنة ٥٣٩ هـ .

(١٠) انظر ملاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٨ .

ثانيا : في القرنين السابع والثامن الهجريين :



تعتبر مراجع هذين القرنين في عمومها تكراراً للمصادر التي وردت في القرنين السابقين ، بل هي تلخيص أو اقتباسات في أغلب الأحيان وبخاصة أن كتب الرجال أو الطبقات - بمنهجها المعروف في البحث - هي التي سيطرت خلال هذين القرنين .

ولم يشذ عن هذا النمط إلا بعض المفكرين الذين ناقشوا أو تأثروا فكرياً وإن احتفظوا باستقلال فكري - من أمثال شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية . والصوفي محيي الدين بن عربي ، وأبو إسحاق الشاطبي ، تاج الدين السبكي . والأعلام الذين اهتموا بآبن حزم خلال هذه الفترة هم :

١ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني قاضي الجماعة في عهد الخليفة الموحدى يعقوب والخليفة الناصر والموحدى ، وقد عرف بتعصبه لابن حزم وتوفي سنة ٦٠١هـ (١) .

٢ - ابن زرقوق الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن مجاهد الأنصارى المتوفى بأشبيلية سنة ٥٨٦هـ في كتابه المعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم (٢) .

٣ - النويرى في نهاية الأرب « الجزء الثانى والعشرون وهو مخطوط » .

٤ - الصفدى صلاح الدين خليل المتوفى في ٧٦٤هـ في الوافى بالوفيات (الجزء الذى لم يطبع) .

٥ - ابن فضل الله العمرى أحمد بن يحيى في كتابه مسلك الأبصار .

٦ - عبد الحق بن عبد الله الأنصارى المالكى في كتابه « الرد على المحلى » (٣) .

(١) انظر أيضاً سعيد الأندلسى : الفصول الياغة ص ٣١ ، ٣٥ .

(٢) الضى في بغية الملتبس ترجمة رقم ١٣٩ وابن الأبار في التكملة ج ٢ - ٦١٦ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم ص ٢١٩٨ .

- ٧ - ابن الرومية أحمد بن محمد العشاب (النباقي) - وكان من تلاميذ أبي عبد الله زرقوق المالكي المتعصب - ومع ذلك تعصب لابن حزم وله دفاع عنه توفي سنة ٦٣٧هـ^(١)
- ٨ - محيي الدين بن عربي الصوفي الظاهري فقها صاحب الفتوحات المكية وقد نشر مؤلفات ابن حزم واختصر كتاب المحلى (وقد تناولناه قبل ذلك) توفي سنة ٦٤٠ هـ وقيل ٦٣٧ وقيل ٦٣٨ هـ ويبدو أن التاريخ الأخير هو الراجح^(٢) .
- ٩ - أحمد بن يوسف القمري الأشعري المتوفى بتونس سنة ٦٠١ هـ وهو من خصوم ابن حزم المعتدلين
- ١٠ - محمد بن حيدرة ، توفي في حوالى عصر ابن العربي^(٣) .
- ١١ - علي بن محمد بن خروف الأشبيلي ، في رد له على ابن حزم .
- ١٢ - ابن قاض في كتاب الإعلام بتاريخ الإسلام .
- ١٣ - ابن دحية في المطرب من أشعار أهل المغرب^(٤) ، وهو من الظاهرية بل ويعرف بالظاهري المذهب^(٥)
- ١٤ - أحمد بن أبي الحجاج يوسف على الفهرى المالكي .
- ١٥ - ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر القيس في كتابه التبيان .
- ١٦ - ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٦٥٨ هـ في كتابيه الحلة السيرة والتكملة .
- ١٧ - عبد الرحمن بن إبراهيم القزاز في كتاب له ذكر فيه إعجاب العزيز بن عبد السلام بالمحلى .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم ص ٢١٩٨ وانظر ابن الأبار : التكملة ١ - ١٢١
 (٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن حزم والمراكشي : الذيل والتكملة ٤٩٨
 (٣) المرجع السابق ، المكان نفسه .
 (٤) انظر صفحات (٦٢ ، ٦٥ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ٢١٥ ، ٢٣١ وغيرها)
 (٥) المطرب ص (س)

- ١٨ - ابن القطان توفي في حدود سنة ٦٧٠ هـ في مصنفه الذى نقل عنه الذهبى ولعله نظم الجمان المفقود .
- ١٩ - على بن عبد الله بن يوسف بن رضوان^(١) في كتابه « الشهب اللامعة » .
- ٢٠ - أبو طالب عطية بن عقيل القضاعي الطرطوشي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ألف كتاباً في الرد على الحافظ الحميدى وأستاذه ابن حزم اسمه : فصل المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبي والمآل (مخطوطة بالخرزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٠٩) .
- ٢١ - محمد بن عباد الرندى في الرسائل الصغرى .
- ٢٢ - ابن طارق ت ٦١٣ في كتابه المسمى : « من أصيب واسمه على » .
- ٢٣ - قطب الدين الحلبي في تعقبه للمحلى .
- ٢٤ - ابن الخطيب ، لسان الدين في الإحاطة « الجزء الثالث » . وفي أعمال الأعلام .
- ٢٥ - القفطى جمال الدين على بن يوسف ت ٦٤٦ هـ في أخبار المصنفين وفي إخبار العلماء بأخبار الحكماء .
- ٢٦ - أبو عمرو بن الامام في سمط الجمان « مفقود » وقد رجع إليه ابن سعيد صاحب المغرب .
- ٢٧ - أثير الدين أبى حيان النحوى وأحمد بن صابر القيسى الشاعر الذى كان كاتباً للأمير أبى سعيد فرج وهو ابن محمد بن نصير أول سلاطين بنى الأحمر^(٢) .
- ٢٨ - ابن أبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وقد انتسخ كتاب الأحكام بخطه ، ومنه نسخة بدار الكتب الكبرى بمصر .
- ٢٩ - الصالح أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبي الظاهرى - الأندلسى نزيل مصر ودفن دمشق ، كانت له عناية عظيمة بتحليل كتب أبى محمد ورسائله^(٣) .

(١) انظر : بلاتيا تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٨ .

(٢) بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٨ .

(٣) الدكتور - إحسان عباس : أخبار وتراجم أندلسية ، ترجمة رقم ٢٨ ط بيروت ٦٣ .

- ٣٠ - الأمير ناصر الدين محمد جنكلى بن البابا أحمد أمراء الدولة الناصرية بالقاهرة
توفى سنة ٧٦٤ هـ . كانت له عناية بكتب ابن حزم كثير المطالعة لها .
- ٣١ - شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ،
فى كتابيه معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ومعجم البلدان وهو
الذى دل على كتاب « فضائح البربر » المفقود لابن حزم .
- ٣٢ - المؤرخ أبو الحسن على بن محمد بن الأثير الجزرى ت ٦٣٠ هـ صاحب
ب الباب فى تهذيب الأنساب والكمال فى التاريخ .
- ٣٣ - المراكشى أبو عبد الرحمن محمد بن محمد صاحب الذيل والتكملة
توفى سنة ٧٠٣ هـ .
- ٣٤ - سالم بن أحمد بن فتح القرطبى صديق ابن حزم سنة ٤٦١ هـ وكتب كثيراً
من مصنفاته .
- ٣٥ - عبد الواحد المراكشى ت ٦٤٧ هـ ، فى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب
من لدن فتح الأندلس الى آخر عصر الموحدين .
- ٣٦ - ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٧١ هـ فى وفیات
الأعيان أنباء الزمان .
- ٣٧ - ابن سعيد على بن موسى بن محمد ت ٦٨٥ هـ فى المغرب فى حلى المغرب (القسم
الثالث المسمى) (وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس) .
- ٣٨ - ابن تيمية شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين أحمد بن على عبد الحليم
ت ٧٢٨ هـ فى نقض المنطق وغيره (وقد أوردنا بتفصيل فى هذا الفصل) .
- ٣٩ - عمر بن محمد بن خليل السكونى الأشبلى الأشعرى المتوفى سنة ٦١٧ هـ
فى كتابه لحن العامة والخاصة فى المعتقدات .
- ٤٠ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائى بتونس المتوفى بها فى عام
٧٠٢ هـ .
- ٤١ - محمد بن يوسف الأندلسى الجيائى نزيل القاهرة ودفنها سنة ٧٤٥ هـ .
- ٤٢ - ابن قيم الجوزية شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٧٥١ هـ تليمذ ابن تيمية

وصاحب زاد المعاد وروضة المحبين وإعلام الموقعين وقد تحدث فيها كلها عن ابن حزم .

٤٣ - الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ في سير إعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال في نقد الرجال ومختصر دول الاسلام .

والذهبي أوفى من ذكر مؤلفات ابن حزم وقد اعترف بميله لابن حزم (١) .

٤٤ - الياقنى المكي اليمنى أبو محمد عبد الله الياقنى صاحب مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ت ٧٦٨ هـ .

٤٥ - السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي صاحب الطبقات توفي سنة ٧٧١ هـ (وهو الذي أورد قصيدة ابن حزم النقفورية) وإن كان من المتحيفين على ابن حزم .

٤٦ - ابن كثير الدمشقي الحافظ أبو الفداء المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٤٧ - الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي المالكي المتوفى سنة ٧٩١ هـ صاحب الموافقات .

٤٨ - ابن شاکر في فوات الوفيات .

٤٩ - محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن جعفر بن خليل العبدي (من طبقة تلامذة الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (٢)) .

وهو صاحب القدح المعلي في إكمال المحلى ، والمورد الأحلى في اختصار المحلى . وقد كان من محبي ابن حزم والمدافعين عنه .

٥٠ - أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشهور بالزواوي المتوفى سنة ٦١١ هـ من بجيلة ، وكان محدثاً فقيهاً توفي ٦١١ هـ (٣) .

(١) انظر سعيد الأفغاني (ابن حزم في سير النبلاء - المقدمة - إنصاف الذهبي) .
(٢) الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني حول كتاب المورد الأحلى ، مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الرابع ج ١ مايو سنة ١٩٥٨ م .
(٣) انظر المرجع السابق ٢١٦ ، ٢١٧ ، بصرف .

وقد عاش في دولة الموحدين بالمغرب الأوسط ، حين كان لفكر ابن حزم شأن فيها وسيطرة على أمرائها ، فكتب أبو زكريا الزواوي في شأن ابن حزم كتابات أغضبت الناس ، فرفعوا قضية للخليفة بمراكش ، وناقش الخليفة كتابه الذي هاجم فيه ابن حزم « حجة الأنام ، وقدوة الأنام » ثم أمر بترك الزواوي لشأنه (١) .

ثالثاً : في القرون التالية إلى مطلع القرن الرابع عشر :



تمثل هذه القرون عصر الجمود الذي اقتصر فيه الفكر على النقل والتلخيص والشرح وقلما يوجد به ابتكار ، وبالتالي فليس هناك جديد فيما يتعلق بابن حزم شأنه شأن حركة الفكر الإسلامي كله ، بل هي نقول مكررة باستثناء حصاد قليل لبعض الدارسين على رأسهم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، وابن حجر العسقلاني والمقرئ صاحب نفح الطيب .

والذين تحدثوا عن ابن حزم أو اعتنقوا مذهب في هذه القرون هم :

- ١ - ابن خلدون : عبد الرحمن ، في المقدمة والعبير ، توفي سنة ٨٠٨ هـ .
- ٢ - الكتاني القيحاوي المتوفى سنة ٨١١ هـ .
- ٣ - المتورى محمد بن عبد الملك القيس المتوفى ٨٣٤ هـ يروى في برناجه مؤلفات ابن حزم .
- ٤ - الدجلجى شهاب الدين أحمد بن على المتوفى سنة ٨٣٨ هـ صاحب الفلاكة والمفلكون .
- ٥ - ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل بن أحمد بن على المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ذكر ابن حزم في لسان الميزان .
- ٦ - أحمد زروق الفاسى دفين مصراتة بليبيا توفى سنة ٨٩٩ هـ كان يرى أن ابن حزم يعتمد عليه في النقلات لا في العقائد .

(١) انظر الغبرنى عنوان الدراية ص ١٣٥ وما بعدها ص ٥٩ ، ٦٩ ، ٢٦٥ .

- ٧ - ابن تغرى بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف صاحب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة .
- ٨ - أحمد بن محمد المصرى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وهو خصم معتدل لابن حزم .
- ٩ - أحمد بن البرهان المتوفى سنة ٨٠٧ هـ والذي اجتهد فى إحياء المذهب ونشره (١) .
- ١٠ - تقي الدين المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ والذي أثنى على ابن حزم (٢) .
- ١١ - عبد الوهاب الشعرانى الصوفى المعروف المتوفى سنة ٩٧٢ هـ .
- ١٢ - أبو عبيد الله محمد الأندلسى نزيل مراکش أيام مولاى عبد الله الغالب المتوفى سنة ٩٨٠ هـ (٣) .
- ١٣ - أبو الحسن بن معاذ الظاهرى على بن إبراهيم الأنصارى الأوسى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ نسخ بخط يده تصانيف ابن حزم .
- ١٤ - السخاوى شمس الدين المتوفى بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢ هـ فى الضوء اللامع .
- ١٥ - سعيد السحولى من أصحاب أحمد بن البرهان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ أحب ابن حزم عن طريقه .
- ١٦ - البدر البشكتكى أبو البهاء محمد بن إبراهيم المصرى الشاعر المتوفى سنة ٨٣٠ هـ غلب عليه حب ابن حزم .
- ١٧ - المقرئ التلمسانى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٤١ هـ صاحب نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب .
- ١٨ - على بن محمد طامس الصفافى المتوفى سنة ١١٨٩ هـ .
- ١٩ - محمد بن اسماعيل الأمير الكحلانى المجتهد المتوفى سنة ١١٨٢ هـ .
- ٢٠ - الحنبلى عبد الحى بن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ صاحب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
- ٢١ - أبو الطيب صديق بن حسن خطان الحسينى البخارى القنجوى المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ صاحب التاج المكمل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ولد سنة ١٤٢٨ هـ .

(١) انظر بلاتيا : « تاريخ الفكر الأندلسى » وقد تحدثنا عنه بشئ من التفصيل فى الصفحات السابقة .

(٢) المكان السابق .

(٣) المرجع السابق ٢٣٩ .

رابعاً : في القرن الرابع عشر للهجرة :



يعتبر هذا القرن بحق عصر النهضة الفكرية الاسلامية ، بعد عدة قرون من السبات العميق .

وفي هذه النهضة كان لابن حزم نصيب كبير من جهود الدارسين في شتى الجوانب التي نبغ فيها .

وقد بدأ الكثيرون يقرأون فكر ابن حزم بروح علمية ناقدة وقد بهرهم هذا المفكر الكبير بما إنتهى إليه من نظرات سبق بها عصره ، وبهرهم باعتداده وحرية الفكر وبالتزامه الاجتهاد وثقافته الواسعة الخصبية .

وقد ذاب في ابن حزم كثيرون طغت على أسمائهم النسبة إليه والاستشهاد به . وقد عرفت من هؤلاء في المملكة العربية السعودية كاتبين معروفين بها هما الأستاذ - أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري الذي ضاع اسمه الحقيقي « محمد بن عمر » أمام نسبه المذهبية الظاهرية^(١) والكاتب الثاني هو الأستاذ « أوتراب الظاهري » واسمه الأصلي « عبد الجليل بن أبي محمد عبد الحق الهاشمي الهندي » .

وهناك كثيرون اشتهروا باهتمامهم بابن حزم ، وإن يكن اشتهارهم به بدرجة أقل ، ومنهم الأستاذ - سعيد الأفغاني ، والدكتور إحسان عباس والدكتور طه الحاجري والدكتور عبد الكريم خليفة والأستاذ - محمد ابراهيم الكتاني والدكتور مملوح حقي والدكتور - عبد الله الزايد والشيخ محمد أبو زهرة والأستاذ - عبد اللطيف شرارة والدكتور - زكريا إبراهيم والدكتور الطاهر مكى والأستاذ - محمد فتحى عثمان ، والأستاذ - محمد منتصر الكتاني والشيخ عبد الله بن محمود من قطر والشيخ عبد الله الأنصاري من قطر والشيخ محمد بن حجر القطري ، ومحمد رواس قلعجي والشيخ ناصر الألباني السوري والأستاذ أنور الجندي والدكتور - مصطفى عبد الواحد ، والدكتور - طه حسين .

(١) يبالغ أبو عبد الظاهري في تقديره لابن حزم فيطلق عليه في بعض كتاباته « إمام الدنيا » وهو إطلاق جامع غير علمي (ساحة الملوك ص ٤٠) .

ولم يكن المستشرقون أقل اهتماماً بابن حزم من العرب ، سواء في مجال تحقيق تراثه أو دراسة فكره وقد لقيت كتب ابن حزم : « الفصل ، ومداواة النفوس أو السير والأخلاق ، وجمهرة أنساب العرب ونقط العروس وطوق الحمامة » الكثير من اهتمام المستشرقين ، ومن أبرز من اهتموا بفكر ابن حزم من المستشرقين : آسين بلاثيوس وجولد تسيهر ورينهارت دوزى وبتروف الروسى وزايون وكارل بروكلمان وجونثال بلانثيا ، وليون بيرشة الفرنسى وفان أراندونك وليفى بروفنسال ، وفرانسيسكو بريلى الايطالى وديلاس أوليرى وإيفان كوزمين الروسى ، واميليو غرسيه غومس الأسباني وغريناوم ، وسيكودى لوثينا الاسبانية ونيكل الأمريكى ، وفريد لاندر الأمريكى وأوثوشياس اليونانى ودى سلان الانجليزى وترنير الالماني وتورمير الأسباني وروم لاندو وباسيه وهورتن الاسباني ومكدونالد وسارتون ، وبلاشير .

والحق أن تراث ابن حزم يلقى عناية كبيرة سواء في مجال الدراسة أو التحقيق ، وكثير ممن ذكرنا أسماءهم أفردوا كتباً لابن حزم ، وقد رجعنا إليها فيما رجعنا .. ولا يوجد كاتب استعرض تاريخ الفكر الاسلامى أو الحضارة الاسلامية أو تاريخ الأدب الأندلسى ، أو عصر الطوائف أو تاريخ الأندلس أو قرطبة أو مقارنة الأديان أو أعلام التجديد الاسلامى أو تاريخ التشريع .. لا يوجد واحد من هؤلاء - على وجه العموم - إلا وكان لابن حزم نصيب في دراسته .

وهذا يبين لنا المساحة الحقيقية التى شغلها ابن حزم في حركة الحضارة الإسلامية .

أثر ابن حزم في الحضارة الإنسانية

لا نستطيع أن نفصل فصلاً حاسماً بين تأثير ابن حزم في الحضارة الإسلامية وتأثيره في الحضارة الإنسانية . ذلك لأن أكثر ما قدمه ابن حزم في مجال الحضارة الإسلامية قد انتقلت إشعاعاته إلى مجال الحضارة الإنسانية العامة .

وهناك غير سبب للمزج الذي نتصوره قائماً بين تأثير ابن حزم في الحضارة الإسلامية والإنسانية ومن أهم هذه الأسباب أن معظم تأثير ابن حزم لم يكن في « مادة » الفكر ، وإنما كان تأثيراً في « منهج » الفكر ، ولم يكن أسلوباً جديداً في العرض ، بقدر ما كان تجديداً شاملاً في مضمون العرض بل ثمة ميادين كان ابن حزم رائداً فيها ولم يسبق إليها بمثل المنهج الذي تناولها به .

ومن الملاحظ أيضاً أن فكر ابن حزم يمتاز بقوة خاصة في العرض وحشد كبير للحقائق ومنهجية منصفة تخضع للحق وتدين به . وبالتالي فقد حمل فكره في باطنه قابلية كبيرة للامتداد أو الانتشار عبر تطاول القرون . وقد بقيت روائع فكره التي قدمها في مجال مقارنة الأديان والفقه المقارن والحب العذري ومنهج المعرفة ونظرية الجزئ وكروية الأرض وغيرها ... بقيت كلها تفرض نفسها على حركة العقل الإسلامي وحركة العقل الأوروبي الذي كان وثيق الصلة بالفكر الإسلامي خاصة سواء في مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية خلال ما يسمى تجاوزاً بالعصور الوسطى ، أو خلال عصر النهضة الأوروبية التي نهل فيها الأوروبيون من رحيق الحضارة الإسلامية .

يمثل ابن حزم معبراً من المعابر القوية التي حملت إلى الإنسانية خلاصة الفكر الإسلامي الأصيل .

وقد استطاع أن يجمع في منهجه بين الالتزام الشديد - نصاً ودلالة بمصدرى الفكر الإسلامي المكونين للتصور الإسلامي الصحيح « القرآن والسنة » لدرجة جعلت بعض المفكرين المتأخرين يصمون بالرجعية ^(١) - ويبين تقديمه « علوم الأوائل » للعقل الأندلسي في عصر سيطرة الفقهاء ، متناولا المنطق والفلسفة والمجسطي بأسلوبه وطريقته العملية التربوية ، غير عالىء بنقد خصومه الذين اتهموه بالإلحاد وحذروا منه الحكام ، قائلا في الرد على من وجه إليه هذه التهمة :

أخبرنا عن هذه الكتب : أطالعتها أيها الهاذر أم لم تطالعتها ؟ فإن كنت طالعتها فلم تنكر على من طالعتها أنت ، وهلا أنكرت ذلك على نفسك ؟ وأخبرنا عن الإلحاد الذى وجدت فيها ، وإن كنت وقعت على مواضع منها وإن كنت لم تطالعتها فكيف تنكر ما لا تعرف ؟ أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ ^(٢) .

لقد كان ابن حزم - وليس الغزالي - هو أول من أدخل المنطق اليوناني إلى المناهج الإسلامية ^(٣) . لكن ابن حزم لم يوافق أرسطو في القياس والعلية وإن وافقه في العلة الطبيعية ^(٤) بالإضافة إلى أنه استعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف أرسطاطاليس واضح هذا العلم في بعض أصوله ^(٥) وذلك في أمور قليلة لا تتفق مع منهجه الظاهري ^(٦) - ولا مع فهمه للحقائق الإسلامية .

(١) انظر ديلاس أوليري : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ٢٣٩ .

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسى : « رسالة فى الرد على الهاتف من بعد » ص ١٠ .

(٣) قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الغزالي هو أول من أدخل المنطق إلى المناهج الإسلامية وقد رد على ذلك الدكتور - عمار الطالبي وبين أن ابن حزم قد سبقه إلى ذلك (انظر كتابه - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ١ - ١٢) .

(٤) د - عمار الطالبي آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ١ - ١٣ .

(٥) صاعد : طبقات الأئمة ١٠١ .

(٦) د - عمار الطالبي ١ - ١٣ (هامش)

وقد كان الدافع القوي لابن حزم في هذا الاتجاه هو موقف المثقفين في عصره ، فهو قد وجدهم طائفتين - طائفة اكتفت بالعلوم العقلية ، وصحت لديها براهينها وبقيت صغراً من علوم الدين وطائفة غرقت في الخرافات وخلطتها بالأحاديث فنافت كل برهان ، وعابت كتباً لا تعلم ما فيها مع أنها كتب مفيدة .

ولذلك تجاوز ابن حزم موقف هاتين الطائفتين ، فحقق المذهب الديني وخلصه من شوائب الطائفة الأولى ، ودرس العلوم المفيدة وخلصها من أباطيل الطائفة الثانية (١) .

فإن الذي كان متوقفاً من ابن حزم هو أن يطبق منهجه الظاهري العقلي على القرآن لكن عقل ابن حزم المنسق الواضح ، قد حمّله على تطبيق هذا المنهج نفسه على التوراة والانجيل أيضاً .

ومع أن ابن حزم كان - كما ذهب إلى ذلك أكثر مؤرخي الفكر - أول من قدم دراسة متكاملة منهجية في تاريخ مقارنة الأديان (٢) فإنه - إلى جانب ذلك - كان أول من أخضع الأديان كلها لمنهج واحد هو منهجه الظاهري الذي يزن بميزانه مبادئها ونصوصها سواء في الإلهيات أو فيما دون ذلك من التشريعات والأخلاقيات (٣)

والحق أننا لانجد أصدق تعبيراً عن القيمة التاريخية لذلك الأثر العظيم الذي تركه ابن حزم في منهج مقارنة الأديان من كلمات « أسين بلاسيوس » التي يقول فيها : « إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم تمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب . في ثانياً صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك

(١) د - إحسان عباس ، ابن حزم دافع عن كروية الأرض ، مقال بمجلة العربي عدد ٢٨ مارس ١٩٦١ م .

(٢) انظر بالتحقيق تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٨ وكارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣١٣ العربي وروم لاندو . الاسلام والغرب ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، وأوليري: الفكر العربي ومكانه ٢٣٩ ود - لطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ٤٢ وفيليب حتى: العرب تاريخ موجز ١٨٢

(٣) انظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٥ وعبد ابراهيم الكتاني : مقال .. هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي . مجلة البيئة عدد يونيو ٧٢ ونحن لم نفصل بعد أبعاد هذا المنهج اكتفاء بما ورد في الفصل الخاص بالأديان عند ابن حزم في الفكر المسيحي ، مجلة البيئة عدد يونيو ٧٢ ونحن لم نفصل بعد أبعادها هذا المنهج اكتفاء بما ورد في الفصل الخاص بالأديان عند ابن حزم .

النسيج الذهبي الذي تتألف منه الفلسفة الخالدة، ذلك النسيج الذي صنعه أوفر عبقریات الاغريق حكمة بأيديها الصبور في مهارة فائقة وعلى ضوء صفحاتها نرى كيف يزداد النسيج سعة ، وكيف تدخل في تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة وربما وجدنا أن هذه الأنسجة الجديدة لا تضاهي نسيج الإغريق روعة وبريقاً ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء ، ونراها تجود وتزداد إحكاماً بفضل ما أدخله عليها التفكير النصراني الشرقي وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر ، وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها ، ولهذا فقد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكري الفنى ونتائجه ومن ثم لم يكن بالعسير عليهم أن يسبقوا مفكرى النصارى من أهل الغرب في تحليلها ووضع منهجها وأساسها^(١).

قدم ابن حزم للحضارتين الإنسانية والإسلامية إلى جانب ما قدمه في ميدان المزج بين النظر المنطقي والنظر الدينى وما قدمه في ميدان تاريخ المذاهب والأديان نظرية جديدة حول « الحب » من الوجهتين النفسية والاجتماعية .

وعلى الرغم من أن ابن حزم ليس أول من كتب في الحب من أدباء العرب فقد سبقه إلى ذلك أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصبهاني ت ٢٩٧ هـ في كتابه الزهرة^(١) وأبو الفرج (ت ٣٦٦ هـ) في كتابه « الحقائق » وإخوان الصفا في بعض رسائلهم ، وابن المقفع في الأدب الكبير والأدب الصغير والجاحظ في الرسالة السابقة من مجموع رسائله في العشق والنساء وأبو إسحاق الحصرى في كتابه « المصون » إلا أن ابن حزم قد فاق كل هؤلاء في دقة منهجه وتسلسل أفكاره ، وترباط بحثه ورقه حسه ، وبعد غوصه واتباعه منهجاً استبطانياً استقرائياً فجاءت رسالته طوق الحمامة حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة والخبرات الحية المعاشة والأمثلة التاريخية

(١) نقلاً عن بلانثيا تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٨ .

(١) يذكر (جب) أن كتاب الطوق يفوق أو يساوى على الأقل كتاب الزهرة ، انظر شريعة الإسلام ص ١٨٧ ،
= . ١٨٨

والنماذج البشرية المتنوعة^(١) أو بتعبير آخر جاء ما قدمه ابن حزم في الطوق نظرية متكاملة عن الحب^(٢) اعتمدت على عناصر البحث النفسى والاجتماعى :

- ١ - فهي تعتمد على التجربة الذاتية .
- ٢ - وهي تعتمد على مآثره وتسمعه في الحياة الاجتماعية .
- ٣ - وهي تقدم ذلك كله في صدق وجرأة بلا خوف أو نفاق .
- ٤ - وهي تخرج من كل ذلك بنتائج تعممها على أعراض الحب المختلفة .
- ٥ - وهي في ذلك محاطة بسياج عن التصور الإسلامى الذى لا يرى في الحب العفيف إلا لوناً من الجهاد ، عاقبته شهيدة الجنة .

فابن حزم .. هذا الفقيه الظاهرى الأصولى لم يجد أى تناقض بين ما قدمه في الطوق وما قدمه في المحلى أو الفصل .. ولو أنه - بكل ما عرف من دين قد اكتشف على امتداد عمره - تناقضاً لأعلنه .. ورجع عنه .

ويأتى بعض المستشرقين أن ترجع نظرية الحب العذرى إلى الطبيعة الإسلامية أو الفطرة العربية .

فحين وقف « رينهارت دوزى » على قصة الحب الرقيقة لابن حزم استكثرها على العرب وعلى المسلمين بالرغم من أن الرجل علمانى لا يحب الكنيسة ولا يتعاطف مع رجال الدين ، وقال إن هذا الغزل العف لا تعرفه الأخلاق العربية ولا الديانة الإسلامية ، وأنه تحدر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأول المسيحيين^(٣) .

== وقد اطلعت على النسخة التى طبعت من الزهرة (النصف الأول بتحقيق نيكول البوهيمى والنصف الثان بتحقيق إبراهيم السامرائى ونورس القيس) وقد وجدت منهج ابن حزم أقرب إلى الخبرة والتجربة الشخصية والاعتداد على التاريخ .

(١) انظر بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ٢٩١ وغومس : « الشعر الأندلسى » ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) حاول صديقنا الدكتور - محمد سعد الشوير فى رسالته للدكتوراه « أهر إسحاق المصرى القيروانى والنقد فى كتابه زهر الأدب » المقدمة إلى كلية اللغة العربية - الأزهر ١٩٧٧ إيجاد صلة بين كتاب المصرى « المصون » وبين طوق الحمامة على أساس تأثر ابن حزم بالمصرى إلا أن كل ما أورد من حجج لا ينض لإثبات هذا الزعم فتمه خلافاً كبيرة فى المنهج والأسلوب التى اعتمد عليها كل فى منهجه كما أن المؤلف ذكر أن ابن حزم زار القيروان وهو ما لم يثبت إطلاقاً والتشابهات بينهما موجودة عفواً بين كل الكتب التى تحدثت عن موضوع الحب فى هذه العصور (انظر صفحات ١٨١ - ٢٠١) .

(٣) د - الطاهر أحمد مكى : طوق الحمامة ص ٨ وانظر غرسية غومس : الشعر الأندلسى ص ٧٩ (هامش) للدكتور (حسين مؤنس) :

بيد أن كثيراً من المستشرقين من أمثال الراهب « ميغل آسين بلاسيوس »^(١) وأميليو غرسيه غومس ، وليفي بروفنسال ، بلانثيا وغيرهم قد ردوا هذا الزعم وبنوا أصوله الإسلامية والعربية حتى في البيئة الجاهلية^(٢) .

وبما أننا لا نميل إلى أن لابن حزم أصولاً مسيحية بل نرى نسبته في فارس التي نسب إليها نفسه ، ونسبه إليها أقرب تلامذته فنحن - بالتالي - لا نرى ضرورة للبحث في قضية الأصول هذه ، ونرى أن عقلية ابن حزم وتكوينه النفسي إنما هما إسلاميان عريان لحمة وسدى .

إن المحاولات التي سبقت ابن حزم في مجال الحب ليست سوى نظرات جريئة لم تستطع أن تشق لها رافداً في نهر الحضارة سواء منها ما أنتجه العقل العربي أو أنتجه العقل الأوروبي..

أما طوق الحمامة فقد كان - كما يصفه بحق الدكتور الطاهر مكي - « أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي » وتتبع أطواره وحلل عناصره وجمع بين الفكرة الفلسفية والواقع التاريخي وواجه أدق قضاياها في وضوح وصراحة ، كان ابن حزم الدارس الواقعي ، في كل خطاه ، أفكاره حلقة وقدماء على الأرض ، ويصدر في نظريته عن تجربة عميقة ، ذات أبعاد إنسانية واسعة وعن إدراك ذكي لطبائع البشر^(٣) .

وإلى جانب ما قدمه ابن حزم في المجالات السابقة قدم ابن حزم (نظرية للمعرفة) تؤمس بأن طريق الوصول إلى الحقيقة يعتمد على أصول أربعة :

- ١ - النصوص الدينية ، كما هي في القرآن والسنة .
- ٢ - اللغة من حيث دلالتها الظاهرة المتعارف عليها عند أصحابها .
- ٣ - الحس السليم وبديهية العقل .

(١) انظر ابن حزم في قرطبة ، ٢٠ ، ٦٣ .

(٢) انظر بلانثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٣ وعومس : الشعر الأندلسي ص ٧٩ . والدكتور الطاهر مكي : طوق الحمامة ٨ بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٣) طوق الحمامة ٩ ، ١٠ (مقدمة) .

٤ - الاكتساب بالاختبار والنقل بالتواتر^(١) .

والحق أن النصوص الدينية واللغة باعتبارهما من طرق المعرفة المقبولة نقلاً بلا برهان يعتمدان على سوابق فكرية مقبولة . وبالتالي فهما غير داخليين في نظرية المعرفة المطلقة^(٢) .

فالقسمان الضروريان للمعرفة عند ابن حزم هما :

١ - ما عرفه الإنسان ببديهية الفطرة وأولية العقل « مثل معرفة أن الكل أكثر من الجزء وأن من يولد قبلك فهو أكبر منك » .. وأن نصفى العدد مساويان لجميعه^(٣) .

٢ - ما عرفه الإنسان بالحواس السليمة عن طريق الاكتساب بالاختبار والنقل بالتواتر كمعرفة أن النار حارة وأن الثلج بارد والصبر مر والتمر حلو والثلج الجديد أبيض ، والفأر أسود ، وأن جلد القنفذ خشن والحرير لين ، وأن صوت الرعد أشد من صوت الدجاجة وما أشبه ذلك^(٤) .

وفي كثير من تطبيقات ابن حزم النظرية في المعرفة يمزج بين هذين القسمين^(٥) . وقد انتهى ابن حزم إلى أنه ليس من الضروري للمعرفة الصحيحة أن يبدأ الإنسان بالشك لينتهي إلى اليقين كما ذهب إلى ذلك القديس « أوغسطينوس » قبله وكما قال بذلك « أبو حامد الغزالي » « وديكارت » من بعده ، فهو لاء يؤمنون بما سمى بالاستدلال أو الاستقراء أو القياس فما دامت الحواس سليمة والعقل سليماً فإن الأوليات الفطرية والبديهيات العقلية الظاهرة تكفل للإنسان منذ المراحل الأولى للبحث أن يبدأ من نقطة الثقة واليقين^(٦) .

(١) انظر ابن حزم: الفصل ١ - ٣٣ ، ٣ ، ٢٧ وانظر التقريب لحد المنطق ١٥٦ وما بعدها وانظر د - عمر فروخ:

تاريخ الفكر العربي ٥٩٦ وانظر أنور الجندي: نواحي الفكر الإسلامي ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر د - عمر فروخ: نظرية المعرفة عند ابن حزم مقال بمجلة الجمع العربي بدمشق مجلد ٢٣ .

(٣) التقريب لحد المنطق ١٥٦ .

(٤) للمكان السابق .

(٥) انظر الفصل ٣ - ٥٥ ، ٥ - ٤٧ .

(٦) انظر الفصل ٥ - ١٠٨ ، ١٠٩ .

كما أنه يمحس تلك الأفكار الأسطورية التي روجت عن « الأرض » وكانت الكنيسة في أوروبا تحميها وتكفر المخالفين لها ، بل وتعرضهم للقتل بأبشع الأساليب ^(١) .

وفي كتاب « الفصل » الذي يعتبر - بحق - من أنحصب كنوز تراثنا الشايع يوجد عنوان موضوعات من الموضوعات الرئيسية أطلق عليه : « مطلب بيان كروية الأرض » . وبعد استهلال وجيز يقول أبو محمد :

وجوابنا وبالله تعالى التوفيق أن أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة بل البرهان من القرآن قد جاء بتكويرها قال الله عز وجل : ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ وهذا أوضح بيان في تكوير الأرض ودوران الشمس ^(٢) .

وهذا إثبات لكروية الأرض بالدليل النقلى ، أما بالدليل العقلى فيبنى ابن حزم ذلك على ما أثر من ربط الصلاة بزوال الشمس أى انتقالها من جهة إلى جهة بحيث إن كل من على ظهر الأرض لا يصلى الظهر إلا إثر انتصاف نهاره أبداً على كل حال وفي كل زمان ومكان ^(٣) ... وهذا دليل عقلى على كروية الأرض .

ولكن كان ابن حزم لم يهتد إلى أن الأرض تحقق هذا التفاوت في الوقت بدورتها حول الشمس وظل يعتقد أن الشمس تدور حول الأرض من مشرق إلى مغرب ومن مغرب إلى مشرق - فحسبه - وهو الفقيه الفيلسوف أن يهتدى إلى هيكل النظرية وأن يعلن رأيه الذى يمثل ثورة علمية في عصر كان القول فيه بكروية الأرض إلى وقت قريب زندقة ومجلبة للسخرية ^(٤) .

(١) في ٢٢ يونيو عام ١٦٢٣م قدم الفلكى الإيطالى (جاليليو) للمحاكمة بسبب إيمانه بحركة الأرض ولم يفرج عنه إلا بعد أن ركب على ركبتيه وعمره سبعون عاماً وأنكر معتقده في حركة الأرض . انظر أحمد عبد الوهاب: أساسيات العلوم اللرية الحديثة في الإسلام ص ٨٠ نشر مكتبة وهبة ١٩٧٧ م .

(٢) الفصل ٢ - ٩٧ .

(٣) المكان السابق ، وانظر ص ٩٨ .

(٤) انظر الدكتور إحسان عباس : مقال ابن حزم دافع عن كروية الأرض مجلة العربى عدد ٢٨ مارس سنة ١٩٦١ م .

وبتأثير من ابن حزم وفكره - استطاع الأندلسيون أن يسهموا بنصيب وافر في تطوير المعلومات الجغرافية عندما أتيح لبعضهم أن يقوموا برحلات خارج الأندلس . ومن أبرز المشتغلين في هذه الناحية « ابن الرومية » تلميذ ابن حزم في المذهب الظاهري^(١) بالإضافة إلى تلميذه صاعد الطليطلي صاحب طبقات الأرض .

ولو قدر لابن حزم - وهو الرجل ذو البصر النافذ والذكاء اللامع - أن يغادر الأندلس لكسبنا - دون ريب - وصفاً دقيقاً للمجتمعات وحياة الأفكار وأحوال البلدان ، وكثيراً ما منى ابن حزم نفسه برحلة لم تتحقق وصرفته عنها صوارف الزمان^(٢) .

ومما يضاف إلى هذه المجالات الإبداعية التي قدمها ابن حزم للحضارة الإنسانية رفضه النظرية التقليدية السائدة لدى المتكلمين والفلاسفة في العصور الوسطى ، وهي نظرية « الجزئ الذي لا يتجزأ » . فإن ابن حزم قد جاهر بأنه : « ليس في العالم جزء لا يتجزأ ، وأن كل جزء انقسم الجزء إليه فهو جسم أيضاً وإن دق أبداً^(٣) » .

وهو يبسط نظريته بعرض آراء المخالفين ، بتقديم الأدلة المؤيدة يقول : وعمدة القائلين بوجود الجزء الذي لا يتجزأ خمسة مشاغب ، كلها راجعة بحول الله وقوته عليهم . ونحن إن شاء الله نذكرها كلها ، وننقض لهم كل ما موهوا به ، ونرى بطلان جميعها بالبراهين الضرورية . ثم نرى بالبراهين الصحاح صحة القول بأن كل جزء فهو يتجزأ أبداً ، وأنه ليس في العالم جزء لا يتجزأ^(٤) .

وبعد تفنيد هذه الاعتراضات - يقدم ابن حزم مبررات رأيه - فيقرر أن كل شيء يحتمل أن يكون على أجزاء كثيرة فبالضرورة ندرى أنه يحتمل أن يجزأ إلى أقل

(١) الدكتور إحسان عباس : مقال « ابن حزم دافع عن كروية الأرض » مجلة العربي عدد ٢٨ مارس ١٩٦١ م .

(٢) انظر المكان السابق وانظر التكملة لابن الأبار ١ - ١٢١ .

(٣) انظر د - إحسان عباس مقال ابن حزم دافع عن كروية الأرض .

(٤) الفصل ٥ - ٩٢ .

منها كشيء احتمل القسمة على أربعة فلا في شك أنه يحتمل القسمة على ثلاث واثنتين وهكذا (١) .

وبلا شك نعلم أن الخططين المستقيمين المتوازيين لا يلتقيان أبداً ولو أنك مددت من الخط الأعلى الى الخط الأسفل فإن تلك الخطوط المخرجة من الضلع الذي ذكرنا وتلك الخطوط المخرجة من الزاوية لا تمر مع الخط الأعلى أبداً لأنها غير موازية له فإذا كان ذلك كذلك .. فذلك الضلع منقسم أبداً ما أخرجت الخطوط بلا نهاية (٢) .

وبرهان آخر . أننا بالضرورة ندرى أن كل مربع متساوى الأضلاع فإن الخط القاطع من الزاوية العليا إلى الزاوية السفلى التي لا يوازيها .. يقوم منه في المربع مثلثان متساويان وأنه لاشك أطول من كل ضلع من أضلاع ذلك المربع على انفراده .
فنسألهم عن مائة جزء لا يتجزأ رتبت مثلاً عشرة عشرة .

... فبالضرورة نجد فيها ما ذكرنا ، فيبين نعلم حينئذ أن كل جزء من الأجزاء المذكورة لولا أن له طولاً وعرضاً لما كان الخط المار بها القاطع للمربع القائم منها على مثلثين متساويين أطول من الخط المار بكل جهة من جهات ذلك المربع القائم منها على مثلثين متساويين أطول من الخط المار بكل جهة من جهات ذلك المربع على استواء وموازية للخطوط الأربعة المحيطة بذلك المربع وهو أطول منه بلا شك (٣) .

وضع ضرورة أن لكل جزء منها طولاً وعرضاً وأن ماله طول وعرض فهو متجزئ بلا شك . فصح أيضاً أن كل جزء مر عليه الخط المذكور فقد انقسم .
وثمة براهين أخرى رياضية أوردها ابن حزم (٤) لم نشأ ذكرها خشية الإطالة .
وفي نهاية كلامه يقرر بأن هذه البراهين الضرورية قاطعة بأن : « كل جزء فهو يتجزأ

(١) انظر الفصل ٥ - ١١٣ .

(٢) انظر الفصل ٥ - ١٠٣ .

(٣) انظر الفصل ٥ - ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) انظر الفصل ٥ - ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

أبدأ بلا نهاية ، وأن جزءاً لا يتجزأ ليس في العالم أصلاً ولا يمكن وجوده بل هو من المحال الممتنع^(١) .

لكن السؤال الضروري هنا :

كيف عبرت أفكار ابن حزم من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الأوروبية .
ولا يصلح للإجابة عن السؤال أن نجعل فنقول : إن فكر ابن حزم قد عبر فوق نفس الجسور التي عبر فوقها الفكر الإسلامي كله من مراكز الحضارة الإسلامية إلى أوروبا العصور الوسطى .

بل إننا نعتقد أن التفصيل هنا ضروري من الناحيتين المنطقية والتاريخية ، لكي يتأكد التأثير الذاتي والمباشر لرجل مثل ابن حزم ، تفرد بالريادة في أكثر من مجال من مجالات الفكر ..

فمن الناحية المنطقية لا يتصور أن رجلاً مثل ابن حزم فتح أول نافذة علمية - من وجهة نظر إسلامية - لنقد التوراة والأنجيل ، يمكن أن يتواطأ على تجاهله من يهتمهم أمر التوراة والأنجيل وجلهم من الأوروبيين .

ولم يكن ابن حزم مجرد ناقد لنصوص العهد القديم والجديد وحسب وإنما كان صاحب عقيدة يدافع عنها ، ويكتب في سبيلها الردود والتعقيبات ويدخل مجال المناقشة والمناظرات^(٢) .

وأسلوب كهذا من شأنه أن يفرض على الخصم محاولة الدفاع عن معتقداته وإعادة

(١) الفصل ٥ - ١٠٥ ومن الغريب - مع هذا العرض - أن المهندس - أحمد عبد الوهاب مؤلف كتاب « أساسيات العلوم الذرية الحديثة في التراث الإسلامي » وضع ابن حزم في عداد الفلاسفة الذين يقولون بمذهب « الجزء الذي لا يتجزأ » ويورد خمسة أدلة على هذا مع أن هذه الأدلة مجرد شبه أوردها ابن حزم للرد عليها وتقنيدها (انظر الكتاب السابق ص ٢٣) .

انظر الكتاب - السابق - الطبعة الأولى مكتبة وهبة أغسطس ١٩٧٧ م .

(٢) انظر الفصل ١ - ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٧٤ ، ٢٠٥ وعشرات غيرها .

قراءة كتبه المقدسة مما يؤدي - في النهاية - إلى إيجاد حركة فكرية نشطة والتماس التفسير « المعقول للموروثات المنقولة » .

وليس بخاف أن الأندلس كانت تضم طائفة يهودية نشطة استطاعت أن تصل إلى المناصب الكبرى .

والى جانب اليهود كانت الأندلس محاطة من جهات ثلاث بالنصارى ، الذين يمثلون الخطر الأكبر على الإسلام بالإضافة إلى عدد منهم كان يعيش بين ظهراني المسلمين ، ويتمتع بكل الحقوق التي كفلها الإسلام لأهل الذمة .

ولئن كانت اجتهادات ابن حزم الظاهرية - قد أحدثت ضجة في الأوساط الإسلامية « فمن الطبيعي أن تثير ضجة كبرى بين اليهود والنصارى لاسيما أنها تتعلق « بالأصول الاعتقادية »^(١) .

ولا تخفى على باحث طبيعة الهيمنة الدينية على هذا العصر وخاصة على أوروبا النصرانية ، التي لم تتوان يوماً واحداً عن الاهتمام بالإسلام والكيد له وللمسلمين حتى أخرجتهم من أسبانيا وأرغمت الباقين منهم على التنصر وعقدت لهم محاكم التفتيش - فمن غير المستساغ عقلياً أن تتجاهل الكنيسة فكر ابن حزم الذي يدمر الثقة في كتابها المقدس ، ويرمي بالانتحال والتناقض والسذاجة الفكرية .

وليس من المقبول عقلياً أن تنجح الكنيسة - لو أرادت - في فرض حظر على فكر ابن حزم ، فإن أبا محمد كان قد بلغ شهرة كبرى عن طريق فكره الجديد ومخالفته لتيارات التقليد في عصره ولمكانته ، ومكانة أسرته السياسية والاجتماعية التي تمتعت بها ، ولاسيما أن الاتصال - كما ذكرنا - كان قوياً جداً بين أصحاب الأديان الثلاثة في شبه الجزيرة ، عن طريق التجاور والتجارة والرحلات وطلب العلم ، والأسارى ، والمستعربين والسفراء والتضامير ، والمدجنين والمرتدين^(٢) ومن المعروف أن الفيلسوف الفقيه ابن رشد كان له تأثيره الحاسم في تاريخ الفكر الأوروبي لدرجة أنه لم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت كتبه كلها قد ترجمت

(١) محمد إبراهيم الكتاني : مقال : هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي ، مجلة البنية المغربية عدد ٢ ذو الحجة ١٣٧١ هـ .

(٢) انظر د - لطفي عبدالبديع : الإسلام في أسبانيا من ٩٠ ، ٩١ وانظر المكان السابق .

إلى اللغة اللاتينية ، فنفذت بذلك الى أوروبا^(١) ولقيت مقاومة من رجال الأكليروس ، وعلى رأسهم القديس توماس الأكويني الذى اعتبر-مع ذلك-التلميذ الأول لفلسفة ابن رشد . ولم تلبث فلسفة ابن رشد بعد ذلك إلا قليلا حتى أصبحت ذات سيادة مطلقة فى كلية « بادو » بإيطاليا ، وأصبح ابن رشد المعلم الأكبر^(٢) أو المعلم الثانى .

وليس لدينا شك فى أن ابن رشد كان متأثرا فى بعض جوانب تفكيره بتفكير ابن حزم كما يظهر ذلك من كتابه فى الفقه المقارن « بداية المجتهد » .

ويحكى لنا عبد الملك المراكشى قصة غريبة لا نستطيع أن نجزم بصحتها لكنها تثبت مدى تأثر ابن رشد بابن حزم ، فيقول : نقلت من خط التاريخى المقيد أبى العباس بن على بن هارون ما نصه : أخبرنى محمد بن أبى الحسين ابن زرقون أن القاضى أبا الوليد بن رشد استعار منه كتابا ضمنه أسباب الخلاف الواقع بين أئمة الأمصار من وضع بعض فقهاء خراسان فلم يردده إليه وزاد فيه شيئا من كلام الإمامين أبى عمر بن عبد البر أبى محمد بن حزم ونسبه إلى نفسه ، وهو الكتاب المسمى ببداية المجتهد ونهاية المقتصد . قال أبو العباس بن هارون : والرجل غير معروف بالفقه وإن كان مقدما فى غير ذلك من المعارف^(٣) !!

لكن الذى يهمنا هو أن نذكر أنه من غير المعقول أن تهتم أوروبا بهذا الاهتمام الكبير بفلسفة ابن رشد التى لم تكن حادة فى الحوار مع فلسفتها المنبثقة من النصرانية ، وتجاهل فى الوقت نفسه أفكار ابن حزم التى مستها مسا حادا وقويا ومباشرا .

ولئنما التفسير المعقول هو أن الكنيسة قد قامت على دراسة ابن حزم دراسة جادة وواسعة كما تفعل عادة الأكاديميات العلمية والدينية والفلسفية لكنها رأت أن من الخطر على معتقداتها ومكائنها أن تسمح لأفكار ابن حزم بالنزول الى مستوى الدراسة الرسمية أو العامة أو الشعبية .

(١) انظر د - لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٥٥ .

(٢) انظر للمكان السابق وانظر محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة ص ٢٢ بتحقيق الدكتور إحسان عباس .

ولعله مما يقرب لنا هذا أن الكنيسة ما زالت في أوروبا إلى اليوم ، وعلى الرغم من تخصص كثير من أبنائها في الإسلاميات على نحو رفيع ، تصر على اتباع منهج تشويه الإسلام ، وتقديمه لاتباعها بصورة مغايرة تماما لحقيقته التي تعلمها - اعتقادا منها بأن تقديم الإسلام الحقيقي إنما يمثل خطرا كبيرا على مركزها في المجتمع المسيحي .

فشتان بين ما تعلمه الكنيسة عن الإسلام ، وبين ما تقدمه عن الإسلام للأوروبيين . وما يقال عن أفكار ابن رشد يقال عن أفكار تلميذ آخر لابن حزم هو محيي الدين بن عربي الحائمي الظاهري في الفروع ، الباطني في الاعتقاد والذي كان له تأثيره في الفكر الأوروبي ، وبخاصة على علمين من أعلام الأدب الأوروبي ، وهما دانتي ولوليو . فقد دل أولهما في الكوميديا الإلهية وفي الحياة الجديدة على أنه كان ملما بآراء الصوفي ابن عربي . (...) ثم إن الصور التي رسمها في الكوميديا الإلهية لتمثيل الجنة والنار وما إليها تتفق وما رسمه ابن عربي في الفتوحات المكية (..) أما لوليو فإن تأثير الإسلام فيه يتجلى في كتبه واعترافاته مثل أسماء الله المائة أو كتاب الحيوان (١) .

وقد اعترف أسين بلاسيوث - وهو القسيس المتمسك بدينه - بهذه الحقيقة وكان من قوله في ذلك : إن ابن حزم ناقش المسيحية بجميع الحجج والمناقضات التي أوردها فيما بعد باحثو القرن الثامن عشر ، وإنه كان أول محرك للمدرسة الحديثة الحرة للنقاد البروتستانتين (٢) .

وقد عرض أسين بلاسيوث في كتابه « آثار الإسلام » لبعض النظريات التي ردها المفكرون المسلمون وتبعهم فيها المدرسيون ، من ذلك النظرية التي تؤمن بضرورة الوحي ، ونظرية التوفيق بين العقل والإيمان ، فكلتاها مما رده ابن حزم وابن رشد وموسى بن ميمون وعن هؤلاء أخذها القديس توماس الأكويني والدمينيكي القطالاني رامون مارتى (٣) .

(١) دكتور لطفي عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ١٥٨ .

(٢) محمد إبراهيم الكتاني : مقال بمجلة البنية المغربية عدد ٢ .

(٣) د - لطفي عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ١٥٩ .

ويوافق بلاسيوث في رأيه - ييقين تام - المستشرق ليفى بروفنسال ، ويرى أن معرفة أوروبا المسيحية لآراء ابن حزم ضد التوراة والإنجيل لا تحتاج إلى نص تاريخي يثبت ذلك - وهذا نفسه ما أكدته المستشرق سالفرانك^(١) .

وأما دلالة الناحية التاريخية على تأثير ابن حزم في الفكر الأوروبي فيدل لذلك بالدرجة الأولى تلك النصوص المتشابهة ، بين الطوق وغيره من الكتب الأوروبية التي اعتمدت عليه ، مما ذكرنا قبل - كما يدل عليه الاتفاق في المنهج ، الذي ظهر فجأة بعد ابن حزم في مجال الجدل الديني عند المدرسين .

وقد عقد أسين بلاسيوث في الفصل ١٣ من محله الضخم عن ابن حزم مقارنة بين نصوص من كلام ابن حزم وأخرى من كلام توما الأكويني (وهو من أهل القرن الثالث عشر) . يتجلى فيها تأثير الثاني بالأول^(٢) .

وقد ظهر بعد وفاة ابن حزم بسبعين عاما كتاب لبطرس الفيزابلي - وهو رئيس دير - ينقد فيه الاسلام واليهودية ، لم يؤلفه صاحبه إلا عقب زيارة له للأندلس ، مما يجعل من اليسير استنتاج أن يكون عمله رد فعل لمنهج ابن حزم^(٣) .

ولسنا نذكر بطرس هذا إلا على سبيل المثال ، وإلا فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على أسبانيا^(٤) وعرفوا ابن حزم الذي كان فيها منذ عصر الموحدين ملء السمع .

ومن الغريب الذي يدعو للتأمل أن كثيرا من الأفكار الإصلاحية في المسيحية ، قد حذت حذو نفس الخطوات التي تشكل معالم منهج ابن حزم الإصلاحى . فمنهج ابن حزم في الاعتماد على النقل والظاهرية في الفهم هو نفسه فكرة العودة للكتاب المقدس وحده ونبذ كل ما عداه من آراء المجامع والآباء والتقاليد ، وهى الفكرة التي

(١) الكتاى: مقال فى مجلة البينة المغربية عدد ٢ .

(٢) نقلا عن الكتاى ، مقال بمجلة البينة ٢ .

(٣) انظر : أمين الحولى (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) بحث قدم لمؤتمر الأديان فى بروكسل ١٩٣٥ .

(٤) المكان السابق .

تبناها « القالديون » في القرون الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) الذين كانوا على صلة بأسبانيا الإسلامية ^(١) وفكرة الحركة التحريرية التشريعية التي قاومت التقليد واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الإسلامية - وهي الحركة التي نادى بها ابن حزم - ونفذها المنصور أبو يوسف يعقوب الموحدي ، حيث أمر برفض فروع الفقه وإلزام الفقهاء بعدم تقليد أحد من الأئمة المجتهدين وإحراق كتب الفروع .

هذه الفكرة هي نفسها الفكرة التي تبناها رجال الإصلاح في المغرب المسيحي ، وأحرقوا - باسمها - كثيراً من الآراء والمفكرين سواء على يد الرجال المقاومين للإصلاح أو على يد الداعين إليه ^(٢) .

وعندما نتبع مجالات الابداع الفكري المتعددة لدى ابن حزم - فإننا نجد أن أكثرها قد تسرب تأثيرها من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الأوروبية.

فإن المنهج الذي تناول به ابن حزم (قضايا الأديان) قد أثر في الفكر الأوروبي، فبونالد في القرن التاسع عشر قد تأثر بابن حزم في طريقة إثبات الوحي الإلهي . وتوماس الأكويني تأثر بابن حزم في نظرية عجز البشر عن طريق العقل الصريف عن الوصول إلى الحقائق الدينية التي لا بد من معرفتها لإدراك الغاية من الدين وحكمته ^(٣) .

« والاسكولا ستيون » الذين ظهوروا في أوروبا ، وكتبوا الرسائل المتداولة من القرن الثالث عشر حتى اليوم ، والمعروفة باسم « الديانة الحققة » قد اقتبسوا من ابن حزم أسلوبه في التدليل على إمكان الوحي وحقيقته التاريخية ^(٤) .

(١) انظر أمين الخولي : صلة الإسلام بإصلاح المسيحية - بحث قدم المؤتمر الأديان في بروكسل ١٩٣٥ م .

(٢) انظر بلاتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

(٣) انظر المكان السابق .

(٤) فيليب حتى : العرب تاريخ موجز ١٨٢ .

ومدرسة النقد العلمى للتوراة التى ظهرت فى القرن الثالث عشر قد أفادت من ابن حزم فى عرضه لمشكلات قصص التوراة وما تحفل به من مبالغات لا يسيغها عقل .

وأن المنهج المقارن بين أصلها العبرى فى العهد القديم والنصوص المسيحية الموجودة فى العهد الجديد قد أخذه عنه جميع بحاث القرن الثامن عشر من أمثال فولتير وبولنج بروك وغيرهم^(١) .

أما نظرية ابن حزم فى الحب المثالى التى وردت فى طوق الحمامة فقد أثرت - أيضا - فى الفكر الأوروبى .

ويوضح المستشرق « ليفى بروفنسال » فى كتابين له قضية انتقال المضمون الشعرى الأسباني إلى مرحلة الحب الشريف أو الأفلاطونى ، ودور ابن حزم فى ذلك فإن الشعر الشعبى الأسباني ، « وشعر التروبادور » الذى يرجع إلى أقدم العصور لم يكونا متجهين حتى عصر ابن حزم إلى الحب الأفلاطونى الروحى ، الذى يرادف ما كان يسميه العرب فى أسبانيا « حب المروءة » ، وإذن فكل ذلك يوحى بأن هذا التمجيد للحب الروحى الذى اصطبغت به آثار شعرية كثيرة فى العصور الوسطى قد استعادته أوروبا المسيحية من أسبانيا الإسلامية ولا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير إلى الكتاب القيم الذى صنفه أبو محمد على بن سعيد بن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وهو الموسوم بطوق الحمامة^(٢) ففى هذا الكتاب بسط ابن حزم النظرية المثالية فى العشق التى تتفق وما نستخلصه من الدراسة المقارنة لموضوعات الحب عند بعض شعراء التروبير^(٣) .

ويؤكد بروفنسال رأيه فيذكر أن حب المروءة « الحب العذرى » كما يحلله ابن حزم فى كتابه تحليلا لطيفا يطابق فى صورته شعر التروبادور من حيث إن كلا

(١) انظر محمد إبراهيم الكتانى : هل أثر ابن حزم فى الفكر المسيحى مقال بمجلة البينة العدد الثانى يونيو ١٩٦٢ م .

(٢) بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس ٢٩٠ ، ٢٩١ وفى أدب الأندلس وتاريخها ص ٤٩ .

(٣) المكان السابق .

الأدبين يقاسى فيهما المحب من التقلب والهجر وخيبة الأمل على نفس الصورة إلى غير ذلك من عوارض الحب وآلامه - التي ذكرها بروفنسال على سبيل المقارنة - مما يكاد يكون تشابها كاملا في كلا الأدبين ^(١) .

ولأنه لمن المؤكدات الواضحة على تأثير الطوق في مضامين شعر التروبادور أن النظرة التمجيدية للمرأة ، تلك التي اعتبرت بدعة مستحدثة في الشعر الأوروي - لم تظهر إلا بعد ظهور الطوق الذي حفل بتكريم المرأة أى تكريم ، ولم تنتشر إلا في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وقبل ذلك كانت المرأة في أوروبا حيوانا أو شرا لا بد منه ، ويجب أن تعامل ككائن من الدرجة الثانية ^(٢) .

وفي النتاج الفكرى الأوروي ليس من الصعب أن نلمح تأثيرات لطوق الحمامة هنا وهناك ، قبست من ابن حزم وسارت على دربه فكتاب « الحب المحمود » أو « الحب العف » الذى ألفه « خوان رويث » - ١٢٩٥ - ١٣٦٣ كاهن بلدة هيتا من مقاطعة وادى الحجارة شرق مدريد - ألفه على شكل قصيدة طويلة جاءت فى ألفى بيت - نهج نفس طريق ابن حزم فى الطوق على الرغم من الفرق الزماني بينهما . ويدعم هذا أن الأبواب ، والمضامين ، فضلا عن أصل أمه الإسلامى ، فقد كانت جارية لسيد مسلم يقيم فى مقاطعة جيان كما عاش أبوه أسيرا خمسة وعشرين عاما بين قوم يتكلمون العربية ^(٣) .

كل هذا يؤكد التأثير المباشر والقوى للطوق فى الحب المحمود .
وقد قارن « غومس » بين نصوص أربعة من الكتابين لاتدع - بتشابه ألفاظها ومضمونها - مجالا للشك فى معرفة خوان رويث لطوق الحمامة ^(٤) .

(١) أنظر كتاب محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ص ٤٩ ، ٥٠ وانظر روم لاندو : الإسلام والغرب ٢٢٩ ،

٢٤٣ وانظر الإسلام فى المغرب والأندلس ٢٩٣ وما بعدها وانظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٣١٢ .

(٢) انظر دكتور لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ١٢٢ .

(٣) انظر دكتور الطاهر أحمد مكى : مقال تأثير طوق الحمامة لابن حزم فى الأدب الأسباني مجلة آفاق عربية بغداد السنة

الثانية للعدد ١ سبتمبر ١٩٧٦ م ، وانظر ابراهيم الكتانى : مقال بمجلة البنية المغربية عدد ٢ .

(٤) د - طاهر مكى (الطوق) ص ٨ .

« وفرناندودى ريوخاس » صاحب « رواية القوادة » يعتمد اعتمادا كبيرا على الطوق كما يؤكد « غرسيه غومس » على ما أورده ابن حزم فى باب السفير فى الطوق^(١).
وقد ردد « دانتى » بعض أفكار الطوق حول وجوه القنوع بالحب كما ردد الشاعر « ماثياس » بعض هذه الوجوه أيضا^(٢).
وقد لوحظ أن هناك تشابها بين الطوق وبعض فقرات « دون كيخوت » « لسير فانتس » كما وجد تشابه بين الطوق وبين بعض مسرحيات « لويس ديفيكا » فى القرن السابع عشر الميلادى^(٣).

ومع مطلع القرن التاسع عشر بدأ يستيقظ من جديد كتاب الطوق ، منذ اكتشاف نسخته دينهارت دوزى ، وعرف بها العالم فى أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية فى جامعة ليدن ، وزاد به تعريفا حين نقل منه قصة حب ابن حزم الأولى فى كتاب عن تاريخ مسلمى أسبانيا فذاعت فى أنحاء أوروبا كلها وأعطت الكتاب شهرة واسعة لدرجة أنه لم تعد توجه لغة من اللغات الحية إلا وترجم الكتاب إليها بالإضافة إلى الدراسات والمقالات التى كتبت عنه أو دارت حوله ، حتى ليبدو الأمر فى بعض الأحيان وكأن ابن حزم ليس أكثر من مؤلف « طوق الحمامة » وبالإضافة إلى تأثير ابن حزم فى مجالى مقارنة الأديان والحب العذرى نجد تأثيره واضحا فى النظرية التى قدمها للمعرفة وهى التى تتلخص فى إثبات الإدراك الحسى وبدهيات العقل ولعل أبا بكر بن العربى على الرغم من خلافه مع ابن حزم حول الظاهرية هو الذى حملها إلى الفكر الأوروبى فإن أبا بكر قد أخذ بنظرية ابن حزم فى المعرفة ورد بها نظرية أفلاطون المنكرة للإدراك الحسى كما رد بها آراء السفسطائيين واللا أدرية^(٤) بأسلوب ابن حزم ومنهجه فى « الفصل » والتقريب لحد المنطق .

وقد حل ابن حزم أعظم مشكلة فى تاريخ نظرية المعرفة والتى تتلخص فى
السؤال :

(١) انظر بلاشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ٢٣٣ .

(٢) انظر محمد إبراهيم الكتانى : هل أثر ابن حزم فى الفكر للسبى ، مقال مجلة البيئة العدد الثانى يونيو ١٩٦٢ م .

(٣) الدكتور الطاهر مكى « مقدمة الطوق » ص ٤ .

(٤) انظر د - عمار الطالبي : أبو بكر بن العربى ورائه الكلامية ١ - ٩٧ .

كيف تكون الأحكام المبنية على الاختبار الحسى ممكنة بالبديهة وهى تلك المشكلة التى زعم مؤرخو الفلسفة أن حلها كان نتاج عبقرية الفيلسوف الألماني « كانت » المتوفى عام ١٨٠٤ م . بينما سبق ابن حزم إلى حلها منذ أكثر من سبعة قرون . فلقد أجاب ابن حزم عن المشكلة بأن جعل المعرفة التى يعتقد أننا قد عرفناها ببديهة العقل راجعة إلى الحواس فى زمن متقدم^(١) .

وابن حزم - أيضا - قبل « كانت » هو أول من قال : إن العلم بالضرورة أو بالعقل راجع إلى الحس ، وحتى المصطلح اللغوى نفسه يرجع إلى ابن حزم وليس إلى « كانت »^(٢) .

إن هذه النظرية العملية التى قننها ابن حزم ، ووضع لها الضوابط وأحسن تطبيقها فى كتاباته - كان لها تأثيرها الكبير فى العقل الإسلامى والعقل الأوروبى على السواء . وبقدر مابدأت تحتل مكانها من التفكير الإسلامى - أخذت تشق طريقها من خلال كتاب الفصل بخاصة - إلى التفكير الأوروبى الذى كان راكداً فى هذه العصور .

ويبين لنا هذا الانسياب الفيلسوف المسلم محمد إقبال بقوله : إنه لزعم خاطيء أن نحسب أن المنهج التجريبي اكتشاف أوربي . ودوهرنج يحدثنا أن مفاهيم روجر سيكون فى العلم أضبط وأوضح من مفاهيم الذى يتسمى باسمه ، وأصبح أشهر منه (فرنسيس بيكون) ومن أين تلقى روجر سيكون تدريبه العلمى ؟ لقد تلقاه عن جامعات أسبانيا الإسلامية والحقيقة هى أن القسم الخامس من كتابه « سيبوس ماجوس » الذى خصصه للبصريات (المناظرة) منسوخ علمياً من بصريات ابن الهيثم ، ولا شبهة فى أن كتابه ذاك بحملته ، متأثر تأثيراً عميقاً براء ابن حزم وأفكاره وكانت أوروبا بطيئة فى الاعتراف بالأصل الإسلامى لطريقته العلمية^(٣) .

(١) انظر د - عمر فروخ: مقال نظرية المعرفة عند ابن حزم ، مجلة الجمع العربى بدمشق مجلد ٢٣ .

(٢) انظر : د - عمر فروخ: الثقافة الإسلامية ازدهارها وأثرها ، دراسة للتعق الفكر الإسلامى العاشر بالجزائر وانظر

د - عيسو المصو: ابن حزم والغرب مقال بمجلة هنا لندن فبراير ١٩٧٣ م .

(٣) انظر تجديد الفكر الدينى ص ١٤٨ - ١٤٩ .

ويرى إقبال أيضاً أن ابن حزم سبق أوروبا ولاشك أنه أثر أيضاً حين أنكر قول الأشاعرة في الجزء الذى لا يتجزأ وهو الأمر الذى أيدته فيه علوم الرياضة الحديثة (١) .

ولإنه لجدير بنا في ختام هذه الصفحات أن نقول :
إذا كان القرنان التاسع عشر والعشرون قد شهدا ظهور جزء من تراث الاسلام وبالتالي معرفة تأثيره في بعض مفكرى أوروبا وفي بعض تيارات التجديد فيها - فإن من المؤكد كما يقول « ألفريد جيوم » بعد ما تحدث عن تراث العرب في الفلسفة والإلهيات : إنه عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوروبية فسوف نرى أن تأثير العرب في حضارة العصور الوسطى كان أجل شأنًا .. مما عرفناه حتى الآن (٢) .

ومن المؤكد أن أبا محمد على بن حزم الذى يمثل واحداً من أكبر علماء العرب والمسلمين وعرفته الإنسانية في « الإلهيات » - خلال العصر الوسيط سوف يحتل الصدارة - وهو صاحب « الأربعمائة » كتاب - في قائمة عظماء الإسلام الذين أثروا في أوروبا وحضارتها وأناروا طريق الفكر للبشرية ، وحركوا العقل الإنسانى في اتجاه المعرفة العلمية والمنهج المقارن والاجتهاد في فهم الحقائق والإقرار بها ، والإفادة منها مهما يكن مصدرها .

وهى كلها الدعائم التى اتكأ عليها العقل البشرى في حركته نحو التقدم والتحضر . وإنه لما يبشر بالخير أن فكر ابن حزم بدأ يظهر على العالم ويشق طريقه من جديد ، وقد بدأ العالم يشعر بعظمة هذا المفكر وفكره .

وكان أبرز مثل لهذه العودة - إلى جانب اكتشاف بعض تراثه - أن أسبانيا شعرت بقيمة « طريد قرطبة » العبقري ، وقررت بالتالى أن يعود ابن حزم إلى وطنه الذى بكاه دما في شعره ونثره .

(١) انظر تجديد الفكر الدينى ص ٤٥ .

(٢) انظر محمد ابراهيم الكتانى : هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحى ، مقال بمجلة البيئة المغربية عدد ٢ .

وفي عام ١٩٦٣ م قررت أسبانيا النصرانية أن يعود ابن حزم المسلم إلى موطنه قرطبة .. انه مفكر عالمي يحق له أن يعود ويحق لها أن تزدهو به !!
لقد احتفلت أسبانيا كلها - وعشرون محاضرا من شتى بقاع الأرض منهم خمسة من العرب - بعودة ابن حزم إلى قرطبة ، وحضر السفراء العرب في أسبانيا جميعا وعهدت الدولة رسميا إلى المثل الأسباني «أماديورويث أولوس» صنع تمثال^(١)
بالحجم الطبيعي للقرطبي العظيم .. وكان الرئيس الفخري لأسبوع ابن حزم هو رئيس الدولة الأسبانية نفسه «الجنرال فرانكو» .
وفي صباح يوم ١٢ مايو ١٩٦٣ م أزيح الستار عن التمثال وعزفت الموسيقى النشيد الرسمي الأسباني ، ثم نشيدا قوميا عربيا ، ثم نثرت الزهور على قدمي الغريب العائد إلى بلده ..

والتمثال يقوم على باب العطارين أو باب أشبيلية ، نفس الباب الذي كان ابن حزم يمر منه في طريقه من منية المغيرة إلى المسجد الجامع .
وفي يوم ١٥ مايو أزيح الستار عن لوحة تذكارية أقيمت في نفس موضع بيته أمام كنيسة سان لورنزو .
لقد كان الأسبوع كله ، أسبوع ابن حزم^(٢) !! كان أسبوعا خالدا ليس فقط بما تخلله من المشاهد والمظاهر الرائعة التي أعادت لقرطبة كثيرا من ذكرياتها المجيدة ..

(١) لا يقر الاسلام هذا الفن ، ولا هذا الأسلوب في التكريم ، وعن إنما نحكى الواقع (المؤلف) .
(٢) اعتمدنا في هذا الوصف على المقال الذي كتبه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بهذه المناسبة وهو أحد ممثلي مصر في أسبوع ابن حزم - والمقال المنشور في قافلة الزيت عدد ٧ بتاريخ رجب ١٣٨٣ هـ والمقال بعنوان : (مهرجان ذكرى ابن حزم بمدينة قرطبة)

ولكن أيضا بما انطوت عليه هذه المشاهد من المعاني الجليلة التي كادت تطويها وتمحوها
عصور من الإغضاء والنسيان .
ورحم الله أبا محمد بن حزم .
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين .

د - عبد الحلیم عویس
القاهرة الإسلامية في رمضان سنة ١٣٩٩ هـ



المصادر

آدم متر

- ١ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ط ٤ سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م ترجمة (محمد عبد الهادي أبو ريدق - الناشر دار الكتاب العربي بيروت) .
ابن الأبار د . إبراهيم اللبان .
- ٢ - بحث حق الفقراء في أموال الأغنياء من مجلة (التوصية الاجتماعية في الإسلام) مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١ م الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلسي المعروف بابن الأبار المتوفى عام ٦٥٩ هـ .
- ٣ - التكملة لكتاب الصلة - سلسلة من تراث الأندلس طبع السيد عزت العطار الحسيني مؤسس ومدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥ م .
- ٤ - الحلة السراء - تحقيق الدكتور حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ط ١ سنة ١٩٦٣ م .
- أبو الحسن الندوى .
- ٥ - النبي الخاتم - ﷺ - المختار الإسلامى - القاهرة ط ١ - ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- أبو عبد الرحمن عقيل الظاهري .
- ٦ - تاريخ المذهب الظاهري (الدعوة) السعودية عدد ٥١٠ - (٥ - ٧ - ١٣٩٥ هـ) .
- ٧ - التعريف بنقط العروس (الدعوة) السعودية عدد ٤٩١ .

- ٨ - حوار حافل مع شيخ الظاهريين مقال بمجلة الدعوة السعودية عدد ٤٩١ .
- ٩ - ساحة الملوك ج ١ سنة ١٩٣٤ هـ مطبعة التقدم .
- ١٠ - الظاهرية ومدلولاتها بين اللغة والإصلاح الأصولي - مجلة الدعوة السعودية ٤١٧ في ٦ - ٨ - ١٣٩٣ هـ .
- ١١ - مصادر التشريع المرفوضة عند أهل الظاهر - مجلة الدعوة السعودية عدد ٤١٩ في ٢٠ - ٨ - ١٣٩٣ هـ .
- ١٢ - نظرات لاهثة - مطابع الشهرى سنة ١٣٩١ هـ الرياض .
- أبو العيد دورو .
- ١٣ - كتب وشخصيات - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٠ م .
- أبو الوفا التفتازانى .
- ١٤ - الإنسان والكون في الإسلام « مقال » عالم الفكر ١٢ - ٣٤ - أكتوبر سنة ١٩٧٠ م .
- د - إحسان عباس
- ١٥ - ابن حزم دافع عن كروية الأرض بالعقل والدين - مقال بمجلة العربى عدد ٢٨ مارس ١٩٦١ م - الكويت .
- ١٦ - أخبار وتراجم أندلسية - نشر دار الثقافة - بيروت - ط ١ سنة ١٩٦٣ م .
- ١٧ - تاريخ الأدب الاندلسى - عصر سيادة قرطبة - ط ٢ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- أحمد أمين .
- ١٨ - ظهر الإسلام - جزء ٢ ، جزء ٣ طبعة ٣ - ١٩٦٢ م مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- ١٩ - ظهر الإسلام - ج ٣ الطبعة ٤ مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦٦ م .

دكتور أحمد شلبى

- ٢٠ - أديان الهند الكبرى - الهندوسية - الجينية - البوذية - مكتبة النهضة المصرية ط ٣ - ١٩٧٣ م .
- ٢١ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ط ٦ - ١٩٧٧ م مكتبة النهضة المصرية .
- ٢٢ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٤ مكتبة النهضة المصرية ط ٣ سنة ١٩٦٩ م .
- ٢٣ - تاريخ التربية الإسلامية ط ٥ سنة ١٩٧٧ م مكتبة النهضة المصرية .
- ٢٤ - تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام مكتبة النهضة المصرية ط ١ سنة ١٩٧٦ م .
- ٢٥ - السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى (موسوعة النظم والحضارة الإسلامية - الطبعة الثالثة ١٩٧٤) مكتبة النهضة المصرية .
- ٢٦ - المسيحية ط ٤ - ١٩٧٣ - (سلسلة مقارنة الأديان) مكتبة النهضة المصرية .
- ٢٧ - اليهودية ط ٤ - ١٩٧٤ م مكتبة النهضة المصرية - (سلسلة مقارنة الأديان) .

أحمد ضيف

- ٢٨ - بلاغة العرب فى الأندلس - الطبعة الأولى سنة ١٩٢٤ م . مطبعة مصر .

دكتور - أحمد عبد المقصود هيكى

- ٢٩ - الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة - ط ٥ سنة ١٩٧٠ م دار المعارف بمصر .

أحمد محمود صبحى

- ٣٠ - فى فلسفة التاريخ - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية (بدون تاريخ) .

أحمد مظهر العظمة

٣١ - الإسلام ونهضة الأندلس - المكتب الفني للنشر - سلسلة الثقافة الإسلامية - مايو سنة ١٩٥٩ م - شوال سنة ١٣٧٨ هـ .

الأصفهاني (أبو بكر بن محمد بن دواد)

٣٢ - الزهرة - (النصف الأول) اعتنى بنشره الدكتور لويس نيكول البوهيمي مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت سنة ١٩٣٢ م .

و (النصف الثاني) تحقيق د . إبراهيم السامرائي - د . فوزي حمودي القيس من منشورات وزارة الإعلام العراقية سنة ١٩٧٥ م سلسلة التراث .

إميليو غرسيه غومس

٣٣ - الشعر الأندلسي - بحث في تطوره وخصائصه - ترجمة - د . حسين مؤنس سلسلة الألف كتاب - نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ م .

أمين الخولي

٣٤ - صلة الإسلام بإصلاح المسيحية (بحث قدم لمؤتمر تاريخ الأديان السادس المنعقد في بروكسل من ١٦ إلى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٥) (مطبعة الأزهر) ١٩٣٩ م .

أنور الجندي

٣٥ - نوايغ الفكر الإسلامي - دار الرائد العربي - بيروت سنة ١٩٧٢ م .
الباجي (الإمام الحافظ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي) .

٣٦ - الحدود في الأصول - مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر - بيروت ط ١ سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م .

ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ) .

٣٧ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القسم الأول - المجلد الأول - القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - والقسم الأول -

المجلد الثاني مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م جامعة
قواد الأول .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)
٣٨ - كتاب الصلة - جزآن - الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

د . بدران أبو العنين بدران
٣٩ - الشريعة الإسلامية : تاريخها ونظرية الملكية والعقود - توزيع مؤسسة
شباب الجامعة - مطبعة كرموز الإسكندرية .

ابن بكار (الزبير) المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .
٤٠ - جهرة نسب قريش وأخبارها - مكتبة العروبة بالقاهرة ط ١ تحقيق محمود
محمد شاکر ج ١ سنة ١٣٨١ هـ .

جعفر ماجد

٤١ - حوليات الجامعة التونسية - مقال رسالة ابن الربيب ورد ابن حزم عدد
١٣ سنة ١٩٧٦ م .

د . جمال الدين الشيال

٤٢ - أبو بكر الطرطوشي - أعلام العرب - القاهرة - فبراير سنة ١٩٧٤ وزارة
الثقافة .

د . جودت الركابی

٤٣ - في الأدب الأندلسي - ط ٢ - دار المعارف ١٩٦٦ م .

جورجى زيدان

٤٤ - تاريخ التمدن الإسلامى - طبعة مصورة - بيروت - تعليق - د . حسين
مؤنس .

ابن حجر العسقلانى

- ٤٥ - لسان الميزان - بيروت - مؤسسة الأعلمی - طبعة مصورة .
- ابن حزم الأندلسی (أبو محمد علی بن أحمد المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) .
- ٤٦ - الإحكام فی أصول الأحكام - تحقیق أحمد شاکر - مطبعة الإمام القاهرة - ط ١ - ١٣٤٥ هـ - نسخة مقابلة علیها مطبعة الإمام - ١٣ شارع قرقول - المنشیة القلعة .
- ٤٧ - الأخلاق والسير - مجموعة الروائع الإنسانية « الیونسکو » السلسلة العربیة - اللجنة الدولية لترجمة الروائع - بيروت - سنة ١٩٦١ م .
- ٤٨ - التقريب لحد المنطق والمدخل إلیه (دار مكتبة الحياة) .
- ٤٩ - جهرة أنساب العرب - تحقیق وتعلیق عبد السلام هارون دار المعارف بمصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م - ط ١
- ٥٠ - جوامع السیرة - تحقیق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدین الأسد . مراجعة أحمد محمد شاکر « وخمس رسائل أخرى لابن حرم » دار المعارف بمصر (سلسلة تراث الإسلام) .
- ٥١ - حجة الوداع - تعلیق وتقديم ممدوح حقی - دار الیقظة العربیة للتألیف والترجمة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٦ م .
- ٥٢ - الرد علی ابن النفریلة الیهودی ورسائل أخرى - تحقیق الدكتور إحسان عباس - مطبعة دار العروبة - القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
- ٥٣ - رسائل ابن حزم الأندلسی - تحقیق الدكتور إحسان رشید عباس مكتبة الخانجی بمصر - ومكتبة المثنی ببغداد .
- ٥٤ - رسائل ابن حزم فی أمهات الخلفاء - تحقیق الدكتور صلاح الدین المنجد - مجلة المجمع العلمی العربی - مجلد ٣٤ ج ٢ سنة ١٩٥٩ م .
- ٥٥ - رسالة فی المفاضلة بین الصحابة - تحقیق سعید الأفغانی - الطبعة الثانية - دار الفكر - ١٩٦٩ م - ١٣٨٩ هـ .
- ٥٦ - الفصل فی الملل والأهواء والنحل (خمسة اجزاء) طبع مكتبة المثنی ببغداد ومؤسسة الخانجی بالقاهرة .
- ٥٧ - فضائل الأندلس وأهلها - دار الكتاب الجدید ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

- ابن حزم وابن سعيد والشقندى - نشر وتقديم الدكتور صلاح الدين المنجد .
- ٥٨ - الملعى (فى شرح المحلى) طبع القاهرة ١٩٧٢ م (١٣ جزءاً) (مكتبة الجمهورية) بتصحيح زيدان أبو المكارم وحسن زيدان .
- ٥٩ - مراتب الإجماع فى العبادات والمعاملات والاعتقادات - نشر مكتبة المقدس - القاهرة - ١٣٥٧ هـ .
- ٦٠ - ملخص إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل - تحقيق سعيد الأفغانى - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
- ٦١ - نقط العروس فى تواريخ الخلفاء - مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - ديسمبر ١٩٥١ م . المجلد ١٣ الجزء الثانى .
د . حسين مؤنس
- ٦٢ - التاريخ والمؤرخون - مقال بمجلة عالم الفكر - المجلد الخامس العدد الأول - أبريل ١٩٧٤م - الكويت .
- ٦٣ - الحكومة الإسبانية والهيئات العلمية العربية والأوروبية تحتفل بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن حزم (٢٠ عالماً منهم ٥ عرب و ١٥ أوروبياً يحاضرون فى أسبوع ابن حزم بمدينة قرطبة) .
مقال بمجلة العربى ٥٧ (أغسطس ١٩٦٣ م ص ٢٠)
- ٦٤ - شيوخ العصر فى الأندلس - الدار المصرية للتأليف والترجمة (ديسمبر ١٩٦٥ م) .
- ٦٥ - فجر الأندلس - طبعة أولى - القاهرة ١٩٥٩ الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر .
- ٦٦ - قرطبة درة مدن أوروبا فى العصور الوسطى . مجلة العربى عدد ٩٥ أكتوبر سنة ١٩٦٦ م .
حمد الجاسر .
- ٦٧ - ديوان ابن حزم - مقال بمجلة الدعوة السعودية ج ٢ السنة الثامنة شعبان سنة ١٣٩٨ هـ سنة ١٩٧٣ م .

٦٨ - نظرة في كتاب جمهرة أنساب العرب . مقال بمجلة المجمع العلمي العربي
مجلد ٢٥ مطبعة دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ بتحقيق المستشرق ليفي
بروفنسال .

الحميدى

(أبو عبد الله بن نصر فتوح بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ)
٦٩ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - الدار المصرية للتأليف والترجمة
سنة ١٩٦٦ م .

الحميرى

(أبو عبد الله عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة ٨٦٦ هـ)
٧٠ - صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المعطار في خير الأقطار
سنة ١٩٣٧ م . عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق جواشيه ليفي بروفنسال .
٧١ - المقتبس من أبناء أهل الأندلس - حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود
على مكى - دار الكتاب العربى - بيروت ١٣٩٣ هـ سنة ١٩٧٣ م .

ابن خاقان « الفتح بن خاقان »

٧٢ - أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض - ج ١ - طبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م - تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
٧٣ - قلائد العقيان في محاسن الأعيان - مصورة عن طبعة باريس المكتبة
العتيقة - تونس ١٩٦٦ م .

الحشنى (أبو عبد الله حارث بن أسد القيروانى الحشنى المتوفى سنة ٣٦١ هـ) .
٧٤ - قضاة قرطبة - المكتبة الاندلسية - الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة
سنة ١٩٦٦ م

خلدون على الوهاى

٧٥ - مصادر وتراجم الأدباء العرب - الجزء الأول - بدءاً من سنة ١٩٥٦ م
والخامس سنة ١٩٧٢ م . الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ومطبعة
النعمان ببغداد .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ)

٧٦ - تاريخ ابن خلدون (العبر) ج ٦ مؤسسة الأعلمي للطبوعات بيروت لبنان - ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م - ط ١ ، ج ٦ - طبعة بولاق .

٧٧ - مقدمة ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني بيروت - المجلد الأول من تاريخ العلامة ابن خلدون - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧ م .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، ٦٠٨ - ٦٨١ هـ) .

٧٨ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق إحسان عباس المجلد الثالث - دار الثقافة - بيروت - فبراير ١٩٧٠ م .

خليفة بن خياط

٧٩ - تاريخ خليفة بن خياط - رواية بقي بن مخلد ، القسمان ط ١ ، ٢ سنة ١٩٦٧ سنة ١٩٦٨ م . تحقيق سهيل زكا - وزارة الثقافة سوريا .

ابن خير (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ سنة ١١٧٩ م) .

٨٠ - فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف - بتحقيق الشيخ فرنشكة قدارة زبدین وتلميذه خلیان ربارة طرغوة - الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣ م .

ابن دحية (أبو طالب عمر بن حسن المتوفى سنة ٦٣٣ هـ) .

٨١ - المطرب من أشعار أهل المغرب - تحقيق إبراهيم الإياري والدكتور حامد عبد المجيد - مراجعة الدكتور طه حسين - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٥٥ م .

ابن الدلائى (أحمد بن عمر بن أنس العلوى بن الدلائى) .

٨٢ - نصوص عن الأندلس - طبعة مدريد - سنة ١٩٦٥ م تحقيق عبد العزيز الأهواني .

ديلاس أوليري

٨٣ - الفكر العربي ومكانه في التاريخ - ترجمة الدكتور تمام حسان مراجعة الدكتور مصطفى حلمي .

رئيف خوري

٨٤ - حول كتاب الأخلاق والسير لابن حزم مجلة الأديب ج ١١ س ٢ سنة ١٩٤٣ م . بيروت .

روزنتال (فرانز)

٨٥ - علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي مراجعة محمد توفيق حسين نشر مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦٣ م .

ابن رشد (الإمام القاضي أبو الوليد بن رشد الحفيد) .

٨٦ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد - راجعه وصححه الأستاذ عبد الحلیم محمد عبد الحلیم وعبد الرحمن حسين محمود - دار الكتب الحديثه ج ١ سنة ١٩٧٥ م .

روم لاندو

٨٧ - الإسلام والغرب - ترجمة منير بعلبكي - طبعة دار العلم للملايين بيروت ط ١ سنة ١٩٦٢ م .

الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي) .

٨٨ - تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - تحقيق وتعليق محمد ماضور تونس المكتبة العتيقة ط ٢ سنة ١٩٦٦ م .

د . زكريا إبراهيم

٨٩ - ابن حزم الأندلسي - سلسلة أعلام العرب - الدار المصرية للتأليف والترجمة .

زكى مبارك

- ٩٠ - النثر الفنى فى القرن الرابع - دار الجبل - بيروت سنة ١٩٧٥ ج ٢
ابن زيدون « أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون » .
٩١ - ديوان ابن زيدون ومعه رسائله وأخباره - شرح وتحقيق محمد سيد
كيلانى الطبعة الثانية - طبع مصطفى البائى الحلبى ١٩٥٦ م

- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكى ت ٧٧١ هـ)
٩٢ - طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق محمود محمد الطناحى - وعبد الفتاح
محمد الحلو ط ١ عيسى البائى الحلبى سنة ١٩٦٥ م .
٩٣ - قاعدة فى الجرح والتعديل (مسيلة من طبقات السبكى) تحقيق عبد
الفتاح أبو غدة مكتبة المطبوعات الاسلامية حلب ط ١ سنة ١٩٦٨ م .
السخاوى (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى
سنة ٩٠٢ هـ) .

- ٩٤ - الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ - مكتبة المثنى ببغداد حققه فرانز
روزنتال - ترجمة التعليقات والمقدمة وأشرف على نشر النص د . صالح
العللى .

ابن سعيد

- ٩٥ - المغرب فى حلى المغرب ج ١ تحقيق الدكتور شوق ضيف ط ٢ دار
المعارف مصر سنة ١٩٦٤ م .

سعيد الأفغانى

- ٩٦ - ابن حزم فى سير النبلاء - مجلة المجمع العربى - المجلد ١٦ ج ١٩ -
رمضان ١٣٦٠ هـ .
٩٧ - نظرات فى اللغة عند ابن حزم الأندلسى - طبعة ثانية سنة
١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م . دار الفكر - بيروت .

السويدى (أبو الفوز محمد أمين البغدادى الشهير بالسويدى) .

٩٨ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - طبعة المكتبة التجارية الكبرى
بمصر .

صاعد بن أحمد الأندلسي

(القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) .

٩٩ - طبقات الأمم - مطبعة التقدم - شارع محمد علي بمصر .

صلاح الدين خليل (صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي) .

١٠٠ - الوافي بالوفيات ج ٦ باعتناء - س - ديدرينغ - دار النشر فرايز شتاينر
بعشيارن سنة ١٩٧٢ م .

د . صلاح الدين المنجد

١٠١ - نقد جوامع السيرة - تحقيق الدكتورين إحسان عباس وناصر الدين الأسد
مجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد الثاني ج ١ شوال ١٣٧٥ هـ مايو
١٩٥٦ م .

الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) .

١٠٢ - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس - دار الكتب العربي مصر
١٩٦٧ م .

د . الطاهر مكي

١٠٣ - ابن حزم الأندلسي وطوق الحمامة في الألفة والألاف دار المعارف مصر
ط ١ يوليو سنة ١٩٧٥ م .

١٠٤ - تأثير طوق الحمامة في الأدب العالمي - مقال بمجلة آفاق عربية السنة
الثانية - عدد ١ سبتمبر سنة ١٩٧٦ - بغداد .

١٠٥ - دارسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة - مكتبة وهبة القاهرة -
ط ١ سنة ١٣٩٦ هـ سنة ١٩٧٦ م .

د - طه الحاجري .

١٠٦ - ابن حزم صورة أندلسية - طبع ونشر دار الفكر العربي .

- الطبرى (أبو جعفر الطبرى) .
- ١٠٧ - تاريخ الأمم والملوك - طبعة دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، بيروت - طبعة مصورة .
- د . طه حسين .
- ١٠٨ - ألوان - ط ٣ دار المعارف بمصر .
- عباس محمود العقاد .
- ١٠٩ - التفكير فريضة إسلامية - دار الكتاب العربى بيروت لبنان سنة ١٩٦٩ م . ط ٢ .
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٧٣ هـ) .
- ١١٠ - الاستذكار لمذاهب فقهائ الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معالى رأى والآثار - ج ١ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧١ م .
- ١١١ - القصد والأثم - نشر مكتبة المقدس - مطبعة السعادة سنة ١٣٥٠ هـ عبد الحميد سامى البيومى .
- ١١٢ - ابن حزم الأندلسى (مقال بمجلة الأزهر مجلد ١٢) .
- عبد الحميد صديقى .
- ١١٣ - تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادى - الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ) .
- د . عبد الرحمن بدوى .
- ١١٤ - التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية - دراسات لكبار المستشرقين - الطبعة الثالثة - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٥ م .
- د . عبد الرحمن على الحجى .
- ١١٥ - أندلسيات - المجموعة الأولى والثانية - دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

١١٦ - التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة دار القلم - بيروت - الكويت ط ١ سنة ١٩٧٦ م .

د . عبد العاطي عبد العال .

١١٧ - ابن سيدة واثاره العلمية - رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، يونيو سنة ١٩٥٤ ، م .

د . عبد العزيز سالم .

١١٨ - دائرة معارف الشعب - مادة قرطبة - كتاب الشعب ١١ - ٢ سنة ١٩٥٩ م .

د . عبد العزيز عبد الله .

١١٩ - مدخل لموسوعة المغرب العربي - معجم الإعلام البشرية والحضارية ، مجلة اللسان العربي - المجلد السابع ج ١ - يناير سنة ١٩٧٠ .

عبد العزيز الراجحي (الشيخ عبد العزيز عبد الله الراجحي) .

١٢٠ - التقليد وما يتعلق به من أحكام المفتي والمستفتي - رسالة ماجستير من معهد القضاء العالي ١٣٩٢ هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

د . عبد الكريم خليفة

١٢١ - ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه - الدار العربية للطباعة والنشر بيروت .
١٢٢ - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين دار الثقافة - بيروت ط ١ سنة ١٩٦٢ م .

عبد الله بن عبد الله الزايد .

١٢٣ - ابن حزم الأصولي ، رسالة دكتوراه - كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر سنة ١٩٧٤ م .

د - عبد الله عبد المحسن التركي .

١٢٤ - أسباب اختلاف الفقهاء - ط ١ سنة ١٣٩٤ هـ - سنة ١٩٧٤ م مطبعة السعادة .

١٢٥ - أصول مذهب الإمام أحمد (دراسة أصولية مقارنة) ط ١ - ١٩٧٤
مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٤ م .

د . عبد الله على علام .

١٢٦ - الدولة الموحدة بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي - دار المعارف بمصر
سنة ١٩٢١ م .

عثمان الكعك .

١٢٧ - بلاغة العرب في الجزائر - نشر مكتبة العرب بتونس .

١٢٨ - مراكز الثقافة في المغرب - من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع
عشر - طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٨ م .

على أدهم

١٢٩ - تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري - مقال بمجلة الهلال ذو
القعدة سنة ١٣٩٥ هـ - ديسمبر سنة ١٩٦٥ م .

١٣٠ - المعتمد بن عباد سلسلة أعلام العرب - وزارة الثقافة والإرشاد
القومي - مكتبة مصر سنة ١٩٦٢ م .

على بركات

١٣١ - رواد السيرة الذاتية - مجلة العربي - أغسطس ١٩٧٢ عدد ١٦٥ .

د . على حبيبة .

١٣٢ - مع المسلمين في الأندلس - دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة بمكة
ط ٢ سنة ١٩٧٢ م .

على بن ظافرازدي (ولد سنة ٥٦٧ هـ) .

١٣٣ - بدائع البدائ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة سبتمبر سنة ١٩٧٠ م .

د . على عبد الواحد وافي .

١٣٤ - عبقریات ابن خلدون سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

دار عالم الكتب للطبع والنشر - القاهرة .

عمر رضا كحالة .

١٣٥ - معجم قبائل العرب ع طبع دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٦٨ م .

د - عمر فروخ

١٣٦ - تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون - بيروت - ١٣٨٦ هـ سنة

١٩٦٦ م . دار العلم للملايين .

١٣٧ - نظرية المعرفة عند ابن حزم - مجلة المجمع العلمى العربى دمشق مجلد

٢٣ .

د - عمار طالبى

١٣٨ - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ونقده الفلسفة اليونانية مع تحقيق

العواصم من القواصم - (جزآن) الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع - الجزائر سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني)

١٣٩ - عنوان الدارسة فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية تحقيق

رابح بونار - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٠ م .

الغزالى (الإمام الغزالى أبو حامد)

١٤٠ - الرد الجميل على من حرفوا الأنجيل - تحقيق وتقديم وتعليق الأب روبر

شدياق - طبع مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ، سنة ١٣٩٤ هـ سنة

١٩٧٤ م .

غوستاف لوبون

١٤١ - حضارة العرب ترجمة عادل زعير - طبعة عيسى البالى الحلبي سنة

١٩٦٩ م .

أبو الفدا (الحافظ بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) .

١٤٢ - البداية والنهاية ج ١١ ط ١ سنة ١٩٦٦ م مكتبة المعارف - بيروت مكتبة

النصر - الرياض .

ابن الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى .
١٤٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ج ٣ - طبع المكتب التجارى؛
للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت (بدون تاريخ) .

د . فيليب حتى .
١٤٤ - العرب تاريخ موجز - دار العلم للملايين - بيروت ط ٤ سنة ١٩٦٨

القفطى
(جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى)
١٤٥ - تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزنى المسمى المنتخبات الملتقطات من
كتاب أخبار العلماء وأخبار الحكماء - بغداد - مكتبة المثنى طبعة مصورة

القلقشندى (أبو العباس المتوفى سنة ٨٢١ هـ) .
١٤٦ - قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ط ١ مطبعة السعادة
تحقيق إبراهيم الإييارى ١٣٨٣ هـ .
١٤٧ - نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الإييارى الشركة
العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ط . سنة ١٩٥٩ م .

كارل بروكلمان
١٤٨ - تاريخ الشعوب الإسلامية - ط ٦ فبراير سنة ١٩٧٤ دار العلم
للملايين ، بيروت .

لطفى عبد البديع .
١٤٩ - الإسلام فى أسبانيا - نشر مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثانية سنة
١٩٦٩ م .

لويس جوتشلك
١٥٠ - كيف نفهم التاريخ : طبع بيروت ١٩٧٤ م .

ليفى بروفنسال
١٥١ - أدب الأندلس وتاريخها - ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة - مراجعة عبد

الحميد العبادى بك - المطبعة الأميرية سنة ١٩٥١ م . مطبوعات كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

١٥٢ - الإسلام في المغرب والأندلس - ترجمة د . السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - مراجعة د - لطفى عبد البديع مكتبة نهضة مصر ومطبعها سنة ١٩٥٦ م .

مبروك العوادى

١٥٣ - ابن حزم الظاهري الأندلسي ونشأة المذهب الظاهري - مقال بمجلة الأصالة الجزائرية السنة الرابعة عدد ٢٥ مايو ١٩٧٥ م .

محمد إبراهيم الكتاني

١٥٤ - حول كتاب المورد الأحلى في اختصار المحلى وكتاب القدر المحلى في إكمال المحلى لابن خليل مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الرابع الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٨ م .

١٥٥ - شذرات من كتاب السياسية مقال بمجلة قطوان عدد ٥ - ١٩٦٠ م

١٥٦ - فصل في الأسانيد الدائرة المتكررة مجلة معهد المخطوطات جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٨ م .

١٥٧ - مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه مجلة الثقافة المغربية الرباط العدد الأول من السنة الأولى شوال ذو القعدة سنة ١٣٨٩ هـ .

١٥٨ - هل أثر ابن حزم في الفكر المسيحي ؟ مجلة البينة عدد ٣ ذو الحجة سنة ١٣٨١ هـ يونيو سنة ١٩٦٢ م السنة الأولى .

محمد أبو زهرة .

١٥٩ - مناسبة الذكرى المتوية التاسعة لوفاة العلامة الأندلسي « ابن حزم » الفقيه الذى عالج الحب فى رسالته الشهيرة « طوق الحمامة » العربى - أغسطس ١٩٦٣ م عدد ٥٧ .

محمد إقبال

- ١٦٠ - تجديد التفكير الدينى فى الإسلام - ترجمة عباس محمود طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٥ م .
- محمد ثابت الفندى ، وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس وأحمد الشناوى .
- ١٦١ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة ابن حزم محمد حسن آل يس
- ١٦٢ - الإمامة - منشورات دار مكتبة الحياة ط ١ بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- محمد رشيد رضا .
- ١٦٣ - مجلة المنار ج ٨ مجلد ١٦ القاهرة .
- محمد الرشيد ملين .
- ١٦٤ - عصر المنصور الموحدى الحياة السياسية والفكرية والدينية فى المغرب من سنة ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ مطبعة الشمال الإفريقى (بدون تاريخ)
- محمد رضوان الداية
- ١٦٥ - تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس - دار الأنوار - بيروت ط ١ سنة ١٣٨٨ هـ - سنة ١٩٦٨ م .
- محمد رواس قلعبى .
- ١٦٦ - ابن حزم فى المظى حضارة الإسلام - رجب سنة ١٣٨٦ هـ عدد ٥ وشعبان عدد ٦ .
- د . محمد سليم العوا .
- ١٦٧ - النظام السياسى للدولة الإسلامية - المكتب المصرى الحديث سبتمبر سنة ١٩٧٥ م ط ١ .
- د - محمد ضياء الدين الرئيس .
- ١٦٨ - النظريات السياسية الإسلامية - دار المعارف بمصر ط ٤ سنة ١٩٦٧ م .
- د . محمد عبد الجواد محمد .
- ١٦٩ - ملكية الأراضى فى الإسلام تحديد الملكية والتأميم - الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية - جلال رمزى وشركاه .

- محمد عبد الغنى حسن .
- ١٧٠ - التراجم والسير (فنون الأدب العربى ، الفن القصصى) دار المعارف
بمصر ط ٢ سنة ١٩٦٩ م .
- ١٧١ - علم التاريخ عند العرب - مؤسسة المطبوعات الحديثة مارس سنة ١٩٦١
محمد عبد الله عنان .
- ١٧٢ - ابن حزم الفيلسوف الأندلسى الذى أرخ لجمع الطوائف ، العربى ٦٨
(يوليو سنة ١٩٦٤ م) .
- ١٧٣ - ابن خلدون - حياته وتراثه الفكرى - الطبعة الثالثة - مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٧٤ - تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - الطبعة الثانية ١٩٧٠ مكتبة الخانجي -
بالقاهرة .
- ١٧٥ - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرباطى وهو العصر الثانى من
كتاب دولة الإسلام فى الأندلس - الطبعة الثانية - الناشر مكتبة الخانجي
بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- ١٧٦ - دول الطوائف - مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٠ القاهرة .
- ١٧٧ - دولة الاسلام فى الأندلس - العصر الأول - القسم الأول والثانى الطبعة
الرابعة سنة ١٩٦٩ م الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- ١٧٨ - الدولة العامرية - ط ١ - مطبعة مصر سنة ١٩٥٨ م .
- ١٧٩ - مهرجان ذكرى ابن حزم بمدينة قرطبة - مجلة قافلة الزيت عدد ٧ مجلد
١١ رجب سنة ١٣٨٣ هـ .

- محمد عبد الوهاب خلاف .
- ١٨٠ - غرناطة فى عهد ملوك بنى زيرى - رسالة ماجستير - كلية الآداب -
جامعة عين شمس ١٩٧١ م .

- محمد عزة دروزة .
- ١٨١ - سيرة الرسول ، صورة مقتبسة من القرآن الكريم - طبعة ثانية (عيسى
الخلبى) ج ١ - ج ٢ .

د . محمد فاروق النيهان .

١٨٢ - الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ط ١ سنة ١٩٧٠ م .

١٨٣ - نظام الحكم في الإسلام - مطبوعات جامعة الكويت سنة ١٩٧٤ م
محمد فتحي عثمان .

١٧٤ - آراء من تراث الفكر الإسلامي - الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع ط ٢ سنة ١٩٦٩ م .

محمد كرد علي .

١٨٥ - كنوز الأجداد - تصحيح وفهرست صلاح الدين المنجد - الترقى بدمشق سنة ١٩٥٠ م

محمد المنتصر الكتاني

١٨٦ - معجم فقه ابن حزم الظاهري - المجلدان الأول والثاني - لجنة موسوعة الفقه الإسلامي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق مارس ١٩٦٦ م . ذو القعدة سنة ١٣٨٥ هـ .

محمد هشام الأيوبي .

١٨٧ - أسباب الإلحاد عند ابن حزم - مقال بمجلة الاعتصام المغربية العدد رقم ٣ (صفر سنة ١٣٩٦ هـ)

د . محمود أبو السعود

١٨٨ - الاقتصاد في المذهبية الإسلامية - مجلة المسلم المعاصر البيروتية عدد شوال سنة ١٣٩٦ هـ .

المراكشي (ابن عذارى المراكشي) .

١٨٩ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - المكتبة الأندلسية الجزءان الثاني والثالث - تحقيق ومراجعة ح . س كولان ليفي بروفنسال نشر دار الثقافة - بيروت لبنان .

المراكشي (أبو عبد الرحمن محمد بن محمد عبد الملك المراكشي) .

١٩٠ - الدليل والتكملة لكتاى الوصول والصلة - السفر السادس تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ط ١ سنة ١٩٧٣ م .

المراكشى (عبد الواحد المراكشى) .
١٩١ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب - تحقيق المرحوم سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

د . مصطفى الشكعة .
١٩٢ - مناهج التأليف عند العلماء العرب - قسم الأدب ط ٢ يناير سنة ١٩٧٤ م دار العلم للملايين - بيروت .

د . مصطفى محمد حسانين
١٩٣ - المدخل إلى المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع - مطبعة الكيلانى القاهرة ١٩٧٥ م الطبعة الأولى .

المغبرى (عبد الرحمن بن حمد بن زيد)
١٩٤ - المنتخب ط ٢ المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - دمشق سنة ١٩٦٥ م .

المقرى (أحمد بن محمد المقرى التلمسانى المتوفى سنة ١٠٤١ م)
١٩٥ - نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ج ٢ ، ج ٣ تحقيق محى الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربى - بيروت .

١٩٦ - المقرئى (تقى الدين أحمد بن على) إمتاع الأصماع محمود محمد شاکر ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى)
١٩٧ - تاريخ قضاة الأندلس - وسماء كتاب المرتبة العليا فىمن يستحق القضاء والفتيا - المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، (بدون تاريخ) .

ابن هشام .

١٩٨ - سيرة ابن هشام - بتحقيق مصطفى السقا وآخرين .

د . وديعة طه نجم

١٩٩ - العلاقات بين العلماء في العصر العباسي - مقال - عالم الفكر الكويت ،

عدد ١ م ١ أبريل سنة ١٩٧٠ م .

ويدجيري (البان ج ويدجيري) .

٢٠٠ - المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي ترجمة زوقان

قرقوط - دار القلم - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ .

ياقوت الحموي (الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله

الحموي الرومي البغدادي) .

٢٠١ - معجم البلدان - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت .

٢٠٢ - المختضب من جهرة النسب - من منشورات مجمع البحوث العلمية -

باكستان سنة ١٩٧٢ م .

يعقوب زكي

٢٠٣ - ديوان ابن شهيد الأندلسي - مراجعة الدكتور محمود علي مكى دار

الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة .

يوسف الشارونى

٢٠٤ - طوق الحمامة - مقال بمجلة المجلة عدد ١٠٢ يونيو سنة ١٩٦٥ م

يوسف القرضاوى

٢٠٥ - فقه الزكاة - دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة

الجزءان الأول والثانى طبع دار الإرشاد بيروت ط ١ سنة ١٩٦٩ م

١٣٨٩ هـ .

٢٠٦ - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام - الدار العربية للطباعة والنشر -

لبنان - الناشر مكتبة الأقصى ، عمان سنة ١٩٦٦ م .

يوهان فك

٢٠٧ - العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب - ترجمة الدكتور عبد
الحليم النجار - طبع مكتبة دار الكتاب العربى سنة ١٩٥١ - القاهرة -
نشر مكتبة الخانجي - مصر .



المخطوطات

ابن حزم الأندلسي

(١) الجامع .

(ب) جمل من التاريخ .

- ١ - رسائل ابن حزم - مخطوطات شهيد على ٢٠٧٠٤ (استنبول)
- ٢ - رسالة الأصول والفروع - مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ (مضمنة في الفصل) (وتقع في ٩٢ ورقة) .
- ٣ - رسالة عن حكم من قال : إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين - المخطوطة ٥ ورقات ونصف من ٢٣١ إلى ٢٣٧ (شهيد على ٢٧٠٤)
- ٤ - رسالة في الإمامة - مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ (٢٢٧ ورقة)
- ٥ - رسالة في الأمهات (٦٨٢ تاريخ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .
- ٦ - رسالة في مسألة الكلب - المخطوطة أربع ورقات من ورقة ٢٧١ إلى ٢٧٤ - مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ - عدد الأوراق ٢٦٤ تاريخ النسخ ٩٦٩٠ بخط نسخ كبير .
- ٧ - مخطوطة ابن حزم في قواعد أصول الفقه - آخر المجلد الثاني من كتابه الإحكام في أصول الأحكام الموجودة ضمن محفوظات مكتبة ابن يوسف بمدينة مراكش .

أبو طالب عقيل بن عطية القضاعي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ

- ٨ - تحرير العقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمال ر في الرد على الحافظ الحميدى وشيخه ابن حزم) ، مخطوط الخزينة العامة بالرباط

١٠٩ ق - ١٨٧ - ٤٢ نسخة ، بقلم أندلسى صغير بخط محمد بن عبد الرحمن بن يحيى فى ٥٦ ورقة .

الحميدى (أبو عبد الله محمد بن نصر فتوح بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ) .

٩ - تفسير غريب ما فى الصحيحين : البخارى ومسلم - المكتبة التيمورية ٤٥ - لغة ٣٦١ صفحة .

مؤلف مجهول :

١٠ - كتاب فى ذكر بلاد الأندلس - بالخزانة الملكية بالرباط - المغرب رقم

٥٥٨ .

(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بخط مغربى واضح) .

فهرس الكتاب

المقدمة	٧
---------------	---

الباب الأول

ابن حزم وعصره

الفصل الأول :

قرطبة في عصر ابن حزم	١٩
أولا : الحالة السياسية	١٩
ثانيا : الحالة الاقتصادية	٢٨
ثالثا : الحالة الثقافية	٣٤
رابعا : الحالة الاجتماعية	٤٣

الفصل الثاني :

حياة ابن حزم وثقافته	٥١
أسرته	٥١
نشأته وتكوينه	٥٨
تربيته الأولى	٦١
النكبات العائلية والسياسية	٦٣
شيوخه ودراساته	٦٦

٦٨	وظائفه في الدولة
٧١	رحلاته
٧٦	معاصروه
٨٠	أخلاقه
٨٢	وفاته

الفصل الثالث :

٨٥	منهج ابن حزم الفكري
٨٥	أولا : ظاهرة ابن حزم وأسبابها
٩٦	ثانيا : منهج ابن حزم في العلوم العربية والفلسفية
١٠٨	ثالثا : مؤلفات ابن حزم
١٠٨	كثرة مؤلفاته
١١٠	رسائل ابن حزم المفقودة
١١٤	مؤلفات ابن حزم الموجودة

الباب الثاني

ابن حزم المؤرخ

الفصل الأول :

١٢٣	قضايا الفكر التاريخي
١٢٣	مدلول التاريخ عند ابن حزم
١٢٩	رتبة التاريخ عند ابن حزم
١٣١	العوامل المؤثرة في التاريخ
١٣٩	أسلوب ابن حزم في معالجة التاريخ

الفصل الثاني :

رقم الصفحة

١٤٥	مقدمة في روافد ثقافة ابن حزم التاريخية.....
١٤٦	(أ) المصادر العامة.....
١٥٢	(ب) المصادر التاريخية المباشرة.....
.....	منهج ابن حزم في البحث التاريخي.....
١٥٩	١ - مقدمة.....
١٦٠	٢ - تطبيق منهج الظاهرية في التاريخ.....
١٦٢	٣ - نصيب العقل في منهج ابن حزم.....
١٦٥	٤ - النقد التاريخ في منهج ابن حزم.....
١٧١	٥ - الإحصاءات والغرائب في تاريخ ابن حزم.....
١٧٢	٦ - الأحكام القاطعة في منهج ابن حزم.....
١٧٦	٧ - موضوعية ابن حزم في الميزان.....
١٨٤	مدرسة ابن حزم التاريخية.....

الفصل الثالث :

٢٠١	اتجاهات البحث التاريخي عند ابن حزم.....
٢٠٢	أولا : التراجم والطبقات.....
٢٠٦	ثانيا : الأنساب.....
٢١٤	ثالثا : السيرة الذاتية.....
٢١٩	رابعا : التاريخي الموضوعي.....
٢٢١	في السيرة النبوية.....
٢٢٧	في المشرق العربي.....
٢٣٨	في التاريخ الأندلسي.....
٢٤٨	خاتمة عن أثر ابن حزم في المغرب العربي.....

الباب الثالث

الحضارة عند ابن حزم

٢٥٧.....	الفصل الأول : الفكر السياسي عند ابن حزم
٢٥٧.....	المؤثرات في الفكر السياسي عند ابن حزم
٢٥٨.....	رأيه في مذهب الخوارج
٢٦٠.....	المفاضلة بين الصحابة
٢٧٠.....	العلاقات الدولية

٢٧٥.....	الفصل الثاني : الفكر الاقتصادي عند ابن حزم
٢٧٦.....	البواعث التاريخية لنظرية ابن حزم الاقتصادية
٢٧٧.....	ابن حزم والاشتراكية
٢٧٨.....	إضافات ابن حزم في الفكر الاقتصادي الإسلامي

٢٨٥.....	الفصل الثالث : الفكر الاجتماعي عند ابن حزم
٢٨٥.....	البنظرة الاجتماعية لابن حزم
٢٩١.....	نظرية التكافل الاجتماعي عند ابن حزم
٢٩٦.....	المرأة ومكانتها الاجتماعية عند ابن حزم
٣٠٠.....	النظرية التربوية لابن حزم
٣٠٨.....	إضافات أخرى في الفكر الاجتماعي عند ابن حزم

٣١٤.....	الفصل الرابع : العقائد والمذاهب عند ابن حزم
٣١٥.....	ابن حزم وعلم مقارنة الأديان
٣١٧.....	منهج ابن حزم في تناول العقائد والمذاهب
٣٢٢.....	الوثنيات في تاريخ ابن حزم
٣٢٧.....	اليهودية في دراسات ابن حزم
٣٣٠.....	النصرانية في دراسات ابن حزم
٣٣٤.....	الفرق الإسلامية في دراسات ابن حزم

خاتمة عن :

٣٤١	 أثر ابن حزم في الحضارة الإسلامية
٣٦٩	 أثر ابن حزم في الحضارة الإنسانية
٣٩٣	 المصادر
٤١٧	 المخطوطات

رقم الایداع : ٧١٣٣ / ٨٨

الترقيم الدولي : X - ٠٤ - ١٤٧١ - ٩٧٧



هذا الكتاب

هذا الكتاب دراسة موضوعية عن « ابن حزم الأندلسي » إحدى القمم السامقة من قمم حضارتنا في عصر تفككها السياسي ، وعظمتها الحضارية .. وإذا كانت أسبانيا النصرانية - حكومة وشعباً - قد فطنت أخيراً إلى العبقرى الفذ ابن حزم الأندلسي .. فأقامت له « أسبوعاً رسمياً » .. فمن الغريب أن يظل هذا العالم المسلم أستاذ علم الفقه المقارن ، ورائد المنهج النقدي التاريخي ، ومبتكر نظرية (الجزئ الذي يتجزأ إلى ما لا نهاية) التي سبق بها « إينشتين » ونظرية النسبية .. أجل .. من الغريب أن يظل هذا الموسوعي ذو الأربعمئة كتاب بعيداً عن التأثير في العقل الإسلامي .

وهذا الجهد العلمي الضخم الذي يشبه أن يكون (موسوعة حزمية كاملة) والذي يعرض عديداً من النظريات الإسلامية .. في الاجتماع والاقتصاد .. والتربية .. تتوج عالم القرن الخامس الهجري .. هذا الجهد يقدمه لنا الكاتب الإسلامي المعروف الدكتور عبد الحليم عويس عن ابن حزم .. بما له وما عليه .. فيطبئ فيه المنهج الإسلامي في البحث التاريخي والحضاري ، ويبين أن هذا المنهج علمي وأصيل بكل معنى العلمية والأصالة ..

